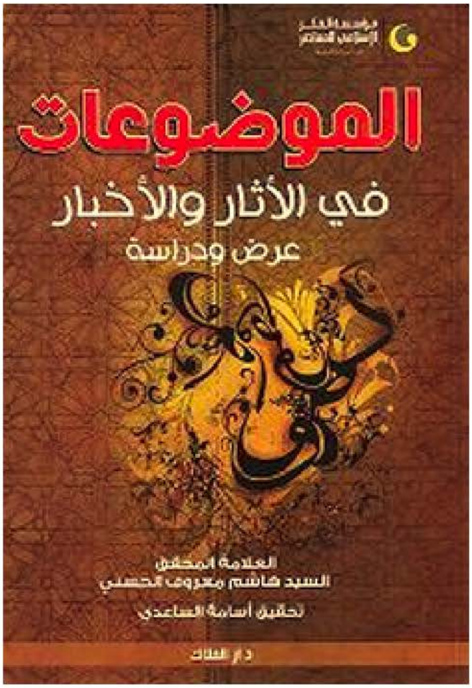

الموضوعات
في الآثار والأخبار
عرض ودراسة
العلامة المحقق
السيد هاشم معروف الحسني
تحقيق أسامة الساعدي

الموضوعات
في الآثار والأخبار
عرض ودراسة

الموضوعات في الآثار والأخبار
عرض ودراسة

العلامة المحقّق
السيد هاشم معروف الحسني رحمه الله

تحقيق
أسامة الساعدي

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ. ق / ٢٠٠٩م

قم المقدّسة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

يعدّ كتاب (الموضوعات في الآثار والأخبار) للعلامة الفقيه السيد هاشم معروف الحسني العاملي من الكتب القليلة في الوسط الشيعي التي تناولت بالنقد والتمحيص الحديثَ الشريف عند الفريقين: السنّي والشيعي على السواء. والمؤسف أنّ هذا الكتاب لم يحظَ بمكانته اللائقة به في المكتبة الإسلامية، وعلى مستوى اهتمام علماء الحديث والنقد التاريخي، وقد أظهر فيه العلامة الحسني كلّ الجرأة التي مكّنته من تخطّي جميع أشكال المجاملة الزائفة لملامسة قضايا حسّاسة في الموروث الإسلامي عامّة.

إنّنا لَنتشرّف في أن نقوم بطباعة هذا الكتاب ونشره ليكون في متناول الباحثين والعلماء، ونتوجّه بالشكر الجزيل للأخ الأستاذ أسامة الساعدي، الذي بذل جهوداً مضنية ومشكورة في تصحيح الكتاب، واستخراج مصادره، وتنظيم عناوينه الفرعية بما يليق به وبمؤلّفه الكريم، كما نشكر سماحة الشيخ حيدر حب الله على إشرافه ومتابعته لتصحيح الكتاب وإخراجه بهذه الحلّة الجديدة.

كما نشكر مركز الثقلين لتجشمه عناء إخراج الكتاب وتنظيمه ومقابلة النص ومراجعة العمل، فجزاهم الله خير الجزاء.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يأخذ هذا الكتاب طريقه في مجال نقد الحديث عند المسلمين، وأن يكون إخراجه من بحلّة جديدة عربون شكر ووفاء للفقيه الفقيد السيد معروف الحسني، تغمّده الله برحمته، وأسكنه الفسيح من جنّته، إنّه وليّ قريب.

هذه دراسة مهمة حول المشروع التجديدي الذي قام به السيد هاشم معروف الحسني رحمه الله مدرجة في كتاب (نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي) للأستاذ المحقق حيدر حب الله، ارتأينا تصدير الكتاب بها للمناسبة.

أسامة الساعدي

المساهمة الشيعية العربية في نقد السنّة
مشروع هاشم معروف الحسني

حيدر حب الله[1]

لعلّ محاولة السيد هاشم معروف الحسني العاملي (١٤٠٣)هـ في نقد السنّة المحكية هي المحاولة الوحيدة الأساسية التي عرفتها الأوساط الشيعية العربية[2]، وهي محاولة تقع في قلب المؤسسة الدينية؛ حيث كان الحسني عالماً دينياً مدرسياً، كما كان باحثاً إسلامياً أيضاً. ويعرف كلّ من يطالع مصنّفات معروف الحسني أنّه كان نقّاداً جريئاً تشبه شخصيته في هذا المجال شخصية عامليّ آخر هو الشيخ محمد جواد مغنية (١٩٧٩)م، فقد كانا نقّادَين للأوضاع الفكرية السائدة، وكانت لديهما لغة حادّة وقاسية أحياناً.

وقد كانت هذه الجرأة سبباً في تبنّيهما مواقف نقدية تخالف المألوف، وتؤلّب عليهما الأوضاع المحيطة، لكن رغم ذلك استمرّا في حركتهما هذه دون وجل أو قلق. ويبدو

---

(١) هذا الفصل مستل من كتاب نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي: ٥٤٩، وما بعدها. علماً أن هوامش هذه الدراسة هي هوامش الأستاذ حب الله في الكتاب المذكور (المحقق).

(٢) يذكر الشيخ حبيب آل إبراهيم العاملي في كتاب اليتيمة: ٥٤٠، أنّه لدى مروره ببغداد قاصداً جبل عامل عام ١٣٥٠هـ تناهى إلى سمعه أنّ جماعة من أهل العلم يقولون بلزوم ترك الحديث؛ لتفرقته المسلمين، والعودة إلى القرآن، وأنه ألقى خطاباً في رفض مقالتهم؛ مما يشير إلى وجود كلام داخل الوسط العربي العراقي آنذاك حول الموضوع.

أنّ همّ التقريب بين المذاهب الإسلامية من جهة، وحاجة الشيعة في بلاد الشام في تلك الفترة للاعتراف أكثر فأكثر بهم قوّةً تضارع بقية القوى من العوامل الأساسية التي حثّت هاشم معروف الحسني على نقد السنّة المحكية عند الشيعة؛ إذ لاحظناه يركّز ـ أكثر ما يركّز في نقده ـ على روايات الفضائل والمثالب، والكرامات والمعاجز، وهي الروايات عينها التي أوقعت أكبر الخلاف بين المسلمين في وجهات النظر.

وتشير كلمات هاشم معروف الحسني إلى أنّ حركةً شيعية في زمانه ـ يبدو [أنها] في الستينات والسبعينات من القرن العشرين ـ كانت قد أخذت بالتبلور في المنطقة العربية، وأنّ تصميماً قد اتُّخذ لنشر بعض الكتب الشيعية ذات الطابع المذهبي الخالص؛ مما دفع بالحسني لنقد هذه الكتب نقداً عنيفاً، سيما أنه[1] أشار إلى أنّ هذه الكتب أخذت تطبع في بيروت بلد الطوائف والأديان، في إشارة واضحة لإرادته الحدّ مما من شأنه أن يُلهب الأوضاع ضدّ الشيعة في لبنان في تلك الفترة التي كانت البلاد إما تتّجه فيها نحو دخول الحرب الأهلية، أو أنّها دخلتها فعلاً وانفجر الوضع على أشدّه.

في السياق اللبناني، وفي سياق الحرب الأهلية، وفي سياق وضع الشيعة في العالم العربي أعتقد أنّه لابدّ من فهم تجربة معروف الحسني، وهي من أقدم تجارب تهذيب الحديث والدعوة إلى تصفيته.

ينطلق هاشم معروف في محاولته من مبدأ أساسي وهو مرجعية السنّة وعدم كفاية القرآن الكريم[2]، بل يقرّ بالسنّة المحكية الموجودة بين المسلمين، فهو يرى أنّ ما ألّفه السنّة والشيعة في الحديث (يمكن الاستفادة منه، والاعتماد عليه إلى أبعد الحدود، ما دام ينتهي في واقعه إلى مصدرٍ واحد، وهو الرسول الأعظمﷺ[3]، بل يزيد إلى

---

(١) في الأصل: وأنه.

(٢) المصدر نفسه: ٧، ١٢، ودراسات في الحديث والمحدّثين: ١٢ ـ ١٤.

(٣) هاشم معروف الحسني، دراسات في الحديث والمحدّثين: ٧.

الاعتقاد بأنه كان بالإمكان لو (تجرّد الباحثون إلى طلب الحقّ الاستفادة من كتب الحديث واستغلالها لخدمة الدين، سنيةً كانت أم شيعية...)[(١)].

ويقرّ الحسني بالجهود الضخمة التي بذلها المحدّثون من الطرفين، لكنه ـ مع ذلك ـ يتحسّر على عدم تحقّق الغاية المرجوّة من الجهود التي بذلت، ويرجع ذلك في رأيه إلى عاملين هما:

الأول: الانحياز واللاموضوعية في التعامل مع الأحاديث؛ حيث سقط الكثيرون في أسر النـزعات التي كانوا يميلون إليها، ولم يأخذوا بها تعطيهم إياه الأمانة العلمية عبر عرض الأحاديث على قواعد نقد السند والمتن.

الثاني: اهتمام العلماء بأخبار الأحكام دون غيرها من العقديات والتاريخيّات مع أنّها أولى بالنقد والتصفية؛ ذلك أنّها قد تكون أهمّ منها، وأكثر شمولاً، وأعمّ تأثيراً[(٢)].

ورغم نقده الشديد لمصادر الحديث الشيعي يذهب الحسني إلى أنّ المحدّثين الشيعة بذلوا جهوداً مضنيةً وجادّة لتصفية الحديث عن الموضوعات، وما دسّه المرتزقة والمنحرفون، ورغم ذكره أنّ البخاري كان أوّل سنّي ميّز صحيح الحديث عن غيره[(٣)]، لكنه كان يعتقد بأنّ الشيعة قد سبقوا البخاريّ في هذه المهمة الشاقة[(٤)]. إنه يثني على الشيعة سيما علماء مدرسة قم القدماء في وقفتهم الشجاعة ضدّ الغلوّ والدسّ والتزوير[(٥)]، فيما ينحو باللائمة على الطبقة الأولى من الصحابة بفتورها عن تدوين الحديث؛ الأمر الذي فسح المجال للدسّ والوضع برأيه[(٦)]، ممّا استغلّه الأمويون وبنوا

(١) المصدر نفسه: ٨ ـ ٩.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦ ـ ٥٧، وانظر له: الموضوعات في الآثار والأخبار: ٨٧.

(٣) الحسني، دراسات في الحديث والمحدثين: ١١٦، حيث ينقل اتفاق محدّثي السنّة على ذلك.

(٤) المصدر نفسه: ٣٠.

(٥) الحسني، الموضوعات: ٣٨ ـ ٣٩.

(٦) المصدر نفسه: ٢٢.

عليه سياستهم في جعل الحديث[١].

من هنا يبدأ الحسني رحلة النقد، يبدؤها من التعريض بحركة نقد الحديث المذهبية يريد بذلك أن يصحّح حركة نقد السنّة، وكأنّه يعرّض بأمثال الشيخ الأميني (١٩٧٠م)، حيث ركّز جهوده في معالجة موضوع الوضع والدسّ على المصادر السنّية، لينقدها في سياق مذهبي. إن معروفاً الحسني يطالب حركة نقد السنّة بالإخلاص والصراحة معاً في نقد الروايات المجعولة، رافضاً الاتّهامات المتبادلة بين الشيعة والسنّة في هذا المضمار[٢].

ويفتح الحسني بحثاً حول نشوء ظاهرة الوضع، ويختلف مع الصورة النمطية التي رسمها بعض علماء أهل السنّة، والتي تقضي بتحميل الشيعة مسؤولية وضع الأحاديث؛ إذ يرفض هذه المزعمة بشدّة، محمّلاً الأمويين مسؤولية ذلك[٣]، ومصرّحاً بأنّ القصّاصين لعبوا دوراً كبيراً في ذلك لا فرق فيهم بين الشيعة والسنّة[٤].

على أيّة حال، موضوعات الأحاديث ما زالت جاثمةً على صدر السنّة الشريفة، مليئة بها كتب الحديث؛ السنية منها والشيعية، من هنا يبدأ معروف الحسني نقده.

منهج هاشم معروف الحسني في نقد الحديث

يشرع السيد هاشم معروف الحسني في نقد الحديث وهو واثق ـ كما يقول ـ من أنّه (سوف يتعرّض لحملات قاسية من بعض حشوية الشيعة والمتاجرين بالدين)[٥]، ولعلّه

---

(١) المصدر نفسه: ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٨٥ ـ ٨٦، ولاحظ دراسات في الحديث والمحدثين: ٢٨٥.

(٣) الحسني، الموضوعات: ٩٠ ـ ١٥٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٣ ـ ١٧٦.

(٥) المصدر نفسه: ١٠.

لذلك اعتمد منهجاً، سعى فيه للتوازن، حيث لم يحاول قراءة مصادر الحديث الشيعية على حدة بالنقد والتفنيد، إنما سعى لنقد الحديث في شقّيه الشيعي والسني، وإن وجدناه في كتاب (الموضوعات) أكثر تركيزاً في نقد الروايات على المصنّفات الشيعية[١].

أمّا عن مقولة المنهج عنده في رصد الوضع، فكانت على الشكل التالي:

أولاً: أنّ صحّة السند لا تمنع من ردّ الرواية[٢].

إذن فالمعيار السندي ليس هو المعيار الوحيد، بل لابدّ من نقد المتن أيضاً، ولهذا نقد بعض الروايات رغم إقراره بصحّتها السندية؛ اتّكالاً على فكرة الدسّ والكذب عن الثقات أنفسهم. فمن أمثلة ذلك قوله: (وجاء في مختصر بصائر الدرجات عن جماعة منهم أحمد بن محمد بن خالد البرقي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر: أن علياًعليه السلام كان يقول: «**أنا صاحب الرجعات والكرّات، وصاحب الصولات والنقمات والدولات العجيبات. وأنا قرن من حديد. وأنا أسماء الله الحسنى وأمثاله العليا، وصاحب الجنة والنار، وإليّ إياب الخلق جميعاً. وأنا بارز الشمس ودابة الأرض، وأنا الذي علّمت علم المنايا والبلايا والقضايا، وفصل الخطاب والأنساب. وأنا صاحب العصا والميسم. وأنا الذي سخّرت لي السحاب والرعد والبرق، والظلم والأنوار، والجبال والبحار، والنجوم والشمس والقمر. وأنا الذي أهلكت عاداً وثمود وأصحاب الرسّ، وقروناً بين ذلك كثيراً. وأنا صاحب مدين، ومهلك فرعون، ومنجي موسى**»[٣]. إلى غير ذلك من الصفات التي وصف بها نفسه على حدّ زعم الرواة لهذه

---

(١) نقد موضوعات المثالب الشيعية في المصدر نفسه: ١٨٣ ـ ١٩٦، وموضوعات المثالب السنية في المصدر نفسه: ١٩٦ ـ ١٩٩، ونقد موضوعات الفضائل الشيعية في المصدر نفسه: ٢٠٠ ـ ٣٠٢، وموضوعات الفضائل السنية في المصدر نفسه: ٣٠٢ ـ ٣١٩، وهذا ما يؤكّد تركيزه الأكبر على المصادر الشيعية.

(٢) المصدر نفسه: ٢٩١.

(٣) مختصر بصائر الدرجات: ١٤٨ ـ ١٤٩.

الرواية، تلك الصفات التي لا تليق بغير الله سبحانه، ولا تجوز على غيره كائناً من كان. وتأويل بعضها وإن كان ممكناً، إلاّ إن البعض الآخر يأبى عن التأويل مثل قوله: «أنا بارز الشمس»، وأنا الذي أهلكت فرعون وأنجيت موسى بن عمران، و«إليّ إياب الخلق» وحسابهم، و«أنا صاحب الرجعات والكرّات»، و«الدولات العجيبات»، ونحو ذلك.

ومن الغريب أن الرواة لهذه الرواية كلّهم من الموثوقين والممدوحين إذا استثنينا أحمد بن محمد بن خالد البرقي. ومن الجائز أن تكون الرواية من جملة الموضوعات التي دسّها الوضّاعون في كتب الموثوقين من أصحاب الصادق وأبيه الباقر عليهما السلام كما تشير إلى ذلك رواية الإمام الرضا عليه السلام التي جاء فيها: «**إن أصحاب أبي الخطاب يدسّون إلى يومنا هذا في كتب أصحاب الصادق؛ فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنّا إذا حدّثنا لا نحدّث إلاّ بموافقة القرآن والسنة. إن كلام آخرنا مصدّق لكلام أوّلنا، وكلام أوّلنا مصدّق لكلام آخرنا. وإذا أتاكم من يحدّثكم بخلاف ذلك فردّوه عليه؛ فإن مع كل قول منا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة له ولا نور عليه فذلك من قول الشيطان**»[١]...)[٢].

ثانياً: لاحظنا في تطبيقات الحسني النقدية أنه يشرع غالباً بنقد المتن، فيلاحظ مدى خرافيته وأسطوريته، كما يلاحظ مدى مخالفته للقرآن الكريم، ثم ينتقل إلى السند، فيركّز في رصده لرجال السند على وجود غلاة أو كذّابين نصّ العلماء على ذلك فيهم. فهو لا يبدأ من السند ثم المتن، بل وجدناه غالباً على العكس من ذلك.

ومن نماذج ذلك تعليقه على رواية للمفضّل بن عمر بالقول: (لقد اشتملت هذه الرواية على بعض الأمور البعيدة عن منطق الإسلام وأسلوب الأئمة، وبخاصّة التعبير عن الخلفاء الثلاثة بالشياطين، هذا التعبير الذي لم يقصد منه إلاّ الإساءة إلى الإمام

---

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٤٨٩ / ٤٠١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

الصادق، وإيجاد فجوة بينه وبين من لا يؤمن بمثل هذه الأساطير، ولا يرضى بالإساءة إلى الخلفاء الثلاثة. ولم يكتفِ بكل ذلك حتى نسب إلى الإمام عليه السلام أنه يحتل عرش الربّ، ومعه المفضّل وخيثمة. في حين أن الإمام قد لعن المفضل، وحذّر أصحابه من مكره ودسائسه في أكثر من مناسبة، ووصفه بالشرك والكفر، وقلّما تخلو رواية من مروياته من الغلو في الإمام، أو المبالغة فيما يحدّث به؛ لذلك فقد عدّه المؤلّفون في الرجال من الضعفاء المتروكين، مع وجود بعض المرويات عن الإمام الصادق عليه السلام في الثناء عليه. وأقلّ ما يوجب ذلك التوقّف في أمره، والحذر من مروياته)[١].

ثالثاً: أن الضعف السندي لا يعني سقوط الرواية عن الاعتبار؛ إذ قد تحفّها قرائن خارجية وغيرها تدعم الوثوق بها، فترتفع لدرجة الصحّة[٢].

رابعاً: مبدأ ندرة وجود التواتر اللفظي في مصادر الحديث الشيعية. ويرى ذلك عقيدة أكثر المحدّثين، على خلاف التواتر المعنوي[٣].

خامساً: مبدأ وقوع الوضع من جانب بعض الشيعة على لسان أئمتهم سيما في روايات التجريح بالصحابة والخلفاء. ويرى الحسني أنّ النصوص السليمة الشيعية تنفي ثقافة السبّ واللعن بحقّ الخلفاء ورموز الصحابة. ومن هذا المنطلق يتعامل تعاملاً حذراً مع النصوص الواردة على هذه الطريقة، ويرى فيها رائحة الوضع[٤].

سادساً: مبدأ رفض أخبار قاعدة «**التسامح في أدلّة السنن**»؛ إذ يراها الحسني من صنع القصّاصين والوعّاظ، ويفسّر «**البلوغ**» فيها بالبلوغ الموجب لاطمئنان النفس بصدور الرواية، لا مطلق البلوغ[٥]. من هنا نجد الحسني متحفّظاً جداً من أيّ رواية

---

(١) المصدر نفسه: ١٨٦.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ٤٨.

(٤) راجع: المصدر نفسه: ١٨٠ ـ ١٨٢.

(٥) المصدر نفسه: ١٧٢ ـ ١٧٣.

تحاول أن تعظّم ثواباً على عمل يسير، كما نجده بالغ التحفظ من الروايات التي تدفع الإنسان للاستهانة بالعمل، سيما بعض روايات الزيارة[(١)].

ومن هذا المنطلق وجدنا له وقفات عديدة؛ فلدى تعرّضه لإحدى روايات الطينة يناقشها بمثل ذلك، يقول: «قلت: يابن رسول الله، ما صنع بطينتنا؟ قال عليه السلام: «**خلق الله أرضاً سبخة خبيثة منتنة، وفجّر منها ماء أُجاجاً مالحاً آسناً، ثم عرض عليها ولاية أمير المؤمنين فلم تقبلها، وأجرى عليها ذلك الماء سبعة أيام، ثم نضب عنها، فأخذ من كدورة ذلك الطين المنتن الخبيث، فخلق منه أئمة الكفرة والطغاة والفجرة. ثم عمد إلى بقية ذلك الطين ومزجه بطينتكم، ولو ترك ذلك الطين ولم يمزجه بطينتكم، ما عملوا أبداً عملاً صالحاً، ولا تشهّدوا الشهادتين، ولا أدّوا إلى أحد أمانته، ولا فعلوا شيئاً من الواجبات، ولا اجتنبوا شيئاً من المحرمات. ثم مزج الطينتين بالماء الأول والثاني، فما تراه من شيعتنا ومحبّينا من زنى، ولواط، وخيانة، وشرب للخمر، وترك للصلاة، وبقية الواجبات، فهي كلّها من عدوّنا الناصب وسنخه ومزاجه الذي مزج بطينته، وما تراه من الناصب من الزهد والعبادة والمواظبة على أعمال الخير والواجبات، فذلك كلّه من طينة المؤمن. فإذا عرضت الأعمال على الله سبحانه يقول الله عز وجل: أنا عدل لا أجور، ومنصف لا أظلم، وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أظلم مؤمناً بذنب مرتكب من سنخ الناصب وطينته، هذه الأعمال الصالحات كلها من طينة المؤمن، والأعمال الرديئة التي أتى بها المؤمن تلحق الناصب؛ لأنها من طينته، وكل شيء يرجع إلى أصله وجوهره**». ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ الله إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[(٢)] ...»[(٣)].

---

(١) المصدر نفسه: ١٧٣ ـ ١٧٥.

(٢) يوسف: ٢٣.

(٣) بحار الأنوار ٦٤: ١٠٥، باختلاف عنه.

ومضى الإمام ـ كما يزعم الراوي ـ يقرّب هذا المعنى، ويستدلّ عليه بآيات من القرآن في حديث طويل لا يعنينا منه أكثر من هذا المقدار، ورواه في (الكافي) أيضاً بهذا النص.

وهذه الرواية تخالف نصوص القرآن الكريم الذي حمّل كل إنسان سيئات أعماله، وفي الوقت ذاته تدل على أن جميع ما يأتيه الإنسان من خير أو شر إنما هو من لوازم الطينة التي خُلق منها، وليس له اختيار في شيء من أُموره. هذا بالإضافة إلى أن الرواة بين مجهول الحال، وبين متّهم في عقيدته، والكذب على الأئمةعليهم السلام.

وروي عن الحسن بن موسى عن أحمد بن عمر عن يحيى بن أبان عن شهاب أنه قال: سمعت أبا عبداللهعليه السلام يقول: «**لو علم الناس كيف خلق الله هذا الخلق لم يلم أحد أحداً**». فقلت: أصلحك الله، وكيف ذلك؟ قال: «**إن الله تعالى خلق أجزاء بلغ بها تسعة وأربعين جزءاً، ثم جعل الأجزاء أعشاراً، فجعل كل جزء تسعة[1] أعشار، ثم قسّمه بين الخلق، فجعله في رجل عشر جزء وفي آخر عشري جزء حتى بلغ به جزءاً تاماً، وفي آخر جزءاً وعشر جزء، وفي آخر جزءاً وعشري جزء، وفي آخر جزء وثلاثة أعشار الجزء حتى بلغ به جزأين تامين، ثم بحساب ذلك حتى بلغ بأرفعهم تسعة وأربعين جزءاً. فمن لم يُجعل فيه إلاّ عشر جزء لم يقدر أن يكون مثل صاحب العشرَين، وكذلك صاحب العشرَين لا يكون مثل صاحب الثلاثة أعشار، وكذلك من تمّ له جزء لا يقدر أن يكون مثل صاحب الجزأين**». وأضاف إلى ذلك: «**لو علم الناس أن الله تعالى خلق هذا الخلق على هذا لم يلُم أحد أحداً**»[2].

وهذه الرواية ترفع عن الإنسان مسؤولية أعماله؛ لأنه يصبح مسيّراً لتلك الأجزاء التي أودعها الله فيه، وكما لا يجوز لأحد أن يلوم أحداً على سوء تصرّفاته، لا يصحّ من الله ـ وهو العادل الرؤوف الرحيم الذي لا يجور ولا يظلم أحداً ـ أن يحاسب ويعاقب

---

(١) في المصدر: عشرة، وهو الصحيح؛ لأن الواحد لا يكون تسعة أعشار، بل عشرة أعشار.

(٢) الكافي ٢: ٤٤ / ١.

ما دام الإنسان مرتبطاً بما أودع الله فيه من الأجزاء وأعشار الأجزاء، وليس بإمكانه أن يتخطّاها. هذا بالإضافة إلى أنها تدعو إلى اليأس والركود، وعدم التطلّع إلى الأفضل.

على أن الرواة لهذا الحديث بين من هو مجهول الحال، وبين من هو متّهم في دينه وعقيدته»[١].

سابعاً: تأسيس موقف نقدي من كتاب (الكافي)، وهي مهمّة رئيسة، كان بلورها الحسني في كتابه: (دراسات في الحديث والمحدّثين).

يرفض الحسني بشدّة الغلوّ في كتاب (صحيح البخاري)، ويرى أنّ روايات هذا الكتاب لو عرضت على قواعد الحديث والرجال لكان الضعيف فيها أكثر من الصحيح[٢]. كما يرفض في الجانب الشيعي الغلوّ في كتاب (الكافي) للكليني؛ إذ يعتقد أنّ العلامة الحلي (٧٢٦هـ) كان كسر هذه الهالة المذهلة حول هذا الكتاب، كما يؤكّد أنّ أكثر من ثلثيه ضعيف السند عند العلامة المجلسي (١١١١هـ)[٣].

ولكي نرصد موقفه من كتاب (الكافي) نسجّل النقاط التالية:

١ ـ يعتقد الحسني أنّ (الكافي) أورد «نحواً من اثنتين وتسعين روايةً تتضمّن تفسير أكثر من مئة آية بعلي والأئمة من ولده عليهم السلام، وأكثرها بعيدة عن مداليل الألفاظ وأُسلوب القرآن»[٤].

إن الحسني بهذا النص لا يواجه كتاب (الكافي) فحسب، بل يواجه سيلاً من ثقافة شيعية في هذا المجال، يجدر فهمها، كما يؤكّد على أُسلوب القرآن وانسجامه مع الروايات الواردة. وهذه كلّها عناصر منهجية أساسية كان لها دور في موقفه من مصادر

(١) الموضوعات: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ٤٣ ـ ٤٤.

(٤) هاشم معروف الحسني، دراسات في الحديث والمحدّثين: ٣١٤.

الحديث الشيعي سيما (الكافي).

٢ ـ يذهب معروف الحسني إلى أنّ الكليني قد درس الروايات سنداً ومتناً معاً، وأنّه لذلك احتاج إلى فترة عشرين عاماً لكتابة كافيه، ولكي يعطي ـ كما يقول الحسني ـ هذه النتائج الغنية بالفوائد في مختلف المواضيع[١]، تحرّى ـ كما يراه معروف الحسني ـ أقصى ما لديه من جهد لتصفية الأحاديث الصحيحة عن غيرها[٢].

لكن رغم احترامه العظيم للمؤلِّف والمؤلَّف يذهب الحسني إلى أنّ الكليني روى عن الغلاة وبعض المنحرفين؛ بشهادة كتب التراجم وأحوال الرواة، بل يرى أنّه «لم يوفّق لدراسة متون بعض الأحاديث دراسة علمية بقصد التمحيص، ومقارنة مضمونها مع منطق أهل البيت وأُسلوبهم الذي يتفق مع العلم والعقل ومنطق الحياة. ولو فعل ذلك لوجد لزاماً عليه أن يتجنّب بعض تلك المرويّات... مع العلم بأنّه قد دوّن في الكافي إلى جانب تلك المرويّات أقوالهم المتكرّرة، وتوصياتهم بأن يعرضوا أحاديثهم على كتاب الله، وأنّهم لا يحدّثون إلاّ بما تقبله العقول، ويتفق مع الكتاب...»[٣].

ولكي يؤكّد معروف الحسني كلامه بالشواهد والأرقام يذكر واحداً وأربعين اسماً من الرواة المتّهمين أو المنحرفين، ومن بينهم المفضّل بن عمر وغيره، واصفاً هذا العدد باليسير[٤].

ويحمل معروف الحسني على مؤلّفي الحديث، ويعطينا نصّاً دالاً على شكل نفوذ الأحاديث المنحرفة برأيه إلى الوسط العلمي فيقول: «وبعد التتبّع في الأحاديث المنتشرة

(١) المصدر نفسه: ١٣١.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٩٣ ـ ٢٠١.

في مجاميع الحديث، كـ (الكافي) و(الوافي) وغيرهما نجد أن الغلاة والحاقدين على الأئمة والهداة لم يتركوا باباً من الأبواب إلاّ ودخلوا منه لإفساد أحاديث الأئمة والإساءة إلى سمعتهم، وبالتالي رجعوا إلى القرآن الكريم لينفثوا ـ عن طريقه ـ سمومهم ودسائسهم؛ لأنه الكلام الوحيد الذي يتحمّل ما لا يتحمله غيره، ففسّروا مئات الآيات بما يريدون، وألصقوها بالأئمة الهداة زوراً وتضليلاً. وألّف علي بن حسان، وعمّه عبد الرحمن بن كثير، وعلي بن أبي حمزة البطائني كتباً في التفسير كلها تخريف وتحريف وتضليل، لا تنسجم مع أُسلوب القرآن وبلاغته وأهدافه.

وليس بغريب على من ينتحل البدع أن يكون في مستوى المخرّفين والمهوّشين، إنما الغريب أن يأتي شيخ المحدثين، بعد جهاد طويل بلغ عشرين عاماً في البحث والتنقيب عن الحديث الصحيح، فيحشد في كتابه تلك المرويات الكثيرة، في حين أن عيوبها ـ متناً وسنداً ـ ليست خفيةً بنحو تخفى على من هو أقل منه علماً وخبرة بأحوال الرواة، وجاء العلماء والمحدثون من بعده فاحتضنوا (الكافي) ومروياته؛ لأنه بنظر فريق لم يتخطّ المرويات الصحيحة، وبنظر الفريق الأكثر جمع كمية كبيرة من المرويات الصحيحة إلى جانب المرويات المكذوبة على أهل البيت، والفريقان مسؤولان عن موقفهم هذا منه»[(١)].

إنّ الحسني يصرّ عل عدم تبرئة المحدّثين والنقّاد الشيعة من مسؤولية الوضع والدسّ، معتبراً أن هذا التهاون الذي حصل أعطى أعظم الفرصة لغيرنا للانقضاض علينا[(٢)].

كانت هذه خلاصة مكثفة لموقف معروف الحسني من كتاب (الكافي)، وأعتقد أنّ مجرّد وضعه له في مصافّ البخاري لنقدهما معاً له دلالاته العميقة.

---

(١) المصدر نفسه: ١٧٨.

(٢) هاشم معروف الحسني، الموضوعات في الآثار والأخبار: ٢٥٣.

ثامناً: ورغم أنّ معروف الحسني قد سلّط الأضواء على (الكافي)، إلاّ إنّ مشروعه لم يكن يركّز على هذا الكتاب، بل تمحور بشكل أكبر حول جملة كتب أُخرى لاحظناه يشبعها نقداً وملاحقةً وتفنيداً. وهذه الكتب هي: (مشارق أنوار اليقين) للحافظ رجب البرسي (٨١٣هـ)، و(قضاء أمير المؤمنينعليه السلام) لمحمد تقي التستري[1]، و(شجرة طوبى) لمحمد مهدي الحائري المازندراني، و(مختصر البصائر)، وكتاب[2] السيد هاشم البحراني (١١٠٧هـ)، و(معالم الزلفى في معارف النشأة الأولى والأخرى)، و(مدينة المعاجز) و....

إنّ هذا النمط من الكتب التي جعلها الحسني محور دراسته ومركزها تدور موضوعاته حول قضايا الكرامات والمعاجز والمناقب، والمثالب والمطاعن و...، أي تلك الموضوعات ذات الحساسية البالغة بين المسلمين.

ويسجّل الحسني مواقف حادّة جداً من هذه الكتب. ونحن لكي يطلع القارئ نذكر له بعضها:

أ ـ يقول: «إن ما دوّنه البحراني في كتابه من الأحداث التي يدّعي إقرانها بولادة الإمام وغيره من أئمة الهدى والزهراءعليهم السلام كلّه من موضوعات القصّاصين وأعداء الإسلام الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا في وجه الزحف الإسلامي المتصاعد يوماً بعد يوم، فدخلوا فيه مرغمين، وأدخلوا معهم هذا اللون من الغيبيات والغرائب والأساطير؛ ليصنعوا منها منفذاً إلى التشكيك به، وإبرازه بشكل أُسطوري يزيد المتشكّك تعقيداً،

---

(١) خلاف التستري ومعروف الحسني في المنهج والمنطلقات، كما ألمحنا في مطاوي البحث، يؤكّده الخلاف حول كتاب قضاء عليعليه السلام للتستري نفسه، وإن كان هذا الكتاب هو أوّل ما ألّفه التستري، كما ينصّ على ذلك في حواره مع صحيفة كيهان فرهنكي، السنة الثانية، العدد الأوّل: ٥، ولعلّ تطوّراً في فعله النقدي قد حصل عبر السنين. وراجع موقف الحسني من هذا الكتاب في الموضوعات: ٢٧٦، ٢٧٨.

(٢) الظاهر أن العبارة: «وكتب السيد هاشم البحراني (١١٠٧هـ): (معالم)...».

وضعفاء الإيمان ريباً وتضليلاً.

وبشيء من الإيجاز فإن كتب البحراني والبرسي وأمثالهما ممّن جمعوا الحديث على علاته ومصائبه قد مكّنت أعداء الإسلام من بثّ سمومهم، وزوّدتهم بأسلحة الهدم والتخريب والتشويش على الإسلام والتشيع الذي لم يعتمد في جهة من جهاته على غير المحسوس من سيرة أهل البيت، وعلمهم الموروث، وتضحياتهم المتواصلة في سبيل الله وخير الناس أجمعين.

وإني إذ أترك (معالم الزلفى) إلى غيرها من كتب الحديث، لا لأني لم أجد فيها محلاً للتشكيك والريب أكثر مما نقلته عنها، فإن أكثر مروياتها لو عرضت على أُصول علمي الرجال والدراية لا يثبت منها إلاّ القليل في وجه النقوض والاتّهامات الموجّهة إليها، وإنما أتركها لأقدّم في كتابي نماذج في مختلف المواضيع من الموضوعات في غيرها من مجاميع الحديث.

وفي الوقت ذاته أُريد أن يفهم غيرنا أن جميع مؤلّفاتنا في الحديث تخضع للنقد والتجريح حتى الكتب الأربعة، ولا نصفها بالصحة كما وصف غيرنا ستة من مجاميعهم، بالرغم من أنها مشحونة بالموضوعات والأساطير»[1].

ب ـ وفي نصّ آخر يقول: «وعلى أيّ الأحوال، فالأمر في هذه الرواية سهل بعد أن كانت من مختارات الشيخ رجب البرسي المعروف بالغلوّ والإفراط في الصفات التي وصف بها الأئمة، كما يبدو ذلك من كتاب (مشارق أنوار اليقين) الذي روى فيه الغرائب، وأعطى للأئمة جميع خصائص الخالق، وروى فيه قصّة زواج عبد الله من آمنة وحملها بالنبي صلى الله عليه وآله، وكيف اضطرب العالم، وظهرت فيه الكرامات والمعجزات من اللحظة التي اتصل فيها عبد الله بآمنة، حتى بقية مراحل حملها لحظةً فلحظة، وما رافق ذلك من الحوادث الكونية، والمفاجآت التي لم يعرف البشر لها تفسيراً، ولا سمع

---

(١) الموضوعات في الآثار والأخبار: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

بنظيرها في أخبار الأُمم السالفة»[١].

ج ـ وقال في نصّ ثالث: «هذه الرواية من مرويات ابن شهرآشوب، وحاله معروف في الاعتماد على الروايات الضعيفة، وبخاصّة إذا كانت في (المناقب)، كما هو الحال في غيره من المحدّثين الذين جمعوا كل ما سمعوه مهما كان مصدره ومضمونه، على أن أحد الرواة لها ـ وهو يزيد بن قعنب ـ لم أعثر له على ذكر بين رواة الشيعة والسنة.

وجاء في كتاب (نـزهة الأبصار) عن أصحاب التواريخ على حدّ تعبيره أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً وعنده جنيّ يسأله عن قضايا مشكلة، فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فتصاغر الجني حتى صار كالعصفور، ثم قال: أجرني يا رسول الله. قال: «**ممّن أجيرك؟**». قال: من هذا الشاب المقبل. فقال له النبي: «**وما ذاك؟**». قال الجني: أتيت سفينة نوح لأغرقها يوم الطوفان، فلما تناولتها ضربني هذا فقطع يدي. ثم أخرج يده المقطوعة، فقال النبي: «**وهو ذاك**».

وأضاف إلى ذلك أن جنياً كان جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما أقبل أمير المؤمنين استغاث به الجني، وقال: أجرني يا رسول الله من هذا الشاب المقبل. قال: «**وما فعل بك؟**». قال تمرّدت على سليمان، فأرسل إليَّ نفرين من الجن فطلت عليهم، فجاءني هذا الفارس فأسرني وجرحني، وهذا مكان الضربة إلى الآن لم يندمل.

ويكفي هذه الرواية عيباً أنها من مرويات (نـزهة الأبصار) الذي حشد فيه مؤلفه كل ما لذّ له وطاب من المراسيل والمنكرات والمجاهيل وضعاف الأحاديث.

وروي في (معالم الزلفى) عن الشيخ رجب البرسي مؤلّف كتاب (مشارق الأنوار في أسرار أمير المؤمنين)[٢] المشحون بالغلوّ والأخبار المكذوبة على علي وبنيه عليهم السلام»[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٢) مشارق أنوار اليقين: ١٢٦.

(٣) الموضوعات في الآثار والأخبار: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

د ـ وفي نص شديد آخر يقول: «لقد سطر البرسي هذه الكلمات التي يكرّرها في أكثر المواضع، وهو يحسب أنه قد أقنع المشكّكين، وأزاح الشبهة من أذهان الجاحدين، وإن دلّت تعليقاته على شيء فإنها تدلّ على إسرافه في الغلوّ، وإفراطه في الأخذ بكل ما سمع وما رأى بدون تحقيق في الأسانيد، ولا تدبّر في المضامين، ولا تفكير في أخطار هذه الأساطير». وبعد نقله للرواية يقول: «وهذه كغيرها من الأساطير التي ما أنـزل الله بها من سلطان، وأينما اتّجهت في كتاب (المشارق) للبرسي لا تقع العين إلاّ على أمثال هذه الغرائب التي تنفِّر ولا تقرّب، وتفرّق ولا تؤلّف، وتمدّ أعداء الشيعة بأشد الأسلحة فتكاً في التشيع لأهل البيت عليهم السلام»[(١)].

هـ ـ ويحمل على كتاب (معالم الزلفى) فيقول: «ولو لم يكن في (معالم الزلفى) من المكذوبات غير هذا الحديث لكفاها وصمة وعاراً، على أن الاحاديث المكذوبة فيها لا تقلّ عن الأحاديث التي يمكن التغاضي عن عيوبها. وعلى أي الأحوال فالعارفون من الشيعة وعلماؤهم لا يعترفون بهذا الحديث وأمثاله من المنكرات، ولا يتنافى ذلك مع وجود هذا النوع من الأحاديث بين المرويات المنسوبة إليهم وفي بعض مجاميعهم؛ لأن أكثر المؤلّفين في الحديث قد حشدوا في مجاميعهم كلّ ما وقفوا عليه من المرويات، وتركوا للباحث حرية النقد والاختيار. ويجد المتتبّع في مجاميع السنة، بل وفي صحاحهم أغرب من هذا الحديث وأبشع»[(٢)].

و ـ وينتقد البحرانيَّ وغيره فيقول: «وروى السيد هاشم البحراني في كتابه (نـزهة الأبصار) جملةً من الأساطير حول مولد النبي وعلي والزهراء والأئمة الكرام (عليهم أفضل الصلاة والسلام) كلّها من صنع الغلاة وأعداء الأئمة والإسلام؛ بدافع التشنيع

---

(١) المصدر نفسه: ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٨ ـ ١٨٩.

عليهم، والتشويه لآثارهم الخيرة التي كانت وستبقى ما بقي على وجه الأرض إنسان من أفضل ما يقدّمه الإنسان في هذه الدنيا من خير وتعاليم لبني الإنسان. وبذلك وحده قد استحقوا التقديس والتعظيم، وأصبحوا فوق مستوى الناس أجمعين، لا بتلك الغيبيات والأساطير التي تلقّفها حشوية الشيعة كالبحراني والبرسي وصاحب (جامع الأخبار) والشيخ حسن بن سليمان الحلي (توفي بعد ٨٠٢هـ) الذي اختصر (بصائر الدرجات) لسعد بن عبدالله الأشعري، وغيرهم ممن ألّف في الحديث، ودوّن كل ما سمعته أذناه ورأته عيناه من غير تحقيق في متونها وأسانيدها، ولا تفكير في مفاسدها، بالرغم من أن الأئمة أنفسهم قد أنكروا تلك الأحاديث، ولعنوا كلّ من يحدث عنهم بما لا تقبل العقول، ولا تدركه الأوهام والأفهام.

وسلام الله على الإمام زين العابدين الذي قال لجماعةٍ سمعهم يتحدثون عنه وعن آبائه بمثل هذه الغيبيات والأوهام، قال: «حبّبونا إلى الناس، ولا تبغّضونا إليهم، لعن الله من قال فينا ما لم نقله في أنفسنا، لنا ذكر في كتاب الله ونسب من رسول الله، وولادة طيبة، هكذا قولوا إلى الناس»[(١)]. أي لا تحدثوا عنا بأكثر من ذلك، واطرحوا الغيبيات جانباً وردوها على من جاءكم بها»[(٢)].

ز ـ ويطال نقد معروف الحسني العلامة الأميني لانتقاده ـ أي الأميني ـ موقف محسن الأمين من البرسي، يقول الحسني: «ولم أجد من وضع البرسي وكتابه من المعاصرين في قفص الاتّهام، وحذّر من اقتنائه وقراءته سوى البحّاثة حجة الإسلام المغفور له السيد الأمين في كتابه (أعيان الشيعة)، ولكنه ومع الأسف الشديد تعرّض لهجمات عنيفة قاسية من الشيخ الأميني في المجلد السابع من غديره، من غير أن يقدّم

(١) ابن إدريس، مستطرفات السرائر: ٦٥٠، باختلاف عنه.
(٢) الموضوعات في الآثار والأخبار: ٢١٧.

ولو دليلاً واحداً على براءة البرسي مما نسب إليه سوى بعض المرويات التي يعتمدها البرسي نفسه، بالإضافة إلى بعض التشويهات والألفاظ الفارغة. مع أن أكثر المترجمين للبرسي قد اتهموه بالغلوّ والخبط والخلط، ومع ذلك فلقد اتّجه الأميني للسيد الأمين وحده، ولابدّ وأن[1] يكون لذلك سرّ لا يعنينا تحديده في هذا الكتاب.

ولا أريد بذلك أن أدافع عن السيد الأمين، فالسيد أرفع شأناً من أن يرسل كلامه بدون قصد وتدبر كما يدعي الشيخ الأميني في غديره، ففي كتاب (المشارق) عشرات الشواهد على تبنّي البرسي لآراء الغلاة التي لا تتفق مع التشيّع السليم. ويبدو من تحيّزه للبرسي أنه لم يتدبر (مشارق الأنوار)، ولم يمعن النظر في أساطيره ومروياته، ولو أنه أمعن النظر فيها لوقف منها نفس الموقف الذي وقفه السيد الأمين وغيره من الباحثين الذين لا يهمّهم إلاّ إحقاق الحقّ، ومحاربة البدع»[2].

وقد كان السيد محسن الأمين حمل على البرسي حملةً عنيفة في (الأعيان)، على الغلّو، واهتمامه بعلم الأعداد والحروف لإثبات إمامة الأئمة مما يراه الأمين غير مفيد، بل ظنوناً وتخرّصات، متهماً كتبه بالتسجيع والتنميق و...[3]

وقد كان الشيخ الأميني انتقد الأمين على موقفه هذا، وذهب إلى أنّ كل ما أثبته البرسي مما اتّهم فيه بالغلوّ كان دون مرتبة الغلوّ، وغير درجة النبوّة[4]. وقد ردّ الأميني على اتهام محسن الأمين للبرسي باختلاق أدعية وزيارات، معتبراً أنّ لكلّ إنسان أن يخاطب الله تعالى بما شاء، مادام لا يقصد الورود ولا التشريع[5]. ولكي يدافع عن

---

(١) الصواب: لابدّ أن.

(٢) الموضوعات في الآثار والأخبار: ٢٩٣.

(٣) الأمين، أعيان الشيعة ٦: ٤٦٦.

(٤) الأميني، الغدير ٧: ٥٠ ـ ٥٤.

(٥) المصدر نفسه: ٥٤.

البرسي في قضيّة الغلو في الفضائل استأنف الأميني بحثاً حول هذا الموضوع ليؤكّد مغالاة أهل السنّة بالخلفاء والصحابة سيّما أبي بكر، مستعرضاً شواهد طويلة شملت مئات الصفحات[١].

وكانت كتب البرسي قد أثارت تحفظاً وجدلاً في الوسط الشيعي قبل انتقادات الأمين ودفاعات الأميني، فقد نصّ المجلسي في مقدّمة (البحار) قائلاً عن مصادر كتابه: «وكتاب (مشارق الأنوار)، وكتاب (الألفين) للحافظ رجب البرسي، ولا أعتمد على ما يتفرّد بنقله؛ لاشتمال كتابيه على ما يوهم الخبط والخلط والارتفاع»[٢].

كما ذكر صاحب (طرائف المقال) أنّ البرسي ربما ينسب إلى الغلو، وهو بريء منه[٣]. وهكذا كان كلام الحر العاملي في (أمل الآمل)[٤]، وغيرهم[٥].

هذا، وللبرسي كتب كثيرة بعضها انتخبه من كتاب (مشارق أنوار اليقين)[٦] الذي يعدّ الأكثر حساسية من بين كتبه تقريباً.

تاسعاً: في مواجهته للروايات يقبل هاشم معروف الحسني باستخدام منهج التأويل، بيد أنّه يشرطه بإمكان خضوع الرواية للتأويل[٧]. وهذا الشرط هامّ جداً وأساسي بالنسبة لمشروع كمشروع هاشم معروف الحسني؛ ذلك أنّ الإفراط في التأويلة ـ وهو منهج استخدمه بعض العلماء ـ يمنع مطلقاً ربما عن ردّ أيّ رواية مهما كانت بادية

---

(١) المصدر نفسه: ٩١ ـ ٤٤٣.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ١: ١٠.

(٣) البروجردي، طرائف المقال ٢: ١٦٢.

(٤) الحرّ العاملي، أمل الآمل ٢: ١١٧.

(٥) راجع؛ المامقاني، تنقيح المقال ١: ٤٢٩؛ وأفندي، رياض العلماء ٢: ٣٠٧.

(٦) انظر مثلاً: الكنتوري، كشف الحجب والأستار: ٤٨١.

(٧) الحسني، دراسات في الحديث والمحدّثين: ٢٩٢ ـ ٢٩٣، ٣٠٦؛ وله أيضاً: الموضوعات: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

مخالفةً للعقل، أو الكتاب، أو التاريخ القطعي، وهناك شواهد كثيرة جداً على ذلك. من هنا لاحظنا إشارة الحسني إلى موضوع إمكان التأويل من جهة، وأُسلوب القرآن من جهة أخرى؛ ذلك أنّ التأويلات المفرطة يمكن مواجهتها عبر هاتين القاعدتين، فإذا جعلنا الأُسلوب العام القرآني أساساً، حال ذلك دون ممارسة تأويلات تُحِيج المؤوّل للمساس بأُسلوب القرآن.

عاشراً: أنّ المادّة الرئيسة التي يركّز معروف الحسني نقده عليها هي روايات الفضائل والمطاعن، حيث يراها مع روايات الترهيب والترغيب من الروايات البالغة الحدَّ الأقصى من الدسّ والافتراء[١].

ولهذا خصّص الفصل الرابع من كتابه الموضوعات، والذي يقلّ حجمه عن نصف الكتاب بقليل[٢]، لرصد هذا النوع من الروايات. وهو وإن كان يرى أنّ أخبار الفضائل الموضوعة لا تقل عند السنّة عمّا عند الشيعة[٣]، غير أنّ نظره يتركّز أكثر على المصادر الشيعية، كما أشرنا من قبل.

إن معروفاً الحسني يعتقد بأنّ الغلوّ في تقديس الصحابة أدخل على السنّة النبوية مجموعةً من الخرافات والمكذوبات، ليست سوى وصمة عار على السنّة الشريفة، وإن نظر إليها أهل السنّة اليوم نظرة تقديس واحترام[٤]. وهكذا الحال عنده في روايات الغلوّ في أهل البيت عليهم السلام، لكنه يبقى حذراً من أن تفهم خطوته خطأ؛ ولهذا سجّل في خاتمة كتابه نصاً هاماً تبدو فيه ـ معاً ـ معالم الجرأة والاحتياط.. معالم الحذر والإقدام.. معالم النقد والتشييد. إنه يقول: «وعلى أيّ الأحوال، فإني إذ أقف من بعض المرويات في

(١) الحسني، الموضوعات: ١٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٧ ـ ٣١٩، أي إلى آخر الكتاب.

(٣) المصدر نفسه: ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٤) الحسني، دراسات في الحديث والمحدّثين: ١٠٤.

علي والأئمة من ولده هذا الموقف، وأُرجّح أن تكون من صنع الغلاة والحاكمين والزنادقة الذين اندسّوا في صفوف الشيعة، لا أتردّد لحظةً في أنّ علياً وأبناءه الأئمة بإمكانهم أن يصنعوا المعجزات التي تتعسّر على غيرهم من الناس، وقد صنعوا بإذن الله شيئاً من ذلك، لا لأنّ الله سبحانه قد فوّض إليهم أُمور العباد، وأمدّهم بالقدرة على كلّ شيء، ولا لأنّهم يعلمون ما كان وما سيكون إلى قيام يوم الدين، بل لأنّهم عرفوا الله كما يجب أن يُعرف، وعبدوه مخلصين كما يجب أن يُعبد، وبذلوا في سبيله فوق ما يمكن أن يتصوّره إنسان من أبناء هذه الدنيا، فاستجاب لهم كما استجابوا له، وأمدّهم بعلمٍ من عنده لم يتوفّر لأحدٍ سواهم من الناس.

وأعود لأُكرّر بأنّ هذه المرويّات التي نقلتُها عن بعض محدّثي السنّة، كما أنّها لا تعبّر إلاّ عن رأي المغالين في خلفائهم وأوليائهم، فكذلك بعض المرويات الشيعيّة في علي وبنيه الأئمة الأطهار، فإنّها لا تعبّر عن رأي الشيعة، وبعضها يتنافى مع أُصول الإسلام والتشيّع. أقول ذلك وأنا واثق من أنّ عدداً كبيراً من الشيعة، بل ومن المعمّمين في النجف الأشرف وغيرها ممّن لا يفهمون الأئمة على واقعهم، ولا يدركون سرّ عظمتهم وخلودهم إلاّ عن طريق الغيبيّات والأوهام لا يرضيهم ذلك، وسوف يغضبون، ولكنّي لا أستوحش من ذلك، ما دمت واثقاً بأنّ ما أقوله وأكتبه يرضي الله سبحانه، وينـزّه الأئمّة (عليهم أفضل الصلاة والسلام) مما أُلصق بهم زوراً وبهتاناً، والله من وراء القصد، والهادي إلى سبيل الرشاد»[1].

---

(١) الحسني، الموضوعات: ٣١٨ـ٣١٩.

يبحث هذا الكتاب عن الحديث والمحدّثين، وأصناف الحديث وأقسامه، وتاريخ الكذب في الحديث، وأثر الحكّام والقصّاصين والفرق والاتّجاهات الفقهية والعقائدية والسياسية على الحديث والمحدّثين، ويقدّم صوراً عن بعض المحدّثين والقصّاصين، ونماذج من الأحاديث الموضوعة في المثالب والفضائل، والترغيب والترهيب، بأسلوب هادئ وروح بعيدة عن التعصّب والمحاباة لأيّ جهة من الجهات، ويعتمد في جميع ذلك على أوثق المصادر السنية والشيعية وغيرها.

[المدخل]

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الهداة الميامين وصحبه الطيبين.

لم يخالف أحد من المسلمين في أن الكتاب والسنة هما المصدران الرئيسان للتشريع، ولكل ما جاء به الإسلام من أنظمة وآداب وأخلاق وغير ذلك، وأن السنة تأتي في المرتبة الثانية بعد كتاب الله، ولولاها لكان التشريع ناقصاً؛ لأن القرآن الكريم قد وضع القواعد العامة والأُصول والمبادئ لكل ما يحتاجه الإنسان في دنياه وآخرته، غير أن السنة قد تكفّلت بشرحها، وبيان مجملاتها، وتفريع الجزئيات على أُصولها ومبادئها كما يعرف ذلك كل من درس السنة والفقه الإسلامي دراسة وافية بتدبّر وإتقان. ومن ثَم لم يكن للمشرّع، ولا للمحدّث، ولا لأي باحث في موضوع من المواضيع التي لها صلة بالإسلام كدين ونظام مندوحة[1] عن الاعتماد على السنة، واللجوء إليها، والاسترشاد بهديها في جميع المواضيع الإسلامية منذ فجر التشريع حتى يومنا الحالي.

وستبقى السنة إلى جانب القرآن من أغنى المصادر في جميع المجالات بالرغم من أنها كانت هدفاً لهزّات عنيفة، وهجمات صاعقة من الحاقدين والمرتزقة والحاكمين تستهدف الجوانب المشرقة منها منذ أقدم العصور. لقد بليت بالحاكمين ففسروا نصوصها بما

---

(١) أي فسحة وسعة.

يتّفق مع سياستهم وأهوائهم، وتأوّلوا عشرات الأحاديث بما يتّفق مع تصرّفاتهم، ووضعوا مئات الأحاديث التي تؤيّد عروشهم، وتضع الحجب بين الحقائق التي يهدف إليها الإسلام وبين جماهير الناس.

وبليت بالمرتزقة، والوعّاظ، وقادة الفرق والأحزاب، فوضعوا ما شاؤوا من البدع والغيبيات التي تحقّق أطماعهم، وتؤيد اتّجاهاتهم وآراءهم، وبليت بالحاقدين أعداء الإسلام الذين اندسّوا بين صفوف المسلمين منذ مطلع فجره بعد أن عجزوا عن الوقوف في وجه الزحف الإسلامي الذي اجتاح العالم العربي، والإمبراطوريّتين الفارسية والرومانية في بضع سنوات معدودات. فوضع هؤلاء آلاف الأحاديث بقصد التخريب والتشويش، وظلت جميع تلك الموضوعات في مجاميع الحديث يتوارثها الخلف عن السلف ـ بدون تحقيق في أسانيدها، ولا دراسة لمتونها ـ إلى جانب الصحيح منها، فاختلط الحقّ بالباطل، والصحيح بالفاسد بالرغم من بعض المحاولات البريئة التي بذلت ولا تزال تبذل من قبل السنّيّين والشيعيّين لتصفيتها، وإبراز الجوانب المشرقة منها.

وقد قرأت أكثر من كتاب حول الحديث، فرأيت الذين قد كتبوا في هذا الموضوع قد سلكوا مسلكين، شأنهم في ذلك شأن غيرهم ممن كتبوا في غيره من المواضيع:

فمنهم من اكتفى بعرض المشاكل التي أحاطت بالحديث، والتطورات التي مرت على تدوينه وتصنيفه، وما يتّصل بذلك، وتجاهل أحداث العصور الإسلامية الأُولى، وأثرها على الحديث والمحدّثين.

ومنهم من جنح إلى الأُسلوب العلمي في دراسته، فنظر إلى الحديث والمحدثين من خلال التاريخ الإسلامي، وسياسة الحاكمين، وما رافق العصرين الأُموي والعباسي من أحداث وتطوّرات، وكان موفّقاً في دراسته واستنتاجه إلى حدٍّ ما. غير أن هذا الفريق كغيره ممن كتبوا حول هذه المواضيع قد حمّلوا الشيعة مسؤولية التعدّي على سنة

الرسول والكذب فيها؛ ممّا دعا غيرهم ـ على حدّ زعم هؤلاء المؤلفين ـ إلى السير على هذا الخط؛ ليدفعوا الباطل بمثله كما يزعمون، وتجاهلوا تلك الظروف القاسية، والأحداث المروّعة التي استهدفت الشيعة، والقضاء على التشيع ومقوماته منذ مطلع العهد الأُموي إلى العصر العباسي والأيوبي والتركي وغيرها من العصور.

وقد اخترت في هذه الدراسة المسلك الثاني؛ لأنه أوسع عطاء، وأصدق في أداء الواجب، وألزمت نفسي على قدر وسعي أن أقف موقفاً بعيداً عن التعصّب والمحاباة[١] وأصغيت لجميع الحجج والآراء، فلم أُسفّه رأياً كما فعل السباعي[٢] في دراسته، ولا أوسعت أحداً سبّاً وتعنيفاً كما صنع محمد عجاج الخطيب[٣] وأمثاله ممّن يرون التشيّع لأهل البيت عليهم السلام وكراً يأوي إليه كل من يريد هدم الإسلام وتقويض دعائمه. كما وأني لم أبرّئ الشيعة والمندسين في صفوفهم من وضع الأحاديث كما يظهر من الأمثلة التي قدمتها في هذا الكتاب.

والذي انتهيت إليه في هذه الدراسة التي أُقدم لها هذه الكلمة هو أن الكذب في الحديث كان نتيجة لمجموعة من العوامل كانت أُولى بوادرها قبل ظهور الأحزاب والفرق السياسية والمذهبية بزمن يتّصل بحياة الرسول صلى الله عليه وآله، أو بعد وفاته على أبعد

---

(١) المحاباة: هي الميل إلى أحد الطرفين. ويقصد المؤلف رحمه الله أنه كان متجرّدا عن جميع مسبقاته، وقد صدق فيما قال كما سيتّضح للقارئ الكريم من خلال فصول الكتاب الآتية.

(٢) الدكتور مصطفى السباعي هو عالم إسلامي معروف وصف الشيعة بـ «الرافضة»، وعدها من الطوائف المعروفة بإباحة الكذب في سبيل مصالحها. ثم تطور في الاتّهام وقال: «إن الشيعة أكثر الفرق كذبا». في أثناء حديثه عن الفرق السياسية وصف الشيعة بأنها تضع الحديث في سبيل أهوائها. راجع نص كلامه في كتابه (السنة ومكانتها من التشريع الإسلامي): ١١٠ وما بعدها. والمؤلف رحمه الله يشير إلى هذا.

(٣) الدكتور محمد عجاج الخطيب، باحث إسلامي، وقد تعرّض للشيعة بالشتم والسب كثيراً في كتابيه (أبو هريرة راوية الإسلام)، و(السنة قبل التدوين).

التقادير.

وعلى أي الأحوال فلقد وضعت كتابي هذا حول الحديث والمحدّثين بعد تردّد دام أكثر من سنة كاملة كانت تشدّني إليه بعض الاعتبارات، وتمنعني عنه ظروف واعتبارات أُخرى، ولكني أخيراً، وبعد أن وقفت على مجموعة من الكتب حول المحدّثين والأحاديث الموضوعة لجماعة من مؤلّفي السنة القدامى، ورأيت بعض الكتب التي تسيء إلى علي وبنيه الأئمة الهداة كـ (مشارق الأنوار) للبرسي، و(قضاء علي) للتستري، و(شجرة طوبى) للحائري، و(مختصر البصائر)، وأمثال هذه الكتب التي تطبع في بيروت بلد الطوائف والأديان والأحزاب من قبل بعض المؤسّسات والمكاتب التي تتاجر بالدين والتشيع، فيطلع عليها القريب والبعيد، وحتى من لا يؤمن بالله ورسله فضلاً عن الغيبيّات والكرامات. وحسب تقديري إن هناك تصميماً على المضيّ في نشر هذا النوع من الكتب الذي لايعبّر عن واقع الأئمة، ولاعن عقيدة الشيعة، ولا يمتّ إلى التشيّع الصحيح بصلة من الصلات لأغراض لا أستطيع تحديدها في هذه المقدمة.

لذلك ولغيره عزمت على تأليف هذا الكتاب، وتمّ ذلك بتوفيق الله سبحانه. وقد عرضت فيه المراحل التي مرّ بها الحديث وأصنافه، والكذب فيه ودوافعه، وأصناف الوضّاعين والقصّاصين من سنّيّين وشيعيّين، وقدّمت أمثلة من الأحاديث الموضوعة بين أحاديث الشيعة وغيرهم في المثالب[1] والفضائل، وغيرها؛ للسببين التاليين:

الأول منهما: لنقول لأُولئك الذين حاولوا ولا يزال أحفادهم يحاولون مسخ التشيّع من خلال بعض المرويّات في كتب الحديث، لنقول لهم: إن كتب الحديث الموجودة بين

---

(١) المثالب في اللغة هي العيوب التي يؤاخذ عليها الشخص. والمؤلف رحمه الله يشير إلى الأحاديث التي تطعن في الخلفاء والصحابة.

أيدي الشيعة فيها الصحيح والفاسد؛ لأنها من صنع الإنسان الذي يخطئ ويصيب، وتستبدّ به الأهواء والأغراض فتكيّفه كما تشاء.

والثاني: لتنزيه الأئمة الطاهرين ممّا أُلصق بهم زوراً وبهتاناً، وبيان الأخطار التي تكمن في التغاضي عن بعض الأحاديث والمتاجرة فيها على حساب الدين.

وأنا واثق بأني سأتعرّض لحملات قاسية من بعض حشوية(٢) الشيعة والمتاجرين بالدين، ولكني بحول الله وقوته سوف أتجاهل كل ما يقال معتمداً على الله وحده، ومستعيناً به في جميع أُموري، ومنه سبحانه أستمدّ العون والتوفيق، إنه قريب مجيب.

---

(٢) الحشوية: هم البسطاء من أهل الحديث الذين يجمعون الأحاديث ويحشونها حشواً من دون تدقيق ولا تحقيق.

الفصل الأوّل

السنة في عرف المتشرّعين

السنة في اللغة: هي الطريقة التي يختطّها الإنسان لنفسه قبيحة كانت أم محمودة[1].

وقد جاء في الحديث عن النبيﷺ أنه قال: **«من سنّ سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها»**[2].

وفي عرف المحدثين: كلّ ما جاء عن الرسولﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو غير ذلك من صفاته الخَلقية والخُلقية من غير فرق بين ما كان منها قبل نبوّته أو بعدها[3]؛ ولذلك اتّجهوا إلى تدوين جميع المراحل التي مر بها، والحالات التي اتّصف بها منذ ولادته إلى آخر مرحلة من حياته. وقد نظر إليها الأُصولي والفقيه من الزاوية التي تعنيهما في بحوثهما، ففسّروها بأقواله وأفعاله وتقريره التي تدلّ على الأحكام وتثبتها.

وحينما نتكلم عن الحديث الموجود في المجاميع لابدّ لنا وأن[4] نتخطّى ما يعنيه الأُصولي والفقيه من هذه الكلمة إلى كل ما رواه الرواة من أقواله وأفعاله وتقريراته؛ سواء من ذلك المتعلّق منها بالأحكام وغيرها. والمراد من «**التقرير**» الذي يهتمّ به الفقيه، ويعتبره في مرتبة أقواله وأفعاله من حيث دلالته على الحكم هو سكوته عمّا كان

---

(١) نصّ على ذلك كثير من اللغويين منهم ابن منظور في لسان العرب، ج٧، ص٨١٢، مادة سنن».

(٢) راجع كنز العمّال للمتّقي الهندي، ج١٥، ص٧٨٠، ح٤٢٠٧٨؛ وكذلك الكافي للكليني، ج٥، ص٩، ح٢.

(٣) بحث السيد محمد تقي الحكيم الأقوال في السنة وناقشها بصورة موسعة في كتابه (الأُصول العامة للفقه المقارن)ص ١١٩ وما بعدها؛ وكذلك الأُستاذ حيدر حبّ الله في كتابه المخصص لذلك (نظرية السنة)، فراجع.

(٤) الصواب: لابدّ لنا أن.

يفعله أصحابه الكاشف عن رضاه. فالسكوت المقترن بالرضا والاستحسان لافرق بينه وبين القول من حيث دلالته على مشروعيّة الفعل ورجحانه أو وجوبه أحياناً.

[موقف المسلمين من أحاديث الرسول ﷺ]

وقد وقف المسلمون عند سنة الرسول بهذا المعنى خاشعين مطمئنين، كما وقفوا عند نصوص الكتاب وآياته يسترشدون منهما، ويستلهمون من نصوصهما وظواهرهما الأحكام والأخلاق، وكل مافيه صلاحهم في الدنيا والآخرة. ودلّهم الكتاب نفسه على أن الشريعة لاتتمّ به وحده، كما لاتتمّ بالسنّة وحدها، فكان كل منهما متمّماً للآخر، وكاشفاً عن غوامضه وأسراره؛ فلولا السنة ما عرفنا مجملات القرآن، ولا اكتشفنا الكثير من أسراره وغوامضه. هذا بالإضافة إلى كثير من الحوادث التي لم ينصّ عليها القرآن باسمها ووصفها، وتركها للرسول الذي ائتمنه على وحيه، وحمّله مسؤولية الأداء والتبليغ والتفسير، وبيان ما اشتبه حكمه وخفي عليهم وجهه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

وقال في آية أخرى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

وأوجب عليهم النزول على حكمه في كل خلاف يحدث بينهم، كما تنص على ذلك الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[٣].

وجاء في الآية من سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ

(١) سورةالنحل الآية ٤٤.

(٢) سورة النحل الآية ٦٤.

(٣) سورة النساء الآية ٦٥.

لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١].

[الفرق بين الكتاب والحكمة]

وليس من المستبعد ـ كما ذهب بعض المفسرين ـ أن تكون الحكمة غير القرآن، كما يرجّح ذلك عطفها عليه، كما يجوز أن يكون المراد منها: الأحكام الشرعية، وأسرارها، ونحو ذلك مما زوّده به من الوصايا والنصائح مما يدخل في نطاق السنة النبوية.

وقال الشافعي في رسالته: «لقد ذكر الله الكتاب وعنى به القرآن، وذكر الحكمة وعنى بها سنة رسول الله»[٢]. ونسب ذلك إلى جماعة من العلماء، وأضاف إلى ذلك: «فلم يجيزوا ـ والله العالم ـ أن يراد من الحكمة غير سنة رسول الله؛ لأنها مقرونة بالكتاب، ولا يصحّ أن تكون شيئاً آخر غير السنة؛ لأنها منّة من الله على عباده، ولا يمن عليهم إلا بما هو حقّ وخير. ولازم ذلك أن علينا أن نتعبّد بالحكمة كما تعبّدنا بالقرآن، ولم يفرض الله علينا غير كتابه وسنة نبيه»[٣].

ومهما كان الحال فكما أنزل الله على رسوله الكتاب، وأمره بتبليغه وتنفيذ أحكامه وإرشاداته ونصائحه، أوحى إليه الكثير من الأحكام والإرشادات، وما حدث للأُمم السالفة وسيحدث في مستقبل الزمان، وعصمه من الخطأ والزلل، ووصفه في الآية من سورة الأعراف بأنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم[٤]. وجاء عنه أنه قال: «**إني أُوتيت الكتاب ومثله معه**»[٥].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

(٢) الرسالة، للإمام الشافعي ص ٧٨.

(٣) هناك اختلاف يسير بين هذا النص الذي ينقله المؤلف هنا وبين النص الأصلي الموجود في كتاب الرسالة للشافعي، ولكن هذا الاختلاف لا يضرّ بالمعنى.

(٤) إشارة إلى الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

(٥) كنز العمّال، المتقي الهندي،ج١، ص١٧٤، الباب الثاني: في الاعتصام بالكتاب والسنة، رقم الحديث ٨٨٠.

[رجوع المسلمين إلى الكتاب والسنة]

وأكّد القرآن الكريم على المسلمين أن يرجعوا إليه في أُمور دينهم، وحثّهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه، فقال في الآية من سورة النساء[١]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢]، واعتبر طاعته طاعة لله، واتّباعه حبّاً لله تعالى، فقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[٣]، وقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٤]. إلى كثير من الآيات التي قرنت طاعته بطاعة الله، ومحبّته بمحبّة الله، وأنذرت مخالفيه بالعذاب الأليم، ووضعهم في صفوف الجاحدين لله والكافرين برسله وأنبيائه، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾[٥].

فكان لهذه الآيات ولغيرها من الأدلة التي تراكمت لديهم على صحّة دعوته، ونبل رسالته، واخلاصه[٦] فيما يقول ويفعل، كان لكل ذلك أثره البالغ في استلهام سنّته وسيرته. بالإضافة إلى تلك المجموعة الهائلة من الفضائل التي احتشدت في شخصه الكريم، وأهّلته إلى مركز القيادة الحكيمة[٧] التي غيّرت وجه التاريخ، وكشفت زيف

---

(١) هذا سهو من قلم المؤلف فالآية في سورة الأنفال لا سورة النساء.

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٤.

(٣) سورة النساء الآية ٨٠.

(٤) سورة آل عمران الآية ٣١.

(٥) سورة الأحزاب الآية ٣٦.

(٦) الظاهر أنها: «وإخلاصه».

(٧) كتب العالم الأمريكي مايكل هارت كتاباً أسماه (المئة: تقويم لأعظم الناس أثراً في التاريخ)، وجمع فيه مئة اسم لشخصيات رأى أنهم نوابغ التاريخ، وجعل اسم النبي محمدﷺ أول اسم في القائمة، وقال ماترجمته: «إن اغلب الواردين في هذا الكتاب هم ممن تربوا في بيئات حضارية فكان من الطبيعي أن يكونوا من النوابغ إلا محمداً فإنه ولد في بيئة قاسية ومتخلّفة بعيدة عن مراكز

العادات والأعراف، ومناهج الحياة التي كانت تتحكّم في مصير الإنسان، تلك الرسالة التي أطلّت بأشعتها على الحاضر والمستقبل لتمهد للإنسان طريق المجد والخلود: ﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

[الأُسلوب الذي اتبّعه النبيﷺ في التبليغ]

لقد تدرّج الرسول في نشر دعوته، وانتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارّة، ومحاربة المنكرات التي اعتادوها، وغرس مكانها العقائد والأحكام، وشجّع الذين التفّوا من حوله ـ على قلّتهم في بادئ الأمر ـ على الصبر والثبات وتحمّل المشاقّ والصعاب، ومضى في التخطيط لدعوته وتركيز دعائمها بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة، يساير الزمن، ويستغلّ المناسبات، إلى أن توفّرت له الأسباب، وانقاد لدعوته عرب الجزيرة، واطمأن على مصيرها في تلك البقعة من بقاع الأرض، فاتّجه إلى ماوراء الجزيرة لينشر رسالته في جميع أرجاء الدنيا الواسعة، ويبلّغها للقريب والبعيد. وهو مع ذلك يقوم بمهمّة المعلم والحاكم، والقاضي والمرشد خلال ربع قرن من الزمن بالأُسلوب الذي يراه مجدياً حسب الزمان والمكان، وأحياناً يحلّ مشاكل الناس بالأُسلوب الذي يتناسب مع حالهم وظروفهم، فقد جاء في بعض المرويات أن رجلاً جاءه ليطلّق زوجته، فقال له: إن امرأتي هذه جاءت بغلام أسود، وإني أنكرته. فقال له النبيﷺ: «**هل لك من إبل؟**». قال: نعم. فقال له: «**فما ألوانها؟**». قال: حمر. فسأله: «**هل فيها من أورق؟**». قال: نعم. فقال له: «**فمن أين أتاها ذلك؟**». فأجابه البدوي: عسى أن يكون نزعة عرق.

وهنا وجد النبي المجال متّسعاً لإقناعه بالعدول عن رأيه بما يحسّه من ظروفه

الحضارة والثقافة، فخرج بهذا الخلق الرفيع، وصنع إمبراطورية عظيمة اجتاحت العالم، وهذا ما يؤهّله ليكون أعظم النوابغ في التاريخ». راجع أصل الكتاب باللغة الانجليزية:
(The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History)

وحياته، فقال له: «**وهذا عسى أن يكون نزعة عرق**»(١). فاقتنع السائل ومضى لسبيله مطمئناً لمولوده الجديد، وشاكراً للرسول العظيم هذا الأُسلوب الذي أعاد إليه الاطمئنان بزوجته وشريكة حياته.

ومن ذلك أن أحد القرشيين قال له: يارسول الله، ائذن لي في الزنا. فقال له النبيﷺ: «**أتحبّه لأُمك؟**». فقال: لا والله، جعلني الله فداك. فقال: «**ولا الناس يحبونه لأُمهاتهم**». ومضى النبي يعرض عليه الزنا في قريباته يقصد إقناعه بالعدول عن رأيه، وهو ينفر يستنكر، فقال له أخيراً: «**إن عملاً لا ترضاه ممن يتّصلن بك بنسب أو بسبب لايرضاه غيرك ولا تطيب به نفسه**». فأدرك الرجل خطأه وانصرف لشأنه نادماً على طلبه(٢).

إلى كثير من أمثال هذه الأساليب التي كان يستعملها حسب المناسبات.

وبلغ من حرصه على تأديب أصحابه وتربيتهم على منهج الإسلام أنه كان يستغلّ المناسبات، ويهيّئ الفرص للاجتماع بهم والحديث معهم بما يعود عليهم نفعه، ويكرر حديثه، ويفصل بين كلماته؛ ليسهل عليهم التثبت منها والاقتناع بها. وقال بعض أصحابه: إن رسول الله إذا حدث لايسرد الكلام سرداً بل كان إذا تكلم بكلام «لو عدّه العادّ لأحصاه»(٣). ليستقرّ في ذهن السامع، ولا يبقى في شكّ منه، وكان مع ذلك لايكثر من الحديث، ولا يرضى لهم إلا باليسير، وهو القائل: «**علّموا ويسّروا، ولا تعسروا على أحد**»(٤)، «**فخير دينكم أيسره وخير العبادة التفقه**»(٥). واذا أحسّ من أحد

---

(١) وردت هذه الحادثة في صحيح البخاري، ج٦، ص ١٧٨.

(٢) راجع المحاورة كاملة في مسند الإمام أحمد، ج٥، ص ٢٥٧، وليس فيهذيل الحديث، بل ولا في غيره من كتب الحديث.

(٣) راجع صحيح مسلم، ج٨، ص٢٢٩؛ كنز العمال، ج٧، ص ١٤٦، رقم الحديث ١٨٤٣٨ ، والحديث مروي عن السيدة عائشة في أغلب كتب الحديث وليس عن بعض أصحابه كما ذكر المؤلف (رحمه الله).

(٤) مجمع الزوائد، ج١، ص١٣١.

(٥) كنز العمال، ج٣، ص ٣٦، رقم الحديث ٥٣٥٣.

إطراءه والثناء عليه قال: «**لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم؛ فإنما أنا عبد الله ورسوله، فلا تزيدوا على ذلك**»[(١)].

بهذه الروح الطيبة والنفس السامية والصدر الرحب والمنهج السليم الذي اختطّه الله له حاول بكل ما لديه من إمكانيات وجهود أن يغرسه في قلوب أتباعه ونفوسهم، واستطاع أن يحقّق الكثير من أمانيه، وأن يصنع من عرب الجزيرة الجفاة الطغاة رسل خير ورحمة، ودعاة سلام ومحبة، وقادة يغزون العالم بعقولهم وتعاليمهم التي استمدّوها من الرسول الكريم قبل أساطيلهم وجنودهم. تلك التعاليم التي نسميها بـ «سنة الرسول» تارة وبحديثه أُخرى، والتي لو قدر لها أن تسلم من كيد الدساسين وعبث المحرفين والمخربين، وقدر لنا اليوم وقبل اليوم أن نحتضنها ونعمل بمضامينها ومحتوياتها، لكانت من أفضل المصادر التي نستلهم منها قوتنا، ونستعيد بها كرامتنا وحريتنا؛ لأنها تجمعنا على صعيد الحق والهدى، وتمدّنا بكل أسباب القوة في مقابل أُولئك الغزاة العقائديين والسياسيين من شرقيين وغربيين، الذين جمعتهم الأهداف بقصد أو بدونه على تحطيم الإسلام وتقويض دعائمه، ووجدوا بين المتسبين إليه من يمهّد لتلك الأهداف التي لا تختلف عن الحروب الصليبية إلا بالشكل والمظهر.

[حرص الطبقة الأُولى من المسلمين على تتبّع أقواله وأفعاله]

لقد كانت أفعاله وأقواله تعنيهم أكثر من أي شيء آخر؛ لأنه كان محور حياتهم الدينية والمدنية منذ أن هداهم الله به من الضلالة إلى الهداية، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم. وبلغ من حرصهم على إحصاء أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته أنهم كانوا إذا اضطر أحدهم للتغيّب عن مجلسه يستنيب مَن يقوم مقامه لينقل إليه ما سمعه من الرسول عن حكم يتعلّق بدينه أو أمر يتعلّق بحياته، وهو مع كل ذلك كان يتهرّب من التدخّل بشؤونهم التي لاتتّصل بالأحكام والأخلاق والآداب ويقول: «**أنا أعلم بأُمور**

---

(١) قريب منه صحيح البخاري، ج٤، ص ١٤٢.

دينكم، وأنتم أعلم بأُمور دنياكم»[١].

وتؤكّد المصادر الموثوقة أن الطبقة الأُولى من المسلمين قد أحصوا عليه جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته، مايتصل منها برسالته كرسول ومشرّع، وغير ذلك مما يتعلق بشؤون الحياة، ونقلوا جميع ما شاهدوه وسمعوه منه للأجيال جيلاً بعد جيل، غير أنهم بطبيعة الحال لم يكونوا في مستوى واحد في دينهم وخبرتهم بأقواله وأفعاله وتعاليمه؛ فمنهم البدوي، ومنهم الحضري، والتاجر، والمنقطع للعبادة، وغير ذلك من الأصناف الذين لابـد وأن[٢] يتفاوتوا [في] معرفتهم، وإحصائهم لأقواله، وإدراكهم لها ولما ترمز إليه. مع العلم بأنه لم يكن قد أعدّ لهم ندوة عامّة ليجتمع بهم في ليل أو نهار وإذا[٣] استثنينا أيام الأعياد والجُمع وبعض المناسبات الخاصة التي كانت تحدث عن طريق الصدفة بين الحين والآخر. ومع ذلك كله فقد كان يحاذر منهم الملل، ويخشى أن تشغلهم العبادة عن السعي والعمل في طلب الرزق والعلم؛ فقد أكّد لهم في عشرات المناسبات أن السعي في شؤونهم الخاصة، والعمل من أجلها لاينفصل عن الدين، ولاينقص عن أجر الصائمين والمصلين، بل يزيد عليها عشرات المرات، كما يشير إلى ذلك قوله: «**عمل يوم خير من عبادة سنة**»[٤]. وأحياناً يتلو عليهم قوله: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[٥]. إلى غير ذلك من الآيات التي تحث على طلب العلم والرزق، وتبشر العاملين من أجلهما بثواب الصدّيقين والمجاهدين.

---

(١) قريب منه صحيح مسلم، ج٧، ص٩٥، كتاب الفضائل، باب ٣٨، (وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره (ص) من معايش الدنيا على سبيل الرأي)، ومما يجدر ذكره أنّ هذا الحديث يستدل به العلمانيون على أنه نص صريح في عدم تدخل الدين في شؤون السياسة والمجتمع.

(٢) الصواب: لابدّ أن.

(٣) في الأصل: وإذا.

(٤) ورد هذا المضمون بتعابير مختلفة في الأحاديث النبوية ولكن لم نعثر عليه بهذا اللفظ بالذات، نعم ورد ما يقرب منه بلفظ: (تفكّر ساعة خير من عبادة سنة) راجع تفسير القرطبي، ج٤، ص ٣١٤.

(٥) سورة القصص الآية ٧٧.

وكان أعلم المسلمين وأعرفهم بسنته وسيرته أُولئك الذين لازموه طيلة حياته، وكانوا أقرب إليه من الظل لذى الظل، ولم يخالف أحد من المؤرخين والمحدثين في أن علياًعليه السلام كان أقرب إليه وألصق به من جميع المسلمين، وكان يتحدث إليه في سره وعلانيته، ويبلّغ عنه القريب والبعيد. وإذا أخذنا بهذا المبدأ الذي يؤكده السباعي وغيره من المؤلفين(١) في الحديث، فيجب أن تأتي مروياته في الدرجة الأُولى من حيث العدد والاعتبار، في حين أن صحاح السنة وعلى رأسها صحيح شيخ المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري لم تدوّن له أكثر من ثمانٍ وعشرين رواية، ودوّنت لغيره المئات والآلاف. ولو تغاضينا عن ذلك، ورجعنا إلى الصحابة نجد أن الذين كانوا ألصق بالرسول من أبي هريرة(٢) وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر لم تدون لهم الصحاح شيئاً يذكر بالنسبة إلى مدونات أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب. ولنا وقفة مع الرواة المكثرين عن الرسول في الفصول الآتية من هذا الكتاب.

[لمحات عن موقف الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمين من تدوين الحديث]

ومهما كان الحال فبالرغم من أن المسلمين في حياته لم يتركوا شيئاً من أقواله وأفعاله وتصرفاته إلا أحصوه في صدورهم، وتناقلوه في مجالسهم جيلاً فجيلاً، وأخذوا أحكام دينهم من سنته ومن القرآن الكريم، ونظروا إلى سنته بعين الإجلال والإكبار بعد أن تأكد لهم بأنه لاينطق إلا عن الوحي، ولا يبلغ إلا عن ربه، بالرغم من كل ذلك ومن أن السنة من أدلة الأحكام كالقرآن، ولولاها لم يكن التشريع بهذه الإحاطة والشمول،

---

(١) وهو مبدأ أن الراوي كلما كان أكثر ملازمة للرسول، كانت رواياته أكثر حجّةً من غيره.

(٢) المعروف أنّ روايات أبي هريرة عن الرسول بلغت حداً كبيراً من الكثرة أوصلها بعض الباحثين إلى (٨٠٠٠) حديثاً في مجموع الكتب التسعة لأهل السنة؛ مما جعل أرباب الحديث يشكّكون في صحة أغلبها، وأنه كيف تمّ لأبي هريرة حفظ هذا العدد الهائل من الروايات؟

فالمسلمون الأولون لم يهتمّوا بتدوينها كما اهتموا بالقرآن، بل اعتمدوا على ذاكرتهم القوية. مع العلم أن الرسول نفسه قد فتح باب التدوين واتخذ من المسلمين كتّاباً لتدوين القرآن وبعض رسائله التي كان يزوّد بها الولاة[١]، وبعض الشؤون الأُخرى كالمراسلات ونحوها مما يتعلق بشؤون الدولة.

وقد أسرف من ادّعى أن انصراف المسلمين عن تدوين الحديث في مطلع فجر الإسلام يرجع إلى نهي الرسول عنه، ورووا عنه أنه قال: «**لاتكتبوا عني، ومن كتب عني شيئاً فليمحُه**»[٢]. إلى غير ذلك من المرويات عنه حول هذا الموضوع، وهذه المرويات بالإضافة إلى ضعف أسانيدها، وعدم توفر الشروط للأخذ بها تتناقض مع الطائفة الأُخرى التي ترخص في التدوين، ومع حرصه على مكافحة الأُمية التي كانت متفشية بين العرب في مطلع فجر الإسلام. وقد صح عنه أنه فرض على من كانوا يحسنون القراءة والكتابة تعليم غيرهم من الأُمّيين، وخصّص مقداراً من واردات الدولة لمكافحة الأُمية. كما يؤكد المؤرخون أنه فرض على كل أسير كان يحسن الكتابة والقراءة تعليم عشرة من الأُميين كفدية له في مقابل الفدية النقدية التي فرضها يوم بدر على الأسرى، في حين أنه كان أحوج ما يكون إلى المال في تلك الفترة من تاريخ الإسلام، وأمر بتعلم اللغتين العبرية والسريانية نظراً للحاجة الداعية إلى ذلك.

وبعد الدراسة الواعية لهذا الموضوع يمكن أن نخرج منه بالنتيجة التالية، وهي أن النبيﷺ لم يمنع عن التدوين مع حرصه على محاربة الأُمية كما ذكرنا، وفي الوقت ذاته لم يكن حريصاً على تدوين أقواله وسيرته كما كان حريصاً على تدوين القرآن، وتعلم الكتابة والقراءة؛ مخافة أن ينصرف الناس عن القرآن إلى سنته وسيرته، وينظروا إليهما

---

(١) وهي روايات كثيرة منها هذه الرواية التي يرويها البخاري من أنّ رجلاً من أهل اليمن طلب من النبي أن يكتب له خطبته فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: «اكتبوا لأبي فلان». إلى أن قال: كتبت له هذه الخطبة. راجع: صحيح البخاري، ج١، ص ٣٦ (أحاديث كتاب العلم).

(٢) مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص ١٢.

كما ينظرون إلى القرآن، وعلى مرور الزمن تحل محله كما حلت أقوال المسيح وسيرته محل الإنجيل الذي أنزله الله عليه. وبالتالي فإن عناصر التخريب التي كانت منتشرة هنا وهناك حتى في عهد الرسولﷺ تجد منفذاً للتشويش على القرآن والسنة ولو بإدخال بعض أقواله بين آيات القرآن، وعلى مرور الزمن يصبح من الميسور لهم أو لغيرهم إثارة الشكوك حول القرآن والسنة معاً.

ومهما كان الحال فالنبيﷺ لم يكن متحمّساً لتدوين آثاره، ووقف موقفاً يمكن أن يتصف بالفتور بالنسبة لغيره مما كان يؤكده ويحث عليه، ولم يرد عنه مايصلح أن يكون سبباً كافياً لتعليل هذه الظاهرة. وبنتيجة ذلك وقف المسلمون بعد وفاته هذا الموقف الفاتر من تدوين أقواله، واعتمدوا على ذهنيتهم الحادة التي كانت تستوعب أدبهم وأخبارهم، وجميع ما كان يجري بينهم من الحروب والغارات، ووجدوا من الذين استولوا على الحكم بعد وفاته تشجيعاً على هذا الموقف، ونهياً صريحاً ينذر بعقوبة من يحاول القيام بعمل من هذا النوع، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا (تاريخ الفقه الجعفري)[1].

ومع كل ذلك فقد ظهرت بعض المدونات في عصر الصحابة لعليعليه السلام، وابن عباس وغيرهما، وكتب عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفته الصادقة في عهد الرسول كما يدّعي جماعة ممن كتبوا في هذا الموضوع وإن كنا قد أثرنا حولها الشكوك في كتبنا السابقة[2].

ويحدث بن النديم في كتابه (الفهرست) «أنه كان بمدينة الحديثة[3] رجل يقال له محمد بن الحسن... جمّاعة[4] للكتب، له خزانة لم أرَ لأحد مثلها تحتوي على قطعة من

---

(١) راجع تاريخ الفقه الجعفري ص ١٧٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الحديثة مدينة تقع في العراق قرب الموصل. راجع معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٠.

(٤) صيغة مبالغة من «جامع» مثل «علّامة»، والمقصود أنه كان يجمع الكتب كثيراً.

الكتب العربية في النحو واللغة والأدب... فلقيت هذا الرجل دفعات... وكان نفوراً ضنيناً[١] بما عنده، وخائفاً من بني حمدان، فأخرج لي قمطراً كبيراً فيه نحو من ثلاثمائة رطل من جلود وصكاك وقراطيس وورق صيني وتهامي وجلود أدم فيها تعليقات عن العرب، وقصائد مفردات من أشعارهم، وشيء من النحو، والحكايات والأخبار، والأسماء والأنساب، وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم... فرأيتها وقلّبتها فرأيت عجباً إلا إن الزمان قد أخلقها، وكان على كل جزء ورقة ومدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً إثر واحد... ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج صاحب علي عليه السلام... كما رأيت فيها بخط الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام... ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين عليه السلام، وبخط غيره من كتّاب النبي صلى الله عليه وآله، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء، وأبي عمرو الشيباني... ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود الدؤلي»[٢]. إلى غير ذلك مما جاء في (الفهرست)، وتؤكده بقية المصادر، وبالرغم من الموقف السلبي الذي وقفه الخلفاء من تدوين الأحاديث والسيرة النبوية.

وظل هذا الموقف مسيطراً إلى أن انقرض عصر الصحابة، وجاء دور التابعين، فاتسعت بلا شكّ حركة التدوين لأكثر من سبب واحد، ولعل من أبرز أسبابها اختلاط المسلمين بغيرهم من الأُمم المتحضرة التي حملت معها أخبار الفرس والرومان، وتاريخ ملوكهم، وفلسفتهم، وغير ذلك من آثارهم وأخبارهم. هذا بالإضافة إلى أن المسلمين قد أحسوا بالخطر على السنة؛ لأن أكثرها في صدور الحفّاظ، وقد انقرض بعضهم، وضاعت معهم بعض الأحاديث، وانتشر القصّاصون والكذبة في تلك الفترة من التاريخ وبخاصة عندما استتب الحكم للأُمويين كما سنثبت ذلك في الفصول التالية؛

---

(١) أي بخيلاً.

(٢) فهرست ابن النديم البغدادي، ص ٤٦، مع تصرف واختلاف يسير في بعض الألفاظ.

فأحس جماعة من العلماء بالحاجة الملّحة إلى تدوين الحديث حذراً من ضياعه ومن التلاعب فيه، وظلت حركة التدوين تسير بخطا واسعة مع الزمن. وقبل أن ينتهي ذلك العصر هب العلماء يتسابقون إلى التدوين في مختلف المواضيع، فدونوا كل ما وجدوه بين أيدي الرواة حتى موضوعات الأُمويين.

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته بأن «هشام بن عروة بن الزبير قال: لقد أحرق أبي يوم الحرة كتب فقهٍ كانت له، وكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحب اليّ من أن يكون لي مثل أهلي ومالي»[١]. وقال في موضع آخر: «إن عبدِ الرزاق قال: سمعت معمراً يقول: كنا نرى أني قد أثرت عن الزهري حتى قتل الوليد فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه من علم الزهري»[٢].

ويقول ابن خلكان: «إن شهاباً الزهري كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أُمور الدنيا، فتقول له امرأته: والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر»[٣]. وأضاف إلى ذلك: «أن أبا عمرو بن العلاء المولود سنة سبعين من الهجرة كانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتنا له إلى قريب من السقف»[٤]. إلى غير ذلك من عشرات الشواهد على أن فتور الطبقة الأُولى من المسلمين عن التدوين قد تلاشى خلال النصف الثاني من القرن الأول، وأخذت حركة التدوين تتصاعد وتتطور مع الزمن في مختلف المواضيع إلى أن بلغت ذروتها في التبويب والتصنيف في مطلع النصف الأول من القرن الثالث الهجري. ولكن بعد أن مرت مراحل كثيرة كان المؤلف في بدايتها يحشد في جامعه كل ما تناقلته الألسن من مختلف المواضيع من غير تمحيص وتدقيق، ومن غير تنسيق بين الأبواب والمواضيع، فالكتاب

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، ج٥، ص ١٧٩.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٨٩.
(٣) وفيات الأعيان، ج٤، ص ١٧٨.
(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ٤٦٦.

الواحد كان يجمع النوادر والأحكام، والأمثال والقصص، ونحو ذلك. وفي بداية النصف الأول من القرن الثاني اتخذت حركة التدوين شكلاً آخر، وأحس العلماء بالحاجة الملحة إلى التنسيق بين مواضيع مؤلفاتهم، وبرزت على أتمها في القرن الثالث كما يبدو ذلك من الصحاح الستة.

[المفاسد التي ترتبت على عدم التدوين بعد وفاته صلى الله عليه وآله]

والذي لايمكن التنكر له أن فتور الطبقة الأُولى من الصحابة عن تدوين الأحاديث ـ مهما كانت أسبابه ـ قد يسّر للعناصر الفاسدة التي اندست في صفوف المسلمين من اليهودية والنصرانية وغيرهما من مشركي مكة وغيرها ممن لم يدخل الإسلام قلبهم قد يسّر لهم الدس والكذب على الرسول، وإدخال الكثير من القصص وأخبار الأُمم السابقة، وبخاصة اليهودية حسبما روتها التوراة وشروحها، وأضافوا قسماً من تلك الأساطير إلى تفسير القرآن، ومن بين أُولئك عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وأمثالهم ممن اتخذوا القصص مهنة لهم يخدعون الجماهير السذج بأساطيرهم؛ ليبتزوا أموالهم، ويتملقوا بذلك إلى الحكام ليستدروا عطفهم وأُعطياتهم. وقد ظهرت طلائع هؤلاء في عصر الطبقة الأُولى من الصحابة، ولعل أول من تعاطى هذه المهنة تميم الداري المعاصر للخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وقد استأذنه في أن يقص على الناس فأبى عليه أولاً، وفي أُخريات أيامه أذن له أن يقص على الناس مرة في الأُسبوع[(١)].

ولما جاء دور عثمان بن عفان أطلق له السراح، فانطلق يحدث في المسجد والمجتمعات بما لذ له وطاب بدون وازع من دين، أو رقابة من أحد. ومما يشير إلى عدم تحرّج هذه الطبقة من الكذبة والقصّاصين أن روح بن زنباع دخل عليه وهو ينقي لفرسه شعيراً، فقال له: أما كان في هؤلاء من يكفيك؟ قال: بلى، ولكني سمعت رسول

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة، ج١، ص١٢.

الله ﷺ يقول: **«ما من امرئ مسلم ينقي لفرسه شعيراً، ثم يعلقه عليه إلا كتب له بكل حبة حسنة»**. (فجر الإسلام، ص١٦٨)

وحدث عبد الله بن سلام ـ كما جاء في الجزء الأول من (الطبري) ـ عن بداية الخلق، فقال: «ان الله بدأ الخلق يوم الأحد والأثنين، وخلق الجبال الرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السماوات في الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم على عجل، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة»(١). إلى كثير من أمثال هذه الأساطير التي دسها اليهود وغيرهم بين المسلمين، وأصبحت بعد ذلك من جملة الأحاديث التي روتها الطبقة الثانية ونسبتها إلى الرسول، ودوّنها المؤلفون في مجاميعهم بين المرويات هنا وهناك.

وعلى أيّ الأحوال ففي عصر التابعين كانت الحاجة إلى الحديث أكثر من أيّ وقت مضى؛ لأن المسلمين قد استقبلوا حياة جديدة حافلة بالحوادث الغريبة عما اعتادوه وألفوه من قبل؛ بسبب اتّساع رقعة الإسلام، واختلاطهم بالأُمم الأُخرى، فكان من المحتم عليهم أن يرجعوا إلى مرويات الصحابة ومدوّناتهم في ظروف كان فيها الكذب على الرسول ميسوراً ومنتشراً؛ لأن الحكام أنفسهم ساهموا في الدعوة إلى وضع الأحاديث لاسيما التي تؤيد عروشهم وتسيء إلى أخصامهم السياسيين.

على أن الصحابة الذين أصبحوا المرجع المفضّل لكل من جاء بعدهم لم يكونوا في المستوى الذي يوفر لمرويّاتهم أسباب الطمأنينة والوثوق بها، وحسبنا شاهداً على ذلك بعضُ الآيات التي وصفتهم بالنفاق والتمرد على الرسول ورسالته، كما تنص على ذلك سورة التوبة وغيرها. بالإضافة إلى المرويات الكثيرة التي وصفتهم بالارتداد عن الدين، والتنكّر لمبادئه وقيمه.

وهؤلاء وغيرهم قد وضعوا بين المرويات الصحيحة مئات المرويات في الحلال

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١، ص ٢٨١.

والحرام وغيرهما، ولما جاء دور التصفية بحث المعنيون بتصفية الحديث أحوال الرواة فرداً فرداً، ووضعوا الشروط للأخذ بالرواية، وصنفوا على أساسها الروايات إلى الأصناف المتداولة، وخضعت جميع المرويات للنقد والتمحيص عدا روايات الصحابة فإنها لم تخضع للنقد، ولم تقبل المراجعة؛ لأنهم فوق الشبهات والأهواء على حد تعبير المؤلفين في هذه المواضيع.

[تقديس الصحابة وأثر ذلك على الحديث]

ولابدّ لنا ونحن نعالج موضوعاً من أوسع المواضيع الإسلامية وأوثقها صلة بحياة المسلمين أن نقف ولو قليلاً عند الحصانة التي وضعها المحدثون على من أسموهم بـ «الصحابة»، وعن أسبابها ودوافعها، في حين أن الصحابة أنفسهم كانوا يتراشقون بالتفسيق والتكفير، ويستبيحون من بعضهم بعضاً ما لا تبيحه الشرائع والأديان، ولاتقره حتى شريعة الغاب، وظلمات الجاهلية الأُولى. ولو أردنا إحصاء الجرائم والمخالفات التي دونها التاريخ لمن هم في الطليعة بين الصحابة لخرجنا من ذلك بمجلد من أضخم المجلدات وأغناها بالحقائق والوثائق التي لا تقبل المراجعة، ويكفينا لو أردنا أن نكون مجردين وواقعيين تلك الحملات العنيفة التي شنها القرآن الكريم عليهم، وصفهم فيها بالنفاق والفسق، وفضح فيها مؤامراتهم ودسائسهم التي كانوا يحيكونها في الظلام للقضاء على الرسول ودعوته.

هذا بالإضافة إلى عشرات الأحاديث التي اختارها أصحاب الصحاح، ووصفتهم بالارتداد عن الدين والتمرّد عى أُصوله ومبادئه بنحو لا يدع مجالاً للريب في أنهم إن لم يكونوا أسوأ من غيرهم، فهم كغيرهم من سائر الناس فيهم الصالح والطالح، والمنافق والمؤمن، ومن قذفت به النزعات والأهواء إلى أسفل درك من الانحطاط والتدهور.

[الأسباب التي دعت لإعطاء الصحابة صفة القداسة]

أجل إن الباحث في تاريخ المسلمين خلال القرن الأول من تاريخهم الحافل

بالحوادث والتطورات يدرك أن فكرة تقديس الصحابة التي راجت بعد هذا القرن، وأصبحت عقيدة لمئات الملايين من المسلمين المتدفقة عبر التاريخ، وعلى أساسها درس العلماء الحديث ووضعوا أُصوله وقواعده، وخرجوا بتلك النتائج المروّعة التي شوّهت معالم السنة، وأمّدت الخصوم الألدّاء بأسلحة الهدم والتخريب، هذه الفكرة لقد نشط الحاكمون وأتباعهم في تركيزها وتثبيتها؛ لأسباب فرضتها السياسة والصراع على الحكم الذي تزعّمه الأُمويون طيلة قرن من الزمن استهدف أخصامهم بكل أنواع البلاء والتعذيب، وكبت الحريات والمشاعر.

وقد أدرك الأُمويون أن المسلمين سوف لايقفون من هذه الخلافة موقف المتفرّج، فجدوا في وضع الأحاديث التي تؤيد عروشهم، وشرعية حكمهم، وتضع من شأن أخصامهم، فوضعوا هم وأتباعهم سيلاً من المرويات، ونسبوها إلى الرسول بتوسط الصحابة بعد أن أكلت الحروب والسنين أكثرهم. وحتى لا يتسرّب الشك إليها، ولا يتّسع المجال للطعن بها وتجريحها، خلقوا للصحابة تلك الهالة من القداسة، ومنحوهم صفة العدالة، وأشاعوها بين الناس على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم، وجدوا في تثبيتها وتركيزها في النفوس بالمال والسلاح وكل المغريات.

وظلت هذه الفكرة تسير مع الأجيال جيلاً بعد جيل، إلى أن جاء دور المؤلفين في الرجال وأحوال الرواة في عصر يختلف عن أي عصر مضى من حيث الصراع الفكري والعقائدي الذي شاع وانتشر بين أوساط المسلمين خلال القرن الثاني من الهجرة، فوجد هؤلاء أن محاكمة الصحابة وتجريحهم كغيرهم يؤدي إلى الإطاحة بأكثر المرويات عن الرسول؛ لأن أكثرها مروي بواسطتهم، وفي ذلك انتصار للعناصر الأُخرى التي لم ترضَ للعقل بأن يبقى بعيداً عن المسرح، وأعطوه الحق في أن يتدخل في كل شيء ما لم يكن من الضرورات التي لا تقبل الشكّ والمراجعة.

هذا بالإضافة إلى أن السياسيين وغيرهم يعلمون أن التشكيك بالصحابة ومحاكمتهم كغيرهم يؤدي بالنتيجة إلى التشكيك بالخلافة الإسلامية بالنحو الذي سارت عليه؛

لأن عدالتهم وعدم اجتماعهم على ضلال كما يزعمون من أوفر الأدلّة حظّاً على شرعيّتها. فإذا التزموا بأنهم كغيرهم من سائر الناس، ووضعوهم في قفص الاتّهام، كان ذلك انتصاراً للحزب المعارض لخلافة الثلاثة، وبالتالي تبطل خلافة الأُمويين من أساسها حتى على منطقهم الذي ضللوا به الجماهير المغلوبة على أمرها.

ومما يؤكد أن محاكمة الصحابة ووضعهم في قفص الاتهام كغيرهم يوجب الإطاحة بأكثر المرويات المنسوبة إليهم أن الذين تفلتوا من تلك الهالة وخرقوها، ووضعوا الصحابة على طاولة التشريح كغيرهم لم يصح عندهم من المرويات التي تتصل بسند لهم إلا القليل القليل من المرويات المنسوبة إليهم؛ مما اضطرّهم إلى تخريج بعض الأُصول والقواعد للتعرف على بعض الأحكام التي لم يجدوا لها مدركاً من كتاب أو سنة. ومن هؤلاء شيخ الأحناف[١] الذي اعتمد القياس دليلاً على كثير من الأحكام؛ لأنه لم يثق بكل مرويات الصحابة، ولم يصح عنده إلا بضع عشرات منها.

الصحابة

ولابدّ لنا ونحن نتكلم عن الموضوعات وما يتعلق بهذا الموضوع من عرض موجز لآراء العلماء والمحدثين في تحديد الصحابة ومراتبهم في الرواية عن الرسولﷺ، وقد جاء في (الباعث الحثيث) للحافظ ابن كثير، و(التدريب) للسيوطي، وابن الصلاح في مقدمته وغيرهم أنه كل مسلم رأى الرسول أو سمع حديثه[٢]، طالت الصحبة أو قصرت بل ولو كانت يوماً واحداً على حد تعبير الإمام أحمد بن حنبل[٣]. وأسرف بعضهم إسرافاً لا مبرر له، فألحق بهم من رآه قبل النبوة ومات على الحنيفية كزيد بن

---

(١) المقصود هو الأمام أبو حنيفة النعمان المولود في سنة (٨٠) والمتوفى في (١٥٠هـ). وهو رئيس المذهب الحنفي الذي هو أحد المذاهب الأربعة المعمول بها عند المسلمين.

(٢) الباعث الحثيث ص ١٦٩، مقدمة ابن الصلاح ص ١٧٦، وراجع كذلك أُسد الغابة ج١ ص ١٢، الإصابة ج١ ص ٨.

(٣) انظر الكفاية ص ٥١، تلقيح فهوم الآثار ص ٢٧.

عمر بن نفيل، أو رآه قبلها وأدرك البعثة مسلماً وإن لم يرَه[١].

وممن نص على أن مجرد الرؤية يكفي في إعطائه صفة الصحبة البخاري وأبو زرعة وابن عبد البر وأبو موسى المديني وابن الأثير في كتابه (أُسد الغابة في معرفة الصحابة)[٢].

وجاء في مقدمة ابن الصلاح أنهم توسعوا في إعطاء من رآه ولو مرة صفة الصحبة لشرف منزلته وعلوّ مقامه، وأضاف بعضهم إلى الرؤية أن يروي عنه ولو حديثاً أو حديثين[٣].

وتعرض سعيد بن المسيب لهجوم عنيف من المحدثين والفقهاء؛ لأنه اشترط أن يصحبه سنة أو سنتين، أو يغزو معه غزوة أو غزوتين؛ لأن ذلك يؤدي إلى خروج جرير بن عبد الله البجلي وأمثاله من الصحابة؛ لأنهم لم يمكثوا معه المدة المذكورة على حد تعبيرهم[٤].

[إدخال الجن والملائكة في الصحابة]

وقد ألحق ابن الأثير مؤمني الجن بالصحابة، وتردد بعض في إلحاقهم دون إلحاق الملائكة[٥]. ولكن ابن الأثير أجاب بأن الجن من المكلفين بالإسلام، وقد آمن بعضهم برسالة النبي، والملائكة لم يشملهم هذا التكليف؛ لذلك يتصف من آمن من الجن بها، ولا يتصف بها أحد من الملائكة. وأضاف إلى ذلك نبي الله عيسى بن مريم، إذا نزل إلى

(١) راجع حاشية رد المحتار لابن عابدين ص ١٤ نقلاً عن شرح التحرير.

(٢) لقد تحدثنا عن الصحابة وتحديد الصحبة مفصلاً في كتابنا (دراسات في الكافي والبخاري) ولكن الموضوع الذي نحن فيه يفرض علينا أن نتحدث عنهم على أن إعادة الحديث لا تخلو من بعض الفوائد والزيادات.

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص ١٧٦.

(٤) راجع فتح الباري ج٧ ص٣، أُسد الغابة ج١ ص١٢.

(٥) أُسد الغابة ج٤ ص٩٥.

الأرض وحكم بشريعة محمدﷺ يصح إعطاؤه هذا الوصف؛ لأنه رآه على وجه الأرض.

ونص الزرقاني في (شرح المواهب): «إن وصف الصحبة يثبت للملائكة كما يثبت لغيرها؛ لأن النبيﷺ أُرسل إليهم أيضا، ولكن إرسال تشريف، أو تكليف خاصّ غير التكليف الذي كُلف به الإنسان»[١].

[طبقات الصحابة في كتب السنة]

وجاء عن يحيى بن عثمان بن صالح المصري: «إن الصحبة تثبت لكل من أدرك عصر النبيﷺ وإن لم يرَه، وعلى هذا الأساس فقد عدّوا عبد الله بن مالك الجيشاني من الصحابة مع أنه لم يرَ النبيﷺ، ولم يدخل المدينة إلا في خلافة عمر بن الخطاب»[٢].

وألحق ابن عبد البر وابن منده بالصحابة كل من حُكم بإسلامه تبعاً لأبويه الصحابيين[٣].

إلى غير ذلك من الأقوال والآراء التي لا ترتكز على أساس من العلم أو العرف؛ ذلك لأن العلم والعرف لا يسمحان بإعطاء هذا الوصف لكل من رآه أو سمع حديثه أو ولد في عصره ونحو ذلك ما لم يكن متّصلاً به ولو شطراً من الزمن بنحو من الاتّصال الذي يختلف حسب الظروف والملابسات. ومن أجل ذلك فإن الناس يتفاوتون تفاوتاً محسوساً في الاتصاف بها حسب طول المدة وقصرها، والاتصال الوثيق وعدمه، والاطمئنان النفسي وغير ذلك، كما يتفاوتون في اتّصافهم بسائر الصفات، كالعلم والكرم، والشجاعة والبخل، والجهال، ونحو ذلك.

(١) شرح المواهب اللدنية ج٧ ص٢٨.

(٢) انظر (التدريب) للسيوطي ص ٢١٣ عن شرح التلقيح للقرافي.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

ومن هنا كان انطباق هذا الوصف على الذين لازموه منذ الأيام الأُولى إلى المرحلة الأخيرة من حياته أصدق وأظهر من الذين أسلموا في أُخريات أيامه ولازموه فيها حتى ولو أخذوا من أحاديثه، ورووا عنه أكثر من أُولئك بعشرات المرات. كما وأنه من أسلم بعد الهجرة لم يكن ارتباط هذا الوصف به وملاءمته له كارتباطه بمن آمن به في وقت مبكر من تاريخ إعلانه بالدعوة، في حين أن اتصاف من أسلم بعد الهجرة بها أتم وأكمل من اتصاف من تأخّر إسلامه إلى قبيل وفاته. وهذا لا يعني أن لطول المدة دخلاً في صدق هذا الوصف، وإنما الذي يعنيه هذا التفضيل هو أن الصحبة كغيرها من الصفات التي تنسب إلى الذات، وتُحمَل عليها بعد وجود أسبابها وملابساتها، وفي الوقت ذاته لابدّ وأن تختلف من حيث ارتباط المحمول بالموضوع باعتبار طول المدة وقصرها، وكثرة المعاشرة، وتبادل الوثوق والاطمئنان بين الطرفين. كما تختلف في ذلك بقية الصفات التي تنسب لموضوعاتها، كالعلم، والكرم، والشجاعة، ونحو ذلك.

أما مجرد الرؤية كما ذهب إلى ذلك أكثر أهل السنة، أو شمولها لكل من ولد في عصره كما ذهب إلى ذلك آخرون، أو مجرد الإسلام في عهده كما نُسب [إلى] بعضهم، أو الرواية عنه كما جاء في بعض الأقوال، أو شمولها حتى للجن والملائكة كما جنح لذلك بعض المنحرفين كابن الأثير والزرقاني في (شرح المواهب) [فـ] هذه الآراء لا تعتمد على سنة مقبولة، ولايقرها العقل والعرف في أي عصر من العصور. وإذا أردنا فحص هذه الآراء فحصاً جدياً لايثبت منها أمام النقد والتمحيص سوى الرأي المنسوب إلى سعيد بن المسيب الذي يضع حدّاً للحدّ الأدنى بسنة أو سنتين، أو يغزو معه ويجاهد بين يديه ولو مرة واحدة.

ومع أن الجمهور الأعظم من علماء السنة ومحدثيهم قد أعطوا هذا الوصف لكل من رأى النبي وسمع حديثه حتى ولو رآه لحظة واحدة [لكنهم] صنفوا المتّصفين بها إلى أصناف كثيرة أنهاها الحاكم النيسابوري إلى اثنتي عشرة طبقة[1]، وأنهاها ابن سعد في

---

(١) المستدرك ج٣ ص ٢٤٢ (كتاب معرفة الصحابة)، وكذلك معرفة علوم الحديث ص٥٢.

طبقاته إلى خمس طبقات[١].

إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التي لا يعنينا إحصاؤها، في حين أنهم اتّفقوا على أن الطبقة الأُولى تشمل كل من أسلم في عهد مبكر من تاريخ البعثة، وأن الخلفاء الأربعة أفضلهم، ويأتي من بعدهم بقية العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة[٢] على حد زعم أهل السنة.

[رأي الشيعة في الصحبة]

ونحن لا ننكر أن الأولين يتّصفون بالصحبة اتّصافاً صحيحاً، ولكنا ندّعي أن الصحبة مهما بلغت مدتها، ومهما كان نوعها، ومع أيّ كانت من الناس، نبياً كان أو وصياً أو غيرهما لا ترفع من شأن الإنسان، ولا توجب له ميزة على غيره من الناس ما لم يتأثر بها، وينفعل بصاحبه بنحو يكون في أقواله وأفعاله وجميع تصرفاته يعكس أقوال وأفعال وتصرفات الطرف الآخر. وأصحاب النبي ليسوا بأقرب إليه ولا بألصق به من بنيه الأقربين، ومع ذلك فلم يجعل الإسلام لهم ميزة على غيرهم من سائر الناس إلا بالعمل الطيب، والخدمات التي يقدمونها لغيرهم من بني الإنسان. وقد صحّ عنه أنه قال: «**خير الناس من نفع الناس**»[٣]. وأنه قال لفاطمة وهي وحيدته، وأعزّ الناس على قلبه وروحه، ومن ألصق الناس به في ليله ونهاره: «**اعملي يا فاطمة، فلن أغني عنك من**

(١) راجع الطبقات الكبرى الجزء الثالث إلى الجزء الثامن، حيث وضع مسردا تفصيلياً بإسماء الصحابة بعد أن قسّمهم إلى خمس طبقات.

(٢) حديث العشرة المبشرة بالجنة حديث مشهور جداً بين أهل السنة، وهذا نص الحديث: أن النبيﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة». راجع مسند احمد بن حنبل ج١ ص ١٨٨، سنن الترمذي ج٥ ص ٣١١ رقم الحديث ٣٨٣٠، السنن الكبرى ج٥ ص٥٦.

(٣) المبسوط ج٤ ص ١٩٤.

الله شيئاً»[١].

[موقف محدثي السنة من عمر بن عبد العزيز ومعاوية]

والشيء الغريب أن هؤلاء قد رووا عن النبي صلى الله عليه وآله قوله هذا لفاطمة، وغيره من المرويات التي تلغي جميع الامتيازات والاعتبارات لأيّ كان من الناس، ومع ذلك يزعمون بأن صحبة معاوية، وسمرة بن جندب، وعمرو بن العاص، وغيرهم من العشرات الذين لطّخوا تاريخ الإسلام بالجرائم والموبقات ترفع من شأنهم، وتجعلهم في صفوف القديسين، مع أن التاريخ يؤكد بأنهم منذ دخلوا الإسلام إلى أن خرجوا من هذه الدنيا وأيديهم تقطر من دماء الأبرياء والصلحاء. وأغرب من ذلك أن يبلغ الإسفاف ببعض المحدثين إلى القول بأن يوماً واحداً من أيام معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وآله خير من عمر بن عبد العزيز وأهل بيته[٢].

هذا الإسفاف الجائر إن دلّ على شيء فلا يدل إلا على حماقة هؤلاء الذين يريدون أن ينتحلوا الفضل لمّا عرّاهم الإسلام عن كل ما يمت إلى الفضيلة بسبب قريب أو بعيد. وعندما يستعرض الباحث مهما كان لونه تاريخ الرجلين، ويقارن بينهما وهما من حكّام تلك الدولة الجائرة التي أسّسها معاوية، فأمات بها العدل وأحيا بها الجور وشريعة الغاب، عندما يستعرض الباحث تاريخ الاثنين لا يسعه إلا أن يقف بجانب عمر بن عبد العزيز[٣] الذي لم يكن يهمه من أمر الخلافة إلا محو ما علق بها من آثار أسلافه

---

(١) كنز العمّال ج١٦ ص١٩ رقم الحديث ٤٣٧٥٣، مجمع الزوائد ج١ ص٤٩.

(٢) انظر (الباعث الحثيث) للحافظ ابن كثير ص ١٨١.

(٣) فهذا الرجل هو الذي منع شتم الإمام علي عليه السلام بعد أن كان يشتم على منابر المسلمين. ومن حسنات هذا الرجل أنه أعاد تدوين الحديث بعد أن منع قرابة التسعين عاماً، «وحث رسول الله صلى الله عليه وآله على نشر حديثه، وأكد وأمر بكتابة حديثه، ثم اجتهد الخلفاء ومنعوا من نشر حديث الرسول عليه السلام، ونهوا عن كتابته، وأصبح اجتهادهم حكما اسلاميا، ثم رووا الحديث عن رسول الله عليه السلام أنه نهى عن كتابة حديثه تأييدا لموقف الخلفاء. وبقي الامر كذلك، وامتنع المسلمون عن

وجور آبائه، والسير بها نحو الأهداف التي رسمها الإسلام للحاكمين، عدل بدون مواربة ولا محاباة، وزهد في كل شيء إلا في إحقاق الحق وإنصاف المظلومين، وسهر دائم على مصالح الرعية من أجل سعادة الإنسان من غير تمييز بين قوم وقوم أو جنس وجنس.

بهذا النحو من الإجمال تستطيع أن تضع الخطوط العريضة لمنهج هذا الحاكم وأهدافه خلال تلك الفترة القصيرة التي لو قدّر لها أن تمتد لفترة أطول وأشمل، لغيّرت وجه هذه الدولة القاتم المظلم الحافل بالمخازي والمنكرات، والتي كان شعار قادتها «السواد بستان لقريش»(١)، وأُسلوبهم استنزاف الثروات لإشباع شهواتهم: «احلب الدرّ، فإذا جف فاحلب الدم»(٢). بهذا التخطيط الجائر قطعت دولة الأُمويين التي

كتابة الحديث النبوي زهاء تسعين سنة، حتى إذا أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بكتابة الحديث النبوي الشريف، كتب المسلمون من أتباع مدرسة الخلفاء حديث الرسولﷺ، وألفوا المسانيد والصحاح والمصنفات الكثيرة الوفيرة في ذلك». معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري رحمه الله ج ٢ ص ٣٦٦.

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٣٦٥، الكامل في التاريخ ج٣ ص١٣٩، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج٢ ص١٢٩.

(٢) وهي سياسة معروفة ومعمول بها إلى اليوم حيث يتم إلهاء الشعوب بقضايا ثانوية وجانبية كالطائفية والعرقية وأمثال ذلك لاستنزاف خيراتها وسلب ثرواتها، «... إن طابع السياسة الظالمة إرهاق الشعوب واضطهادها، واستنزاف أموالها وذلك بفرض الضرائب عليها، ومن أفحش ألوان ذلك الارهاق الذي ينم عن جور السلطة وعدم احترامها للقيم الإنسانية ما حدث به المؤرخون أيام الحكم الأُموي، فقد ذكروا أن الوالي على الإقليم المصري شكا إلى عبد الملك العاهل الأُموي اضطهاد المصريين من الضرائب الجهنمية قائلا له: "يا أمير المؤمنين، إني ما جئتك حتى أنهكت الرعية وجهدت، فإن رأيت أن ترفق بها وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها، وصلاح معايشها، فافعل؛ فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل". فأنكر عليه الطاغية المستبد هذا العطف على المصريين، وأجابه بما يضمر في نفسه من الحقد الأسود على المجتمع قائلا له: "هبلتك أُمك، احلب الدر، فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا". النظام السياسي في الإسلام، باقر شريف القرشي، ص ٨٩ وقد نقل النص «احلب الدر...» عن الجهشياري: ص ٥١ – ٥٢.

وضع نواتها معاوية بن أبي سفيان مسيرتها الواسعة من غير أن يتخللها ولو بصيص من أمل بعيد إلى تلك الشعوب ولو بعض أمانيها، إذا استثنينا تلك الليالي البيض التي تخللت مسيرتها في عهد خليفتهم العادل[١]. ومع ذلك فإن محدثي السنة يبلغون أبعد من الإسراف في القول في تمجيد صحبة معاوية للرسولﷺ التي لم تغير من طبيعته المشركة شيئاً، ويزعمون أن يوماً واحداً منها في مقياس الفضائل خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه الحافلة بالخير والصلاح. وينتهي بهم الإسراف إلى التحامل على الشيعة؛ لأنهم لا يثبتون العدالة لكل من رأى النبي من الأعراب الجفاة، ومن مشركي مكة الذين لم ينطقوا بكلمة الإسلام إلا تضليلاً ودجلاً، ولأنهم لا يثبتون العدالة لهؤلاء ويصفونهم بالجهل والهذيان واتّباع الهوى:

إذا عيّر الطائيَّ بالبخل مادرٌ ... وعــيّر قســاً بالفهاهــة باقــلُ[٢]

[ما نسبه ابن كثير وغيره إلى موقف الشيعة من الصحابة]

قال ابن كثير في (الباعث الحثيث): أما طوائف الروافض وجهلهم وقلة عقلهم

---

(١) المقصود بالخليفة العادل هو الخليفة عمر بن عبد العزيز.

(٢) هذا البيت لأبي العلاء المعري في ديوانه المسمى بـ (سقط الزند) ص ٥٣٣. والطائي: هو حاتم الطائي المضروب به المثل في الجود والكرم. مادر: أحد البخلاء اللئام، يقال: إنه سقى إبله من حوض، ثم تغوط فيه لكي لا ينتفع به أحد. قس: هو قس بن ساعدة الأيادي خطيب مصقع عاش قبل الإسلام، ويلقب بـ (حكيم العرب). باقل: رجل معروف بالغباء والعيّ (عدم الفصاحة أو التمكن من البيان). يقال: إنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فسأله بعضهم عن السعر، ففتح كفيه وفرّق أصابعه العشرة ومدّ لسانه، يشير بذلك إلى أحد عشر، فانفلت الظبي وهرب. المعنى: كيف يمكن لمادر البخيل أن يعيّر حاتم الطائي بالبخل؟ وكيف يمكن لباقل الغبي المتلعثم في كلامه أن يعيّر قس بن ساعدة الحكيم في الفهم؟ والأبيات التي تلي هذا البيت هي:

وقال السها للشمس أنت خفية ... وقـال الدجى للصبح لونك حائلُ

وطاولت الأرض السماء سفاهة ... فأخرت الشهب الحصى والجنادلُ

فيا موت زر إن الحياة ذميـمة ... ويـا نفس جدي إن دهرك هــازلُ

ودعاويهم في الصحابة إلا سبعة عشر رجلاً منهم، فهو من الهذيان، ولا دليل عليه إلا مجرّد الرأي الفاسد عن ذهن بارد وهوى متّبع، وهو أقل من أن يرد. واستطرد المؤلف في حديثه عن قداسة الصحابة وعدالتهم إلى القول بأن أفضلهم أبو بكر عبد الله بن عثمان المعروف بـ «أبي قحافة»، ويأتي من بعده عمر بن الخطاب، وأن عبد الرحمن بن عوف كان في حيرة من أمره في تعيين الأفضل من الاثنين: علي وعثمان، وانتهى أخيراً إلى أفضلية عثمان بعد أن استشار أهل المدينة حتى النساء في خدورهن والصبيان في المكاتب على حد تعبيره، فاتفقوا جميعاً على فضل عثمان، ولذا ولاه الخلافة. وأضاف إلى ذلك أن الدارقطني قال: من قدّم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين الأنصار. وأبدى تعجبه واستنكاره ممن يقدم علياً عليه من أهل الكوفة(١).

ومهما كان الحال فلا أُريد أن أتبسّط في هذه المباحث، ولا يهمني منها إلا مقدار ما تدعو إليه الحاجة في الموضوع الذي بيدي، ولولا أن البحث عن الحديث يتوقف على هذه اللمحة الخاطفة لكنت في غنى عن هذا الموضوع.

[رأي الشيعة في الصحابة]

وعلى أيّ الأحوال فالشيعة لا يغالون في تجريحهم إلى الحد الذي يدعيه ابن كثير في (الباعث الحثيث)، ويقفون موقفاً وسطاً معتدلاً لا يسيء إلى الحديث، ولا يحابي المسيئين والمنافقين، ويحكمون عليهم من خلال حكم القرآن والسنة الكريمة. وبلا شكّ إن القرآن قد امتدح الطيبين منهم، ووصفهم بما يليق بهم، كما جاء في الآية من سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ

(١) انظر الباعث الحثيث ص ١٨٢، ١٨٣.

يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(١).

وجاء في آية ثانية **﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾**(٢).

إلى غير ذلك من الآيات التي أشادت ببطولاتهم وجهادهم وإخلاصهم لله ورسوله ورسالاته، هؤلاء لا يتجاهلهم الشيعة، ولا يتنكرون لمواقفهم المشرقة التي وقفوها في وجه الكفر والطغيان، ويستلهمون من سيرتهم وبطولاتهم أجمل معاني الخير والنبل والفضيلة، ويصفونهم بما وصفهم به الإمام العظيم علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام بقوله: «**اللهم صلِّ على أصحاب محمد الذين أحسنوا الصحبة وأبلوا البلاء الحسن في نصره، وأسرعوا إلى وفادته، وتسابقوا إلى دعوته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الأبناء والآباء في تثبيت دعوته**»(٣).

ولا نتردد في عدالتهم وقبول مروياتهم عن الرسول صلى الله عليه وآله مهما بلغت، أما تقديس جميع من أسموهم بـ«الصحابة» لمجرد أنهم رأوا الرسول أو سمعوا حديثه، أو عاشروه ولو زمناً طويلاً، ولكنهم مارسوا الفتن في حياته أو بعد وفاته، وختموا حياتهم إلى جانب معاوية وغيره ممن تستروا بالإسلام بعد أن عجزوا عن مقاومته، وباعوا ضمائرهم للشيطان، [فـ] هؤلاء لا يفرق الشيعة بينهم وبين الحاكمين الذين غيَّروا وبدَّلوا، وانحرفوا عن الخطوط العريضة التي وضعها القرآن والرسول للحاكم والمحكوم.

وبالتالي فإنا نطلب من القائلين بعدالة الصحابة وقبول مروياتهم ومرويات السيدة

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٠.

(٣) الصحيفة السجادية ص٤٤ «الصلاة على أتباع الرسل ومصدقيهم».

عائشة التي روت عن الرسول آلاف الأحاديث، وكانت مصدراً من مصادر الحديث الذي استمدت منه الطبقة الأُولى من التابعين كعروة بن الزبير وولده هشام وأمثالهما، نطلب منهم التوفيق بين قبول مروياتها وعدالتها، وبين قول النبي فيها كما جاء في صحيح البخاري عن نافع عن ابن عمر: إن النبيﷺ قام خطيباً وأشار إلى مسكن عائشة بيده وقال: «**الفتنة ههنا ـ ثلاثاً ـ حيث يطلع قرن الشيطان**»[١]. وجاء في رواية ثانية عنه: أن النبي خرج من بيت عائش وقال: «**رأس الكفر ههنا حيث يطلع قرن الشيطان**»[٢].

فهل يعني النبيﷺ بـ «**الفتنة**»، و«**قرن الشيطان**» نفس البناء ومحتوياته من أثاث وأخشاب، أو من يسكنه ويحل فيه، أو أن النبيﷺ قد استولى عليه الغضب من زوجته السيدة عائشة كما يستولي الغضب أحياناً على بعض الأزواج لأسباب شخصية، فوصفها النبيﷺ بهذا الوصف الذي لايتفق مع واقعها؟ لا يمكن لأيّ مسلم أن يحتفظ بإسلامه ويذهب إلى هذا الرأي؛ لأن ذلك ينتهي بالنتيجة إلى القول بأن النبي كغيره من الناس العاديين الذين يجرهم الرضا والغضب إلى التمادي في الباطل والانحراف عن الحق.

والسؤال يأتي بالنسبة لغيرها من الصحابة الذين التزموا بعدالتهم ووجوب الأخذ بكل مروياتهم، في حين أن البخاري روى في صحيحه أحاديث الارتداد[٣] ونحوها مما ورد في مروان وأبيه، ومعاوية وأمثاله إلا أن يلتزموا بأن هذا النوع من المرويات موضوع على النبيﷺ، لو التزموا بذلك يبطل هذا السؤال، ولكن عليهم والحال هذه

---

(١) صحيح البخاري ج٤ ص٤٦.

(٢) صحيح مسلم ج٨ ص١٨١.

(٣) فقد روى البخاري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيجلون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى». صحيح البخاري ج ٧ ص ٢٠٨.

أن يتراجعوا عن غلوهم في (صحيح البخاري)، وينظروا إليه كغيره من مجاميع الحديث التي تخضع للنقد والحساب. ولحد الآن لم يجرؤ أحد أن يقف منه هذا الموقف.

الفصل الثاني

في المؤلّفين والحديث

أصناف الحديث

لقد كان للحديث الحاكي لسنة الرسولﷺ دوره العملي في التشريع كما ذكرنا في أوائل الفصل السابق[1]، ولولاه لفقدت الشريعة صفة الكمال والشمول والمرونة التي امتازت بها عن جميع الشرائع والتشريعات الوضعية. وبالطبع فإن الحاجة إلى الحديث قد رافقت الطبقة الأُولى من المسلمين والطبقات التي تلتها، وتضاعفت الحاجة إليه على مرور الزمن بتوالي الأحداث وتطور أسباب الحياة، فكان من المحتم أن تبذل الجهود في مختلف البلاد الإسلامية وبخاصة بلد التشريع إلى تدارس الحديث متناً وسنداً، وتدوينه في المجاميع تدويناً منسقاً حسب الأبواب والمناسبات والمواضيع. وكانت مدرسة أهل البيت التي وضع نواتها عليعليه السلام وأبناؤه الكرام بقيادة الإمامين العظيمين الباقر وولده الصادقعليهما السلام تجمع من جميع البلاد آلاف الطلاب[2] لأخذ الحديث من معدنه الرئيس.

وحتى أبو حنيفة[3] مؤسس المذهب الحنفي وإمام أهل الرأي في عصره مع تشكيكه

---

(١) راجع ص ١٥ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٢) ألّف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الإمام الصادق ورواة حديثه وأنهاهم إلى أربعة آلاف. وحول موضوع الإمام الصادق ومدرسته يمكن مراجعة الكتب التالية: (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) للشيخ أسد حيدر،(الإمام الصادق) للشيخ محمد أبو زهرة، (الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب) لمجموعة من المؤلفين.

(٣) هو الإمام ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، أحد أصحاب المذاهب الأربعة، ولد في الكوفة سنة ٨٠ هجرية وتوفي سنة ١٥٠ هجرية في بغداد، وله فيها مزار معروف.

بأحاديث الصحابة قد التجأ لتلك المدرسة وأخذ منها في مختلف المواضيع، ودفعه إعجابه بقائدها وإنتاجها إلى أن ينوه عنها في أكثر من مناسبة بقوله: «**لولا السنتان لهلك النعمان**»[١]. وألف تلامذتها آلاف الكتب في الفقه والحديث وبقية العلوم، كان من أبرزها أربعمئة كتاب عرفت بعد ذلك بـ (الأُصول الأربعمئة)، لعلها من أبرز المصادر للمجاميع التي ظهرت في القرنين الثالث والرابع، والتي كان في جملتها الكتب الأربعة للمحمدين الثلاثة[٢].

[موقف الطبقة الاولى من الشيعة في الحديث والمحدثين]

كما اعتمد عليها علماء القرنين الثالث والرابع الذين كتبوا في أُصول المذهب الإمامي، ونظموا أُصوله ومبادئه، وخلصوه من خرافات الفرق وسخافات الغلاة والإسماعيلية[٣]، كما يبدو ذلك من مؤلفات علماء ذلك العصر كالمفيد والمرتضى ومحمد بن الفتح الكراجكي والطوسي وغيرهم ممن عاصروا أزمة الصراع العقائدي، والنزاعات الفلسفية التي برزت في اتجاهات المعتزلة[٤]، وبعض طوائف الإسماعيلية الذين بحثوا الدين على أساسها، واتجهوا إلى التوفيق بينه وبين تلك المذاهب. واتخذ هذا التفكير طابع الجدية عند أكثر العلماء إذا استثنينا القسم الأكبر من فقهاء السنة ومحدثيهم الذين أصروا على موقفهم المتصلب البالغ حد الغلو في الجمود على الحديث، والأشاعرة[٥] بقيادة أبي الحسن الأشعري.

---

(١) التحفة الإثني عشرية للآلوسي ص ٨.

(٢) محمد بن عبد يعقوب الكليني مؤلف (الكافي) ومحمد بن بابويه الصدوق مؤلف (من لايحضره الفقيه) ومحمد بن الحسن الطوسي مؤلف (التهذيب)و(الاستبصار).

(٣) الإسماعيلية: فرقة من الفِرق الشيعية ترى ان الإمام بعد جعفر الصادق هو ولده إسماعيل وليس موسى الكاظم. راجع الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ١٦٧.

(٤) المعتزلة: فرقة من الفرق الإسلامية الكلامية تذهب إلى أن الانسان خالق لفعله وليس مجبورا عليه، في مقابل الجبرية الذين قالوا: إن أفعال العباد مقدّرة من الله. المصدر السابق ج١ ص ٤٣.

(٥) الأشاعرة: فرقة إسلامية اشتهرت بإنكارها الحسن والقبح الذاتيين للأفعال، ورأوا ان الحسن ما

هذه الأُصول الأربعمئة كانت من أوثق الكتب التي ألّفها أصحاب الأئمة عليهم السلام، وإذا[1] لاحظنا تصلب القميين والأشعريين والكوفيين في الحديث، ودراستهم له متناً وسنداً، ورقابتهم على الرواة إلى حد أنهم كانوا يرفضون الرواية لمجرد التهمة بالانحراف عن مخطط الأُمامية، كما حدث لمحمد بن احمد بن عيسى القمي الذي أخرج من مدينة قم جماعة لمجرد اتّهامهم بالغلوّ[2]. وجاء في بعض المرويات أن المعتدلين من الشيعة كانوا يسمون الواقفية[3] وغيرهم من الفرق بـ (الكلاب الممطورة)[4].

وبلا شكّ فإن لهذا التصلب آثاره الحميدة؛ لأن الكذب في الحديث كان قد فشا وانتشر إلى أبعد الحدود من الفرق والقصاصين، وحتى من بعض المنحرفين في تشيعهم، بالإضافة إلى العناصر المعادية لأهل البيت التي كانت تضع أحاديث الغلو والمثالب لإيجاد فجوة بين أئمّة الشيعة وجماهير المسلمين عن طريق تلك الأحاديث التي تسيء إلى سمعتهم. لذلك فقد وقف شيوخ الشيعة هذا الموقف الصلب، وبذلوا أقصى ما لديهم من جهود للحدّ من ذلك النشاط المحموم الذي أحدث ثغرات في الحديث

حسّنه الشرع ولو كان قبيحاً بنظر العقل، والقبح ما قبّحه الشرع ولو كان حسناً بنظر العقل. راجع رأيهم هذا ومناقشته في الأصول العامة للفقه المقارن ص ٢٨٤ وما بعدها.

(١) فقد ذكر النجاشي في ترجمته لسهل بن زياد الآدمي ما نصه: «كان ضعيفاً في الحديث، غير معتمدٍ فيه. وكان أحمد بن محمد بن عيسى يشهد عليه بالغلو والكذب، وأخرجه من قم إلى الري وكان يسكنها» راجع رجال النجاشي ص ١٧٧.

(٢) لم يتّضح جواب «إذا» هذه.

(٣) فرقة من فرق الشيعة وقفت على إمامة موسى الكاظم ولم تؤمن بامتداد الإمامة إلى مَن بعده من الأئمة. راجع الملل والنحل للشهرستاني ص ١٦٩.

(٤) فرق الشيعة ص ٨٩ ـ ٩٠، الفَرق بين الفِرق ص ٦٣. ومما يجدر ذكره أن الشريعة الإسلامية تحكم على الكلب بالنجاسة، ويرى الفقه الإسلامي ان الرطوبة تنقل النجاسة إلى الأجسام الأُخرى، ومن هنا جاءت تسميتهم بـ (الكلاب الممطورة) أي المبتلّة بالمطر، أي انهم بالإضافة إلى نجاستهم فهم ينقلون النجاسة. ولا أدري كيف يحكم على إنسان بالنجاسة لمجرد الاعتقاد، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠.

لانزال نعاني من آثارها حتى اليوم.

ولم يكتفِ المخلصون بتلك المواقف ضد المنحرفين عن التشيع وطرح مروياتهم، بل تطوّع فريق منهم إلى التأليف في أحوال الرواة، ووضعوا أُصول علم الرجال والحديث؛ ليكون الباحث على بينة فيما يعود إلى الراوي والرواية، فألّف علي بن الحسن بن علي بن فضال، وكان مرجعاً في أحوال الرواة، ومن الموثوقين في الجرح والتعديل. كما ألّف في الموضوع نفسه كل من الفضل بن شاذان، ومحمد بن أحمد بن داود شيخ القميين في عصره، ومحمد بن الحسن المحاربي، ونصر بن الصباح المكنى بأبي القاسم البلخي، ومحمد بن خالد البرقي، ومحمد بن مسعود السمرقندي المعروف بالعياشي، وغير هؤلاء، كما نص أصحاب الفهارس كالنجاشي و(الفهرست) للطوسي و(منتهى المقال) للمرزا محمد وغيرهم. وقد أكد هذه الحقيقة الشيخ الطوسي في كتابه (العدة)، وجاء فيه أن «الطائفة ميّزت الرجال الناقلين لهذه الأخبار، ووثقوا الثقات منهم وضعفوا الضعفاء، وفرقوا بين من يعتمد على حديثه وروايته وبين من لا يعتمد عليه، وصنفوا الممدوحين والمذمومين فقالوا: فلان متّهم في حديثه، وفلان كذّاب أو مخالف في المذهب، ونحو ذلك من الطعون»[١] التي تضع حداً بين من يجوز الاعتماد عليه ومن لا يجوز.

وتوالت بعد ذلك المؤلفات في علمي الرجال والدراية بشكل أوسع تناولت أصناف الحديث من حيث إرساله وتقطيعه وتعليله ونحو ذلك مما سيأتي بيانه خلال هذا الفصل، وأصبح من الميسور لكل من يريد أن يتحرّى الأحاديث الصحيحة ويميّز بينها وبين غيرها أن ينتهي لذلك. مع العلم بأن ضعف الحديث لايعني سقوطه وعدم الاعتداد به في جميع الأحوال؛ ذلك لأن ضعفه من حيث عدم توفر الشروط المطلوبة في رواته لايمنع من كونه محاطاً ببعض القرائن الخارجية[٢] أو الداخلية التي ترجح

(١) عدة الأصول ج١ ص ٣٦٦.

(٢) المراد من القرائن الخارجية: هو أن يكون مدوناً في أحد الكتب التي أقرها الإمام عليه السلام ورخص

صدوره عن النبيﷺ أو أحد الأئمة؛ لجواز أن يصدق الكاذب أحياناً كثيرة، وليس من الحق إذا كذب الراوي أحياناً، أو كان مجهول الحال، أو كان متّصفاً بما أوجب عدم الوثوق به أن تسقط جميع مروياته مهما كان حالها مادام احتمال صدقه في مروياته أحياناً كثيرة قائماً. فلابد من التحري والبحث عن حديثه ودراسته دراسة موضوعية، حتى إذا تبين أنه لامانع منه، ولم تظهر عليه أمارات الكذب بأن كان مدعوماً ببعض الشواهد يتعين العمل به، ويصبح كغيره من المرويات الصحيحة.

[المؤلفون في الحديث من السنة في أوائل القرن الثاني]

وكما ألف علماء الشيعة في الحديث وأحوال الرواة ألف علماء السنة أيضاً بعد أن كان التدوين محظوراً عندهم، وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي في حوادث (١٤٣): وفي هذا العصر شرع العلماء في تدوين الحديث والفقه والتفسير، فصنف ابن جريج مؤلفاته في مكة، كما ألف أبو عروب(١) وحماد بن سلمة وغيرهم(٢). وصنف ابو حنيفة الفقه والرأي بالكوفة، كما صنف مالك موطأه بالمدينة، والأوزاعي في بلاد الشام، وسفيان الثوري كتابه الجامع، وصنف عبد الله ابن المبارك وهشيم بن بشر وغير هؤلاء في مختلف المناطق(٣). غير أن التأليف في هذه المرحلة كان ممزوجاً بأقوال الصحابة والتابعين كما يبدو ذلك في موطأ الامام مالك. وجاءت الطبقة الثانية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، فأفردت حديث رسول اللهﷺ عن أقوال الصحابة، وأثبتوا

بالرجوع إليها أو أثنى على مؤلفيها، أو كونه في أحد الأصول الأربعمئة، أو رواه من لا يروي إلا عن الثقات. والمراد بالقرائن الداخلية: أن يكون موافقاً للكتاب أو للعقل أو لغيرها من الأدلة التي يجوز الاعتماد عليها.

(١) في المصدر: سعيد بن أبي عروبة، لاحظ الهامش التالي.

(٢) ابن جريج هو عبد الملك بن عبد العزيز، وابن أبي عروبة هو سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة (١٥٠)، وحماد بن سلمة كانت وفاته سنة (١٦٧).

(٣) تاريخ الإسلام ج٩ ص١٣.

في الحديث السند الذي يوصله إلى الرسول أو الصحابي، وأصبحت مؤلفاتهم تعرف بالمسانيد لهذه الغاية.

وجاءت بعد هذه الطبقة طبقة أُخرى رأت أمامها ثروة غنية بالكنوز غير أن الصحيح فيها ضاع بين المكذوب، وكان الكذب في الحديث قد بلغ حده الأقصى في جميع المواضيع، وتعددت المذاهب والاتّجاهات، ومارس الحكام أساليب التضليل واستغلال الدين لتبرير تصرفاتهم، وانتشر القصاصون في المساجد والمجتمعات في جميع العواصم والمدن الإسلامية، فاتّجهوا إلى اختيار الصحيح وإفراده عن غيره. وكان في طليعتهم شيخا المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي المتوفى سنة (٢٥٦)، ومسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى سنة (٢٦١)، فألّفا صحيحيهما بعد أن دقّقا في سند الروايات، فاختار محمد بن أسماعيل صحيحه من ستمئة ألف رواية كما يدّعون، واختار الثاني صحيحه من نحو من هذا العدد.

[غلو المحدثين في صحيحي البخاري ومسلم]

وأصبحا من أجلّ المراجع وأقدسها عند جميع أهل السنة بعد كتاب الله على حد تعبيرهم[1]، وحذا حذوهما أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة (٢٧٥)، وأبو عيسى محمد بن عيسى السلمي المعروف بالترمذي المتوفى سنة (٢٧٩)، وأبو عبد الله محمد بن زيد القزويني المعروف بابن ماجة المتوفى سنة (٢٧٣)، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة (٣٠٣). واشتهرت هذه الكتب الستة بـ «الصحاح»، ونالت شهرة واسعة لم ينلها كتاب من كتب الحديث قبلها وبعدها، ولكن

(١) قال العيني في عمدة القاري ج١ ص٦ مانصه: «اتفق علماء الشرق والغرب على أنه ليس بعد كتاب الله تعالى أصح من صحيحي البخاري ومسلم، فرجح البعض منهم المغاربة صحيح مسلم على صحيح البخاري، والجمهور على ترجيح البخاري على مسلم؛ لأنه أكثر فوائد منه. وقال النسائي: ما في هذه الكتب أجود منه».

جامع البخاري المعروف بـ (الصحيح) يأتي بالدرجة الأُولى بين هذه الصحاح. وقد غالى به أهل السنة غلوّاً مفرطاً حتى جعلوه ثاني كتاب الله(١)، وأضاف إلى ذلك المقدسي: بأن من روى عنه البخاري فقد جاز القنطرة[١]، إلى كثير من أمثال هذه المقالات.

ولو أراد الباحث أن يطبّق أُصول علم الدراية على صحيحي البخاري ومسلم، ويستقصي أحوال رواتهما لم يجد مبرّراً لهذا الغلو[٢]، ولا وجهاً لوصفهما بالصحّة؛ لأن الأسانيد الضعيفة فيهما حسب الأُصول التي وضعوها لأحوال الرجال أكثر من الأسانيد الموثوقة.

ورويا عن المشبوهين والمتهمين بالكذب، والمجهولين، والخوارج والنواصب، وغير ذلك من الأصناف الذين يجب التثبت في أحاديثهم، والوقوف عندها طويلاً؛ للتأكّد من صدورها. وقد أعطينا أمثلة في كتابنا (دراسات بين الكافي والبخاري)[٣] من المتّهمين والوضّاعين بين رجال البخاري، وتحدثنا عنه طويلاً في الفصل الذي تحدثنا فيه عن البخاري ومروياته. والذي لا يمكن التنكر له هو أن البخاري وغيره من أصحاب الصحاح قد خطّطوا لكتبهم، ووضعوا كل حديث في المحل المناسب له، ووزعوها على الأبواب التي تناسبها، وتحرّوا جهدهم في الاختيار والتنسيق؛ فكانت كتبهم حدثاً

---

(١) إرشاد الساري ج١ ص ٢١، هدى الساري ص ٣٨١.

(٢) لقد روى البخاري عن عمران بن حطان الخارجي الذي مدح قاتل الإمام علي عبد الرحمن ابن ملجم بأبيات معروفة يقول فيها:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

راجع: الاستيعاب ج٣ ص ١١٢٨. ومن غريب ما قرأت في هذا الموضوع ما ينقله المارديني في الجوهر النقي ج٨ ص ٥٩ عن الطبري أنه قال: «ولا خلاف بين أحد من الأُمة ان ابن ملجم قتل عليا متأوّلاً مجتهداً مقدراً على أنه على صواب. وفي ذلك يقول عمران بن حطان: يا ضربة من تقى...» فبرر فعل ابن ملجم، وبرر مدح بن حطان له، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) راجع: دراسات في الحديث والمحدثين، للمؤلف ص ١٦٣ وما بعدها.

جديداً في تاريخ التأليف من حيث التنسيق والتبويب والاختيار، واستيعاب أكثر المواضيع الإسلامية؛ مما سهّل على الطبقة الرابعة أن ترجع إلى مصدر واحد في الموضوع الذي تريده بدلاً عن عشرات الكتب التي كانت تجمع الأحاديث المتنوعة وكأنها من موضوع واحد. لذلك كانت الكتب الستة، ومن بينها صحيح البخاري ناسخة تقريباً لجميع الكتب، ومصدراً لكل مشرّع ومحدّث.

ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات أن تختلف الأنظار في تقييم هذا النوع من المؤلّفات، وأن يكون بينهم المغالي والمسرف في غلوّه لاعتبارات حزبية أو شخصية، والمعتدل في نظرته وتقييمه، كما هو الحال في كل ما يستهوي الإنسان من أشياء هذه الدنيا. غير أن أهل السنة قد وقفوا صفاً واحداً من هذه الصحاح، وبخاصة صحيح البخاري، ولم أجد بينهم المعتدل في تقييمها كما يبدو ذلك للمتتبع في آرائهم حولها[١].

[منزلة الكافي عند متقدمي الشيعة]

وعندما نستعرض آراء الجعفريين في الكتب الأربعة التي اشتهرت بينهم نجد المعتدل في نظرته إليها بجانب المغالي بها، والناقد لرواتها ورواياتها بجانب من يقول: وناهيك ممن روى عنه الكليني[٢]. ولكنْ الغلاة في الكتب الأربعة وفي (الكافي) من

---

(١) ذكر البخاري بسنده عن أم المؤمنين عائشة أن النبيﷺ مكث كذا وكذا يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي إلى أن قال لي: «يا عائشة، إن الله أفتاني في أمر استفتيته فيه، أتاني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رجلي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، أي مسحور. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم». إلخ إلى أن ذهب عنه أثر السحر بعد مدة. صحيح البخاري ج٧ ص ٢٩. قال الشيخ الدكتور أحمد الوائلي رحمه الله معلقاً على هذه الرواية: «ومعنى هذه الرواية أن النبيﷺ أُصيب بفقدان الذاكرة، أو بالفصام، وما أدري ما هو حال الوحي خلال هذه المدة! فإذا جاز أن يصاب النبي بمثل هذا المرض، فما هو مقدار الثقة بالوحي؟ وعلى كلٍ تبقى مسؤولية الرواية على عاتق أُم المؤمنين والبخاري». هوية التشيع ص ٥٦.

(٢) يقول محسن الكاظمي عند تعرضه للمجهولين ممن روى عنهم الكليني: «وما كان الكليني

بينها بصورة خاصة، على أنهم قلة بالنسبة للمعتدلين في تقييمها لم يبلغوا في غلوهم غلو أكثر أهل السنة في صحيحي البخاري ومسلم.

وبلا شكّ أن الكليني قد بذل جهوداً يشكر عليها ويستحق التقدير والتعظيم؛ ذلك لأن المميزات التي اشتمل عليها كتابه لم تتوفر في غيره من المؤلفات التي تقدمت عليه، ولأنه جمع الأُصول والفروع والأخلاق والآداب وجميع أبواب الفقه من الطهارة إلى الديات، ووضع الأحاديث التي تتناسب مع كل فصل، بل وكل مسألة في المحل المناسب لها. ولذا فإن المحققين من أعلام الإمامية المقاربين لعصره كالمفيد والمرتضى والكراجكي وغيرهم ـ مع أنهم أبدوا حوله بعض الملاحظات، وأخذوا عليه الاعتماد على بعض المرويات ـ لم يتنكروا لحسناته، فقالوا بأنه «لم يصنف مثله»، وأنه «من أجلّ الكتب وأكثرها فائدة»[1] على حد تعبير المفيد رحمه الله[2].

وإذا أردنا أن نستعرض الأسباب التي جعلت لـ (الكافي) هذه المكانة عند القدامى من العلماء والمحدثين، بل وحتى عند الأخباريين الذين هم أشبه بحشوية العامة فلابد أن نضع في حسابنا شخصية الكليني وتلك الثقة التي كان يتمتع بها، وشخصية المؤلف قد تطغى أحياناً وتضيف إلى قيمة الكتاب قيمة أعلى وأرفع من قيمته الواقعية. والناس في كل عصورهم يؤخذون بشخصية المؤلف من حيث لايشعرون. وفي التاريخ عشرات الشواهد على هذه الظاهرة، وحسبما أظن أني قد وفيت المقام حقه في كتابي (دراسات بين الكافي والبخاري)[3].

[تصنيف الحديث إلى الأصناف الأربعة]

ومهما كان الحال فإن تلك الهالة التي كانت لـ (الكافي) ظلّت تسيطر على عقول

ليتناول عن مجهول، وناهيك في حسن حالهم كثرة تناول مثل الكليني عنهم». العدة ص ٤٦.

(١) راجع هذه الكلمات وأمثالها في (نهاية الدراية) للسيد حسن الصدر، ص ٥٣٩.

(٢) تصحيح اعتقادات الإمامية ص ٧٠.

(٣) راجع دراسات في الحديث والمحدثين ص ١٢٥ وما بعدها.

الكثيرين ومداركهم خلال قرنين من الزمن، إلى أن جاء دور العلامة الحلي وأُستاذه أحمد بن طاوس، وسلّطا الأضواء على جميع المرويات والمؤلفات في الحديث في غير استثناء، وذلك بواسطة التصنيف الرباعي الذي كان من أعظم الأحداث خطراً على الحديث كما يزعم الأخباريون؛ لأنه يعرض أكثر من نصف الأحاديث الموجودة في المجاميع بما في ذلك(الكافي) إلى السقوط، أو التشكيك بها على أقل التقادير. ومن ذلك التاريخ بدأت نظرتهم إلى الحديث تختلف أشدّ الاختلاف عما كانت عليه قبل العلامة الحلي رحمه الله؛ فلقد كان الحديث يدور بين الصحيح وغيره، والصحيح عندهم يتّسع حتى للضعيف إذا كانت مدعوماً ببعض القرائن، أو كان موافقاً للكتاب أو لدليل مقبول، كما يتّسع غير الصحيح للضعيف المجرد عن القرائن، وللصحيح المخالف للكتاب أو لأصل معتبر.

والواقع أن العلماء والباحثين وجدوا بسبب هذا التقسيم منفّساً للخروج من تلك الهالة التي كانت للكتب الأربعة بعد أن عرضوا مروياتها على الأصناف الأربعة. وقد أحصى المجلسي في كتابه (مرآة العقول) أكثر من ثلثي مرويات الكافي، [وصنفها] مع النوع الذي لا يجوز الاعتماد عليه إذا لم يكن مدعوماً ببعض القرائن التي ترجّح صدوره عن الأئمة عليهم السلام بعد التحقيق الذي أجراه في أسانيدها[1]، مع العلم أن (الكافي) من أوثق الكتب الأربعة.

وكما ذكرنا إن الطبقة الأُولى التي بدأت تدقّق في مرويات الكتب الأربعة قد

---

(١) علماً أن كتاب (مرآة العقول) هو للمجلسي الكبير، وليس لمحمد باقر المجلسي صاحب (بحار الأنوار). قال السيد مرتضى العسكري رحمه الله: «إن المجلسي الكبير (المتوفى ١١١١ هـ) عندما شرح كتاب (الكافي) في كتابه (مرآة العقول) نبّه فيه على آلاف الأحاديث الضعيفة الواردة في أبواب كتاب (الكافي)، وهو أشهر كتاب حديث في مدرسة أهل البيت. وهذا الأمر بمدرسة أهل البيت مخالف لما عليه أتباع مدرسة الخلفاء الذين يرون لـ (صحيح البخاري) ما يرونه لكتاب الله، ويعتقدون أنه ليس فيه حديث غير صحيح». معالم المدرستين ج١ ص ٢٩٢.

تعرضت لهجمات عنيفة، واتّهامات لا مبرّر لها من أُولئك الذين أفرطوا في ولائهم لهذه الكتب، وأخذوا بمحتوياتها في غير تحقيق في متونها ولا تدقيق في أسانيدها، كما فعل شيوخ السنة بالنسبة لصحيحي البخاري ومسلم، وبقية الصحاح. وهؤلاء وإن كانوا يشكلون عدداً ضخماً خلال قرنين متتاليين من الزمن إلا إنهم لا يعكسون رأي الشيعة؛ ذلك لأن المحققين من علماء الطائفة مع تقديرهم لجهود الكليني قد اقتصدوا في تقريظه والثناء عليه، ولم يدّعوا أن كل ما جاء به في مؤلفاته من النوع الذي لا يخضع للنقد والتجريح، ووقفوا في وجه الأخباريين الذين جعلوه فوق الشبهات، كما صنع حشوية العامة في أحاديث سلفهم حتى ولو خالفت أُصول الإسلام.

ومهما كان الحال، فتصنيف الحديث إلى الأصناف الأربعة كان نتيجة حتمية لدراسة الحديث متناً وسنداً. ونعني بـ «متن الرواية»: الصيغة الحاكية للمعنى المراد منها، والصيغة مرة تكون نصّاً فى المعنى بنحوٍ لا يقبل المراجعة، وأُخرى تكون صالحة لأكثر من معنى واحد، كما لو احتملنا لها معنيين. فإن تساوت دلالتها عليهما ـ بمعنى أن احتمال إرادة أحدهما كان مساوياً لاحتمال إرادة الآخر ـ يكون الحديث من نوع المجمل، وإن كان ظهورها في أحدهما أقوى وأتم من ظهورها في الآخر، فان اقترنت الصيغة بدليل يؤكّد إرادة المرجوح منها، فالحديث من نوع المؤوّل حسب اصطلاح علماء الدراية، وإن تجردت الصيغة عن ذلك تكون من نوع الظاهر بالنسبة لأحد المعنيين.

ثم إن ظهورها في أحد المعنيين مرة يكون شرعياً، كما في ظهور لفظي الصلاة والصيام في المعنى الشرعي، وهو الكيفية الخاصة التي أرادها الشارع منهما، وأُخرى يكون عرفياً، وثالثة يكون من حيث كثرة استعمال اللفظ في المعنى بنحوٍ يحصل من كثرة الاستعمال آنس بين اللفظ والمعنى على حد تعبير أهل المعاني والبيان. ومن أنواع الظاهر: المطلق والعام. ونعني بـ «المطلق» أن يكون اللفظ دالاً على الماهية التي تتحقق في ضمن الواحد والأكثر، و«العام»: هو الظاهر في أكثر من معنيين من غير تحديد بعدد

خاص، فإن دلالة العام على جميع الأفراد التي يصدق عليها عنوان العام ليست بنحو يمتنع إرادة بعضها من لفظه.

هذا كله من ناحية دلالة الألفاظ والصيغ على معانيها، أما من ناحية الاستعمال، فاللفظ المستعمل في المعنى مرة يكون مستعملاً في المعنى الجزئي، ومرة يكون مستعملاً في الكلي، أي في القدر الجامع بين المعاني المتعددة. وعلى التقديرين مرة يكون بنحو الحقيقة، وأُخرى بنحو المجاز، وثالثة في المعنى المنقول إليه اللفظ، ورابعة في المطلق أو المقيد، أو العام أو الخاص، أو المبين ونحو ذلك من الاستعمالات التي قد تحدث في مقام التخاطب، والتي قد تستعمل فيها متون الأحاديث(١).

[مقومات الأخذ بالحديث والاعتماد عليه]

وفي الوقت ذاته لا يصحّ الأخذ بالحديث وتطبيق مضمونه إلا بعد الاطمئنان لجهة استعماله بعد أن تتوفّر فيه الشروط من ناحية سنده.

والمراد بـ «السند» الذي يعني الباحثين في علم الدراية: هو عبارة عن مجموع الرواة الذين تناقلوا الحديث واحداً عن واحد حتى ينتهي إلى النبيﷺ أو الإمامعليه السلام، ويسمى سنداً من حيث إن كل واحد يسند الحديث إلى الآخر. كما وأن الأوصاف التي توصف بها الرواية تتفرّع على مراتب السند وتختلف باختلافه.

ولا فرق في هذه الجهة بين السنة التي هي عبارة عن الكلام الصادر عن النبي او الإمام، وبين فعل النبي أو تقريره وإن كان لكل من الفعل والقول والتقرير جهات تخصّه، فالسنة الفعلية إذا وقعت بياناً لتكليف من التكاليف تكون تابعة لذلك التكليف من حيث الوجوب وغيره من الأحكام الخمسة. وإن وقع الفعل من النبي أو الامام ابتداء بنحوٍ لم يكن مسبوقاً بسؤال ولا بقرائن تدل على أنه لبيان حكم من الأحكام

---

(١) للمزيد عن هذه المصطلحات وأشباهها يمكن الرجوع إلى كتاب (معجم مصطلحات الرجال والدراية).

الشرعية، فقد قوّى الشيخ عبد الصمد في درايته عدم كونه دليلاً شرعياً، واستطرد يقول: إن فعلهم المجرد عن السؤال والقرائن الدالّة على جهة صدوره إن كان في الأشياء العرفية التي لا تتصل بالتشريع لا يستفاد منه أكثر من الإباحة المطلقة، وإن كان في العبادات يكون دليلاً على الرجحان بضميمة أن المعصوم لا يفعل المرجوح [دون] الراجح إلا لمصلحة تقتضي ذلك[1].

وأما السنة التقريرية التي هي عبارة عن سكوت النبيﷺ أو الإمام عليه السلام عن عمل يقوم به إنسان بمرأى منهم ومسمع، هذا السكوت يعتبر منهم إقراراً لذلك العمل، ودليلاً على جوازه ورجحانه بنحو الوجوب او الاستحباب، وإلا يكون سكوتهما مع عدم المانع عن إظهار الحق إذا لم يكن الفعل مشروعاً إقراراً للمنكر والباطل. وكما ذكرنا تثبت السنة الفعلية والتقريرية بالخبر الحاكي لهما، وتجري فيه جميع الأقسام والاحتمالات التي تجري في الخبر الحاكي لأقوال المعصوم وتصريحاته كما ذكرنا.

ثم إن الخبر باعتباره كاشفاً عن قول المعصوم أو فعله أو تقريره مرة يكون مقطوع الصدق كخبر الله سبحانه وخبر الأنبياء والأوصياء، وأُخرى يكون مقطوع الكذب كخبر مسيلمة[2] بأنه يتلقى الوحي من الله سبحانه، وكما لو أخبر إنسان بخلاف الواقع أو بخلاف المحسوسات ونحو ذلك من الأخبار الكاذبة، ومرة ثالثة يكون مظنون الصدق أو الكذب كخبر العادل والفاسق، ومرة رابعة يكون مشكوكاً ـ أي أن احتمال صدقه مساوٍ لاحتمال كذبه ـ كما لو كان المخبر مجهول الحال، أو كان معلوم الحال من حيث العدالة وعدمها، ولكنه كان محاطاً من ناحيتي صدقه وكذبه ببعض القرائن المتعادلة كما يتّفق ذلك أحياناً.

---

(١) (وصول الأخيار إلى أصول الأخبار) ص ٩١.

(٢) مسيلمة: شخصية معروفة في صدر الإسلام، ادّعى النبوة، وكتب إلى النبي محمد كتاباً جاء في أوله: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله...». فردّ عليه النبي: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب...». فاشتهر باسم «مسيلمة الكذاب».

[المتواتر والآحاد]

وينقسم الحديث من حيث رواته إلى متواتر وآحاد. والحديث المتواتر مرة يكون متواتراً في لفظه ومعناه، وأُخرى يكون متواتراً في معناه لا غير:

والأول هو الذي يرويه جماعة يحصل العلم بصدقهم، ولابد من حصول العلم في جميع الطبقات فيما لو كانت المسافة بين الرواة والمعصوم بعيدة، وتعددت الوسائط، كما لو رواه التابعي عن الطبقة الأُولى من التابعين عن الصحابي عن النبيﷺ، فإن هذا النوع من المرويات لا يوصف بالتواتر إلا إذا رواه جماعة من تابعي التابعين يحصل العلم بصدقهم عن جماعة من التابعين يحصل العلم بصدقهم أيضاً، وعن جماعة من الصحابة يحصل العلم من روايتهم، وعن جماعة رووه عن النبيﷺ. ولا يشترط في الجميع العدالة، ولا غيرها من الشروط التي لابد منها في أخبار الآحاد، ولابدّ مع ذلك من العلم بأن المخبرين لم يتواطؤوا على الكذب، وألا يكون السامع عالماً بمضمون الخبر من طريق آخر كالحس ونحوه؛ لأنه إذا كان عالماً بمضمونه من أي طريق يفقد الخبر فائدته، ولابدّ من أن يكون ذهن السامع خالياً من كل شبهة تخالف مضمونه، وألا يكون معتقداً لخلافه تقليداً أو اجتهاداً أو من سبب آخر.

ويشترط فيه أيضاً أن تستند جميع الوسائط في إخبارها إلى الحس، بأن تسمع الطبقة الأُولى من النبيﷺ، وتسمع الثانية منها، وهكذا إلى أن ينتهي إلى الطبقة الأخيرة، فلو استندوا إلى دليل عقلي أو نص قرآني، لا يكون الخبر من النوع المتواتر. ومع ذلك لا يشترط في حصول التواتر عدد معيّن، وكلّ مافي الأمر أن يبلغ رواته من الكثرة حدّاً يمتنع في افتراض تواطئهم على الكذب، ويحصل العلم من إخبارهم مهما كان عددهم. أما تحديد المخبرين بعدد خاص؛ أربعة عشر، أو سبعين، وغير ذلك مما جاء في مؤلفات أهل السنة [فـ] هذه التقديرات لا أساس لها عند الشيعة.

ويرى أكثر المحدثين أن التواتر اللفظي بهذا المعنى من النوادر بين المرويات الشيعية، بل لا توجد بينها سوى بضعة أحاديث من هذا النوع. ويدّعي جماعة من محدثي السنة

أن هذا النوع من التواتر ميسور بين مروياتهم عن النبيﷺ، وعدّوا منه حديث «من كذب عليّ متعمداً» وحديث انشقاق القمر، وأحاديث الترغيب في بناء المساجد، والشفاعة، وغير ذلك مما أورده صبحي الصالح في كتابه (علوم الحديث ومصطلحاته)(١).

وأما التواتر المعنوي [فهو] الذي يحصل من رواية جمع للحديث بألفاظ مختلفة مع الاتفاق على المعنى بنحو يحصل العلم بالمعنى المراد من إخبارهم. هذا النوع من التواتر المعروف بالتواتر المعنوي لا يبعد أن يكون كثيراً بين المرويات الشيعية في الفروع والأُصول، كما يبدو ذلك للمتتبع في مجاميع الحديث عند الفريقين(٢).

[المشهور والمستفيض والغريب]

وكما يوصف الحديث بالتواتر يوصف بالشهرة والاستفاضة، والمراد من المشهور: أن يشتهر الحديث بين الرواة ولو في بعض الطبقات، كما لو رواه واحد عن النبيﷺ أو الإمامعليه السلام، ورواه عن الواحد جماعة(٣)، فيوصف في مثل ذلك بالشهرة حتى ولو رواه واحد عن واحد هكذا، وبالتالي رواه عن الواحد جماعة. وقد مثّلوا له بحديث **«الأعمال بالنيات»**، حيث رواه عن النبي واحد لا غير، ورواه عن ذلك الشخص جماعة، فاستحقّ بذلك الوصف بالشهرة.

أما الاستفاضة فلا يوصف بها الحديث إلا إذا رواه أكثر من ثلاثة في جميع مراحله حتى ينتهي إلى الراوي الأخير. وهو في هذه الناحية يلتقي مع المتواتر غير أن الكثرة في التواتر حدها الأدنى أن يحصل منها العلم، والمستفيض لا يشترط به ذلك.

وكما يوصف بهذه الأوصاف يوصف بالغرابة أيضاً إذا اشتمل على بعض الألفاظ

---

(١) علوم الحديث ومصطلحاته ص ١٤٣.

(٢) انظر مقباس الهداية للمقمقاني، والوجيزة للشيخ عبد الصمد الحارثي، والعدة للشيخ الطوسي.

(٣) في الأصل: الواحد عن الجماعة، والأظهر ما استقربناه.

الغامضة التي يصعب فهمها ويقل استعمالها في مقام التخاطب. ويوصف بالندرة أيضا إذا رواه اثنان أو أكثر عن مصدره. وسبب تسميته بذلك هو ندرة هذا النوع من المرويات عن النبيﷺ والأئمةعليهم السلام، أو لأنه يصبح قوياً ومعنياً به فيما لو رواه الاثنان أو الأكثر في جميع مراحله[١].

ومهما كان الحال، فالتقسيم الأوّلي للحديث في عُرف المؤلفين هو المتواتر والآحاد. والنوع الأول لم يتردد أحد في وجوب الأخذ به والتعبد بمقتضاه للعلم بصدوره عن المعصوم، ومن هذه الناحية يصبح مقطوع الصدور من حيث سنده، أما من حيث دلالته فهو كغيره من الأدلة التي تختلف في مقدار دلالتها وقوة ظهورها؛ فالحديث المتواتر لا يمتاز عن غيره إلا من ناحية القطع بصدوره؛ فإن كان نصّاً في معناه يجب اتّباعه، وإن كان ظاهراً يكون كغيره من الظواهر لا يجب التقيّد بمضمونه إلا بناءً على أن ظواهر الكلام والخطابات القرآنية وغيرها يجب التقيد بها والعمل بمقتضاها.

[تحديد الشيعة لأخبار الآحاد]

وأما الآحاد[٢] فهو الذي لا يبلغ رواته من الكثرة حداً يحصل منه العلم بصدوره عن المعصوم سواء كان الراوي له واحداً أو أكثر؛ ولذا فقد عدّ المؤلفون في دراية الحديث المشهور والمستفيض والعزيز من نوع الآحاد، وانتهوا إلى النتيجة التالية، وهي: أن كل حديث يحصل العلم بصدوره عن مصدره الأول نبياً كان أو إماماً يتعيّن الأخذ به والعمل بمقتضاه إذا كان نصاً لا يحتمل الخلاف في معناه، أو كان ظاهراً في المعنى ظهوراً يوفر للباحث مرحلة من مراحل العلم الذي يعتد به في مقام التفاهم والتخاطب، وإذا لم تتوفر في الحديث هذه النواحي فمع العلم بكذب الراوي ولو في

---

(١) كما نص على ذلك المؤلفون في دراية الحديث.

(٢) راجع البحث الذي كتبه السيد محمد باقر الصدرقدس سره في (بحوث في علم الأصول) ج٤ ص ٣٣٨ وما بعدها حول الخبر الواحد وحجيته، والآراء حوله، ومناقشة هذه الآراء.

القرائن الخارجية يسقط الحديث عن الاعتبار؛ إذ لا يمكن والحالة هذه أن يتعبدنا الشارع بما يتناقض مع العلم ومع الظن بصدوره كما لو كان الراوي له واحداً أو أكثر وكان عدلاً إمامياً، أو إمامياً مجهول الحال، أو مستقيماً في دينه وسيرته ولو لم يكن إمامياً يصح من الشارع أن يرخص في العمل به.

ومهما كان الحال فالآحاد الذي يشمل المشهور والمستفيض والعزيز لم يعتنِ المؤلفون والمحدثون قبل القرن السابع الهجري بدراسة أسانيده دراسة موضوعية وتصنيفه إلى الأصناف الأربعة كما فعل العلامة الحلي جمال الدين وأُستاذه احمد ابن موسى بن طاووس[1]؛ حيث إنهما صنّفا الحديث إلى الأصناف الأربعة، ودرساه على أساسه. وبعدهما مضى العلماء والمحدثون على هذا التخطيط، بينما ظل الحديث أكثر من أربعة قرون ينقسم إلى مقبول ومردود:

فالمقبول هو الذي [يرويه] العدل الإمامي في جميع مراحل السند، ومثله حديث غير العدل إذا كان مقترناً بإحدى القرائن التي ترجّح صدوره.

والمردود هو الذي لم تتوفر فيه هذه الشروط.

ومجمل القول أن الصحيح حسب التصنيف الأخير هو الذي يرويه العدل الإمامي أو العدلان في جميع مراتب السند إلى أن ينتهي إلى النبيﷺ أو الإمامعليه السلام. وأضاف إلى ذلك الشيخ عبد الصمد في وجيزته: على شرط ألا يكون شاذّاً أو معلّلاً[2]. وأكد أن هذين القيدين لم يتبناهما أكثر محدثي الشيعة، في حين أن محدثي السنة قد نظروا إليهما بعين الاعتبار. ورجح أخيراً عدم التنافي بين صحة الحديث وشذوذه، ومضى مع الرأي القائل بأن الحديث الصحيح يجب ألا يكون معلّلاً، وفسّر المعلّل بالحديث المشتمل على سبب غامض موجب لضعف الحديث في سنده أو متنه بنحو لا يتفطّن له إلا الماهر في علم الحديث. وأضاف إلى ذلك: إن العلة في متن الحديث ترجع إلى ضعف تركيبه، أو

---

(١) المتوفى سنة ٦٧٣، والعلامة الحلي المتوفى سنة ٧٢٦.

(٢) راجع الوجيزة ص٤.

مخالفته لقواعد العربية، أو لدليل قاطع، ونحو ذلك. والعلة في السند ترجع إلى اشتراك الراوي بين الثقة وغيره، أو لأن الراوي له رواه عمن لم يجتمع به أو لم يعاصره، أو لأن الحديث نفسه قد رواه غيره بسند آخر مخالف للسند الأول مع اقترانه ببعض القرائن التي تشعر بعيب في السند ونحو ذلك.

واستطرد يقول: وقد تطلق العلة على غير ما ذكرنا، ككذب الراوي، وغفلته، وقطع الحديث، وإرساله، وغير ذلك مما يوجب ضعفه.

وقد عد المؤلفون في الحديث من أهل السنة المعلل من نوع الضعيف، كالمرسل والمنكر والمقطوع.

وجاء في (الباعث الحثيث): إن الحديث المعلل هو الذي يطّلع الفاحص على علّة فيه تقدح في صحته، في حين أن ظاهره السلامة[(١)].

ويختلف الصحيح في قوته حسب اختلاف أسناده واقترانه ببعض القرائن المؤكدة له، وأضاف إلى ذلك الحارثي في وجيزته: إن الأصحاب قد يقبلون غير الصحيح إذا اقترن بما يرجّح صدوره، ويردّون الصحيح وغيره إذا خالف الكتاب أو السنة المقطوع بصدورها، أو إجماعاً محققاً؛ لامتناع ترجيح الظن على العلم. وفرّع على ذلك أن ما يرويه غير الإمامية وإن لم تتوفر فيه جميع شروط الصحة إلا إن الإمامية لا يحكمون بكذبه ويعتمدون عليه أحياناً لاقتران بعضه ببعض القرائن؛ ولذا لم يزل علماؤنا المتقدّمون والمتأخّرون يتداولون نقل صحاحهم ورواياتهم، وقد صار ذلك متعارفاً بينهم، وإنما نقلها أصحابنا لغاية العمل بها وترتيب الآثار عليها، وبخاصة ما يتعلق منها بالسنن والآداب والأخلاق.

ومضى يقول: إن جواز العمل بتلك المرويات التي لم يقم دليل على كذبها وصدقها من الجائز أن يكون لقول النبي: «**من بلغه ثواب على عمل فعمله، أعطاه الله ذلك وإن**

---

(١) الباعث الحثيث ص ١٠٣. وقد جمع السيد حسن الصدر رحمه الله الأقوال في الحديث المعلل في ص٢٤١ وما بعدها من كتابه القيّم في هذا المجال (نهاية الدراية) فليراجع.

لم يكن الأمر على ما بلغه». أو لبعض الشواهد والاعتبارات[١].

وقد ألحق علماء الدراية بالصحيح ما لو حذف الراوي من السند واحداً أو أكثر من أوله أو من وسطه إذا رواه بصيغة تشعر بجزمه وعدم تردده في نسبة الحديث إلى من أضافه إليه، كما لو عبر بصيغة «قال»، أو «فعل»، ونحو ذلك من الصيغ التي تعبّر عن جزمه وعدم تردده. وإن كان التعبير بغير تلك الألفاظ، كما لو قال: روي عن فلان، أو حكي عن فلان، فلا يكون من الصحيح؛ لأن الراوي في مثل ذلك ليس بجازم في نسبة الحديث إلى من رواه عنه[٢].

وفرع على ذلك الشيخ عبد الصمد في وجيزته أن الشيخ الطوسي في تهذيبه روى أحاديث كثيرة أسند كثيراً منها لأصحاب الأئمةعليهم السلام، فما كان منها مذكوراً سنده ولو بحسب الضوابط التي ذكرنا فهو من نوع المتّصل وما لم يكن داخلاً في تلك الضوابط؛ فإن رواه بصيغة الجزم فهو محكوم بصحته، ويعطى حكم المتّصل، وما لم يكن كذلك فلا يكون من نوع الصحيح[٣].

[الحسن والموثق والضعيف]

الثاني من أصناف الحديث: الحسن[٤]، وهو الذي يرويه الإمامي الممدوح مدحاً يقرّبه من التعديل على شرط ألا يكون معروفاً بالفسق أو العدالة، وأن يكون صحيح العقيدة؛ وبذلك يكون وسطاً بين الصحيح والضعيف، ويشترك مع الصحيح في صحة

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٤.

(٢) ولعل السر في عدم الاكتفاء به في مثل ذلك هو عدم تحقق الشهادة إذا رواه بمثل هذه الصيغ عند من يقول: إن الرواية هي في واقعها شهادة بصدور الرواية، ويكفي في هذا النوع من الشهادة شهادة الواحد.

(٣) لم نعثر على هذه العبارة في الوجيزة بل وجدنا أن الشيخرحمه الله ذكر ما يقرب من هذا المعنى في مشرق الشمسين ص ٩٨.

(٤) وللتوسع راجع نهاية الدراية ص ٢٥٩، وما بعدها.

العقيدة وحسن السيرة، كما يشترك مع الضعيف في أن احتمال الكذب فيه أقوى من احتماله في الصحيح. وهذا النوع من الأحاديث لا يأخذ به الشيعة إلا إذا اقترن بما يرجّح صدوره عن المعصوم؛ ذلك لأن الأدلّة التي تدلّ على وجوب التعبّد والتديّن بمضمون الروايات لا يستفاد منها أكثر من أخبار العدول في جميع مراتب السند؛ كما سيأتي ذلك في الفصول التالية.

الثالث من أنواع الحديث: الحديث الموّثق[١]، وهو الذي يرويه الموثوق في دينه والمعروف بالاستقامة وحسن السيرة من المنحرفين عن التشيع؛ سواء كان من أهل السنة الموثوقين، أو من الفِرَق التي انحرفت عن التشيع، كالواقفية والفطحية ونحوهما. وقد أدخل أهل السنة الحديث الذي يرويه غيرهم من الموثوقين في قسم الصحيح على شرط أن يكون الرواة له من غير الشيعة مهما كانت عقيدتهم، حتى ولو كانوا من الخوارج؛ لأن الشيعة على حد زعمهم كذّابون وضّاعون، كما يذهب لذلك أكثر المؤلفين في أحوال الرجال.

الرابع من أصناف الحديث: الضعيف[٢]، وهو الذي لم تتوفّر فيه شروط الأصناف الثلاثة السابقة. ويوصف الحديث بالضعف بمجرد أن يكون بين رواته متّهم بما يوجب الفسق أو الشذوذ في معتقداته عن مخطّط الإمامية حتى ولو كان الباقون من رواته في منتهى الاستقامة.

وجاء في الوجيزة[٣] للشيخ عبد الصمد: إن الحديث الواحد قد يروى بطريقين حسنين، أو موثقين، أو ضعيفين، أو يكون أحدهما حسناً والآخر ضعيفاً، ومع ذلك لا يخرج بذلك عن صنفه إلى صنف آخر، وكل ما في الأمر أنه يصبح بذلك أقوى من الضعيف المروي بطريق واحد، كما لا يرتفع الحسن إلى مرتبة الصحيح فيما لو روي

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٦.

(٣) الوجيزة ص ٦.

بطريقين أو ثلاثة، ما لم يقترن أحد طرقه ببعض الشواهد التي ترفع من شأنه، وترّجح جانب صدوره على جانب عدمه رجحاناً تطمئن إليه النفس، أو روي الحديث الحسن بخمسة طرق كلها حسب أُصول علم الدراية من نوع الحسن، ففي مثل ذلك لا يبعد اطمئنان النفس إلى جهة صدوره اطمئناناً يركن إليه العقلاء في أُمورهم وسائر أحوالهم. ومن ذلك ما رواه علي بن إبراهيم المعروف بصلابة العقيدة والاستقامة عن أبيه الذي مدحه المؤلّفون في الرجال، ولم يصفوه بالوثاقة، فأحاديث ولده عنه ينبغي أن تكون من نوع الضعيف، ولكن والده لما كان في منتهى الاستقامة وفوق الشبهات عند جميع المحدثين، فقد أعطوا مروياته عنه صفة الصحيح؛ لأنه لا يروي عن المتهمين والمشبوهين.

هذه الأصناف الأربعة هي أُصول الأصناف عند الجعفريين منذ أن وضع نواتها أحمد بن موسى المعروف بابن طاووس، وتبّناها تلميذه العلامة الحلّي ومن تأخّر عنهما.

ويتصف الحديث بالإضافة إلى ما ذكرنا بصفات أُخرى باعتبار ما يعرض عليه سنداً ومتناً؛ بعضها يختصّ بالحديث الضعيف، والبعض الآخر تشترك فيه الأصناف الأربعة، كالمقبول والمسند والمصنف، فإن هذه الأوصاف يمكن أن تلحق الأصناف الأربعة. فالمقبول وهو[1] الحديث الذي تلّقاه العلماء بالقبول، واتّفقوا على العمل به؛ إما لصحة سنده وسلامة متنه من العيوب، أو لأنه من أحد الأنواع الثلاثة المقترنة ببعض الشواهد والمرجحات[2]. وهكذا بالنسبة إلى المعنعن والمسند[3]؛ فإن الأصناف الأربعة صالحة لهذين الوصفين. ومن ذلك المشهور والمستفيض، ويفترقان عن غيرهما من

---

(١) في الأصل: وهو.

(٢) معجم مصطلحات الرجال والدراية ص ١٦٩.

(٣) المسند هو الذي يتصل سنده بمصدره بنحوٍ يأخذ كل واحد عن الآخر إلى أن ينتهي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام، والمعنعن هو الذي يرويه الراوي بقوله: روى فلان عن فلان إلى نهاية السند. وقد عدّه أهل السنة من نوع المتّصل إذا توافرت فيه الشروط التالية: عدالة الراوي، ولقاؤه لمن روى عنه، والسلامة من التدليس.

الأوصاف بأن الحديث الموصوف بالشهرة والاستفاضة سواء كان ضعيفاً أو حسناً أو غيرهما لا بد أن يرتفع شأنه بسبب اتّصافه بأحدهما، بمعنى أن الضعيف المشهور، أو الحسن المشهور أقرب إلى الاعتبار من الضعيف الفاقد لهذه الصفة.

[المسند والمتصل عند محدثي السنة]

وقد فرّق محدثو السنة بين المسند والمتصل، فقالوا: إن المسند هو الذي يتّصل بسنده إلى النبيﷺ، والمتصل هو الذي يتّصل بقائله؛ سواء كان القائل هو النبي، أو الصحابي، أو غيرهما. ويدّعي الأُستاذ صبحي الصالح في كتابه (علوم الحديث ومصطلحاته) أن المعنعن كثير في الصحيحين، وهو في (صحيح مسلم) أكثر منه في (صحيح البخاري)؛ لأن مسلماً لا يشترط اللقاء بين الراوي ومن روى عنه. وأضاف إلى ذلك أن الرواية في مثل ذلك محمولة على سماع الراوي ممن روى عنه إذا كانا ثقتين متعاصرين[١].

ويرى بعضهم أن كلمة «عن» إذا وردت في الحديث النبوي، وبخاصّة في مرويات الصحابة فهي بمنزلة «أخبرنا» و«حدّثنا»، ونحو ذلك مما يشير إلى السماع واللقاء بين الراوي والمروي عنه[٢].

وألحق بعضهم الحديث المعنعن بالمرسل من حيث عدم جواز الاحتجاج به ما لم يكن الراوي صحابياً؛ لأن مراسيل الصحابة بمنزلة المسانيد[٣].

ويدّعي الشيخ عبد الصمد في وجيزته أن محدثي الشيعة يعتبرون المعنعن بمنزلة المتّصل إذا أمكن اللقاء بين الراوي والمروي عنه، وكان احتمال التدليس منتفياً كما لو كان الراوي موثوقاً به[٤].

---

(١) انظر ص ٢٣٣ و ٢٣٤ من الكتاب المذكور.

(٢) نقله ابن الصلاح في مقدمته عن أبي الحسن القابسي.راجع مقدمة ابن الصلاح ص ٥٦.

(٣) راجع أُصول السرخسي ج١ ص٣٥٩، الأحكام للآمدي ج٢ ص١٢٣.

(٤) الوجيزة ص ٧، وصول الأخيار ص١٠٠.

[المسلسل والمضمر والمجهول والمرفوع عند الشيعة والسنة]

الخامس: المسلسل، وهو الحديث الذي يتّفق رواته على عبارات أو صفات ينقلها كل راوٍ عمّن فوقه من رجال السند تتعلّق بالرواة أو الرواية[1]. ومن أمثلته ما رواه الحاكم وقال: شبك بيدي أحمد بن الحسين المقري قال: شبك بيدي أبو عمر عبد العزيز بن عمر، قال: وشبك بيدي صفوان بن سليم.... وهكذا يمضي الراوي في هذا الأُسلوب إلى ان ينتهى الى مصدر الرواية فيقول: شبك بيدي أبو هريرة، ثم يقول: شبك بيدي رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: «**خلق الله الأرض يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدوابّ يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة...**»[2]. إلى غير ذلك من الأمثلة التي أوردها المؤلفون عن الحديث المسلسل.

ويدّعي المؤلفون في علم الحديث أن التسلسل إذا اقتضته الأمانة في النقل كما لو أراد الراوي أن ينقل الحديث كما سمعه، فلا يمنع ذلك من صحته، وإذا كان التصرّف من الراوي فيؤدّي ذلك إلى التشكيك في الرواية.

وقال محدثو الشيعة: إن التسلسل بهذا الشكل من نوع السخف الذي ترفّع عنه محدثو الشيعة[3].

ومن الأوصاف التي تلحق الحديث الإضمار، كما لو قال الصحابي أو أحد أتباع الأئمة عليهم السلام: سألته عن كذا وأخبرني بكذا، أو أمرني بكذا من غير أن يذكر الخبر باسمه

---

(١) راجع الرعاية في علم الدراية للشهيد الثاني ص ١١٧، نهاية الدراية للسيد حسن الصدر ص ٢١٣، معجم مصطلحات الرجال والدراية ص ١٥٨.

(٢) معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري ص٣٣.

(٣) قال والد الشيخ بهاء الدين العاملي بعد أن تعرض لآراء محدّثي أهل السنة في الحديث المسلسل: «وأما علماؤنا ومحدثونا فهم أجلّ شأناً وأثقل ميزاناً من الاعتناء بمثل ذلك». وصول الأخيار إلى أُصول الأخبار ص ١٠١.

أو بلفظ يدل عليه صراحة أو تلميحاً[(١)] . وهذا النوع قد استعمله رواة الشيعة في موارد التقية والخوف من أعدائهم وهو من الإضمار الموجب لضعف الحديث؛ لأن الضمير بذاته صالح لأن يرجع إلى النبي وللإمام وغيرهما وإن كان احتمال إرادة أحدهما أقرب من إرادة غيرهما منه ولو بواسطة القرائن.

ومن أصناف الحديث المجهول: وهو المروي عن واحد أو أكثر غير معروف بالوثاقة، في حين أن المؤلّفين في الرجال لم يتعرّضوا له بقدح أو مدح، أو كان من غير المعروفين بين الرواة، كما لو قال الراوي: حدثني رجل أو حدثني فلان عمن حدثه ونحو ذلك، من غير فرق بين أن يكون السند بتمامه مجهولاً، وبين بعضه، وسواء أكان من الأول، أو الوسط[(٢)] .

ولو قال الراوي: سمعت من الثقة؛ فإن بنينا على أن شهادة الواحد تكفي في الموضوعات تصبح الرواية في حكم الصحيح، وإن بنينا على عدم كفايتها فلا ترفع الجهالة، ويبقى الحديث من أصناف الضعيف.

ورجّح محدثو السنة عدم الاكتفاء بذلك بدون تعيين المروي عنه لجواز اطّلاع غيره على بعض العيوب الخفية على الراوي[(٣)] .

ومن أصنافه المرفوع: وهو ما أضيف إلى النبيﷺ أو أحد الأئمةعليهم السلام كقول الصحابي: سمعت رسول اللهﷺ. وقول أحد الأئمةعليهم السلام : سمعت الصادق يقول كذا، أو رأيته يفعل كذا، أو فعلت بحضرته كذا[(٤)] .

وقد قسّموا المرفوع إلى صريح وما هو بحكمه؛ فالمرفوع للصريح في القول أو الفعل

(١) راجع: نهاية الدراية للسيد حسن الصدر ص ٢٠٦، الوجيزة ص ٤، معجم مصطلحات الرجال والدراية ص ١٦٤.

(٢) وصول الأخيار إلى أُصول الأخبار ص ١٠٢، نهاية الدراية للسيد حسن الصدر ص ١٩٢.

(٣) شرح مسلم للنووي ج١ ص ٢٨ و ص ٨٤.

(٤) الرعاية في علم الدراية للشهيد الثاني ص ٩٧ ـ ٩٨.

أو التقرير كالأمثلة التي ذكرناها، وما هو في حكم المرفوع الصريح هو عبارة عن إخبارهم بأُمور تتعلّق بالأحكام، ولا يتطرّق إليها الاجتهاد، وكالإخبار عن الجنة والنار، والقيامة والقبر، وبدء الخلق. ومنه قولهم: أمرنا بكذا، ونهينا عن كذا، ومن فعل كذا فله ثواب كذا. إلى غير ذلك مما يقوله الصحابي أو أحد أصحاب الإمامعليه السلام.

وقال الشيخ عبد الصمد في وجيزته: إن ما له حكم المرفوع من الفعل مثل «أن يفعلوا» ما لا مدخل للاجتهاد فيه كالصلاة بالهيئة المخصوصة، وما له حكم المرفوع من التقرير كأن يخبر الصحابي أو أحد أصحاب الأئمة أنهم كانوا يفعلون في زمن المعصوم كذا وكذا مما يستبعد أن يكون قد خفي على النبيصلى الله عليه وآله أو الإمامعليه السلام[(١)].

[الموقوف والمنقطع والمعضل]

ومن أقسامه: **الموقوف**، وهو الحديث المروي عن الصحابة أو أصحاب الأئمةعليهم السلام قولاً أو فعلاً؛ سواء كان متّصلاً، أو منقطعاً. ومن ذلك قول الراوي: كنا نفعل كذا، وكان أصحاب الأئمة لا يرون بأساً بكذا، وأمثال ذلك مما يرويه بسنده المتّصل أو المنقطع إلى أن يصل الصحابي أو المعاصرون للأئمة من أصحابهم[(٢)].

ومن أقسامه: المنقطع، وهو الذي لا يتّصل بإسناده إلى النبي أو الإمامعليه السلام، كما لو حذف بعض رواته من الأول، أو الوسط، أو الآخر[(٣)]:

فالمحذوف من أوله واحد أو أكثر يطلقون عليه «المعلق»، وليس من المنقطع ولا من المعلق ما يرويه الشيخ الطوسي في كتابيه (التهذيب) و(الاستبصار) عن الحسين بن سعيد وغيره ممن بينه وبينهم مسافة طويلة من الزمن، وكذا ما يرويه الصدوق في (الفقيه) عن أحد أصحاب الأئمة في حين أنه لم يعاصر أحداً منهم، بل هو من نوع

(١) الوجيزة ص ٧.

(٢) نهاية الدراية للسيد حسن الصدر ص ١٨٤.

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٦.

المتّصل؛ لأن الوسائط بين الشيخ وبين الحسين بن سعيد[١] الذي روى عن الإمام قد أحصاها علماء الرجال والدراية كما، أحصوا جميع الوسائط بين الرواة عن الأئمة والطبقات المتأخّرة، فهو حينما يروي عن الحسين بن سعيد يرويه عنه بالسند المتّصل إليه، ويحذف الواسطة بينه وبينه لأجل الاختصار.

وإذا ترك الراوي من وسط السند واحداً أو أكثر فقد سماه المؤلفون في علم الدراية «المنقطع بالمعنى الأخصّ»، ويعنون بذلك قطع آخر السند عن أوله[٢]. والقطع في السند إذا كان خفياً بأن لم يعلم السامع أن الراوي لم يعاصر من أسند إليه الحديث يكون هذا الإيهام من نوع «التدليس»[٣]. وإن ترك الراوي من أخبره؛ واحداً كان المتروك أو أكثر، وسواء كان الترك عن عمدٍ أو سهوٍ، فهو من نوع الإرسال إذا حصل العلم بعدم ملاقاة الراوي ومعاصرته لمن أسند إليه الحديث.

وقد اختلف الفقهاء والمحدثون في الاحتجاج بهذا النوع من المرويات والاعتماد عليها إذا كان الراوي لها جامعاً للشروط المطلوبة في رواة الأحاديث، ورجّح جماعة منهم أن الراوي إذا كان متحرّزاً من الرواية عن المشبوهين والمجروحين كمحمد بن عمير، أو صفوان بن يحيى، وأحمد بن أبي نصر البزنطي، وغيرهم من المعروفين بالاحتياط لدينهم والوقوف عند الشبهات يصح الأخذ بمراسيلهم والاعتماد عليها كمسانيدهم[٤].

---

(١) الحسين بن سعيد بن حماد الأهوازي، كان من الثقات الممدوحين هو وأخوه الحسن بن سعيد. روى عن الرضا والجواد والإمام علي الهادي، ولأخيه الحسن ثلاثون كتاباً كما أحصاها المؤلفون في الرجال. وهو غير الحسين بن أبي سعيد بن هاشم؛ فإنه كان من ثقات الواقفية.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) انظر الوجيزة ومقباس الهداية للمقمقاني.

(٤) قال السيد محمد سعيد الحكيم: «الأمر المتفق عليه بين الشيخ والنجاشي والمحقق في (المعتبر) وغيرهم اعتماد الأصحاب على مراسيل ابن أبي عمير». راجع البحث بالتفصيل في مصباح المنهاج ج١ ص ٢٧٢.

وقد توقف جماعة حتى في مراسيل هؤلاء؛ لأن القائلين بجواز الأخذ بمروياتهم وإن كانوا أكثر من المتوقّفين فيها إلا إنهم لم يتتبّعوا جميع مراسيلهم، ولم يفحصوها فحصاً جدياً يقطع الشكّ بها. ومن الجائز أن يكون اعتمادهم عليها لمجرد حسن الظنّ بهم، أو من نوع الشهادة على وثاقة رواتها، وشهادة الواحد لا تكفي إلا بناءً على كفايتها في باب التعديل[١].

ومهما كان الحال فقد عدّ المحدثون الإرسال من عيوب الحديث، ونصّ بعضهم على حرمته، وجاء عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «**إياكم والكذب المخترع**». قيل له: يابن رسول الله، وما الكذب المخترع؟ قال: «**أن يحدثك الرجل بحديث، فتتركه وترويه عن الرجل الذي حدثك عنه بلا واسطة**»[٢].)

ومن **أقسامه: المعضل**، وهو الذي يسقط من أسناده اثنان أو ثلاثة أو أكثر من ذلك، من أوله أو وسطه أو آخره[٣].

[الشاذ والمنكر والغريب والمضطرب]

ومن اقسامه: الشاذّ والمنكر والنادر. فالشاذّ والنادر هما المخالفان للمشهور وإن كان رواته من الموثوقين.

ونص جماعة من المحدثين على أن الشاذّ هو المتروك عند الفقهاء والمحدّثين وإن كان الراوي له ثقة تطمئن النفس إلى حديثه وأقواله. كما نص فريق آخر على أن الشاذّ هو الذي لم يحدّث بمتنه غير الراوي له[٤].

---

(١) لقد أسهب السيد الخوئي في هذا البحث، وتكلم بما لا يدع مجالاً للشكّ في ردّ هذا التوثيق العام لمراسيل هؤلاء، فراجع البحث مفصلاً في معجم رجال الحديث ج١ ص ٦١.

(٢) الكافي ج١ ص ٥٢، والوارد فيه «المفترع»، وليس «المخترع». وربما يراد به: الكذب المبتذل بين الناس من «افترع البكر»، إذا افتضها.

(٣) نهاية الدراية للسيد حسن الصدر ص ٢٠٠.

(٤) نفس المصدر ص ٢٢٠.

وأما المنكر؛ فهو الذي يختلف متنه عما يرويه الناس، ولم تثبت عدالة رواته ولا وثاقتهم[١].

ومن أقسامه: الغريب، وهو الذي ينفرد بروايته واحد عن المشهورين بالوثاقة والعدالة، كما لو رواه واحد عن ابن أبي عمير، أو الحسين بن سعيد ونحوهما؛ وبذلك يصبح غريباً؛ لأن أمثال هذه الطبقة قلّما ينفرد واحد بالرواية عنهم[٢]. وإن رواه اثنان أو ثلاثة يصبح عزيزاً، فإن زاد على ذلك يسمى مشهوراً[٣]. ومن أفراد الغريب ما لو تفرد الراوي بزيادة في متن الحديث أو سنده، ويكون غريباً في متنه وسنده كما لو تفرّد بروايته واحد لا غير، كما يكون غريباً في سنده لا في متنه إذا رواه واحد، وكان متنه معروفاً عند الكثيرين على شرط أن يكون مصدره واحداً كحديث **«إنما الاعمال بالنيات»**[٤] على حد تعبير المؤلفين في دراية الحديث[٥].

ومن أقسامه: المضطرب، وهو الذي يقع الاختلاف في متنه وسنده، كأن يرويه الراوي مرة عن زرارة وأُخرى عن ابن أبي عمير، وثالثة عن بريد العجلي. أو يرويه مرة زائداً وأُخرى ناقصاً، وثالثة على غير الكيفية التي رواها أولاً وثانياً. وعندما يكون هذا التفاوت في الشكل والسند يصبح الحديث في منتهى الضعف؛ لأن ذلك يشعر بعدم ضبطه وتحرّزه[٦].

ومن أقسامه: المقلوب، وهو الحديث الذي يرويه شخص عن غير الراوي له عن

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٢.

(٢) وصول الأخيار إلى أُصول الأخبار ص ١١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) صحيح البخاري ج١ ص٢، سنن ابن ماجة ج٢ ص ١٤١٣، وسائل الشيعة ج١ ص٤٨.

(٥) إشارة إلى والد الشيخ بهاء الدين؛ فقد ذكر هذا الحديث وعدّه من الغريب المشهور. راجع وصول الأخيار إلى أُصول الأخبار ص ١١١.

(٦) نهاية الدراية للسيد حسن الصدر ص ٢٢٤ وما بعدها، وراجع كذلك دراسات في الحديث والمحدثين، للمؤلف ص ٥٥.

النبي أو الإمام، كما لو رواه عن الإمام محمد بن مسلم، فرواه شخص عن محمد بن أبي عمير، أو عن زرارة ونحو ذلك. وربما يعدّ ذلك من نوع الكذب المسقط للعدالة، كما لو رجح ذلك جماعة[١].

ومن أقسامه: **المدلس**، وهو المشتمل على عيب يحاول الراوي إخفاءه. وهو مرة يكون في السند، وأُخرى في شيوخ الراوي:

فالتدليس في السند كما لو روى الحديث عمن عاصره من غير أن يسمع منه، ولكنه يحاول إيهام السامع بسماعه منه كما لو رواه بصيغة «قال فلان»، أو «عن فلان»، في حين أنه قد أخذه من كتابه أو حدّثه به رجل آخر. ولو رواه بصيغة «سمعت من فلان، أو فلاناً»، أو «حدثني به فلان»، يكون هذا النوع من التدليس أفحش من الأول إذا لم يسمع منه ولم يتحدّث معه. ويدخل ذلك في الكذب الموجب لسقوط السند عن الاعتبار[٢].

أما التدليس في الشيوخ، فهو أن يلصق بشيخه اسماً، أو كنية، أو لقباً لم يعرفه أحد به، ولم يعهد من غيره. وهذا النوع من التدليس أخفّ كراهة من الأوّل على حد تعبيرهم؛ لأن عيبه ينحصر في عدم توفّر معرفة الشيخ بعد إعطائه الاسم الغريب، أو الكنية الغريبة. وقد يكون للمدلس بعض المبرّرات التي توجب الركون إلى الحديث والاطمئنان إليه.

[التدليس في الحديث عند الشيعة والسنة]

ومن المتّفق عليه عند الشيعة أن التدليس من أسباب ضعف الحديث وسقوطه عن الاعتبار، في حين أن الفريقين الشيعة والسنة يتغاضون أحياناً عن هذا العيب، ويأخذون بالحديث وكأنه لا عيب فيه. وأكثر ما شاع ذلك عن الطبقتين الأُولى والثانية

---

(١) وصول الأخيار إلى أُصول الأخبار ص ١١٣.

(٢) المصدر نفسه.

من التابعين. ونصّ المؤلّفون في الرجال أن جماعة من كبار المحدثين وحفّاظهم قد أكثروا من التدليس في مروياتهم، كهشيم بن بشير بن حازم كما جاء في رواية الذهبي[(١)]، وسفيان بن عيينة[(٢)]، وسليمان مهران المعروف بالأعمش[(٣)]، والحسن البصري أحد أعيان التابعين في أواخر القرن الأول[(٤)]، وعبد الرزاق الصغاني[(٥)]، والوليد بن مسلم الدمشقي[(٦)]، وسفيان الثوري[(٧)]، وغيرهم ممن لا يسعنا إحصاؤهم.

[ماجاء في كفاية البغدادي وتوضيح الأفكار حول التدليس]

وجاء في (توضيح الأفكار) المجلد الأول ص ٣٥٣ و٣٥٤ أن جميع هؤلاء المشاهير في الحديث من رواة الصحيحين؛ ولذا فقد حاول جماعة من المؤلفين في الحديث وأحوال الرجال إلحاق هذا النوع من مروياتهم بالمراسيل؛ لأن الإرسال لا يوجب تجريح الراوي واتّهامه في دينه كما هو الحال في التدليس. وكل ما يترتب على الإرسال إلحاق الرواية بالقسم الضعيف من أقسام الحديث، مع العلم بأن الروايات التي نسبت إليهم لا يصحّ إلحاقها بالمراسيل إلا بنحو المغالطة السافرة التي لا يرضاها لنفسه الباحث المجرد.

وجاء في (الكفاية في علم الحديث) للبغدادي: إن هؤلاء المتّهمين بالتدليس لا يظهر

(١) تذكرة الحفّاظ للذهبي ج١ ص٢٤٩.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٢٠.

(٣) من أصحاب الإمام الصادق. راجع ترجمته في معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي ج٩ ص ٢٩٤ تحت الرقم ٥٥١٨.

(٤) المصدر نفسه ج٥ ص ٢٥٦ تحت الرقم ٢٦٧٢.

(٥) الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ويسمى الصغاني أيضاً، صاحب كتاب (المصنف).

(٦) تذكرة الحفّاظ ج١ ص ٣٠٢.

(٧) سير أعلام النبلاء ج٧ ص ٢٢٩.

منهم أنهم يحاولون إيهام السامع بأنهم قد التقوا بالراوي وسمعوا منه كما هو شرط في التدليس، وكل ما في الأمر أنهم لم يصرحوا بعد السماع ممن لم يسمعوا منه وتركوا الأمر مبهماً. وهذا النحو أقرب إلى الإرسال منه إلى التدليس بل هو من أفراده كما يظهر من تتبّع مروياتهم وأحاديثهم[1]. وقد وضعهم جماعة في قفص الاتّهام كغيرهم من المدلّسين من مختلف الطبقات الذين كانوا يحاولون بذلك وضع مروياتهم في مستوى المسانيد بهذا النحو من التضليل والتدجيل.

ويجد المتتبّع لأحوال الرواة عدداً هائلاً من مشاهير الرواة في مختلف العصور ممن لا يملكون من الدين ما يعصمهم عن الكذب والدجل استعملوا التدليس في أحاديثهم للغاية التي ذكرناها. وأول ما ظهر هذا النوع من المرويات بين الطبقة الأُولى من الرواة عن النبيﷺ الذين أخذوا من كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وأخيه عبد الله، وغيرهم من الدسّاسين مئات المرويات أسندوها إلى الرسول، وانتشرت بين أحاديثه؛ لأن جماعة من الصحابة كأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب وأمثالهم أخذوها من الوضاعين، ورووها إلى الناس بشكل يوهم سماعهم لها عن الرسولﷺ.

[موقف السيد رشيد رضا في المنار من المدلسين]

قال السيد رشيد رضا: إن كعب الأحبار كان من زنادقة اليهود الذين أظهروا الإسلام والعبادة؛ لتقبل أقوالهم في الدين، فراجت دسائسه وانخدع بها بعض الصحابة، فرووا عنه وتناقلوا مروياته بدون إسناد إليه. إن أشد رواة هذه الإسرائيليات، وأشدّهم تلبيساً وخداعاً للمسلمين وهب بن منبه وكعب الأحبار، فلا تجد خرافة دخلت كتب التفسير والتاريخ الإسلامي في أمر الخلق والتكوين والأنبياء

(١) انظر الكفاية للبغدادي ص ٣٥٧.

وأقوالهم والفتن إلا وهي منهم[١].

إن الصحابة الذين انخدعوا بكعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما ممن اندسوا بين صفوف المسلمين بقصد التخريب والتشويش، ورووا عنهما وعن غيرهما قد أسندوا تلك المرويات إلى النبيﷺ أو إلى أحد الصحابة، وبدون ذلك لا يقبلها أحد، ولا تتمّ الغاية من إدخالها بين المرويات عن النبيﷺ.

ومما لا شك فيه بأن إسنادها إلى غير رواتها الأصليين هو من التدليس والتضليل اللذين أنكرهما السنة بين مرويات الصحابة، لا لشيء إلا لأن بعض هؤلاء المدلّسين من الصحابة، وبعضهم الآخر قد اعتمد مروياتهم الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما، ولو افترضنا بأن هذا النوع من مرويات الصحابة من نوع المراسيل تمشياً مع الجمهور بهذا النحو من التلفيق والتضليل ـ لو افترضنا ذلك ـ فلا يرتفع شأن تلك المرويات، بل تبقى من قسم الضعيف؛ لأن الإرسال يحطّ من شأنها حتى ولو كان المرسِل من الثقات الممدوحين، ويوجب التوقّف بشأنها إلا إذا اقترنت ببعض القرائن كما أقرّت بذلك أئمّة الفقه والحديث من أهل السنة.

وقد جاء عن مسلم صاحب الصحيح في مقدمة كتابه أن «المرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة»[٢]. وقال ابن الصلاح: وما ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمرسل، والحكم بضعفه هو الذي استقرّت عليه آراء جماعة حفّاظ الحديث ونقّاد الأثر، وتداولوه في تصانيفهم[٣].

إلى غير ذلك مما جاء عن جماعة من كبار المحدثين. ولكن عندما تضايقهم الأدلّة، وتعوزهم الحجة، ويجدون أنفسهم في ضيق وحرج يعودون إلى «الصحبة» التي ترفع المتّصف بها إلى مستوى الصدّيقين الذين لا ينطقون عن الهوى، ويدّعون بأن مراسيل

---

(١) انظر مجلة المنار من ص ٥٤١ إلى ٧٨٣.

(٢) صحيح مسلم ج١ ص ٢٤.

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص ٤٩.

الصحابة في حكم الموصولات؛ لأنهم لا يروون إلا عن صحابي، وكلهم عدول لا يمنع الجهل بحالهم من الأخذ بمروياتهم. كما يقفون نفس الموقف من مرويات كبار التابعين؛ لأنهم حفظوا آثارهم، ورووا عنهم مباشرة على حد تعبيرهم[١]، وعندما يصلون إلى الطبقة الثانية من التابعين، قالوا بأن مروياتهم قد أخذ بها البخاري، وناهيك بمن روى عنه البخاري على حد تعبير بعضهم. وكل من روى عنه البخاري فقد جاز القنطرة كما نص على ذلك المقدسي[٢].

[موقف السيوطي في تدريب الراوي من المدلسين]

ومن المغالطات السافرة ما جاء في (تدريب الراوي) للسيوطي عن الحاكم النيسابوري أن أهل الحجاز والحرمين ومصر والعوالي وخراسان وأصفهان وبلاد فارس وخوزستان وما وراء النهر لا نعلم أحداً من أئمتهم دلّس في الحديث. وأكثر المحدثين تدليساً أهل الكوفة، ونفر يسير من أهل البصرة، وأما أهل بغداد فلم يذكر عن أحد أهلها التدليس إذا استثنينا محمد بن محمد بن سليمان الباغندي الواسطي المُكنى بأبي بكر، فهو أول من أحدث التدليس فيها كما يدّعي النيسابوري[٣].

ومحل الغرابة في هذا النص أن نسبة التدليس لأكثر أهل الكوفة لا سبب له إلا التشيّع الغالب على أهلها وعلى المحدثين فيها، أما بقية الأقطار التي نفي عن محدثيها التدليس، فالغالب على أهلها التسنن، والرواة جُلّهم إن لم يكن كلهم من السنة، في حين أن غير الحاكم النيسابوري عدّوا جماعة من المدّلسين بين الحجازيين المكيين والمدنيين وبين الخراسانيين وغيرهم.

ومهما كان الحال فالتدليس عند الشيعة من العيوب الموجبة لضعف الحديث، وعدم

---

(١) انظر الباعث الحثيث ص ٤٨ و ٤٩.

(٢) إرشاد الساري ج١ ص ٢١، هدى الساري ص ٣٨١.

(٣) معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري ص١١١.

جواز الاعتماد عليه مهما كان الراوي له. وعند السنة يوجب ضعف الحديث إذا لم يكن المدلّس صحابياً، ولم يكن من الطبقة الأُولى من التابعين، ولابد مع ذلك ألا يكون ممن رُوي عنه في الصحيحين، كما يستخلص الباحث من كلماتهم المنتشرة هنا وهناك.

[الإدراج في الحديث عند الشيعة]

ومن أقسامه: المدرج، وهو الزيادة في الحديث بنحوٍ يروي الحديث شخص، ثم يتبعه بكلام له أو يقرّه، فيأتي المتأخّر ويرويه مع تلك الزيادة معتقداً أنها من أصل الحديث[١].

ومن الإدراج أن يكون عند الراوي حديثان بسندين، فيرويهما بسند واحد، أو يسمع الراوي حديثاً من جماعة يختلفون في سنده أو متنه، فيرويه عنهم متّفقين. وإذا وقع ذلك عن عمدٍ من الراوي ليوهم مَن بعدَه أن الزيادة من أصل الحديث يكون ذلك من نوع التدليس، أما إذا وقع من غير قصد منه لذلك، بأن يكون الكلام المتّصل بالحديث من نوع التفسير، أو من باب التعليق عليه، فيأتي المتأخّر ويدخله في الحديث ظناً منه أنه متمّم له، فلا تدليس في ذلك، في حين أن الحديث يسقط عن الاعتبار كالأول[٢].

ويدّعي الشيخ عبد الصمد أن (التهذيب) للشيخ الطوسي يشتمل على أحاديث دخلتها بعض الزيادات لأسباب لا تعود إلى المؤلف[٣].

ومن أقسامه: الموضوع[٤]. وقد نصّ المؤلّفون في الحديث على أن هذا النوع من الأحاديث تحرم روايته مع العلم بكذبه من أي قسم كان إلا إذا صرّح الراوي بكذبه. ويعرف الوضع بإقرار الواضع صراحة، أو ضمناً، أو بوجود بعض القرائن المؤكدة

---

(١) نهاية الدراية للسيد حسن الصدر ص ٢٩٤.

(٢) وصول الأخيار إلى أُصول الأخبار ١١٤.

(٣) المصدر السابق ص ١١٦.

(٤) نهاية الدراية، للسيد حسن الصدر ص ٣٠٩، وما بعدها.

لذلك، كما يعرف كذب الحديث بضعف تركيبه، وتنافر ألفاظه، واشتماله على ما يخالف أُصول المذهب، أو ضرورة من ضرورات الفقه، أو الإفراط في الغلو بأحد الأئمةعليهم السلام، ونحو ذلك. وأضافوا أن أشدّ الواضعين ضرراً قوم قد تستّروا بالزهد، ووضعوا أحاديث حسبة[١] في زعمهم، فتلقّاها الناس بالقبول، وانتشرت في كل عصر. ومن ذلك أحاديث الترغيب والترهيب، كما سنتعرّض لهذا النوع من الموضوعات في الفصول الآتية.

والذي لابدّ منه بعد هذا الإحصاء لما يعترض الحديث من أُمور توجب إعطاءه وصفاً جديداً هو أن بعض هذه الأوصاف قد ترفع من شأن الحديث وترجّح جانب الاطمئنان إليه[٢] والاعتماد عليه؛ كالمعنعن، والمسند، والمقبول، والمشهور، وغير ذلك من الصفات التي لا تشكّل نقصاً في سند الحديث أو متنه. فالصحيح المتّصف بواحد من هذه الأربعة لا يفقد شيئاً من قوّته واعتباره، بل يصبح محلاً للوثوق والاطمئنان أكثر من الحديث المجرّد عنها. أما الصفات الباقية، فأي صفة منها طرأت على الحديث مهما كان نوعه تفقده اعتباره وقوّته ما لم يقترن ببعض القرائن التي ترجّح صدوره لما ذكرناه من قبل من أن ضعف الحديث لا يعني اعتباره من الموضوعات، بل كل ما يعنيه هو عدم الاطمئنان لرواته من حيث عدم الوثوق بدينهم وأمانتهم، أو لغير ذلك مما يعترض الاطمئنان إليه بلحاظ ذاته، فإذا أُحيط ببعض الملابسات أو القرائن يزول المانع من الاعتماد عليه، ويصبح محلاً للاطمئنان.

[أصناف الحديث عند السنة]

ومهما يكن الحال، فالأقسام التي ذكرناها يشترك فيها السنة والشيعة إذا استثنينا منها الموثّق؛ فإن الجعفريين جعلوه قسيماً للصحيح والحسن والضعيف، بينما عدّه السنة

---

(١) أي قربة لله تعالى.

(٢) في الأصل: به.

من قسم الصحيح، واعتبروا التقسيم ثلاثياً؛ وذلك اعتباراً من سنة (٢٧٩) عندما قسم أبو عيسى الترمذي الحديث إلى الأقسام الثلاثة: الصحيح، والحسن، والضعيف. ولم يعرف هذا التقسيم قبله[١] كما نص على ذلك ابن تيمية[٢]، وأضاف إلى ذلك أنهم كانوا يقسمون الحديث إلى صحيح وضعيف، والضعيف عندهم كان نوعين: نوعاً لا يمتنع العمل به، والنوع الآخر لا يصلح للعمل.

[الناسخ والمنسوخ عند الشيعة]

وكذلك تقسيم الأخبار إلى الناسخ والمنسوخ والعام والخاص وغير ذلك من التقسيمات لم يُعرف إلا في عصر متأخر عن عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم، أما الأصناف الأُخرى للحديث فيشترك فيها الشيعة والسنة بدون تفاوت بين الفريقين إلا في بعض الإصطلاحات والتفريعات على أُصول الأصناف.

ويؤكّد المؤلّفون في الدراية أن على المحدّث والفقيه أن يتنبها للزيادة والنقيصة في السند:

فالزيادة كأن يزيد الراوي في أول الحديث أو وسطه رجلاً آخر كأن يكون الحديث عن الإمام بلا واسطة، فيزيد الراوي واحداً أو أكثر بينهما.

والنقص كأن يروي الراوي عن شخص لم يعاصره، أو عاصره ولكنه كان بعيداً عنه. ويمكن للباحث أن يكون على بينة من هذا العيب إذا كان خبيراً بأحوال الرجال ومراتبهم، وبخاصة أولئك الذين عاصروا الأئمة عليهم السلام، ومقدار صلتهم بالأئمة وأصحابهم الذين كانوا يهتمّون في تدوين أحاديثهم، ويتناقلونها بينهم عندما تتوفّر لهم الأسباب لذلك.

كما يجب على الفقيه والمحدث أن يتنبه للناسخ والمنسوخ[٣] بين المرويات عن

(١) أضواء على السنة المحمدية ص ٣١٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٠ عن فتاوى ابن تيمية.

(٣) الحديث الناسخ: هو حديث دل على نهاية استمرار حكم شرعي ثابت بدليل سمعي سابق.

الرسولﷺ، فان الاختلاف في الحديثين قد يؤدي إلى الاختلاف في الحكم في الغالب في حين أن اختلافها ناتج عن كون أحدهما ناسخاً للآخر، ولا يكون ذلك إلا في حديث الرسولﷺ، أما حديث الإمامعليه السلام فلا يمكن افتراض النسخ فيه؛ لأن النسخ إنما يكون في مرحلة التشريع التي تنتهي بوفاة الرسولﷺ.

وقد جاء في رواية عاصم بن حميد عن منصور بن حازم أنه قال: قلت لأبي عبد الله الصادقعليه السلام: أخبرني عن أصحاب محمد، صدقوا عليه أم كذبوا؟ قال أبو عبد اللهعليه السلام: «**بل صدقوا**». قلت: فما بالهم قد اختلفوا؟ قال: «**أما تعلم أن الرجل كان يأتي رسول الله**ﷺ **فيسأله عن مسألة فيجيب فيها بالجواب، ثم يأتيه بعدُ ما ينسخ ذلك الجواب، فيجيبه بجواب آخر، فقد نسخت الأحاديث بعضها بعضاً**»[(١)].

وجاء في رواية لأبي أيوب الخزّاز عن محمد بن مسلم أنه قال: قلت لأبي عبد الله الصادقعليه السلام: ما بال أقوام يروون عن فلان عن فلان عن رسول اللهﷺ لا يتّهمون بالكذب، فيجيء منكم خلافه؟ فقال: «**إن الحديث ينسخ كما ينسخ القرآن**»[(٢)].

ومعلوم أن الامامعليه السلام لم يقصد أن حديثه يكون ناسخاً لحديث الرسول، وإنما يقصد بذلك أن الحديث المروي عن الرسول قد ينسخ في عصره فيحدث الناس بالناسخ والمنسوخ، فيكون حديث الإمام كاشفاً عن وقوع النسخ في حينه.

ومهما كان الحال فالحديث الذي يجوز الاعتماد عليه من بين تلك الأصناف الكثيرة هو الذي يرويه العدل الإمامي في جميع المراتب التي تنتهي إلى الإمام أو النبيﷺ، وكذلك الموثّق أيضاً ولكن بالشروط التي ذكرناها، أما الحسن والضعيف بجميع أصنافهما فليس في الأدلة ما يشعر بجواز الأخذ بهما والاعتماد عليهما في الأحكام والموضوعات. مع العلم بأن الصحيح والموثّق لو لا الأدلّة التي دلّت على جواز

والمنسوخ هو الحكم الملغي

(١) الكافي ج١ ص ٦٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٤.

الاعتماد عليهما لكانا كغيرهما من بقية الأصناف؛ ذلك لأن عدالة الراوي لا يحصل منها أكثر من الظن بصدور الرواية عن الإمامعليه السلام، ويبقى احتمال العدم قائماً وإن كان مرجوحاً بالنسبة للطرف الآخر. وهذا النوع من الرجحان كغيره من سائر الظنون التي لا تغني عن الحقّ شيئاً لولا الأدلّة على قيامها مقام العلم فيما يعود إلى الآثار الشرعية؛ تسهيلاً على المكلفين من ناحية، وحرصاً على امتثال الأحكام من ناحية أُخرى؛ لأن الاعتماد على العلم وحده في جميع الأُمور يؤدّي إلى العسر والحرج؛ وبالتالي إلى ضياع أكثر الأحكام.

ويتلخص موقف فقهاء الإمامية من الأخبار التي يرويها العدول والموثوقون ولو من غير الشيعة على النحو التالي:

لقد ذهب جماعة من فقهاء القرنين الرابع والخامس إلى عدم جواز الاعتماد على الخبر الحاكي لقول الإمام أو النبيصلى الله عليه وآله ما لم يقترن بدليل أو قرينة يحصل منها العلم بصدوره عن المعصوم نبياً كان أو إماماً. واعتمد هؤلاء على الآيات الناهية عن العمل بالظن، وعلى بعض المرويات التي تؤكّد وجوب التثبّت في الأخذ بما يروى عن الأئمةعليهم السلام، ومن ذلك ما رواه محمد بن عيسى عن داود بن فرقد أن أبا الحسن الثالث علياً الهادي قال في جواب من سأله عن المنقول عن آبائه وأجداده: «**ما علمتم أنه قولنا فخذوه، ومالم تعلموه فردّوه إلينا**»[1]. بالإضافة إلى غيرها من المرويات الناهية عن الأخذ بما لا يوافق الكتاب وسنة النبيصلى الله عليه وآله، وغير ذلك من المرويات الكثيرة المنتشرة هنا وهناك المتواترة في معناها ومضمونها.

وفي مقابل هذا الرأي ذهب الأكثر إلى الأخذ بأخبار العدول والموثوقين، وألزموا أنصار الرأي الأول بأن الأخبار التي استدلّوا بها بعضها من نوع الآحاد الذي لا يجوز الاعتماد عليه كما تزعمون، والبعض الآخر منها وارد في علاج الخبرين المتعارضين؛ فلا

---

(١) وسائل الشيعة ج٢٧ ص ١٢٠.

يشمل غيرهما مما لا يتنافى مع الكتاب، والسنة المقطوع بها. هذا بالإضافة إلى أن النهي عن العمل بما لا يفيد العلم وارد بالنسبة إلى المرويات المتعلقة بأُصول الدين والإسلام، وبعضها ناظر إلى مرويات من لا يوثق بأخبارهم وأحاديثهم، ولا خلاف بين الجميع على بطلان هذا النوع من المرويات ما لم تقترن بما يؤكد صدورها عن الأئمةعليهم السلام.

[موقف الشيعة من أخبار الآحاد وأدلة القائلين بحجيتها وعدمه]

ومجمل القول أن أكثر علماء الشيعة منذ أقدم العصور يعتمدون على مرويات العدول والموثوقين في فقههم ومناظراتهم، وقد رجعوا إلى مجاميع الحديث، وأخذوا منها كل ما توفّرت [فيه] الشروط المطلوبة في الراوي والرواية، وتركوا الحسن والضعيف وغيرهما مما كان مشتملاً على عيب في متنه، أو مخالفاً لأصل متّفق عليه، أو لضرورة من ضرورات الدين إذا استثنينا بعض المقلّدة المعروفين بـ (الأخباريين)؛ فإنهم قد أخذوا بكلّ ما في الكتب الأربعة، ولم يتردّدوا في صدورها عن الأئمةعليهم السلام، وقذفوا غيرهم بشتّى الاتّهامات؛ لأنهم عرضوا أسانيدها على أُصول علم الدراية، وصنّفوها إلى الأصناف الأربعة كما ذكرنا. هؤلاء أشبه بحشوية العامة الذين أخذوا بكل الأحاديث على علاتها وعيوبها مع منافاة الكثير منها لأُصول الإسلام ومبادئه. وهؤلاء من أيّ الفريقين كانوا لا يمثّلون إلا أنفسهم، ولا يعبّرون عن رأي الشيعة أو السنة في هذا الموضوع وغيره من المواضيع التي قد تختلف فيها الآراء والاتّجاهات.

أما الفريق الآخر فقد وقفوا من المرويات موقف الحذِر المتثبِّت؛ فدرسوا تاريخ الرواة، وعرضوا مروياتهم على الكتاب والعقل، فما كان منافياً لحكم العقل أو منافياً للكتاب بنحوٍ لا يمكن الجمع بينهما تركوه، وما لم يكن كذلك، فإن كان راويه من المعروفين بسلامة العقيدة وحسن السيرة، أخذوا بمروياته لا من حيث إنها قطعيّة الصدور، بل من حيث توفّر الأدلّة على الاعتماد عليها والعمل بمضامينها.

[الآيات التي استدل بها القائلون بالاعتماد على أخبار الآحاد]

وأظهر أدلّتهم من الكتاب قوله تعالى: ﴿إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1] ؛ حيث نصت الآية على وجوب التبيّن والتثبّت في الخبر إذا جاء به الفاسق، ولازم ذلك أن النبأ إذا جاء به غير الفاسق لا يجب التثبّت فيه؛ وحينئذٍ إما أن يكون مقبولاً وصالحاً للعمل به وهو المطلوب، وإن لم يكن مقبولاً يكون العادل أسوأ حالاً من الفاسق؛ لأن خبر الفاسق يخضع للفحص والتأكّد من صحته، وذاك يتعيّن للطرح بمجرّد وروده.

كما استدلّوا ببعض الآيات كقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات التي يمكن بعد التصرف في ظواهرها أن تكون سنداً لأنصار هذا الرأي.

ومع أن الآية الأُولى أظهر من غيرها في جواز الاعتماد على أخبار الآحاد، فقد تعرّضت للنقد والهجوم من المانعين والمجوّزين في آن واحد، في حين أن بعض النقود الموجّهة إليها لا يمكن تجاهلها ولا التخلّص منها بوجه يمكن الاطمئنان إليه. ومن ذلك أن الاستدلال بالآية إن كان من جهة تعليق الحكم على صفة الفسق في المخبر، فانتفاء الوصف عن الموضوع لا يدلّ على انتفاء الحكم عن الموضوع الفاقد لتلك الصفة كما هو الرأي الراجح عند أكثر الأُصوليين. هذا بالإضافة إلى أن القائلين بالمفهوم للقضية الموصوفة لا يلتزمون به في مثل المقام؛ لعدم التأكّد من انتفاء سنخ الحكم حالة انتفاء الصفة التي كانت تربط الحكم بموضوعه.

هذا إذا كان الاستدلال بها على حجّية أخبار الآحاد بمفهوم الوصف، وإن كان

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

(٢) سورة النحل، الآية ٤٣.

(٣) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

الاستدلال بها من حيث تعليق الحكم على الشرط، وهو مجيء الفاسق بالخبر، فيرد عليه أن الشرط في القضايا المشروطة إذا كان علّة منحصرة للحكم لابدّ وأن ينتفي الحكم عن الموضوع عند انتفاء الشرط، فإذا انتفى الموضوع مع انتفاء الشرط، فيكون انتفاء الحكم لانتفاء موضوعه لا من حيث انتفاء الشرط. والمفهوم في الآية بناء على أن وجوب التثبّت سببه مجيء الفاسق بالنبأ هو عدم وجوب التبيّن إذا جاء غير الفاسق بالخبر، والآية لا تدلّ على ذلك؛ لأن المفهوم لوجوب التبيّن في خبر الفاسق هو عدم التبيّن إذا لم يأتِ الفاسق به، وعدمه في مثل ذلك يمكن أن يكون لعدم مجيء أحد به، كما يمكن أن يكون لمجيء غيره به. والقضايا التي تكون من هذا النوع من القضايا التي تأتي لبيان تحقّق الموضوع على حد تعبير الأُصوليين، أي أن الشرط فيها وارد لبيان الحكم عند وجود موضوعه، كما في قول القائل: إذا قرأت الدرس فاحفظه، وإذا رزقت ولداً فاختنه، وإذا تزوجت فلا تضرب زوجتك ونحو ذلك.

وللأُصوليين في مجاميعهم كلام طويل حول هذه الآية لا يعنينا منه أكثر من هذه الإشارة العابرة[١].

أما بقية الآيات التي حاول أنصار هذا الرأي التعلّق بها فلا تجدي نفعاً إلا بعد تأويلها وتحويرها تحويراً لا يتناسب مع ظواهرها ومواردها.

وقد استدلّوا بالإضافة إلى ذلك بالإجماع الذي ادّعاه جماعة من الفقهاء والأُصوليين، في حين أن القائلين بعدم جواز الاعتماد على أخبار الآحاد قد استدلّوا بالإجماع أيضاً، مع العلم بأن الإجماع حتى ولو لم يكن معارضاً بمثله لا ينفع حتى في المسائل الفرعية إذا لم يكن محصّلاً، ومشتملاً على رأي المعصوم عليه السلام. ولو تجاهلنا جميع ما قيل حول الإجماع، وبنينا على اعتباره من أدلّة الأحكام، وافترضنا وجود إجماع على العمل بأخبار الآحاد، ولكن ليس في كلام المجمعين ما يشعر بأنهم يعملون بأخبار العدول حتى ولو

---

(١) وللمزيد راجع ما كتبه السيد محمد باقر الصدر في الجزء الثاني من كتابه دروس في علم الأُصول ص ١٣٩ وما بعدها.

لم تقترن ببعض القرائن والشواهد، ومع قيام هذا الاحتمال يبطل مفعول الإجماع، ولم يعد صالحاً للاستدلال به؛ لأنه لا يكشف عن رأي المعصوم والحالة هذه.

واستدلوا أيضاً بالأخبار والسيرة المتّصلة بعصر الإمام على الاعتماد على أحاديث الموثوقين في دينهم، وهما من أصلح الأدلّة التي اعتمدها أنصار هذا الرأي؛ ذلك لأن الأخبار وإن كانت من نوع الآحاد إلا إنها متواترة في مضامينها، وبعضها مقترن ببعض القرائن التي تؤكد صدورها عن الأئمةعليهم السلام، وأكثرها تعتمد وثاقة الراوي أساساً للأخذ بالحديث والاعتماد عليه.

[رأي الشيخ الأنصاري في هذه المسألة]

وقال الشيخ مرتضى الأنصاري في رسائله: «وقد ادّعى في (الوسائل) تواتر الأخبار على العمل بخبر الثقة، إلا إن القدر المتيقّن منها هو خبر الثقة الذي يضعف فيه احتمال الكذب على وجهٍ لا يعتني به العقلاء، ولا يتوقّفون عن العمل به لأجل ذلك الاحتمال، كما تشير إلى ذلك كلمة «الثقة» و«الصادق» و«المأمون»، وغيرها من الألفاظ التي وردت في تلك الأخبار. مع العلم بأن أكثر المرويات حول هذا الموضوع لم تتعرّض للعدالة، بل جاء في بعض المرويّات ما يشعر بالترخيص بالعمل برواية غير العادل، كما في رواية (العدة) عن الصادقعليه السلام أنه قال: «**إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما روي عنا، فانظروا إلى ما رووه عن علي**عليه السلام». هذا بالإضافة إلى ترخيصهم بالعمل بكتب بني فضّال وغيرهم ممن انحرف عن التشيّع الصحيح»[1].

وأما السيرة على العمل بأخبار الموثوقين فلا مجال للتردّد في أن الناس في سائر أُمورهم يعتمدون على من يثقون في دينه وسيرته، ويرتّبون عليه سائر الآثار من غير فرقٍ بين ما يتعلّق منها بأُمور الدين أو الدنيا. وبلا شكّ إن سيرة الناس متّصلة بعصر

---

(١) فرائد الأُصول ج١ ص ٣٠٩ مع اختلاف يسير في نص العبارات.

الإمامعليه السلام، وأنه يعلم منهم ذلك، وبإمكانه أن يردعهم أو ينهاهم عن مثل ذلك على أقل التقادير لو افترضنا أن عملاً من هذا النوع يخالف الحقّ والواقع، في حين أنه لم ينهَ ولم يتعرّض لذلك. مع العلم بأنه لو سكت عما لا يرتضيه منهم مع تمكّنه من البيان والردع يكون قد أهمل واجبه، وقصّر في أداء الأمانة الموكولة إليه.

ومجمل القول أن الاعتماد على أخبار الثقات ممّا جرت السيرة عليه في جميع العصور من غير فرقٍ بين المتعلّق منها بأُمور الدين، أو الدنيا. والمعصوم نبيّاً كان أو إماماً لا يجوز في حقه أن يقرّ الناس على الخطأ، ويسكت عن إظهار الحقّ ما دام ذلك ميسوراً له، ولم يرد عنه ما يشير إلى ردعهم عن سلوك هذا الطريق.

هذا بالإضافة إلى أن التصلّب في هذه المسألة والتنكّر لأخبار العدول والثقات يؤدّي إلى ضياع أكثر الأحكام الشرعية؛ لأن الأدلّة القطعية والأخبار المحفوفة بالقرائن لا تفي بأكثر الأحكام فضلاً عن جميعها. فإذا تجاهلنا أخبار العدول والثقات، وألحقناها بأخبار الفسّاق والمشبوهين، لم يعد لنا من سبيل إلى امتثال أكثر الأحكام بعد تعسّر الاحتياط، وبلا شكّ فإن العقل في مثل هذه الحالات لا يرى بديلاً عن الاعتماد على الظنون الحاصلة من هذه الأخبار إذا كان الاحتمال المخالف موهوماً بالنسبة إلى الطرف الآخر.

وقد لخّص الشيخ الطوسي في كتابه (العدّة) موقف الشيعة من أخبار الآحاد بقوله: «وأما ما اخترته من المذهب، فهو أن خبر الواحد إذا كان وارداً من طريق أصحابنا القائلين بالإمامة، أو كان عن طريق النبيصلى الله عليه وآله، أو عن أحد الأئمةعليهم السلام، وكان ممّن لا يطعن في روايته بنحوٍ يكون سديد النقل، ولم يكن هناك قرينة تدلّ على صحّته؛ لأنه إذا اقترن ببعض القرائن يصبح الاعتماد عليه من جهة القرينة...»[١].

وأضاف إلى ذلك: «إن الشيعة منذ أقدم عصورهم قد اتّفقوا على العمل بتلك

---

(١) عدة الأُصول ج١ ص ١٢٦، مع اختلاف يسير في النص.

المرويّات التي رووها في مؤلّفاتهم ودوّنوها في أُصولهم، ولم يعرف عنهم أنهم أنكروا هذا الموقف على أحد منهم. فلولا أن العمل بهذا الأخبار كان جائزاً لبيّنه الإمامعليه السلام خلال تلك الفترة الطويلة التي تنتهي بانتهاء مهمة السفراء الأربعة الذين كانوا على اتّصال دائم بالإمام الثاني عشر[(١)]».

ومضى في تقريب هذا الرأي إلى القول بأن القياس لما كان محظوراً عند الشيعة، فإذا وجدوا أحداً جنح إليه وأخذ به في بعض الأحيان ولو في مقام الجدل والاحتجاج، رفضوا قوله، وتعرض لأعنف الهجمات وأسوأ الاتهامات. ولو كان الاعتماد على مرويات الآحاد محظوراً عند الشيعة كالقياس والاستحسان ونحوهما كما تشعِر به بعض النصوص والتصريحات المنسوبة إلى بعض أعلامهمّ ـ لو كان الأمر كذلك ـ لظهرت آثار ذلك في أقوالهم ومؤلّفاتهم بتلك الشدّة التي ظهرت فيها آراؤهم حول القياس وغيره، في حين أن الذي ظهر منهم يؤكّد جواز الاعتماد عليها بضميمة المرويات عن الأئمةعليهم السلام فإن المتتبّع لجميع ما ورد عنهم حول هذا الموضوع يخرج مطمئناً بصدور بعضها عن الأئمةعليهم السلام. ومضى يقول: إن المنكرين لجواز العمل بأخبار الآحاد من الإمامية كانوا يقفون هذا الموقف السلبي من أخبار الآحاد في مقابل أخصامهم الذين كانوا يعتمدون على أخبار الآحاد لإثبات بعض الأحكام المخالفة لهم، والتي دلّت أخبارهم على خلافها. واستطرد في حديثه يستعرض جميع الشبه، ويفنّد جميع الاحتمالات التي يمكن أن تعترض طريقة القائلين بجواز الاعتماد عليها.

[موقف الشيعة من أخبار الآحاد في الموضوعات]

والذي تجدر الإشارة إليه أن أكثر القائلين بجواز الأخذ بأخبار الآحاد التي يرويها العدول والثقات في جميع مراحل السند قد وقفوا عند الأخبار المتعلّقة بالأحكام. أما إذا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٧.

تعلّق خبر العدل بموضوع من الموضوعات فلم يأخذوا به إلا إذا تعدّد رواته بأن رواه عدلان أو ثقتان في جميع مراتب السند كما هو الشأن في جميع الموارد التي لا يكفي فيها خبر الواحد، أو مطلق الظنّ إلا إذا قامت الأدلّة على اعتباره بالخصوص. ولكن الأدلّة التي اعتمدها القائلون بحجّيّة أخبار العدول والثقات وبخاصّة سيرة العقلاء والمتشرّعة التي هي من أقوى أدلّتهم لا تشير ولو من بعيد إلى أنهم يعتمدون على الثقات في خصوص إخبارهم بالأحكام، ويرفضون المتعلّق منها بالموضوعات. وفي وسع الفاحص لتلك الأدلّة أن يتأكّد من هذه الحقيقة؛ فإن الناس في جميع العصور والحالات، وفي ظلّ جميع الرسالات والنبوّات يعتمدون على من يثقون بصدقه وأمانته، ويرتّبون عليها جميع الآثار؛ سواء تعلّقت بالأحكام، أو الموضوعات، وبخاصة إذا كان احتمال الخلاف بعيداً وموهوماً لا يوجب الحيرة والتردّد على حدّ تعبير الشيخ الأنصاري في رسائله.

ومجمل القول أن الأدلّة التي استدلّ بها القائلون بحجية أخبار العدول والثقات بمجموعها تدلّ على حجية الخبر؛ سواء تعلّق بالحكم أو بموضوعه، كالعدالة، والضرر، والنسب، والحياة، ونحو ذلك ممّا يكون موضوعاً وذا أثر يعود أمره إلى الشارع. وفي غير ذلك لا أجد ما يبرّر الحديث عن شمول الأدلّة له؛ لأن الأُمور الخارجية التي لا تتعلّق بالأحكام لا يعود أمرها إلى الشارع؛ لكي نستجدي الأدلّة على جواز الاعتماد عليها.

[موقف الشيعة من اصول الإسلام]

بقي أن القائلين بجواز الاكتفاء بالظن الحاصل من أخبار الثقات في الأحكام وموضوعاتها لم يكتفوا به في أُصول الإسلام حيث إنه لابد فيها من اليقين القاطع للشكّ، والظن مهما بلغت قوّته لايمنع من احتمال الخلاف. وقد لخّص الشيخ الأنصاري في رسائله موقف العلماء من أُصول الإسلام بالأُمور الستة التالية:

الأول: اعتبار العلم فيها من النظر والاستدلال، وهو المعروف عن الأكثر. وأضاف إلى ذلك أن العلامة قد ادّعى إجماع العلماء كافّة على ذلك.

الثاني: الاكتفاء بالعلم الحاصل ولو من التقليد.

الثالث: الاكتفاء بالظنّ مطلقاً؛ سواء حصل من التقليد، أو من البحث والاستدلال.

الرابع: الاكتفاء بالظن الحاصل من الاستدلال.

الخامس: الاكتفاء بالظن الحاصل من أخبار العدول والثقات، كما ذهب إلى ذلك الأخباريون وأنصارهم من الحشوية الذين لا يفسحون مجالاً للعقل في مقابل الحديث.

السادس: الاكتفاء بالجزم والظنّ الحاصلين من التقليد. وأنصار هذا الرأي يرون وجوب البحث والاستدلال من الواجبات المستقلّة المعفو عنها عند تعسّرها(١).

بهذه الآراء الستة يمكن تحديد موقف العلماء من أُصول الإسلام، ولكن الذي يعكس رأي الشيعة منها هو القول الأول، حيث إن الكثرةالغالبة منهم لا تقرّ غيره من الآراء. وأضاف إلى ذلك الشيخ الأنصاري: إن أُصول الدين التي لا يطلب فيها أولاً وبالذات إلا الاعتقاد باطناً والتديّن ظاهراً على قسمين:

الأول منها مايجب على المكلّف الاعتقاد والتديّن به بدون شرط آخر. وهذه يجب فيها تحصيل العلم من باب المقدّمة، كما هو الحال في سائر مقدمات الواجب المطلق.

والثاني: هو الذي يجب الاعتقاد والتديّن به عند حصول العلم به، كالتفاصيل، والخصوصيات المتعلّقة بالتوحيد والنبوّة، وبقية الأُمور. وهذه لايجب تحصيل العلم والمعرفة بها؛ لأن وجوبها مشروط بالمعرفة، فقبلها لا يجب الاعتقاد بها، وإذا لم يجب الاعتقاد بها لا يمكن أن تتّصف مقدّمتها بالوجوب، كما هو الشأن في سائر مقدّمات الواجب المشروط الذي لا يجب تحصيل مقدمته. وانتهى إلى القول بأن وجوب التديّن

---

(١) فرائد الأُصول ج١ ص ٥٥٣.

بهذه الأُمور لمجرّد الظنّ الحاصل من الأخبار ولو كانت صحيحة يكون من الاعتماد على الظن؛ فلابد من التوقّف في مثل ذلك[١]. وأضاف أن الشهيد الثاني في كتابه (المقاصد العلية) صرّح بأن ما ورد عنه‏ﷺ من طريق الآحاد في تفاصيل البرزخ والمعاد ونحو ذلك لا يجب التصديق به مطلقاً، والاعتماد عليه في المقام[٢] وإن كان طريقه صحيحاً؛ لأن خبر الواحد ظني، وقد اختلف في جواز العمل به في الأحكام الشرعية، فكيف بالأحكام الاعتقادية؟ ومضى يقول: إن الشيخ الطوسي في كتابه (العدة) قال: إن عدم جواز التعويل في أُصول الدين على أخبار الآحاد اتّفاقي إلا من بعض غفلَة أصحاب الحديث.

ومجمل القول أن الأُمور التي يجب تحصيلها، والاعتقاد بها، كالتوحيد، والنبوّة، والمعاد، والجنّة والنار والحساب، وغير ذلك يتعيّن على القادر أن يبحث ويفتّش، ويستعمل جميع إمكانياته للوصول إلى الاعتقاد الجازم. أما إذا لم يكن قادراً على البحث والفحص، كما هو الحال في عوامّ الناس وبسطائهم، فلا يمكن تكليفهم بالنظر والاستدلال لتحصيل العلم، ويكفي اعتقادهم بها من أيّ طريق كان حتى ولو من التقليد. وهو الذي يتناسب مع يسر الإسلام وسماحته، أما الأخبار التي تشعر بوجود الواسطة بين الإسلام والكفر، وأن هؤلاء بينهما، فعلى تقدير صحّتها يمكن ان تكون تعبيراً عن واقع حالهم من حيث المكانة التي يستحقّونها يوم الجزاء؛ ذلك لأنهم لا يستحقّون أن يضعهم الله سبحانه في صفوف الموّحدين المؤمنين عن علم ونظر وقناعة، ولا يمكن أن يضعهم في صفوف الجاحدين؛ لأنهم لا ينكرون الله ورسله، وكل ما في الأمر أنهم لا يملكون وسائل اليقين الجازم بأُصول الدين، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان.

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٥٦.

(٢) المصدر نفسه.

وجاء في رواية سليم بن قيس عن أمير المؤمنين أنه قال: «**أدنى ما يكون العبد مؤمناً أن يُعَرِّفه الله تعالى إياه فيقرّ له بالطاعة، ويُعَرِّفه نبيهﷺ فيقر له بالطاعة، ويعرّفه إمامه وحجّته في أرضه وشاهده على خلقه فيقرّ له بالطاعة**». فقلت: يا أمير المؤمنين، وإن جهل جميع الأشياء إلا ما وصفت؟ قال: «نعم»[١]. إلى غير ذلك من المرويات التي تشير إلى هذا المعنى.

وأما القسم الثاني من الأُمور التي لا يجب الاعتقاد بها إلا بعد العلم بها، كالبرزخ وأحوال الجنة والنار وكيفية الحساب والصراط ونحو ذلك، فلا تجب معرفتها بنحو التفصيل ولا الفحص عنها؛ لأنها من مقدّمات الواجب المشروط الذي لا تجب مقدمته. وإذا حصل العلم بها من خبر متواتر أو آحاد محفوف ببعض القرائن لابدّ من التصديق بها، أما الآحاد المفيد للظنّ فلا يجب التعبّد به وإن كان صحيحاً، كما جاء عن الشهيد في كتابه (المقاصد العلية)[٢]. وقال الشيخ الأنصاري في رسائله: «لا يعتبر الإيمان أزيد من التوحيد والتصديق بالنبيﷺ، وبكونه صادقاً في كلّ ما جاء به وبلّغه إلى الناس أجمعين، وليس المراد معرفة تفاصيل ذلك، وإلا لم يكن من آمن بمكّة من أهل الجنة، أو كان حقيقة الإيمان بعد انتشار الشريعة غيرها في صدر الإسلام»[٣]. ولو حصل اليقين بشيء من هذه الأُمور بواسطة أخبار الآحاد يجب التصديق به والالتزام بآثاره.

ومهما كان الحال فلقد أطال الشيخ الأنصاري وغيره الكلام [في] الحديث عن كيفية التديّن بأُصول الإسلام وتشعّب الآراء حولها، ولكن الرأي الذي يعبّر عن رأي الشيعة في هذه المسألة هو وجوب الاعتقاد والتديّن بها، وأن على القادر على تحصيل العلم أن يسعى إليه بالوسائل التي توفّر له ذلك. أما من ليس في مقدوره ذلك، فيكفيه العلم

(١) الكافي ج٢ ص ٤١٤.

(٢) المقاصد العلية، ٢٥.

(٣) فرائد الأصول ج١ ص ٥٦٢.

الحاصل من أيّ طريق كان حتى ولو كان بواسطة التقليد وغيره من الطرق الظنّية، وتكليفه بأكثر من ذلك لا يعدو أن يكون من نوع التكليف بغير المقدور الذي لا يقرّه العقل والشرع. هذا بالإضافة إلى أن تكليف الجاهل بتحصيل الطرق العلمية يؤدّي إلى خروج الكثرة الغالبة من الناس عن الإيمان، كما التزم بذلك بعض أعيان الفقهاء. ولكن أنصار هذا الرأي لم تتوفّر لهم الأدلّة الكافية لتدعيمه.

هذا فيما يعود إلى الأُصول، أما التفاصيل والكيفيات، فلا يجب الفحص عنها ولا التديّن بها إلا إذا حصل العلم بها بالأسباب المتعارفة كما قدّمنا.

[موقف السنة من أخبار الآحاد وشروط الشيخين فيها]

لقد سبق أن ذكرنا خلال المباحث السابقة أن الأُصول التي وضعها علماء الحديث والدراية من الشيعة للحديث وأصنافه لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن الأُصول التي وضعها الباحثون في علم الحديث من أهل السنة إذا استثنينا بعض التفريعات والاصطلاحات. وكما أسرف فريق من علماء الشيعة وفقهائهم فوقفوا موقفاً سلبياً من أخبار الآحاد ولو كانت بمنتهى الصحة ما لم تنتهِ إلى العلم بصدورها عن المعصوم، وقف نفس الموقف فريق من علماء السنة، فاشترطوا أن يكون الخبر مروياً عن طريق عدلين في جميع مراحل السند. وهؤلاء بين من يدّعي أن الصحيح المقبول عند البخاري ومسلم هو الذي يرويه عدلان عن مثلهما، وبين من لا يرى مبرّراً لقبول أخبار الآحاد إلا إذا تعدّد رواتها، واقترنت ببعض القرائن المؤكّدة لصدورها.

وجاء في المجلد الأوّل من (تدريب الراوي) للسيوطي أن جماعة من المحدّثين ـ منهم ابن الأثير في مقدّمة (جامع الأُصول) وغيره، ومؤلّف كتاب (ما لا يسع المحدّث جهله) ـ ذكروا أن شرط الشيخين في صحيحيهما أن لا يدخلا فيه إلا ما صحّ عندهما، وهو ما رواه عن النبيّ صلى الله عليه وآله اثنان فصاعداً، وما نقله عن كل واحد من الصحابة أربعة من التابعين فأكثر، وأن يرويه عن كل واحد من التابعين أكثر من أربعة[1]. ومضى

---

(١) راجع أيضا عمدة القاري، للعيني ص ٦.

يقول: إن ابراهيم بن إسماعيل بن علية أحد الفقهاء والمحدثين، المتوفى سنة (١٩٣) اشترط رجلين عن رجلين لقبول الحديث. وأضاف إلى ذلك أن الجبّائي قال: لا يقبل الخبر إذا رواه العدل الواحد إلا إذا انضمّ إليه خبر عدل آخر، أو كان موافقاً لظاهر الكتاب، أو رواه عدل آخر، أو كان شائعاً ومنتشراً بين الصحابة. وأكثر المعتزلة يرون رأي الجبّائي، ولكن هذين الرأيين لا يعكسان رأي الجمهور الذين يقفون إلى جانب أخبار الآحاد ولو كان الراوي لها عدلاً واحداً، وهم بين قائل بأنها تفيد العلم القطعي بصدورها عن النبيﷺ، وبين من يدّعي بأنها لا تفيد أكثر من الظنّ.

وجاء في التعليقة على (الباعث الحثيث) أن الذين ذهبوا إلى أن أخبار الآحاد قطعية الصدور ولو كان الراوي لها عدلاً واحداً هم الكثرة الغالبة من المحدثين، ومنهم الحسين بن علي الكرابيسي، والحارث بن أسد المحاسبي، وابن حزم في المجلد الأول من كتابه (الإحكام في أُصول الأحكام) ص ١١٩ و١٣٧. وجاء فيه أن خبر العدل الواحد عن مثله إلى رسول اللهﷺ يوجب العلم والعمل معاً. ومضى المعلّق على (الباحث الحثيث) في سرد أسماء الذين ذهبوا إلى هذا الرأي، وعدّ منهم ابن الصلاح، وأبا إسحاق، وأبا حامد الإسفرايني، والقاضي أبا الطيب، والشيخ أبا إسحاق الشيرازي من الشافعية، والسرخسي من الأحناف، والقاضي عبد الوهاب من المالكية، وابن الزغراني من الحنابلة. وأضاف إلى ذلك أن أكثر أهل الكلام وأهل الحديث قاطبة يذهبون إلى ذلك. وأضاف إلى ذلك أن الحق ما ذهب إليه ابن حزم، ومن قال بقوله من أن الحديث يفيد العلم القطعي؛ سواء أكان في الصحيحين، أم في غيرهما. وهذا العلم اليقيني لا يحصل إلا للمتبحّر في الحديث، العارف بأحوال الرواة والعلل. وخلُص من ذلك إلى القول بأن الفروق التي وضعها المتكلّمون بين العلم والظن إنما يريدون بها غير ما نريد[١].

ومن ذلك تبيّن أن أكثر محدّثي السنّة وفقهائهم إنما يأخذون بخبر العدل الواحد من

(١) انظر ص ٣٦ و ٣٧ من الباحث الحثيث للحافظ بن كثير.

حيث إفادته العلم بالصدور، ومعه لا يحتاجون إلى دليل آخر؛ لجواز الاعتماد على الحديث؛ لأن كل شيء ينتهي إلى العلم يقطع العذر. أما الشيعة فمن حيث إن عدالة الراوي عندهم لا تفيد أكثر من الظن بالصدور، ولاتمنع احتمال العدم؛ فيحتاجون إلى دليل آخر يرفع من شأن هذا النوع من الظنون إلى مستوى العلم من حيث ترتيب الآثار؛ لأن الأدلّة العامّة قد منعت من الأخذ بالظن، وألحقته بالشكّ والوهم.

وحصيلة البحث حول أخبار الآحاد أن موارد الالتقاء بين الفريقين: السنة والشيعة تبدو وكأنها معدومة إلى أبعد الحدود؛ لأن الكثرة الغالبة من السنّة يدّعون[1] الى أن أخبار العدول تفيد العلم، وكل شيء ينتهي إلى العلم ينتهي معه البحث. وعندما يتحدّثون عن مرويات الصحيحين لمحمد بن إسماعيل البخاري، ومحمد بن مسلم النيسابوري يغالون فيها وكأنها من وحي السماء؛ لأن الأول اختار صحيحه من ستمئة ألف حديث، والثاني من أربعمئة ألف حديث، والقلّة منهم يلتقون مع الكثرة من الشيعة من حيث إن أخبار العدول لا تفيد غير الظنّ، والظنّ لا يغني عن الحقّ شيئاً ما لم تقترن ببعض القرائن والمرجّحات. وكل ما في الأمر أن الشيعة يدّعون وجود الدليل على الأخذ بهذه الظنون وقيامها مقام العلم من حيث ترتيب الآثار الشرعية، ولا يفرّقون بين الكتب الأربعة وغيرها من المرويات المنتشرة هنا وهناك؛ لأن عدالة الراوي واستقامته في دينه وسيرته كلّ ما توفّر لحديثه صفة الظنّ بالصدور، وليست كافية وحدها لإلغاء احتمال الكذب أو الخطأ ونحوهما.

ولما كان مجرد الرجحان وحده لا يصلح ان يكون باعثاً على التديّن والأخذ بمضمون الخبر، رجعوا إلى البحث عن الأدلة التي توفر لهم القناعة والاطمئنان وقد توفرت لهم القناعة من مجموع الأدلة التي رجعوا إليها على جواز الاعتماد على مرويات الثقات والعدول إذا لم تصطدم بما هو أقوى وأصرح منها، وعدوا ذلك خروجاً على

(١) في الأصل بعدها: إلى.

المبدأ العام القاضي بعدم جواز الأخذ بالظنون إذا استثنينا حفنة من محدثي الشيعة[(١)] وفقهائهم غالوا في الكتب الأربعة بما يشبه غلو السنة في صحاح الحديث وصحيحي الشيخين، ولكنهم لم يسرفوا اسرافهم، ومع ذلك فقد تعرضوا لأعنف الهجمات واسوأ الاتهامات من الجمهور الأعظم ووصفوهم بالمقلدة حيناً وبالحشوية حيناً آخر ودأبوا على مقاومتهم حتى ذابت مقالتهم ولم يعد لها وزن عند تمحيص الآراء وتصفية المقالات والاتجاهات.

---

(١) المقصود هم الطائفة الأخبارية.

الفصل الثالث

الكذب في الحديث

[تمهيد]

من المتّفق عليه بين جميع الفرق والطوائف الإسلامية أن الكذب في الحديث قد ظهرت بوادره في عصر مبكّر من تاريخ الإسلام، وأن بين المرويات عن النبي والأئمة الكرام في مختلف المواضيع عدداً هائلاً قد انتشر هنا وهناك في كتب الحديث والفقه لا يمكن بحال من الأحوال أن نتجاهل أخطاره ونتائجه التي أصابت السنة في الصميم. تلك الروايات التي مزّقت الأُمة شعوباً وأحزاباً، ولايزال المسلمون يعانون من أخطارها حتى اليوم، وستبقى أخطارها عبر العصور تصنع الحجب التي تحول بين حديث الرسول وأضوائه، وبين الإسلام ومبادئه الخيرة الصالحة لكل زمان ومكان، وتضع الحدود والسدود بين المسلم والمسلم، والإنسان وأخيه الإنسان، بالرغم من بعض المحاولات التي بذلت ولاتزال تبذل بين الحين والآخر للتنبيه على تلك الموضوعات التي انتشرت بين سنة الرسول منذ القرون الأُولى.

ولكن ـ ومع الأسف الشديد[1] ـ ان تلك المحاولات؛ سواء أكانت من السنة أو الشيعة كانت تفقد عنصرين هامّين لابد منهما في كل عمل يراد نجاحه، وهما الإخلاص والصراحة، فالسني مثلاً حينما يكتب في الموضوعات يضع في حسابه أكبر مجموعة من المرويات الشيعية، ويتّهم رواتها بالكذب والافتراء على الرسول وأبنائه، ويحاول بكل ما لديه من جهد أن يبرر اتّهامه هذا بوجود بعض الكذّابين بين رواة أحاديثهم. ويقف الشيعي نفس الموقف من مرويات الفريق الآخر، فيضع أكبر مجموعة من رواتهم في

(١) في الأصل بعدها: إن.

قفص الاتّهام. في حين أن الباحث المجرّد لاينتهي إلى كل هذه النتائج إذا درس الحديث دراسة موضوعية، وأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف والملابسات التي كانت تحيط بالفريقين، وإلى أي حد كانت السياسة تسيطر على جميع الشؤون حتى الدينية منها؛ لأن للسياسة طابعها الديني؛ ومن أجل ذلك كان الحكام يشعرون بالحاجة الماسّة إلى الدعم الديني؛ لإغراء الجماهير بشرعية حكمهم. ومن غير الممكن أن يجدوا هم وأعوانهم بين النصوص الدينية من كتاب أو سنة ما يشعر ولو [من] بعيد بشرعية حكمٍ يقوم على الظلم والجور، واغتصاب الحقوق، والاستهتار بالمقدسات، وحرية الفرد والجماعة. وليس أدلّ على ذلك من تحوير مفهوم الخلافة عملياً ونظرياً إلى حكم فردي يستمدّ قوّته وبقاءه من الإسراف في بذل الأموال، وإراقة الدماء، لا من النصوص الإسلامية، ولا من رغبة الشعب وإرادة الجماهير.

وقد ظهرت بوادر هذا النظام في مطلع العهد الأُموي الذي تتمثل بعض جوانبه في السنين الأخيرة من حكومة عثمان بن عفّان، وبقية جوانبه الأُخرى في حكومة معاوية بن أبي سفيان الذي أدرك الرسولﷺ، والخلفاء الأربعة ومعظم الصحابة، ورأى تصلّبهم في فرض النظم الإسلامية من جميع جوانبها، وظلّ طيلة حكمه يحاذر إلى حدٍّ ما أن يتفجّر الموقف من حوله لاسيما وفي المسلمين بقية من خيار صحابة الرسول، وولداه الحسن والحسينعليهما السلام الأمل المنشود لكل مؤمن بالله واليوم الآخر. لذلك كان يداجي أحياناً، وأحياناً يستعمل أعوانه لتحوير الحقائق وخلق المبرّرات لتصرّفاته وإعطائها صفة الشرعية، فمهّد الطريق لمن جاء بعده من حكّام تلك الدولة الجائرة، فاستعملوا المرتزقة للدسّ والكذب على الرسول، وتضاءل إحساسهم بالهيبة التي كانت تعترض غيرهم من الحاكمين، واندفعوا مع شهواتهم وأهوائهم ومتطلبات أُسلوبهم في الحكم إلى أبعد الحدود في السر والعلانية. ولم يرَ خليفتهم الوليد بن يزيد ما يمنعه من أن يستنيب جاريته حبابة لتصلّي بالناس وهي سكرى، ويحتفظ بها جثة هامدة أياماً طوالاً وقد ملأت جيفتها القصر وهو يردد قول القائل:

فإن تسلُ عنك النفس أو تدعِ البكا ... فباليأس تسلو النفس لا بالتجلّدِ

ولولا الضجّة التي أثارها أهله والأقربون إليه لم يسمح بدفنها[١]. ومع هذا الإسراف في المنكرات، والتمادي في الضلال والشهوات، فلقد وجدوا جيشاً من العملاء والنفعيين يساندهم، ويموّه على الناس بسلامة سلوكهم وصحّة تصرفاتهم بأحاديث ينسبها إلى الرسول والصحابة زوراً وبهتاناً.

ولو تجاهلنا جميع ذلك نجد أن الذين تصدّوا لهذه المواضيع من سنّيّين وشيعيّين قد اهتمّوا بأحاديث الأحكام، وتركوا غيرها مما هو مروي في مختلف المواضيع، ودوّنوها في مجاميعهم من غير تعديل أو تمحيص. وفي الوقت ذاته تجاهلوا تلك التيارات المتضاربة، والآراء الغريبة عن تعاليم الإسلام، والافتراضات التي أيّدتها وروّجتها بعض الفرق والأحزاب التي لبست المسوح[٢] والتصوّف حيناً، ومضت تفلسف المعتقدات والمبادئ الإسلامية حيناً آخر، إلى غير ذلك من الاتّجاهات التي كان لها أكبر الأثر في تحوير الحقائق، والتلاعب في حديث الرسول والأئمةعليهم السلام.

هذا بالإضافة إلى دور القصّاصين والمرتزقة الذين اتّخذوا القصص مهنة لهم يستدرّون عطف الحكّام وعوام الناس، فانتشروا في المساجد والنوادي والمجتمعات يحدّثون بفضائل الأشخاص، والأعمال، وصفات الجنة والنار، وأهوال المحشر بما لم يحدّث به نبي ولا إمام ولا كتاب. وانتشر هذا النوع من الحديث بين صحاح الأحاديث؛ حتى امتلأت به المجاميع. وبشيء من الإيجاز فإن حركة الوضع قد تطوّرت مع الزمن بدون تحفّظ، كما هو الشأن في كل شيء يتّصل بحياة الناس، وانحطّت في أهدافها إلى أن أصبحت من وسائل العيش واللهو، فلا يجد القصّاصون وأتباع الحكّام ما يمنعهم عن أن يضعوا حديثاً متّصلاً إلى الرسول أو الإمام في مدح أو ذمّ، أو ترغيب

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج٦٩ ص٩٢، البداية والنهاية لابن كثير ج٩ ص٢٦٠. وأما البيت الشعري «فإن تسلُ عنك...»، فهو لكثير عزة في ديوانه ص٤٣٥.

(٢) المسوح: ملابس خشنة مصنوعة من الشعر يلبسها الزهّاد.

بعملٍ عن نية سيئة أحياناً، وعن بلاهة وغباء في بعض الأحيان.

ومن أمثلة ذلك ما جاء عن غياث بن إبراهيم، وقد دخل على المهدي العباسي، وهو يلهو بالرهان على الحمام، فروى له أن الرسولﷺ قال: «**لا سبق إلا في خفّ، أو حافر**»، أو جناح. فكافأه بعشرة آلاف درهم، ولما خرج من مجلسه قال له المهدي: أشهد أن قفاك قفا كذّابٍ على رسول الله؛ لأنه لم يقل: «أو جناح»، ولكنك أردت أن تتقرّب إلينا[١].

والذي لايجوز التنكّر له أن محدّثي السنّة من أواسط القرن الخامس كانوا أكثر وعياً وإدراكاً للأخطار التي أحاطت بالحديث الشريف من محدثي الشيعة فألّفوا ـ بالإضافة إلى كتب الرواية وأحوال الرجال ـ عشرات الكتب خلال قرنين من الزمن حول الموضوعات، وبعضها يحمل هذا الاسم بالذات. ومن بين هؤلاء عبد الرحمن بن الجوزي العالم الشهير الذي ألّف كتابه (الموضوعات) في ثلاثة أجزاء[٢] خلال القرن السادس الهجري، وتوالت بعده المؤلّفات في هذا الموضوع فألّف السيوطي والفتني وغيرهما بنفس التخطيط والأُسلوب، وأصبحت كتبهم من أجلّ المصادر وأكثرها فائدة لمن يريد أن يكتب في هذه المواضيع.

أما الشيعة فقد تجاهلوا هذا الموضوع وكأنه لا يعنيهم من أمره شيء، في حين أن الموضوعات بين مرويّاتهم لا تقلّ في عددها وأخطارها عن الموضوعات السنية. وكلّ مافي الأمر أنهم عالجوا مشاكل الحديث عن طريق مؤلّفاتهم في علمي الرجال والدراية اللذين يبحثان عن أحوال الراوي والرواية، ويضعان الخطوط العامّة لمايصح الاعتماد عليه وما لايصحّ. ولكنهم لم يحاولوا خلال هذه القرون أن يضعوا ولو كتاباً واحداً يشتمل ولو على نماذج من الموضوعات في مختلف المواضيع، في حين أنهم لايزالون

(١) جامع الأُصول، لابن الأثير ج١ ص ١٣٧، تدريب الراوي ص ١٠٣.

(٢) وقد طبع هذا الكتاب أخيرا طبعة جديدة وخالية من الأخطاء في لبنان من قبل (دار الفكر) في ثلاثة أجزاء.

يعانون مما تركته تلك الموضوعات من آثار سيئة على المذهب الشيعي البعيد عن الشذوذ والأساطير والخرافات التي أدخلها المرتزقة من أتباع الحكام والقصّاصون وقادة الفِرق والأحزاب. وظهر إلى جانب هؤلاء وضّاعون من طراز آخر كانوا يضعون الحديث بلسان أئمة الشيعة بدافع الغيرة على الإسلام في الترغيب والترهيب، ويدعمون مقالاتهم وموضوعاتهم بمرويّات مفادها أن النبيﷺ والإمامعليه السلام قالا: «**من بلغه ثواب على عمل فعمله ابتغاء ذلك الثواب أُوتيه وإن لم يكن رسول الله قاله**»[١]. يفعلون ذلك تقرّباً إليه، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وانتشر هذا اللون من الموضوعات بين السنة والشيعة، ووجد القصّاصون من خلاله مبرّراً لأساطيرهم التي امتلأت بها المجاميع السنّية والشيعيّة، وكان من نتيجة ذلك أن تاه الكثير من الصحيح بين المكذوب، ووجد الحاقدون على الإسلام والتشيّع مجالاً واسعاً للتشويش والتشنيع أمضى من أي سلاح آخر، وأشدّ فتكاً من أسلحة المشركين وأعداء أهل البيت، كمحب الدين الخطيب، وجماعة الوهابية، وأمثالهم من المأجورين والحاقدين.

متى ابتدأ الكذب في الحديث؟

يدّعي الذين عالجوا هذه المواضيع من مؤلّفي السنة أن الحديث بقي صافياً وسليماً من الكذب والتحوير خلال المدّة التي اجتمع فيها المسلمون على الخلفاء الراشدين، واستمرّ على ذلك إلى أن انقسمت الأُمة إلى أحزاب وشيع، واندسّ في صفوفها أهل المصالح والأهواء، وكانت الفتنة التي أودت بعثمان فهزّت العالم الإسلامي على حدّ تعبيرهم، وكان من نتائجها انتقال الخلافة لعلي بن ابي طالبعليه السلام. ولكن الأحداث كانت أقوى من أن تسمح للهدوء والسلام أن يعودا إلى الدولة؛ فحصل الانقسام بين

(١) وقد أفرد لها الكليني في كتابه (الكافي) بابا أسماه «باب من بلغه ثواب من الله على عمل». راجع الكافي ج٢ ص ٨٧.

المسلمين وفي معسكره، وجرّ هذا الصراع الذي لبس ثوباً جديداً حروباً طاحنة في البصرة وصفين كان من أسوأ نتائجها تلك الهدنة التي نتج عنها رجوع معاوية إلى الشام أقوى مما كان عليه قبل الحرب، وظهور الحزب الذي انشقّ من جيش عليعليه السلام، وتمرّد على الفريقين: علي ومعاوية؛ لأن علياً حكّم الرجال في دين الله[١] كما يزعمون، ومعاوية يريد أن يتولّى الحكم رغماً عن إرادة الأمة.

وبعد استشهاد عليعليه السلام توالت الأحزاب والفرق، واتّخذت لنفسها الطابع الديني الذي كان له أبلغ الأثر في تأسيس تلك المذاهب والأحزاب في تلك الفترة من تاريخ الإسلام، وحاول كلّ حزب أن يدعّم مذهبه وحزبه بالقرآن والسنة، فتأوّل بعضهم القرآن كما يريدون، وفسّروا السنّة بما يتّفق مع ميولهم ورغباتهم واتّجاهاتهم، ولم يجدوا سبيلاً لتحريف القرآن؛ لأنه محفوظ ومكتوب لا يجهله إلا القليل، ووجدوا السبيل سهلاً لتأويل السنّة وتحريفها، فحرّفوها وزادوا فيها، ووضعوا آلاف الأحاديث ونسبوها إلى الرسول.

وبدأت حركة الوضع والكذب تنشط مع نشاط الأحزاب، وتتّسع باتّساعها إلى أن بلغت ذروتها في القرن الثاني وما بعده، وتناولت جميع جوانب حياتهم الخاصّة والعامّة، وأضافوا إلى ذلك أن الشيعة كانوا من أبرز الفِرق والأحزاب في هذا الأمر، فوضعوا آلاف الأحاديث ـ على حدّ تعبيرهم ـ التي تؤيّد خلافة علي وبنيه. ولم يكتفوا بذلك حتى وضعوا أكثر منها في ذمّ الخلفاء الثلاثة والطعن عليهم، وكان على رأس موضوعاتهم «حديث الغدير»، والوصاية إلى عليعليه السلام، وغير ذلك مما يرفع شأن فاطمة والحسن والحسين وغيرهم من أهل البيت، حتى بلغت الأحاديث الموضوعة عن طريقهم في الفضائل وحدها ثلاثمئة ألف حديث على حد زعم الخليل بن أحمد في (الإرشاد)[٢] وغيره.

---

(١) راجع: المعجم الكبير للطبراني ج١٠ ص ٢٥٧.

(٢) هذا سهو من قلم المؤلّف؛ لأن قائل هذا الكلام هو أبو يعلى الخليلي، وليس الخليل بن احمد. قال

وبعد أن انتشر الكذب الشيعي قابلهم الجهلة من أهل السنة الذين راعهم ما دسّه أُولئك من الأحاديث المكذوبة على النبيﷺ، فقابلوا الكذب بكذب مثله، ولكنهم كانوا أكثر تحفّظاً منهم ورعاية لدينهم، فوضعوا في فضائل الثلاثة بعض المرويات ليقابلوا بها ذلك السيل من مكذوبات الشيعة، كما وضع أنصار معاوية عدداً من المرويات في فضله وفضل الأُمويين وحمص والشام وغيرهما من المدن لمّا وجدوا تلك الموضوعات الشيعية التي تمسّ كرامة الأُمويين، وتسيء إلى معاوية وحزبه؛ ليقابلوا الباطل بمثله.

[مع السباعي وغيره ممن نسبوا الكذب في الحديث إلى الشيعة]

وأيّد جمهور أهل السنة رأيهم هذا ببعض النصوص المنسوبة إلى الشافعي، وعامر الشعبي، وحماد بن سلمة، وغيرهم من شيوخ الفقه والحديث التي تصف الشيعة والرافضة بالكذب على علي وبنيه. واستطرد السباعي في حديثه عن الموضوعات يقول: وليس من المعقول أن يقترف أحد من الصحابة على الرسول، أو يخوضوا في الكذب عليه، وهم الذين سمعوه أكثر من مرة يقول: «**من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار**»[1]. ويقول: «**إن كذباً عليّ ليس ككذبٍ على أحد، من كذب عليّ أكبّه الله في النار**».

ومن غير المعقول أيضاً أن يجازف أحد منهم بالنور النبوي الذي خالط قلبه وروحه ليطفئه بوضع حديث في سبيل دعم فكرة، أو للانتصار على حزبٍ، أو للتقرّب من

ابن القيم: «وأما ما وضعه الرافضة في فضائل علي فأكثر من أن يعد، قال الحافظ أبو يعلى الخليلي في كتاب (الأرشاد): وضعت الرافضة في فضائل علي (رضي الله عنه)، وآل البيت نحواً من ثلاثمئة ألف حديث». راجع: المنار الضعيف ص ١٦٦. علما أن اتّهام الشيعة بوضع الفضائل رائج عندهم، قال ابن الجوزي: «فضائله كثيرة ـ أي الإمام علي ـ غير أن الرافضة لم تقتنع، فوضعت له ما يضع ولا يرفع». الموضوعات (١/ ٢٥٢).

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٩٣، مع اختلاف في نقل النص لم يغيّر المعنى.

شخص، وإن أية محاولة في سبيل إثبات الوضع من قبل الصحابة ستبوء بالفشل؛ لكثرة الأدلّة القاطعة على ورعهم وخشيتهم، وبُعدهم عن المعاصي، بل إن الأدلّة على أنهم كانوا حفظة الشريعة يذبّون عن السنّة التحريف والتأويل أكثر من أن تحصى. هذا بالاضافة إلى جرأتهم المثاليّة في الحق، وهي جرأة لم ترضَ لهم بأن يسكتوا عن آبائهم وأعزّ الناس إليهم إذا انحرفوا عن سواء السبيل[١].

إلى كثير من أمثال هذه الصفات التي يلصقها الكتّاب في الصحابة بمن[٢] فيهم معاوية بن هند، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وسمرة بن جندب، وأمثالهم ممن تمرّدوا على الرسول والإسلام ومبادئه في حياة الرسول، وانطلقوا مع شهواتهم ومصالحهم بعد وفاته إلى أبعد من الحدود، لا لشيء إلا ليضعوا الشيعة في قفص الاتّهام، ويلقوا عليهم وحدهم تبعة هذه الجريمة النكراء، ويحمّلوهم أوزار من افترى على الرسول إلى يوم الدين عملا بالحديث الشريف: «**من سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[٣].

بهذا التسلسل الملتوي يصوّر محدّثو السنة ومؤلّفوهم مراحل الكذب في الحديث تصويراً لا يستند على المنطق، ولا تلمح إليه الأدلّة من قريب أو بعيد، بل تكذّبه عشرات الأدلّة والشواهد، ومنطق الحوادث التي رافقت عصر الصحابة، كما سنبين ذلك خلال هذا الفصل. ولا يسعنا ـ ونحن بصدد تحديد الزمان الذي بدأ فيه الكذب على الرسول ـ أن نمرّ بهذا الرأي الذي يعبّر عن رأي الجمهور بدون أن نكشف الأخطاء العلمية والتاريخية التي ينطوي عليها هذا الإسراف بالغلوّ في تنزيه جميع الصحابة عن الكذب، ووضعهم في مستوى القديسين والملائكة الأبرار؛ مع أنهم مارسوا جميع الفتن والمنكرات بعد وفاته وفي حياته، وبلغ بهم الحال أن يعملوا على

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) في الأصل: ما.

(٣) صحيح مسلم ج٣ ص ٨٧.

اغتياله، وخطّطوا لتنفيذ جريمتهم، وكادت[١] تقع لولا أن القرآن الكريم قد كشف أمرهم[٢].

هذا بالإضافة إلى تخاذلهم عن نصرته في بعض الغزوات، وتجسّسهم عليه، إلى غير ذلك مما نصّ عليه القرآن في سورة التوبة وغيرها، مع أنهم كانوا إلى جانبه يرون ويدركون أنوار النبوّة، وسمو الرسالة، وإخلاص القائد في سبيلها، وحرصه البالغ على تطهير نفوسهم، واقتلاع بذور الشرك والنفاق منها منذ بعثه الله إلى اليوم الذي اختاره إليه.

وأين كان النور النبوي الذي خالط قلوبهم وامتزج بدمائهم ـ على حدّ زعم الخطيب والسباعي وغيرهما من مؤلّفي السنة الذين حاولوا في مؤلّفاتهم أن يضعوا الصحابة كلّهم في صفوف القديسين ـ وهم يتآمرون على اغتياله، ويتقاعسون عن نصرته، ويدّعون بأنه قد أذن لهم في التخلّف زوراً وبهتاناً، كما جاء في الآية من سورة التوبة: ﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾[٣] ؟ وأين كان نور النبوة من أُولئك الذين كانوا يفرحون إذا أصابته مصيبة كما جاء في الآية: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[٤]؟ وهل استطاع الإسلام بمبادئه وإخلاص قائده وجهاده المتواصل أن يقتلع بذور الشرك والنفاق من نفس أبي سفيان وولده، وعمرو بن العاص وغيرهم ممّن أسلموا خوفاً وطمعاً، وتركوا تاريخاً حافلاً بالمخازي والمنكرات؟ وهل يستبعد أحد على من كانوا يكيدون للنبي، ويتّحدون إرادته في كثير من الأحيان، وجرفتهم الأهواء بعد وفاته إلى حيث تشاء، هل يستبعد

---

(١) في الأصل بعدها: أن.

(٢) لا أعتقد أن المقصود بالصحابة عند جمهور المسلمين يشمل هؤلاء الذين خطّطوا لقتله، أو غير ذلك ممّا ذكره المؤلّف.

(٣) هذه الاية في سورة يونس ورقمها ٥٩ وليس في سورة التوبة كما ذكر المؤلف سهوا.

(٤) سورة التوبة الآية ٥٠.

أحد على هؤلاء أن يكذبوا على الرسول، ويضعوا الأحاديث في فضل من يحبون وذم من يكرهون؟

هذا بالإضافة إلى أن النبيﷺ لم يقف موقف المهدّد والمخوّف للكذبة عليه بمختلف الأساليب لولا إحساسه بوجود فريق من الكذّابين عليه قد انتشروا بين أصحابه، وحدّثوا عنه بما لم يحدّث به، فلقد وقف في أكثر من مناسبة يهدّد ويخوّف ويتوعّد من يرتكب هذه الجريمة بألفاظ تختلف في نصها ومحتواها، فقد جاء في بعضها: «**إن الذي يكذب عليّ يُبنى له بيت من النار**»[١]، وفي بعضها الآخر أن «**من يكذب عليّ... يكلف يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين**»[٢]. إلى غير ذلك من الصيغ المختلفة التي وردت حول الكذب عليه كما أحصاها عبد الرحمن الجوزي في كتابه الموضوعات[٣].

وقد عدّ المحدّثون من السنّة هذا الحديث من نوع المتواتر؛ لأن الذين رووه عن النبي أكثر من ستّين صحابياً على حدّ زعمهم. ومن المستبعد أن يكون اهتمام النبيﷺ بهذه الناحية بدافع الإحساس والتحسّب لما سيحدث بعد عصره من الافتراء عليه كما يزعمون؛ ذلك لأن ما حدث بعد عصره من الكذب عليه لم يخرج عن كونه مصداقاً للكذب الذي ندّد به القرآن الكريم، وتوعّد عليه بالنار والعقاب في عشرات الآيات. وليست هذه الأحاديث بأشدّ وقعاً على الكاذبين، وأكثر تهويلاً من الآيات الكريمة الكثيرة التي وضعت الكاذبين في مستوى الكفّار والمنافقين، وأورثتهم اللعنة إلى يوم الدين. هذا بالإضافة إلى أن جماعة ممن رووا هذه الأحاديث رووا أيضاً أن النبيﷺ لم ينطق بها عفواً، ولم يخاطب بها الأجيال البعيدة عن عصره كما يزعمون، وذكروا حادثتين وقعتا في حياته بدا عليه منهما الانزعاج، فوقف يهدّد ويتوّعد، وأرسل كلمته

---

(١) الرسالة، للإمام الشافعي ص ٣٩٦ رقم الحديث ١٠٩٢.

(٢) الموضوعات ج١ ص٦٦، الباب الثاني: في قولهﷺ: «من كذب على متعمّداً».

(٣) انظر ص ٥٥ من المجلد الأول لإبن الجوزي.

التي رواها ستون صحابياً أو أكثر:

الأولى منها كما جاء عن عطاء بن السائب،ان عبد الله بن الزبير قال يوماً لأصحابه: أتدرون ما تأويل هذا الحديث: «**من كذب عليّ متعمداً**»؟ فقالوا: لا علم لنا بذلك. فقال: إن رجلاً من المدينة عشق امرأة، فأتى أهلها فلم يزوّجوه منها، فلبس حلّة وأتى أهلها وقال لهم: إن رسول الله ﷺ قد بعثني إليكم لكي أتضيّف في أي بيت شيءت من بيوتكم. وكان ينتظر أن ينام عندهم؛ ليتّصل بتلك المرأة، فأتى رجل منهم رسول الله فقال له: إن فلاناً أتانا يزعم أنك أمرته أن يبيت في أيّ بيوتنا شاء. فقال: «**كذب والله**». ثم أرسل رجلاً وأمره أن يضرب عنقه إن تمكّن منه، ويحرقه في النار. فلما خرج دعاه رسول الله، ونهاه عن إحراقه بعد قتله؛ لأنه لا يعذّب في النار إلا ربّ النار[١]. ورويت هذه الحادثة عن طريق صالح بن حيّان عن ابن بريدة عن أبيه بتفاوت يسير لا يغيّر المعنى.

والثانية رواها ابن سعد[٢] في طبقاته، والطبراني[٣] عن المقنع[٤] التميمي أنه قال: أتيت النبي ﷺ بصدقة إبلنا وقلت له: إن فيها ناقتين هدية لك، فأمر بعزل الهدية عن الصدقة، فمكث أياماً، وخاض الناس أن رسول الله باعث خالد بن الوليد إلى رقيق مصر فمصدّقهم[٥]، فقلت: والله ما عند أهلنا من مال، فأتيت النبي ﷺ فقلت له: ان الناس خاضوا في كذا وكذا فرفع النبي ﷺ يديه حتى نظرت إلى بياض أبطه وقال: «**اللهم لا أُحلّ لهم أن يكذبوا عليّ**». قال المقنع: فلم أُحدّث بحديث عن النبي ﷺ إلا حديثاً نطق به كتاب، أو جرت به سنة[٦].

---

(١) الموضوعات لابن الجوزي ص ٥٦.

(٢) الطبقات الكبرى ج٧ ص٣.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ج ٢٠ ص ٣٠٠.

(٤) في المصدر: المنقع.

(٥) في المصدر: شك أبو غسان فيصدقهم.

(٦) مجمع الزوائد للهيثمي ج١ ص ١٤١.

ومهما كان الحال؛ فسواء صحّت هذه المرويات أو لم تصحّ فالمعاصرون للنبي من الصحابة لم يكونوا في مستوى واحد كغيرهم من سائر الناس في مختلف العصور، فمنهم الصدّيقون الأبرار الذين طهّرت نفوسَهم الصحبةُ من الفجور والآثام، ومنهم المسلم الذي لم يبلغ مرتبة هؤلاء، ومنهم المتستّر بالإسلام الذي يستبيح كل شيء في سبيل تحقيق أهدافه ورغباته.

ونحن لا ندّعي وقوع الكذب على الرسول في حياته بصورة قاطعة؛ لأن الأرقام التي بأيدينا لا تنتهي بنا إلى هذه النتيجة، ولكنّا لا نستبعده، بل نقرّبه اعتماداً على هذه المرويات وغيرها من القرائن والملابسات التي كانت تحيط بهم، لا سيما وقد أدانهم القرآن والرسول فوصنهم [فوصفهم] القرآن بالنفاق، كما وصفهم الرسول بالارتداد كما ذكرنا من قبل.. لا نستبعده منهم في مقابل أُولئك الذين يرونه من المستحيلات من غير أن يقدّموا دليلاً واحداً على ذلك سوى التلاعب بالألفاظ، والتهويش بشرف الصحبة وأنوار النبوة، ومواقفهم المشهورة من الإسلام، ونحو ذلك مما لا يفيد الظن فضلاً عن القطع باستحالته منهم في حياته وبعدها كما يزعمون.

ومجمل القول أنه اذا جوّزنا أن يكون عصر النبي خالياً من الكذب، فليس بإمكان أحد أن يثبت خلوّ عصر الصحابة من الكذب ووضع الأحاديث بالأرقام التي تفيد القناعة والاطمئنان إلى ذلك.

[الصحابة المتهمون في الكذب على الرسول ﷺ]

وبإمكان الفاحص أن يجد عدداً من الشواهد والأدلّة على تفشّي الكذب عليه بين الصحابة أنفسهم قبل قيام الأحزاب والفِرق بأكثر من عشرين عاماً، وقد أحسّ بهذه الظاهرة جماعة من الصحابة، فوقفوا موقفاً صلباً من الرواة والمحدثين عن الرسول ﷺ منهم عبد الله بن العباس القائل: «كنا نحدّث عن رسول الله، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه»[1]. ومنهم علي بن أبي طالب عليه السلام الذي

(١) صحيح مسلم ج١ ص ١٠، سنن الدارمي ج١ ص ١١٣.

كان لا يقبل الرواية إلا إذا شهد عليها عدلان من المسلمين، وأحياناً كان يستحلف الراوي كما تنص على ذلك بعض المرويات[١]. ومنهم عمر بن الخطاب الذي ضرب أبا هريرة بدرّته وهدّده بالنفي من المدينة إن هو ظل يحدّث الناس بما لم يحدّث به الرسول[٢]، وقد أحسّ بالفرج عندما مات عمر بن الخطاب فأخذ يحدث بما لذّ وطاب[٣].

وحتى السيدة عائشة كانت تنكر بعض مروياته عن الرسول[٤]، فقد حَدّثَ يوماً عنه أنه قال: «**من أصبح جنباً فلا صوم له**». فأنكرتها عليه كما جاء في صحيح البخاري، وقالت: إن رسول الله كان يصبح جنباً ويبقى على صيامه، ولما كثُر الحديث حول هذه الرواية أسندها إلى الفضل بن العباس، وكان يوم ذاك قد انتقل لجوار ربه[٥].

وجاء في كتاب (اختلاف الحديث)[٦] للشافعي أن أبا بكر بن عبد الرحمن قال: كنت

---

(١) راجع المبسوط للسرخسي ج١٦ ص ١١٨.

(٢) فقد ورد أن الخليفة عمر بن الخطاب ضربه بالدرّة لما أفزعه من كثرة أحاديثه عن الرسول وقال له: «أكثرت يا أبا هريرة من الرواية، وأحرى بك أن تكون كاذباً. لتتركن الحديث او لأُلحقنك بأرض دوس أو بأرض القردة». اخرجه ابن عساكر من حديث السائب بن يزيد، وهو الحديث ٤٨٥٧ في ص ٢٣٩ من الجزء الخامس من كنز العمال. وأبو هريرة هذا أحدث جدلاً واسعاً بين المحدّثين والباحثين حتى من أهل السنة، فبينما تجد الدكتور محمد عجاج الخطيب يضع كتابا كاملاً هو (أبو هريرة راوية الإسلام) يدافع عنه وينفي عنه الشبه والاتّهامات، تجد السيد رشيد رضا يقول في مجلة المنار ج١٠ ص ٨٥١: «لو طال عمْر عمَر حتى مات أبو هريرة لما وصلت إلينا تلك الأحاديث الكثيرة».

(٣) حيث إن ابا هريرة كان يقول: «لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربني بالدرة». جامع بيان العلم لابن عبد البر ج٢ ص ١٢١.

(٤) راجع ما كتبه الأُستاذ مصطفى صادق الرافعي في ص ٢٨٢ من الجزء الأول من كتابه (آداب العرب)، وكذلك السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه المسمى (أبو هريرة) ص ١٨٤ وما بعدها.

(٥) المعجم الكبير للطبراني ج ١٨ ص ٢٩١ – ٢٩٢.

(٦) اختلاف الحديث ص ٥٢٨.

أنا وأبي [عند][1] مروان بن الحكم وهو أمير المدينة من قِبل معاوية فقيل له: إن أبا هريرة يروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «**من أصبح جنباً فلا صوم له، وأفطر ذلك اليوم**». فقال مروان: أقسمت عليك يا أبا عبد الرحمن لتذهبن إلى أُم المؤمنين عائشة، وأُم سلمة فتسألها عن ذلك، ولما سألهما أجابتا بأن رسول الله ﷺ كان يصبح صائماً، وأنكرتا على أبي هريرة حديثه، ولما رجع إلى أبي هريرة بجوابيهما بأمر من مروان بن الحكم، قال له: لقد أخبرني مخبرٌ عن رسول الله ﷺ بذلك[2].

وجاء في رواية فتح الباري لابن حجر أن مروان بن الحكم قال لعبد الرحمن: لتُفزعن بجوابها أبا هريرة، فكَرِه عبد الرحمن أن يكون عنيفاً مع أبي هريرة كما يريد مروان، ولما اجتمع به في ذي الحليفة وكان له أرضٌ بها ذَكَرَ له جواب السيدتين عائشة وأم سلمة فقال: كذلك حدثني الفضل بن العباس[3].

ولما روى عن رسول الله أنه قال: «**الشؤم في ثلاثة: الدار والفرس والمرأة**». أنكرت عليه حديثه وقالت: إن رسول الله قال: «**كان أهل الجاهلية يقولون: إن يكن الشؤم ففي ثلاثة: الدار والمرأة والفرس**»[4]، إلى غير ذلك من مواقفها معه التي تبعث الريب والشكّ في مروياته.

وجاء في (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة أنه لما أكثر أبو هريرة من الرواية عن الرسول، وحدّث بها لم يحدّث به أحد ممن كانوا أَلصق به منه وأكثر ملازمة له، اتّهمه المهاجرون والأنصار، وأنكروا عليه. وكانت عائشة أشّدهم إنكاراً، وأكثرهم تشهيراً به[5].

---

(١) من المصدر.

(٢) راجع أيضا السنن الكبرى للبيهقي ج ٤ ص ٢١٤.

(٣) فتح الباري ج ٤ ص ١٢٤.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ج ٥ ص ١٤٠ وفيه انها قالت: (والذي انزل القرآن على محمد ما قالها رسول الله قط...)

(٥) تأويل مختلف الحديث ص٤١.

ولما قالت له: إنك تحدّثت عن رسول الله بأحاديث لم أسمعها منه، أجابها كما جاء في رواية البخاري وابن كثير: لقد شغلك عن رسول الله المِيل والمكحلة، وأما الأنصار فكان يشغلهم الصفق في الأسواق[١].

كما جاء في (تأويل مختلف الحديث) ص ٤٩ و٥٠ أن عمران بن حصين أحد الصحابة الذين أسلموا في السنة السابقة من الهجرة قال: والله إني كنت لأرى أني لو شيءت لحدّثت عن رسول الله يومين متتابعين، ولكن بطّأني عن ذلك أن رجالاً من أصحاب رسول الله سمعوا كما سمعت، وشهدوا كما شهدت يحدّثون بأحاديث ما هي كما يقولون، وأخاف أن يُشبَّه لي [كما][٢] شُبِّه لهم.

وجاء في (سير أعلام النبلاء) ج٢ ص ٤٣٦ أن بسر بن سعد كان يقول: اتّقوا الله وتحفّظوا في الحديث، والله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدّث عن الرسولﷺ ويحدثنا عن كعب، ثم يقوم، فيجعل بعض من كان معنا حديث رسول الله عن كعب وحديث كعب عن رسول الله.

وجاء في كتاب (شبه التشبيه) لابن الجوزي ص ٣٨ أن الزبير بن العوّام سمع رجلاً يحدّث، فاستمع إليه حتى إذا قضى حديثه قال له: أنت سمعت هذا من رسول الله؟ قال: نعم. فقال الزبير: هذا والله وأشباهه ممّا يمنعانني أن أُحدّث عن النبيﷺ، لقد سمعت رسول الله يحدّث بهذا الحديث وأنا صغير عن أهل الكتاب، فجئت أنت تحدّث به وتنسبه إلى رسول الله، وهو ليس من أحاديثه؟

وجاء في (البداية والنهاية) لابن كثير أن عمر بن الخطاب قال لأبي هريرة: لتتركن الحديث عن رسول الله وإلا ألحقتك بأرض دوس. كما قال لكعب الأحبار: إذا لم تترك الحديث عن رسول الله ألحقتك بأرض القردة[٣].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١١٣ و ١١٦، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٦٧ ص ٣٥٣، طبقات بن سعد ج ٢ ص ٣٦٤.

(٢) من المصدر.

(٣) انظر جلد ٨ من البداية والنهاية ص ١٠٦.

إلى غير ذلك من الأدلّة والقرائن التي تفيد القطع بأن الكذب في الحديث قد انتشر في عهد الصحابة وفي الفترة التي تلت وفاة الرسولﷺ؛ حيث تيسّر لضعاف الإيمان والحاقدين والمنافقين ما لم يتيسّر لهم في حياته، حيث الوحي كان لا يُخفي عنه أكثر مخطّطاتهم ومكائدهم، ويكشف له حتى عمّا يبيّتون ويضمرون من سوء له ولدعوته في بعض الأحيان. ومن الممكن أن يكون لذلك أثره في عدم تفشّي الكذب عليه في حياته، أما وقد انتقل الرسول إلى ربه وانقطع وحي السماء عن أهل الأرض، فلم يعد ما يمنع الحاقدين من بثّ سمومهم، والكيد للاسلام بكل الوسائل.

ومن المقطوع به أن الكذب عليه في الفترة التي تلت وفاته كان أقل منه بعد أن اتّسعت رقعة الإسلام، وتشعّبت الأُمّة حيث وجد أعداء الإسلام منفذاً لبثّ سمومهم وأراجيفهم بين صفوف المسلمين للتشويش على سنّته وسيرته؛ ذلك لأن الطبقة الأُولى من الصحابة كان فيها من يحاسب ويراقب، ويحاول الحدّ من نشاط المشبوهين والمتّهمين. وقد أكّدت النصوص الصحيحة أن علياً كان يراقب جماعة من المحدثين عن الرسول، ولا يقبل الحديث إلا أن يرويه اثنان من أتقياء الصحابة، فإن لم يكن ذلك يتوقّف حتى يحلف له الراوي اليمين بأنه سمعه من الرسولﷺ، وعمر بن الخطاب قد هدّد وتوّعد المُكثرين من الحديث كأبي هريرة وأمثاله.

وجاء عن أبي هريرة أنه كان يقول ويحدّث في خلافة عثمان بما لذّ له وطاب، ويقول للناس: أفكنت محدّثكم بهذه الأخبار وعمر بن الخطاب حي؟ أما والله لأيقنت أن المخفقة ستباشر ظهري[1].

وجاء عنه أنه جمع من أحاديث رسول الله وعاءين؛ حدث بأحدهما في عصر الطبقة الأُولى من الصحابة، ولكنه لم يستطع ان يحدّث بشيء من الوعاء الثاني إلا في الفترة الأخيرة من حياته[2].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٦٧ ص ٣٤٤. والمخفقة هي الدرة أو سوط من خشب.

(٢) انظر البداية والنهاية ج٨ ص ١٠٦ وما بعدها.

[اسطورة تميم الداري وغيرها من مرويات البخاري]

ولو تجاهلنا جميع ماذكرناه وذكره غيرنا من الأدلّة التي لا تدع مجالاً للريب في أن الكذب على الرسول قد حدث بعد وفاته من الصحابة، وممّن دخلوا الإسلام في تلك الفترة من النصارى واليهود والمجوس، ككعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وعبد الله بن سلام، وغيرهم بقصد التشويش والتخريب، لو تجاهلنا جميع ذلك، واستعرضنا بعض المرويات التي رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما اللذين يقدّسهما الجمهور الأعظم من أهل السنة، ويضعهما في المرتبة الثانية من كتاب الله، كرواية الجساسة التي نقلها تميم الداري، ورواها مسلم في صحيحه بأسانيد مختلفة عن الصحابة، وغيرها من المرويات التي أسندها الصحابة إلى النبيﷺ، ورواها الشيخان، [فـ] لابدّ أن ننتهي إلى أحد أمرين لا ثالث لهما: إما تكذيب الصحابة في تلك المرويات، وإما اشتمال الصحاح على الأحاديث المكذوبة لو كانت تلك المرويات من موضوعات المتأخّرين عن الصحابة، وهذا ما لم يلتزم به الجمهور الأعظم، وحتى السباعي والخطيب وغيرهما ممن يؤكدون سلامة عصر الصحابة من هذه الجريمة.

فقد جاء في صحيح مسلم[1] ان رسول الله جمع الناس ووقف فيهم خطيباً، وكان مما قال: «**إني ما جمعتكم لرغبة ولارهبة، ولكني جمعتكم لأن تميماً الداري**[2] **كان نصرانياً فبايع، وحدثني أنه ركب سفينة بحرية مع ثلاثين من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، وأنهم دخلوا الجزيرة فلقيتهم دابّة أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجسّاسة. ثم أشارت عليهم أن يتطلّعوا إلى رجل في الدير، وأشارت**

---

(١) انظر ص ٥٢٠ من المجلد الثاني صحيح مسلم.

(٢) هو تميم الداري من نصارى اليمن، وكان تميم مع قبيلته في قرية من قُرى فلسطين وفد على النبيﷺ بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، وهو من رهبان المسيحية، ورجع إلى الشام بعد مقتل عثمان والتحق بمعاوية ونشر فيها مفترياته ودسائسه. وكان مع ذلك من القصّاصين في المساجد والمجتمعات بأمر من معاوية.

إليه، فدخلوا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه خلقاً، وأشدّه وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، ولما عرف بأنهم من العرب سألهم عن نبي الأُميين: ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل بيثرب. قال: قاتله العرب؟ قالوا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبروه بأنه ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال: إني مخبركم عني، إني أنا المسيح، وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج وأسير في الأرض أربعين يوماً، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة؛ فإنهما محرّمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة منها استقبلني ملَك بيده سيف مصلت يصدّني عنهما». وبعد أن انتهى النبيﷺ من هذا الحديث طعن بمخصرته على المنبر وقال: «هذه طيبة». ثلاثاً يعني بذلك: المدينة.

وجاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «إن جهنم يوم القيامة تبدو وكأنها في أشدّ حالة من الغضب، تحتجّ على الله ليفي بوعده حيث قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]، فعند ذلك يضع رجله فيها فتمتلئ ويسكن غضبها»[2].

وجاء فيه أيضاً أن النبيﷺ أثّر فيه السحر، وغاب عن وعيه، ولم يعد يعرف من أمره شيئاً، واستمرّ على هذا الحال إلى أن ذهب بعض أصحابه إلى بئر في نواحي المدينة، فأبطل مفعول السحر[3].

وجاء فيه أيضاً أن بني إسرائيل اتّهموا موسى بعاهة في بدنه، فنزع ثيابه ووضعها على حجر، فمضى بها الحجر يتخطّى شوارع المدينة، وموسى يعدو وراءه عارياً ويقول: «ثوبي يا حجر». يكررها، وأهل المدينة ينظرون إليه، فلم يجدوا به شيئاً[4].

---

(١) سورة هود الاية ١٩٩.

(٢) صحيح البخاري ج ٦ ص ٤٨.

(٣) صحيح البخاري ج ٤ ص ٩١.

(٤) انظر صحيح البخاري ج ٢.

إلى غير من الأساطير الكثيرة التي روى قسماً منها البخاري في صحيحه، وروى بعضها الآخر مسلم في صحيحه أيضاً. هذه الأساطير من صحاح الحديث عند محدّثي السنّة، ويكفي في صحّتها أن يرويها الشيخان أو أحدهما، والنتيجة الحتمية للالتزام بصحّتها هو صدورها عن النبيﷺ، ولا أظنّهم لو أمعنوا النظر فيها يسمحون لأنفسهم أن يضعوا النبيﷺ بهذا المستوى الذي لا يرضاه أيّ إنسان لنفسه، ولا يليق بأجهل الناس وأغباهم، وهو أجلّ وأرفع من أن يستمع إلى حديث الجسّاسة، أو يحدث به أصحابه مؤمناً بصحّته، كما يحاول رواته. ولابد لهم من الالتزام بأحد أمرين كما ذكرنا من قبل؛ إمّا تكذيب الصحابة في هذا النوع من المرويات، ولازم ذلك أن عصر الصحابة لم يكن خالياً من الكذب كما يدّعون، أو الالتزام بأن هذه المرويات من موضوعات عصر التابعين أو تابعيهم، ويلزمهم أن يتراجعوا على كلا التقديرين عن موقفهم المتشدّد بالنسبة إلى مرويات البخاري ومسلم.

ولو تغاضينا عن كل هذه الغرائب والخرافات، وعن جميع الشواهد التي تدلّ دلالة قاطعة على أن الصحابة وضعوا عشرات الأحاديث على الرسولﷺ، وسبقوا المتشيّعين لعلي في هذه الجريمة، لو تغاضينا عن كل ذلك فلا يسعنا إلا الوقوف طويلاً مع أحاديث الارتداد التي اتّفق عليها الشيخان البخاري ومسلم، والتي تنصّ على أنهم ارتدّوا عن الدين بعد النبي، ولم ينجُ منهم إلا مثل همل النعم كما جاء في بعض مرويات الشيخين الجليلين(١). هذه الأحاديث التي تكرّرت في صحاح أهل السنّة بصيغ مختلفة، وفي جميعها يبدو النبي العظيم وكأنه يُعبّر عن حزنه العميق، وأسفه الشديد على جهوده المضنية في سبيل الإسلام ومبادئه، وتركيزها في نفوس المسلمين عامّة، وبخاصة أُولئك الذين رافقوه في أكثر المراحل التي مرّت بها دعوته، وكان يحرص أشدّ الحرص على ألا يذهب عن دنياهم إلا بعد اقتلاع بذور الشرك والنفاق من نفوسهم، وتطهيرها من

(١) صحيح البخاري ج ٧ ص ٢٠٨.

رواسب الجاهلية وظلماتها المتراكمة عبر السنين الطوال، وإعدادهم لحمل الأمانة، وأداء الرسالة، والعمل بجدٍّ وإخلاص في سبيل الله وخير الناس أجمعين. وإذا به بعد هذه الجهود يطلّ على غدهم المظلم، ومصيرهم المحفوف بالمخاطر، فيقف موقف الحزين الكئيب، مستغيثاً بربّه لينقذهم مما هم فيه من البلاء والعذاب، فيأتيه النداء بأن أصحابك لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنهم ارتدّوا على أدبارهم من بعدك، فغيّروا وبدّلوا، وانحرفوا عن صراطك المستقيم ونهجك القويم إلى حيث قادتهم الأهواء والشهوات، والمطامع والأنانيات، فلا ينجو منهم إلا القليل القليل، ولم يتخلّف عن موكب الارتداد عن سيرتك وتعاليمك إلا مثل همل النعم(١).

ومع وجود هذا النوع من المرويات في صحيح شيخ المحدثين محمد بن إسماعيل، وبقية الصحاح التي اعترف بصحّتها الجمهور الأعظم من المحدّثين والفقهاء، نراهم يناقضون أنفسهم حينما يدّعون بأنه من المستحيل أن يُقدِمَ أحد من الصحابة على الكذب على رسول الله بعد أن عرف جزاء الكذب عليه. ويضيفون إلى ذلك أنه من غير الممكن أن يجازف أحد منهم بالنور النبوي الذي خالط قلبه وروحه، فيطفئه بوضع حديث في سبيل دعم فكرة، أو للتقرّب من شخص معيّن. وإن أيّة محاولة لاتّهامهم بهذه الجريمة ستبوء بالفشل، وتعترضها الأدلّة القاطعة على ورعهم وخشيتهم، وبُعدهم عن المعاصي والبدع والأهواء(٢).

وبالطبع يحاول أهل السنة بهذا التصوّر للصحابة ألا يفسحوا المجال لتسرّب الشك في الخلافة الإسلامية بالشكل الذي صارت عليه، ويريدون أن يضعوا الجميع فوق الشبهات لهذه الغاية، ولو كان الصحابي كسمرة بن جندب صاحب النخلة الذي كان

---

(١) وهي الإبل التي لا تستطيع اللحاق بالقطيع؛ إما لضعفها، أو لغير ذلك مما يمنعها من السير مع رفيقاتها. وبلا شكّ أن نسبة هذا النوع من النعم إلى مجموع القطيع لا تزيد عن الاثنين بالنسبة إلى العشرة في الغالب، وقد جاء هذا التعبير كناية عن أنه لا ينجو منهم إلا القليل القليل.

(٢) انظر السنة قبل التدوين، وغيرها من مؤلفات السنة حول هذا الموضوع.

يؤذي الأنصاري باستغلالها، ويدخل عليه داره ولو كان هو وعائلته في وضعٍ لايسمح لأقرب المقرّبين بالدخول عليهم، في حين أنه رفض بيعها للنبيﷺ بالرغم من الوعود المغرية التي تحفظ لكلٍ منهما حقّه، فكان من نتيجة هذا الموقف مع النبي أنه أعطى الحقّ لصاحب الدار بأن يقلع له نخلته[١]، وأصدر ذلك المبدأ العام الذي اتّفق عليه أكثر المسلمين؛ سنّيّهم وشيعيّهم: «**لا ضرر ولا ضرار في الإسلام**»[٢]، وأصبح من المبادئ العامّة التي يعتمد عليها الفقه الإسلامي فيما يشبه هذه الحادثة من موارد سوء استعمال الحقّ.

أو كان كمعاوية، ومروان، والمغيرة، وولده عبد الله، وطلحة والزبير اللذين تزعّما حركة المعارضة لخلافة عليعليه السلام بقيادة السيدة عائشة، وكان من نتائجها أن استُشهد ما يقرب من خمسين ألفاً أكثرهم من المسلمين الأبرياء الذين غرّرتهم السيدة عائشة بوقوفها هذا الموقف الذي حذّرها منه الرسول في أكثر من مناسبة[٣]. إلى غير ذلك ممّن مارسوا الفتن وجميع المنكرات.

واذا استحال على جميع أصحابه أن يُقدموا على المعاصي، ويجرؤوا على الكذب عليه، ويجازفوا بنور النبوّة الذي خالط قلوبهم وامتزج بدمائهم وأرواحهم على حد تعبير أهل السنة، فكيف يتصوّرهم النبي يُساقون أفواجاً إلى جهنم، ولا يفلت منهم إلا القليل، ويدّعي بعد ذلك بأن الله سبحانه قد وصفهم بالارتداد عن دينه، وتحريف سنّته، وتجاهل أحكامه؟ وإذا كانوا بهذا المستوى الذي وصفهم به الله ورسوله كما تنصّ على ذلك المرويات التي أثبتها الشيخان في صحيحيهما، فلماذا نستبعد عليهم أن يكذبوا على الرسول، ويضعوا مئات الأحاديث ليدعموا بها فريقاً أو رأياً، أو ليشوّشوا على الإسلام

---

(١) راجع القصة كاملة في السنن الكبرى للبيهقي ج ٦ ص ١٥٧.

(٢) مستدرك الحاكم ج ٢ ص ٥٨، سنن ابن ماجة ج ٢ ص ٧٨٤، باب من بنى في حقّه ما يضر بجاره، وكذلك وسائل الشيعة للحر العاملي ج ١٨ ص ٣٢.

(٣) راجع ما كتبه الطبري في تاريخه عن وقعة الجمل ج ٣ ص ٢٧٢، وما بعدها.

ومبادئه ما دام الإسلام لم يخالط قلوب فريق منهم كما يؤكّد ذلك القرآن وأحاديث الارتداد من بعده؟ ولماذا لم تحُل أنوار النبوة بين المغيرة بن شعبة وبين المرأة التي زنى بها في البصرة يوم كان والياً لعمر بن الخطاب، وقد شهد عليه أربعة من المسلمين بذلك ولكن الخليفة أسقط عنه الحدّ لأمر لا يعنينا أن نحدّد أبعاده كما اتّفق على ذلك المؤرّخون[1] ؟

[موقف كعب الأحبار ووهب بن منبه وبعض مروياتهما الدخيلة]

ولو تغاضينا عن ذلك، وتركنا للصحابة قداستهم التي تعصمهم عن الخطأ وجميع المنكرات كما يريد أهل السنة[2]، فبماذا يعتذر أهل السنة عن كعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وأخيه عبد الله، وعبد الله بن سلام، وغيرهم ممّن دخلوا الإسلام من اليهودية والنصرانية والمجوسية، ووضعوا مئات الأحاديث في التفسير وأخبار الأُمم السالفة، وفضائل البلدان والأقطار، وغير ذلك مما شاع عنهم، وتناقله الرواة والمحدّثون جيلاً عن جيل، ونسبوا أكثره إلى الرسولﷺ؟

وجاء في (تذكرة الحفّاظ) للذهبي: إن كعب الأحبار قدِم من اليمن في خلافة عمر بن الخطاب، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم[3].

ومات بحمص بعدما ملأ الشام وغيرها من البلاد الإسلامية بخرافاته اليهودية، كما فعل تميم الداري صاحب حديث الجسّاسة بخرافاته النصرانية. ومما وضعه في فضل البلدان ونسبه إلى الرسول أنه قال: «**ليبعثن الله في مدينة بالشام يقال لها حمص سبعين**

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٦٨، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٦٠ ص ٣٥.

(٢) للحقّ والانصاف فان مسألة «القداسة» التي يتكلّم عنها المؤلفرحمه الله (والعصمة عن الخطأ وجميع المنكرات) لم يلتزم بها أهل السنة لأحد بهذا المعنى، ولا صرّحوا بذلك بوضوح، بعكس الشيعة الذين اعتبروا «العصمة» من المسلّمات بالنسبة إلى أئمتهم.

(٣) تذكرة الحفّاظ ج ١ ص ٥٢.

ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم ولا عذاب»[1].

وقال الذهبي في تذكرته: إن وهب بن منبه فارسي الأصل نشأ في اليمن، وكان جدّه ممّن بعثهم كسرى لنجدة اليمنيين على الأحباش، واستوطن بها[2].

فأخذ عن يهود اليمن كما أخذ الكثير عن النصرانية، ولما دخل في الإسلام استطاع أن يخدع الكثير من المسلمين فروى عنه أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وابن عبّاس وغيرهم، وكان يقول: لقد قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً[3]. وظلّ يتجوّل في بلاد المسلمين يبثّ فيها سمومه بأحاديثه وأساطيره إلى السنة التي مات فيها وهي سنة (١١١) هجرية، وقيل: أكثر من ذلك. تلك المرويات التي يصوّر فيها الإسلام وكأنه يقوم على مجموعة من الخرافات والأوهام التي تنفر منها الطباع ولا تستسيغها العقول.

وجاء عنه كما في كتاب (التنبيه في الرد على أهل الأهواء والبدع) للسلطي ص ٩٩: إن أربعة أملاك يحملون العرش على أكتافهم، لكلّ واحد منهم أربعة وجوه: وجه ثور، ووجه أسد، ووجه نسر، ووجه إنسان، ولكلّ واحد منهم أربعة أجنحة، جناحان منها في وجهه يحفظانه من أن ينظر إلى العرش فيصعق فيهفو بهما، لا ينطق إلا بقوله: قدّوس الله القوي، ملأت عظمته السموات والأرض.

كما جاء عن كعب الأحبار أنه قال: الأرضون السبع على صخرة، والصخرة في كفّ ملك، والملك على جناح الحوت، والحوت في الماء، والماء على الريح، والريح على الهواء ريح عقيم لا تلقح، وإن قرونها معلّقة في العرش[4].

إلى غير ذلك من أحاديث هذه الطبقة التي رافقت الطبقة الأُولى من الصحابة،

---

(١) والعجيب أنهم أسندوا هذا الحديث إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رض)! راجع: مجمع الزوائد للهيثمي ج ١٠ ص ٤٠٨، المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٨٨.

(٢) تذكرة الحفّاظ ج ١ ص ١٠٠.

(٣) روضة الواعظين ص٦٧، تأويل مختلف الحديث ص٣٣.

(٤) الدر المنثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٣٩.

وملأت الدنيا بالأساطير وخرافات الأُمم السابقة، واستطاع هؤلاء بدهائهم ومرونتهم أن يجدوا من المسلمين آذاناً تصغي إليهم، وقلوباً تتّسع لتلك المرويات التي تناقلها الصحابة ومن بعدهم جيلاً عن جيل، ووجد بها القُصّاص والمرتزقة ومن يحاولون الكيد للإسلام مصدراً يحقّق أمانيهم وأطماعهم. ولما جاء دور التدوين والتأليف، كانت تلك الأساطير قد انتشرت هنا وهناك إلى جانب بقية المرويات عن الرسولﷺ، فدوّنوا كل ما وجدوه بدون تمحيص وتدقيق، فاختلط الحقّ بالباطل، وكانت ولا تزال سلاحاً للهدم والتخريب بيد الأعداء إلى حيث يشاء الله.

وجاء في مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٧: إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأُمية، وإذا تشوّفوا إلى معرفة شيء مما تتشوّف إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنهم كانوا يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين من العرب يومئذٍ أهل بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامّة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمْيَر الذين أخذوا بدين اليهود. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلّق له بالأحكام الشرعية التي يحتاجون إليها، مثل بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم، وأمثال ذلك.

وهؤلاء مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض، وتساهل المفسّرون في مثل هذه الأُمور حتى ملؤوا كتب التفسير بها.

وقال أحمد أمين[1] في كتابه (فجر الإسلام): إن وهب بن منبّه كان من أهل الكتاب

---

(١) كاتب ومؤلف مصري، ولد في القاهرة عام (١٨٧٨م)، ودرس في مدارسها وتخرج منها. انتخب عضوا للمجمع اللغوي في القاهرة ودمشق، وكذا في المجمع العلمي ببغداد. كان يتولّى التدريس في كلية الآداب بالقاهرة قبل أن يتولّى عمادتها، كما أنه تولّى القضاء في مصر أيضا. شغل في أواخر حياته منصب مدير الإدارة الثقافية بالجامعة العربية .توفي عام (١٩٥٤ م)، وله من المؤلفات: فجر الإسلام، ضحى الإسلام، ظهر الإسلام، فيض الخاطر، النقد الأدبي. ناقش عقائد

الذين أسلموا في وقت مبكّر من تاريخ الإسلام، وله أخبار كثيرة، وقصص تتعلّق بأخبار الأوائل، ومبدأ العالم، وقصص الأنبياء[١].

وجاء في شذرات الذهب: انه كان قصّاصاً بارعاً في هذا الفن[٢].

وأما كعب الأحبار أو كعب بن ماتع، فيهودي من اليمن، وهو من أكثر من تسرّبت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين. أسلم في خلافة أبي بكر أو في أوائل خلافة عمر بن الخطاب، وانتقل بعد إسلامه إلى المدينة، ومنها إلى الشام، وأخذ عنه جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وابن عباس، وهما أكثر من روى عنه[٢].

وجاء في (الطبقات الكبرى) لابن سعد أنه ظلّ بعد إسلامه يحرص على قراءة أسفار التوراة[٣]. وهو الذي أخبر عمر بن الخطاب بأنه سيقتل، وذلك قبل مقتله بثلاثة أيام مدّعياً أنه وجد ذلك في التوراة[٤].

إلى كثير من أمثال هذه المقالات المنتشرة في كتب التراجم والحديث، والتي لا تدع مجالاً للريب بأن هذه الفئة قد لبست المسوح[٥]، وتظاهرت بالإسلام؛ للتشويش والتخريب، وكان سلاحهم هو إدخال الأساطير والخرافات بين تعاليم الإسلام وأحاديث الرسول، فأدخلوا عدداً كبيراً ونسبوا أكثره إلى الرسولﷺ زوراً وبهتاناً.

المسلمين، وتعرّض بعض الشيء للشيعة في فصول من كتبه الثلاثة الأُولى، فردّ عليه جملة من علماء الشيعة. ولعل أهم المناقشات في الرد على أحمد أمين هو ما كتبه أُستاذنا العلم آية الله الشيخ حسن الجواهري (حفظه الله) في كتابه القيّم (دعوة إلى الإصلاح الديني والثقافي) ص ١٨٩، وما بعدها عند البحث في أُصول التشيّع، فليراجع.

(١) فجر الإسلام ص١٦٠.

(٢) لم أعثر على هذا في (شذرات الذهب)، ولكن راجع ترجمة وهب بن منبه في تهذيب الكمال ج ١٩ ص ٤٨٨.

(٢) راجع تذكرة الحفّاظ ج ١ ص ٥٢.

(٣) الطبقات الكبرى ج ٧ ص ٤٤٥.

(٤) الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٩.

(٥) المسوح: ملابس خشنة مصنوعة من الشعر يلبسها الزهاد.

والشيء الغريب أن أكثر الذين عالجوا هذه المشكلة لم يتنكّروا لهذه الحقيقة، ومع ذلك يدّعون أن عصر الصحابة كان خالياً من الكذب، وظل بريئاً إلى أن ظهرت الأحزاب والفرق، فعندها وضعت الشيعة أحاديث لا تحصى في فضل علي وبنيه، ووضع أهل السنة في مقابلها؛ ليقابلوا الباطل بمثله على حد تعبيرهم.

[مع السباعي فيما جاء في كتابه السنة ومكانتها في التشريع]

قال السباعي في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع): وأول معنى طرقه الوُضّاع في الحديث هو فضائل الأشخاص، فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة في فضل أئمتهم ورؤساء أحزابهم، وأول من فعل ذلك الشيعة على اختلاف طوائفهم(١)، فوضعوا أول ما وضعوا حديث الوصية في غدير خم، وغيره من الأحاديث حول هذا الأمر؛ ليؤكّدوا خلافة علي بعد الرسول صلى الله عليه وآله. وكما وضعوا الأحاديث في فضل علي وآل البيت، وضعوا الأحاديث في ذمّ الصحابة وخاصّة الشيخين.

ومضى المؤلّفون حول هذه المواضيع يقولون: إن الرافضة أسرفت في وضع الأحاديث بما يتّفق مع أهوائها، وبلغت من الكثرة حدّاً مزعجاً؛ ممّا دعا الخليل بن أحمد في (الإرشاد) أن يقول: لقد وضعت الرافضة في فضائل علي وأهل بيته نحواً من ثلاثمئة ألف حديث(٢).

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع ص ٩٤. ولكن يجب التنبيه إلى أن الدكتور السباعي نقل عن ابن أبي الحديد أنه قال في شرح نهج البلاغة ج٢ ص ١٣٤: «اعلم أن أصل الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة». وليست العبارة للسباعي كما يوحي كلام المؤلّف.

ولنا هنا تعليقة على قول المهمّش: « وليست العبارة للسباعي كما يوحي كلام المؤلّف»، وهي أن العبارة التي نقلها المؤلف هي عبارة السباعي بنصّها، نعم عقّبها السباعي بقوله: «كما قال ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة): اعلم أن أصل الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة». هذه عبارة ابن أبي الحديد، أما عبارة المتن، فهي للسباعي بنصّها.

(٢) هذا الكلام لأبي يعلى الخليلي وليس للخليل بن أحمد كما تقدّم فيما سبق.

واستطرد السباعي كغيره من مؤلّفي السنة في توزيع الأسباب الداعية إلى الكذب في الحديث بعد انقراض عصر الصحابة الذي خلا من كل أنواع الجرائم، وبخاصّة هذا النوع منها على حدّ زعمهم، فقال: إن السبب الأول هو الخلافات السياسية التي ظهرت في أواخر خلافة عثمان وأوائل خلافة علي (رض). والصراع على الخلافة على حدّ زعمه كان السبب المباشر في وضع الحديث. وانتهى من ذلك إلى أن العراق أول بيئة ظهر فيها الوضع، وأيّد رأيه هذا بما جاء عن الزهري حيث قال: إن الحديث يخرج من عندنا شبراً، فيرجع إلينا من العراق ذراعاً. وبما جاء عن مالك من أن العراق دار الضرب، أي أنهم يضعون الأحاديث. وبما جاء عنه أنه قال: لا تكلم الرافضة ولاتروِ عنهم؛ فإنهم يكذبون[1].

إلى غير ذلك من الكلمات التي نسبها لجماعة من المحدّثين والفقهاء من أهل السنة، والتي يتجسّد فيها الحقد على الشيعة، والتملّق للحكام الذين كانوا يطاردونهم ويراقبون جميع تحرّكاتهم وأحوالهم.

ونحن لا نريد من هذه الدراسة أن نبرّئ الشيعة من الكذب في الحديث، وأن نضع جميع المتشيّعين لعليٍ عليه السلام في صفوف الأولياء والقديسين كما فعل أهل السنة بالنسبة إلى الصحابة أجمعين على اختلاف مراتبهم وصحبتهم ومواقفهم من رسالة الإسلام وتعاليمه في حياة النبي وبعد وفاته، وإنما الذي نريده أن المتشيعين لعلي لم يكونوا البادئين في الكذب ووضع الأحاديث. وقد أثبتنا بالأرقام التي لا تقبل الجدل أن بين من أسموهم بالصحابة جماعة لم يتورّعوا عمّا هو أفحش وأعظم من الكذب، فضلاً عن وضع الأحاديث التي تؤيّد ميولهم واتّجاهاتهم. والأرقام تؤكّد أنهم قد باشروا هذه المهمّة بأنفسهم، ونسبوا إلى الرسول ما لا يمكن أن يحدّث به. كما أخذوا عمّن كانوا

(١) السنّة ومكانتها في التشريع ص ٩٦، وما بعدها.

يعتنقون اليهودية والنصرانية والمجوسية، ومن أساطير الأولين عشرات القصص والحكايات، وتركوها للأجيال ترويها عن الرسولﷺ مع ما ترويه من آثاره في مختلف المواضيع.

وفي الوقت ذاته لا يسعنا أن ننكر أن حركة الوضع قد اتّسعت؛ لظهور الأحزاب السياسية والعقائدية، وامتدّت إلى خارج المدينة بعد انتقال الخلافة إلى سليل الأُمويين عثمان بن عفان، وأصبح أبو سفيان الأُموي يتطلّع إلى الحكم، وله من ماضيه البعيد وحاضره القريب صفحات سوداء ظلّت ماثلة في أذهان الأُلوف من الناس ممّن امتدّت أعمارهم، واتّصلت حياتهم بتلك الفترة الغارقة في زحمة الفتن والتنافس على الحكم باسم الدين والإسلام، في حين أن الإسلام قد عرّاهم من جميع المؤهّلات التي تشدّهم إلى الدين الجديد. ولم يستطيعوا خلال تلك المدّة التي تربط إسلامهم التقليدي الشكلي بشركهم المتأصّل في نفوسهم أن يقدّموا للعالم ولو بصيصاً من النور يتخلّل تلك الظلمات التي تراكمت في نفوسهم، ولا أن يتفلّتوا من حقدهم على الإسلام، وعلى البيت الهاشمي الذي يتزعّمه عليعليه السلام بعد الرسول الأكرمﷺ الغني بماضيه وحاضره بكلّ المؤهّلات التي تشدّه إلى الحكم لولا الأطماع التي سدّت عليه الطريق، والظروف التي هيّأت لغيره أن يحتلّ مركز القيادة، ويملك الأمر والنهي وتصريف جميع الأُمور.

وشاءت التقادير والظروف أن يكون الحزب الأُموي الحزب الوحيد المعارض للحاكم الشرعي علي بن أبي طالبعليه السلام، وأن ينضمّ إلى هذا الحزب فريق من الصحابة لم تتّسع لأطماعهم عدالة عليعليه السلام، ولم يتمكّن أن يتغاضى عن سوء تصرّفاتهم على حساب الآخرين. هذا الحزب بعد أن أصبح الحزب الرئيسي الذي لم تتوفّر فيه شروط الحاكم بنظر الأكثرية الغالبة من المسلمين كان يعمل بكلّ الوسائل لتدعيم مركزه الديني، فسخّر ذوي الأطماع والحاقدين على العلويين ممّن التفّوا حوله لوضع الأحاديث التي ترفع من شأنه وشأن البيت الأُموي، وتفضيل الخلفاء الثلاثة على جميع الناس. ووضعوا في تفضيل الشام وغيرها من المدن التي كان أهلها يتشيّعون لهم على

جميع المدن وبقاع الأرض، ووضعوا عشرات الأحاديث التي تسيء إلى علي والبيت الهاشمي بقصد تضليل الناس وإلهائهم عمّا تناقلوه عن الرسول وسمعوه في علي وبنيه، كما سنثبت ذلك بالأرقام في خلال البحوث التالية.

على أن الذين اختاروا علياً بعد مقتل عثمان لم يعتمدوا على المرويات في فضله عن الرسول صلى الله عليه وآله، كحديث الغدير، والمنزلة، والمؤاخاة، وحديث الراية يوم الخندق، وغير ذلك مما كان ينوّه به الرسول في أكثر المناسبات، وكان ذلك معروفاً بين أكثر الصحابة كما نصّ على ذلك الشيخان في صحيحيهما، وجماعة من محدّثي السنّة، وإنما اعتمدوا على الكفاءة التي كان يتمتّع بها،ومكانته العالية بين المسلمين، فلم تدعُ الحاجة يومذاك إلى اختلاق حديث الغدير والوصاية وغير ذلك، كما يزعم السباعي وغيره. هذا بالأضافة إلى أن المتشيّعين لعلي الذين كانوا يرون الخلافة من حقوقه المنصوصة كان أكثرهم من الصحابة، وهم الذين رووا حديث الغدير وغيره من الأحاديث التي تشير إلى حقّه في الخلافة بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. وقد روى حديث الغدير حسب الإحصاء مئة وعشرون صحابياً منهم أبو هريرة، وطلحة، والزبير، وعائشة، وعمر بن الخطاب، وولده عبد الله، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، والعباس بن عبد المطلب، وغيرهم ممّن لا يسعنا إحصاؤهم فعلاً، كما نص على ذلك الأمين في غديره (١)، وغيره ممّن ألّفوا في هذه المواضيع.

وجاء في (مسند أحمد بن حنبل) أن علياً استنطق المسلمين عن حديث الغدير أيام خلافته، فشهد له ثلاثون صحابياً بأنهم سمعوه من الرسول صلى الله عليه وآله (٢). فعلي عليه السلام في الفترة

---

(١) راجع الغدير للشيخ عبد الحسين الاميني ج ١ ص ١٤ – ٦١.

(٢) مسند احمد بن حنبل ج ٤ ص ٣٧٠ وفيه: «فقام ثلاثون من الناس» وليس من الصحابة كما ذكر المؤلف.

ولنا هنا تعليقة على هذا القول ـ قول المهمّش: «وليس من الصحابة كما ذكر المؤلّف» ـ هي أن هؤلاء الثلاثين لو لم يكونوا صحابة، فكيف شهدوا له عليه السلام بهذا إن لم يكونوا قد رأوا النبي صلى الله عليه وآله وسمعوه

التي تقلّد فيها الحكم لم يكن فيها ولا في غيرها محتاجاً لاستجداء الوضّاعين والمرتزقة؛ ليبرز من خلال موضوعاتهم بطلاً وهميّاً ثم يتبخّر وكأنه لم يكن شيئاً، بل كان وما زال وسيبقى في ذهن العدو والصديق، والمتشيّع وغيره رمزاً للبطولات والفضائل، ومثالاً كريماً لأُستاذه محمد بن عبد الله، ومدرسته كتاب الله وشريعته الخالدة.

أما غيره من أُولئك الدخلاء الذين لم يكن لهم من ماضيهم وحاضرهم ما يؤهّلهم لأن يكونوا بين المسلمين الأتقياء، فضلاً عن الخلافة التي يجب أن تتوفّر فيها بالإضافة إلى الدين القويم أكثر مميّزات الرسول وخصائصه، هؤلاء كانوا في أمسّ الحاجة لشراء الضمائر، وتسخير المرتزقة والحاقدين؛ لينسجوا لهم ثوباً من الفضائل والمكرمات؛ ليستروا به ماضيهم الأسود، وحاضرهم الملوّث عن أعين الذين لايملكون من الوعي والتفكير ما يفرّقون بين الجوهر والحصى. ولكن الذين ينتحلون ما ليس لهم، ويلبسون غير ثيابهم سرعان ما يتكشّفون على واقعهم، ويبرزون من خلال التاريخ بثوبهم الملوّث بكل أنواع الخزي والعار أقزاماً تتساقط عليهم اللعنات إلى يوم يبعثون.

[الأسباب التي دعت بعض المتشيعين إلى الكذب في الحديث]

وأعود لأُكرّر بأني لم أقصد بذلك أن أنتحل للشيعة ما ليس لهم، وأن أُبرّئهم من الكذب على الرسول وأهل البيت عليهم السلام، وإنما الذي أعنيه وأقصده أن الكذب على الرسول ظهرت طلائعه في عهده، واستمر بعد وفاته يتّسع وينتشر حسب الظروف والمناسبات بالرغم من رقابة الحاكمين وتشدّدهم على المفرطين في الحديث والمتّهمين بالكذب فيه. ولما جاء دور الأُمويين مارسوه بأنفسهم، وسخّروا جماعة من أتباعهم ليضعوا لهم الحديث الذي يرفع من شأنهم وشأن الخلفاء والبلدان والأشخاص،

منه سيما أنه عليه السلام قال في مساءلته تلك: «أُنشد الله كلّ امرئ مسلم سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدير خم»، ولا يسمع من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلا صحابي سيما على ضوء نظرية الصحبة عند أهل السنة من أنها تتحقّق ولو بيوم واحد، فهو من باب: «ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم».

وبذلوا الأموال الطائلة في هذا السبيل، ووجدوا من الصحابة من يستجيب لطلبهم ويُلَبّي رغباتهم في وقت لم يكن أحد من الشيعة يستطيع أن يذكر علياً أو يتجاهر بالتشيّع له. فانطلق الوضّاعون في كل بلدٍ يحدّثون وينسبون إلى الرسول ما يشاؤون من المواضيع التي تخدم مصلحة معاوية وأتباعه، ومضى الأُمويون على سنّته وسيرته طيلة حكمهم الذي استمر قرابة قرن من الزمن. وكان من الطبيعي أن يكون لهذا الموقف من جانب الأُمويين أثره في نفوس الشيعة والمنتسبين إلى التشيع بعد الكبت الطويل والحرج الشديد الذي أحاط بأهل البيت وشيعتهم.

وحينما انفرجت الأزمة، أو أوشكت على الانفراج، ووجدوا سيلاً من المرويات الدخيلة على سنة الرسولﷺ في فضائل الخلفاء وغيرهم، وتجريح علي وأبنائه، كان من الطبيعي لهم بعد أن تنفّسوا أن يحدّثوا ليكشفوا زيف تلك المرويات التي انتشرت في كل مكان، وأن يضع ضعفاء الإيمان من الشيعة بعض المرويات ليقابلوا الباطل بمثله، وأن يستغلّ الزنادقة والمندسّون بين صفوف الشيعة هذا الجوّ ليضعوا فيه ما يشاؤون، كما سنقدّم بعض النماذج من المرويات الشيعية التي تبدو عليها ملامح الوضع في الفصول الآتية من هذا الكتاب.

[بعض خطب أمير المؤمنين حول الحديث وأحاديث بعض الصحابة]

والذي يؤيد ما ذكرناه من أن الكذب في الحديث لم يكن في بدايته من صنع الشيعة ما جاء في (شرح النهج) للمعتزلي حول هذا الموضوع في خطبة لعليعليه السلام تعرّض فيها لأحاديث البدع والأخبار المختلقة، وقد جاء فيها: «**إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعامّاً وخاصّاً، ومحكماً ومتشابهاً، ولقد كُذب على رسول اللهﷺ في حياته حتى قام في الناس خطيباً، فقال: من كذب علي متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار. وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس:**

رجل منافق مُظهِر للإيمان، متصنّع بالإسلام، لايتأثّم ولايتحرّج، يكذب على

رسول الله متعمّداً، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله،ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله رآه وسمع منه ولقف عنه، فيأخذون بقوله. وقد أخبرك رسول الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمّة الضلال والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولّوهم الأعمال، وجعلوهم حكّاماً على رقاب الناس، والناس مع الملوك والدنيا إلا من عصمه الله.

ورجل سمع من رسول الله شيئاً فلم يحفظه على وجهه، فوهم فيه ولم يتعمّد كذباً، فهو يرويه ويعمل به ويقول: أنا سمعته من رسول الله ﷺ، فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوا منه، ولوعلم هو أنه كذلك لرفضه...»[1].

ومضى الإمام عليه السلام يسرد الأسباب الداعية إلى اختلاف الحديث، وكيف جاءت البدع وشاعت بين جميع المسلمين، وأرجع تاريخ الكذب في الحديث إلى عهد الرسول، واستمرّ بعد عهده المنافقون من الصحابة ينسبون إليه ما لم يحدّث به من البدع والمنكرات، وبخاصّة بعد أن اتّصلوا بالحكّام، وولّوهم الأعمال، وسلّطوهم على رقاب الناس؛ مما يسّر لهم أن يحدّثوا بما يشاؤون بدون وازع من دين، أو رادع من ضمير.

[ما جاء عن الإمام الباقر حول موقف الامويين من الشيعة وتلاعبهم في الحديث]

وقد لخّص الإمام الباقر عليه السلام موقف الحكام الأُمويين من الشيعة الذين يتّهمهم أهل السنة بأنهم أول من فتح باب الكذب في تلك الفترة من التاريخ بقوله: «**لم نزل أهل البيت نُستذلّ ونستضام، ونُقصى ونُمتهن، ونُحرَم ونُقتَل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون بكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلد، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة**

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج ١١ ص ٣٨، وما بعدها.

المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقلْه وما لم نفعله؛ ليبغّضونا إلى الناس. وكان أعظم ذلك وأكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة والتهمة. وكلّ من يُذكَر بحسبنا والانقطاع إلينا، سجن ونهب ماله وهدمت داره. ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام. وجاء بعده الحجّاج، فقتلهم كلّ قتلة، وأخذهم بكلّ ظنّة وتهمة حتى بلغ بهم الحال أن الرجل كان يتمنّى أن يقال له: زنديق، أو كافر، ولا ينسب إلى التشيّع لعلي عليه السلام، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير ـ ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً ـ يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة والحكّام، ولم يخلق الله شيئاً منها ولا كانت ولا وقعت، وهو يحسب أنها حقّ؛ لكثرة من قد رواها ممّن لا يعرف بكذب ولا بقلة ورع»[1].

وهذه الصورة الإجمالية التي أعطاها الإمام الباقر عليه السلام لذلك العصر المشحون بالفتن والكذب والافتراء على الرسول وأهل البيت يمكن لأي باحث مجرد أن ينتهي إليها من خلال الحوادث التي رافقت حكم الأُمويين وبخاصّة في المرحلة الأُولى من حكمهم بقيادة سليل البيت الأُموي معاوية بن أبي سفيان الذي قاد الأحزاب والمعارضة ضدّ الدعوة الإسلامية منذ مطلع فجرها. كما وأن رواية علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتابه الأحداث تدلّ دلالة قاطعة على الدور البارز الذي قام به معاوية وأتباعه في التشويش على سنة الرسول وطمس أضوائها؛ لكثرة ما أدخله هو وأتباعه عليها من الموضوعات في مختلف المواضيع، في الوقت الذي كان فيه الشيعة يتستّرون في تشيّعهم خوفاً على دمائهم وأموالهم وأعراضهم. وجاء فيها أن معاوية بعد عام الجماعة ـ وهو العام الذي استتبّ له فيه الأمر ـ كتب كتاباً وجّهه إلى جميع عمّاله جاء فيه أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١١ ص ٤٣، وما بعدها.

فقام الخطباء في كلّ كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته. وكان أشدّ الناس بلاء حينئذٍ الكوفة؛ لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، واستعمل عليهم زياد بن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتبعهم وهو بهم عارف؛ لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم، وقطّع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وشرّدهم عن العراق؛ فلم يبقَ بها معروف منهم.

وكتب إلى عماله في جميع الآفاق أن ينظروا إلى شيعة عثمان وصحبه، وأهل ولايته والذين يروون له الفضائل، وأوصاهم بإكرامهم، وأن يكتبوا له بكلّ ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته، فأكثروا من فضائل عثمان ومناقبه؛ لما كان يغدق به عليهم من الصِّلات، ويفيضه عليهم من غير فرقٍ بين العرب والموالي. فكثر الرواة والمحدثون بفضل عثمان في كل بلدٍ ومصر، وتنافسوا على ذلك. ولمّا شاع الحديث في فضل عثمان وبني أُمية في جميع العواصم والبلدان، وتناقلوه في مجالسهم وفي المساجد وعلى المنابر، كتب إلى عمّاله كتاباً آخر جاء فيه: إن الحديث قد نشأ[1] في عثمان، وكثر في جميع الأمصار، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في فضل أبي تراب إلا وائتوني بناقض له في الصحابة؛ فإن هذا أحبّ إليّ، وأقرّ لعيني، وأدحض لحجّة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان. فقرأ عمّاله كتابه على الناس، فرووا أخباراً كثيرة في مناقب الصحابة لا حقيقة لها ولا واقع. وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى وأشادوا بذكرهم على المنابر وألقوا تلك المرويات إلى معلمي الأولاد في الكتاتيب فعلموها الصبيان والأولاد، وأصبح من المفروض عليهم أن يحفظوها كما يحفظون القرآن[2].

---

(١) الظاهر أنها: فشا، كما هو في المصدر.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ١١ ص ٤٤ وما بعدها.

ولم يقفوا عند هذا الحد بل علّموها بناتهم ونساءهم وخدمهم ومواليهم، فظهر من ذلك حديث كثير كلّه زور وبهتان، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة. وكان من أعظم الناس بلاء في ذلك القرّاء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون النسك والخشوع، ويفتعلون الأحاديث؛ تقرّباً إلى الولاة، وطمعاً بما في أيديهم من الأموال والضياع والمناصب. وانتقلت تلك المرويات منهم إلى أيدي الديانيين الذين لايستحلّون الكذب والبهتان، فتقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها من حديث رسول الله، ولو علموا بواقعها لما رووها ولاتديّنوا بها. ومضى الأمر على ذلك حتى جاء دور الحجّاج بن يوسف، فاشتدّ البلاء على الشيعة، وتقرّب إليه المتنسّكون والمتاجرون بالدين بإعلان البراءة من علي وبنيه وشيعته، وموالاة أعدائه، وأكثروا من الرواية في فضلهم وسوابقهم، والطعن على العلويين وأتباعهم.

وجاء في (شرح النهج) أن ابن عرفة المعروف بـ «نفطويه» ـ وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم ـ قال في تاريخه: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُعلت في أيام بني أُمية تقرّباً إليهم بما يظنّون أنهم يرغمون به أُنوف بني هاشم[١].

[ما جاء في (شرح النهج) عن الإسكافي وغيره حول الحديث]

وجاء في المجلد الأول من (شرح النهج) أن أبا جعفر الإسكافي أحد شيوخ المعتزلة قال: أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يُرغَب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير[٢].

لقد لعب عروة بن الزبير دوراً بارزاً في الحديث حتى اشتهر بين فقهاء التابعين،

(١) انظر المجلد الثالث من شرح النهج ص ١٣ و ١٥ و١٦.
(٢) انظر المجلد الأول من شرح النهج ص ٣٥٨.

وأكثر مرويّاته كان يسندها إلى خالته عائشة. وقد استغلّ عداءها لعليعليه السلام، فحدّث عنها وأسرف في صياغة موضوعاته، حتى خرجت بشكل كريه ينفر منه القريب والبعيد، ولكن الحسد والحقد يفتكان في دين الانسان أكثر ممّا يفتك الذئب الضاري في قطيع من الغنم غاب عنه رعاته. وليس أدلّ على ذلك من موقف عبد الله بن الزبير من علي وبنيه كما حدّث عنه في (شرح النهج) وغيره، فقد جاء فيه أنه كان يبغض علياً وينال من عرضه، وينتقصه على المنابر وفي المجتمعات. وأضاف إلى ذلك أن عمر بن شبة، وابن الكلبي والواقدي وغيرهم من رواة السير قالوا: إنه مكث أربعين جمعة أيام خلافته يخطب الناس في يوم الجمعة ولا يصلّي على النبيصلى الله عليه وآله في خطبته، ولما سُئِل عن سبب ذلك أجاب بأن له أُهيلَ سوء، فإذا ذكرته شمخوا بآنافهم[(١)].

وروى الزهري عن أخيه عروة بن الزبير أنه قال: حدّثتني خالتي عائشة أن النبيصلى الله عليه وآله قال لها: «**إن سرّك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين**». قالت: فنظرت، وإذا بعليٍ والعباس قد أقبلا[(٢)]. إلى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي وضعها عروة وأخوه جعفر المعروف بالكذب في الحديث، كما نصّ على ذلك ابن كثير في تاريخه[(٣)].

ومجمل القول أن الحزب الأُموي الذي ظلّ يعمل في الخفاء نحواً من أربعين عاماً لتقويض دعائم الإسلام بعد أن عجز عن مقابلة الدعوة الإسلامية وجهاً لوجه بشكل علني حينما توفّرت له أسباب القوة والحكم، لم يهمّه شيء أكثر من تحطيم الجبهة التي كانت بنظر المتديّنين من المسلمين صاحبة الحقّ والأولوية المطلقة في قيادة الأُمة. وكان

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٦١، وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٦٤.

(٣) لم أعثر على ذلك في تاريخ ابن كثير، ولكن ورد في أكثر من مصدر أن شعبة كذّب جعفر بن الزبير، وقال: إنه وضع على رسول الله أكثر من أربعمئة حديث كذب. راجع مثلاً تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٢ ص ٧٨.

علي وأبناؤه في الطليعة بين المسلمين يومذاك، فاتّجه في مطلع عهده إلى تكوين هالة من العظمة والقداسة للخلفاء الثلاثة المتقدّمين عن طريق أحاديث تنسب إلى الرسول ﷺ، وفرض على أتباعه وحكّام المقاطعات أن يفرضوها حتى على الصبيان الصغار إلى جانب القرآن الكريم الذي اعتادوا أن يعلّموه أطفالهم في الجوامع والكتاتيب. وتيسّر له من الصحابة من يبذل له الكثير من دينه لإنجاح هذه المهمّة، فوضعوا في مقابل كل حديث تناقله المسلمون عن الرسول في علي عشرات الأحاديث والمقالات في الخلفاء الثلاثة، والصحابة، والأُمويين وغيرهم ممّن يعادي علياً وآله الكرام. واستعمل لتدعيم هذا المخطّط كل ما يمكن تصوّره من أساليب الضغط والإرهاب لإنجاح مهمته كما ذكرنا، ولم يبقَ أمام الجمهور المتدين إلا الموت أو التشريد إن هم أنكروا شيئاً من تلك المرويات، أو تحدّثوا بشيء من فضائل علي وبنيه.

[ما جاء في فجر الإسلام وضحاه لأحمد أمين حول هذه المواضيع]

وقد أكّد هذه الحقيقة أحمد أمين في المجلد الأول من كتابه (ضحى الإسلام) فقال بعد أن عرض بعض الجوانب من الأسباب الداعية إلى وضع الأحاديث: «ويسوقنا هذا إلى أن نذكر هنا أن الأُمويين فعلاً قد وضعوا ووضعت لهم أحاديث تخدم سياستهم من نواحي متعدّدة منها أحاديث في زيادة مناقب عثمان؛ إذ كان هو الخليفة الأُموي من بين الخلفاء الراشدين، وهم به أكثر اتّصالاً من غيره، مثل حديث أن عثمان تصدّق بثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في جيش العسرة، فنزل رسول الله ﷺ من على المنبر وهو يقول: «**ما على عثمان ما عمل بعد هذا اليوم**». وأضاف إلى ذلك أن الطبري روى أن معاوية بن أبي سفيان لما ولّى المغيرة بن شعبة الكوفة في شهر جمادى سنة (٤١) دعاه إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أردت إيصاءك بأشياء كثيرة، فأنا تاركها إعتماداً على بصرك بما يرضيني ويسعد سلطاني، ويصلح به رعيتي. ولست تاركاً إيصاءك

بخصلة: لا تقحم عن شتم علي[١]، والترحّم على عثمان والاستغفار له، وانتقاص علي وأصحابه وإقصائهم بكل الوسائل، وإطراء عثمان وشيعته والاستماع منهم. ومضى الراوي يقول: إن المغيرة أقام في الكوفة والياً لمعاوية سبع سنين وأشهراً، حسن السيرة، غير أنه نفّذ وصية معاوية بأحسن ما يريد، فكان لايدع شتم علي وانتقاصه ووضع الأحاديث التي تسيء إليه[٢].

وبالفعل لقد نجح الأُمويون في هذا المخطّط إلى حدٍّ ما، وتأثّرت به أجيال، وظلّت تلك الأراجيف تسيطر عليهم زمناً طويلاً؛ فلقد جاء في تاريخ ابن عساكر عن أبي يحيى السكّري أنه قال: دخلت مسجد دمشق، فقلت: هذا بلد دخله جماعة من الصحابة، وملت إلى حلقة فيها شيخ جالس، ومن حوله جماعة يقصّ عليهم، فجلست معهم، فقال له أحدهم: من هو علي بن أبي طالب يا شيخ؟ فقال له: هو خفّاق[٣] كان في العراق، اجتمعت عليه جماعة، فقصد أمير المؤمنين معاوية لحربه فنصره الله عليه وانتهى أمره. قال يحيى: فاستعظمت ذلك، وتركتهم، فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلّي إلى سارية[٤]، حسن السمت والصلاة والهيئة، فقلت له: يا شيخ، أنا رجل من أهل العراق، جلست إلى تلك الحلقة... وقصصت عليه القصة، فقال: في هذا المسجد عجائب يا بني، بلغني أن بعضهم يطعن على أبي محمد الحجّاج بن يوسف الثقفي، فعلي بن أبي طالب من هو؟ وما خطره[٥]؟

وقد تأثّر كثير من الناس بتلك الدعايات والأساليب التي استعملها معاوية وولاته، ومن أنكر عليهم هذه الافتراءات كان نصيبه القتل والتشريد والتعذيب، كما

---

(١) أي لا تترك، ولا تتجنّب شتم علي عليه السلام.

(٢) انظر ضحى الإسلام ج٢، ص ١٢٣ عن الطبري ج٦، ص ١٤١.

(٣) في المصدر: «خنّاق». والخفّاق هو الذي يسبب الاضطراب والتشويش على الأُمّة. أما الخنّاق، فهو مَن شأنه الخنق، أي القاتل.

(٤) السارية: إحدى الإسطوانات التي يقوم عليها البناء.

(٥) تاريخ مدينة دمشق، ج١ ص ٣٦٥.

فعل عبد الله بن عفيف الأزدي مع عبيد الله بن زياد، وحجر بن عدي وأصحابه البررة مع زياد بن عبيد، وميثم التمّار ورشيد الهجري وسعيد بن جبير وغيرهم مع الجبابرة والطغاة. وكان الشعبي يقول: ماذا لقينا من علي وآل علي؟ إن أحببناهم قُتلنا، وإن أبغضناهم دخلنا النار[١].

ومضى على سيرة معاوية وولاته كل من جاء من بعده من الحكّام والولاة، وفي ظلّ هذه الظروف القاسية التي استمرّت عشرات الأعوام انتشر القصّاصون ودعاة الأحزاب والفرق، كالخوارج والمرجئة[٢] والقدرية وغيرهم، فأضافوا إلى تلك الموضوعات مجموعة أُخرى في مختلف المواضيع. وهكذا توالت المناسبات، وتعدّدت الدوافع والأغراض إلى الكذب في الحديث، وأصبح كلّ من يحاول أن يثبت رأياً أو يؤيّد حزباً أو مذهباً، أو ينتقص إنساناً يودّ أن يتيسّر له حديث ينسبه إلى الرسول ولو بأغلى الأثمان ليعتمد عليه. ويجد المتتبّع عشرات الشواهد على ذلك، فقد جاء في (الموضوعات) لابن الجوزي عن أبي أنس الحرّاني أن المختار الثقفي قال لرجلٍ من أصحاب الحديث: ضع لي حديثاً عن النبيﷺ أني كائن بعده خليفة، وطالب له بترة ولده[٣]، وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة وخادم ومركوب. فقال الرجل: أما عن النبي فلا، ولكن اختر من شئت من الصحابة وأحطّك من الثمن ما شئت. فقال المختار: عن النبيﷺ يكون الحديث أجدى وأنفع. فقال له المحدّث: ولكن العذاب عليه أشدّ وأبلغ[٤].

---

(١) المعروف عن الشعبي هو بغضه لعلي، ولكن الزمخشري روى عنه هذه الكلمة في ربيع الأبرار ج ١ ص ٤٩٤.

(٢) المرجئة: فرقة إسلامية ترى أن أهل القبلة كلهم مؤمنون حتى فسّاقهم، وأن الله أرجأ عذابهم، أي أخّره عنهم.

(٣) أي: بثأر ولده.

(٤) الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٣٩.

[موقف أتباع أئمة المذاهب من التلاعب بالحديث]

ومن ذلك ما جاء عن أئمة المذاهب وأتباعهم في مختلف العصور؛ حيث كان أتباع كل مذهب يضعون الأحاديث في فضله وذم المذاهب الأُخرى. وفي الغالب كانوا يخترعون سنداً يتّصل بالنبي، أو أحد الصحابة، فقد جاء في فضائل الشافعي عن أحمد بن الحسن الترمذي أنه قال: كنت في الروضة، فأغفيت، وإذا بالنبيﷺ قد أقبل، فقمت إليه وقلت له: يا رسول الله لقد كثُر الاختلاق في الدين، فما تقول في رأي أبي حنيفة؟ فقال: أُفٍ. ونفض يده، قلت: فما تقول في رأي مالك؟ فرفع يده وطأطأ رأسه، وقال: أصاب وأخطأ. قلت: فما تقول في رأي الشافعي؟ قال: بأبي ابن عمي؛ لقد أحيا سنّتي[(١)].

وروى أتباع أبي حنيفة عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «**سيكون في أُمتي رجل يقال له أبو حنيفة، هو سراج أُمّتي. وسيكون في أُمّتي رجل يقال له محمد بن إدريس، هو أضرّ على أُمّتي من إبليس**»[(٢)].

كما وضع أتباع مالك وأحمد بن حنبل عشرات الأحاديث التي تؤيّد مذهب كلّ واحد منهما، وتنتقص من الآخرين، فقد رووا عن الرسول أنه قال: «**يكاد الناس يضربون أكباد الأبل فلا يجدون أعلم من عالم المدينة**»[(٣)]. وأنه قال في أحمد والشافعي: «**أُولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكم والنبوة**»[(٤)].

وقد غالى الحنابلة غلوّاً مفرطاً في وضع الأحاديث في فضله، فقد روى ابن الجوزي عن علي بن إسماعيل أنه قال: رأيت أن القيامة قد قامت، ووقف الناس عند قنطرة لا يجوزها إلا من يحمل ورقة، ورأيت رجلاً يختم للناس أوراقاً يجوزون بها، فسألت عنه

---

(١) راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٢ ص ٦٧.

(٢) الموضوعات لابن الجوزي ج ٢ ص ٤٧.

(٣) سنن الترمذي ج ٤ ص ١٥٢.

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج ٥ ص ٢٢٧.

فقيل لي: هذا أحمد بن حنبل[١] !

إلى كثير من أمثال هذه المرويات التي تفضّله على جميع الأولياء والفقهاء[٢]. ورووا لغير هؤلاء من الفضائل والكرامات ما يثير الدهشة والاستغراب، ويبعث على الأسف والألم لهذا الإسفاف والإفراط في الحبّ والبغض إلى حدود الخروج عن دائرة التصوّر.

[موقف الأحزاب والفرق الإسلامية من الحديث]

لقد اعتمدت الأحزاب والفرق وغيرهما هذا الأُسلوب في ترويج أفكارها وآرائها ونزعاتها، وكان الحزب الأُموي في الطليعة من بين أُولئك المخرّبين في الكذب على الرسول ووضع الأحاديث؛ لأن المسلمين لا يرون لهم فضلاً يرفع من شأنهم في تاريخ الإسلام كما ذكرنا من قبل؛ فوجدوا أنفسهم في أمسّ الحاجة إلى هذا النوع من المرويات.

وبلا شك إن الشيعة بعد أن أحسّوا بالفرج ـ عندما دبّ الضعف في جسم تلك الدولة، ووجدوا تلك الكمّـيّات الهائلة من الموضوعات بين المرويات عن الرسول تتحدّث بها الأجيال في مختلف المناسبات وحيثما اتّجهوا، وسمعوا خطباء المنابر وعوّام

(١) راجع الإمام الصادق لأسد حيدر ج ٣ ص ٤٧٠ نقلاً عن مناقب ابن الجوزي. والغريب أن هذا الغلو الواضح في الأئمّة الأربعة لا يلاقي أي شجب أو هجوم من كتّاب أهل السنة وباحثيهم، بينما تراهم إذا وجدوا شبيهه في كتب الشيعة شنّوا أعنف الحملات، فهذا الدكتور نبيه حجاب أُستاذ الأدب في جامعة القاهرة يقول بعد أن استعرض نظرية العصمة عند الشيعة: «إن هذه العقيدة تسربت للشيعة عن الفرس الذين نشؤوا على تقديس الحاكم؛ لهذا أطلق عليها العرب النزعة الكسروية. ولعل غالبية الشيعة كانت ترمي من وراء هذه الفكرة إلى تنزيه علي عن الخطأ حتى يتّضح للملأ عدوان بني أُمية في اغتصاب الخلافة. هذا وفي اليهودية كثير من المذاهب التي تسرّبت إلى الشيعة» راجع كتابه: مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص ٤٩٢. فلاحظ ازدواجية المعايير عند التعامل مع موضوع واحد.

(٢) والذي أُرجّحه ان هذا الحديث قد وضعه الحنابلة في مقابل الحديث الذي يرويه الشيعة وهو: «لا يجوز على الصراط إلا من كان بيده صكّ من علي بن أبي طالب».

الناس في النوادي والأسواق يسبّون علياً وبنيه بدون تحرّج أو تأثّم، حتى أصبح ذلك وكأنه من أفضل السنن التي رغّب فيها الإسلام، ووعد عليها بالثواب والأجر العظيم، لما أحسّ ضعفاء الشيعة بالفرج بعد الشدّة، وكانت أسماعهم قد ملّت شتم علي الذي حاول الأُمويون أن يصوّروه وكأنه من ألدّ أعداء الإسلام والإنسانية ـ تطوّع منهم من لا يملك من الدين والصبر ما يعصمه من الانحدار إلى هذا المستوى، وتبنّى هذا الأُسلوب الرخيص الذي يترفّع عنه العظماء من الأتقياء والصلحاء إلى مقابلة الكذب بمثله، والشتم والسباب بلونه ولغته، ونسبوا أكثره إلى الأئمة؛ ليكون أقرب إلى التصديق، وأكثر شيوعاً وانتشاراً بين الناس.

على أني أشكّ في صدور تلك المرويات بما فيها المرويات التي تسيء إلى الخلفاء من الشيعة بالرغم من تداولها بينهم منذ زمن بعيد، وتدوين أكثرها في بعض مجاميع الحديث الشيعية. وأكاد أجزم بأن أعداء أهل البيت قد حاولوا بكلّ الأساليب أن يحدثوا فجوة بين السنة والشيعة وأئمتهم، فوضعوا تلك المرويات ونسبوها إلى الأئمة. وقد ألمح إلى ذلك الإمام الرضا عليه السلام في حديث له مع أصحابه كما سيأتي في الفصول الآتية. ومن بين هؤلاء جماعة كانوا يتستّرون بالتشيّع؛ لينفذوا منه إلى بثّ سمومهم وأهدافهم، كالمغيرة بن سعيد، وصائد النهدي، وبيان بن سمعان، وأبي زينب، وغيرهم من العشرات الذين وضعوا آلاف الأحاديث بين المرويات عن الإمامين الباقر والصادق، ونسبوها إليهما. وقد نبّه إلى[1] ذلك أئمة الشيعة في أكثر من مناسبة. وهؤلاء وأمثالهم كانوا أحياناً يروون الصحيح من أحاديث الأئمة ليستروا به كذبهم، واستطاعوا بذلك أن يخدعوا نقلة الحديث، فدوّنوا ما وجدوه بين أيديهم، وجاءت الطبقات المتأخّرة فأخذته مع غيره.

وبالرغم من تلك الجهود المضنية التي بذلها نقّاد الحديث الذين درسوا الرواية

(١) في الأصل: على.

وأحوال الرواة بقصد تصفية الحديث من المكذوب، فلم يوفّقوا لاستئصال الفاسد من جسم الحديث، وظلّت المجاميع الشيعية حتى الكتب الأربعة منها تضمّ بين مروياتها عدداً كبيراً من الأحاديث الموضوعة، كما سننبّه على بعضها في الفصول الآتية.

[تلخيص الأسباب الداعية إلى الكذب في الحديث]

ويمكن تلخيص الأسباب الداعية إلى الكذب في الحديث من بدايتها إلى نهايتها على النحو التالي:

لقد ظهرت بوادر الكذب على الرسول في عهده كما ذكرنا من قبل، ولمّا وقف الرسول من هذه الجريمة موقف المتصلّب، وأيقن الكذَبة أن أمرهم سينكشف، وسيلاقون جزاءهم العاجل والآجل خفت صوتهم، وركنوا وانطووا على أنفسهم، كما هو الحال في غيرهم ممن كان يهمّ بالعصيان والمخالفة ويخشى العواقب.

وبعد وفاة الرسول بدأت الدوافع والأسباب تتدافع، فأول ماظهر منها ذلك الصراع السياسي على الخلافة الذي ظهر بين المهاجرين والأنصار أولاً، وبين عليعليه السلام والمهاجرين ثانياً، وبعد أن انهزم عن المسرح مرشّح الأنصار سعد بن عبادة الذي أُخرج من المدينة إلى بلاد الشام، وقتل فيها بتدبير من الأنصار المهاجرين غيلة، وأشاع قاتلوه يوم ذاك بأنه قتيل الجن، وأذاعو على لسان جني أنه قال:

قد[1] قتلنا سيد الخـز ... رج سعـــد بن عباده
ورميناه بســـهميـ ... ـن فلـم نخـطئ فؤاده

وراجت فكرة اغتيال الجن لسعد بن عبادة، ودوّنها المحدّثون والمؤرّخون فيما دونوه من حوادث ذلك العصر[2]، وتحوّل الصراع بين المهاجرين والأنصار إلى التفاخر

(١) في الأصل: نحن.

(٢) وممن ذكرها ابن الأثير في أُسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٤. ونقل عن ابن سيرين قوله: «بينا سعد يبول

بالأحساب والأنساب والجهاد والتضحيات في سبيل الله، وروى كل منهم عن الرسول صلى الله عليه وآله ما يشير إلى بعض الامتيازات التي جعلها الله لكل منهما، وفضْلَ كلّ منهما على الآخر، فقد روى الأنصار عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**الأنصار لايحبّهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبّهم أحبّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**»[1]. كما رووا عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**آية الإيمان حبّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**». وأن الآية: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[2] نزلت في الأنصار، وأن عرش الله قد اهتزّ لموت سعد بن معاذ، إلى كثير من أمثال هذه المرويات[3].

كما وضعوا أحاديث في فضل المهاجرين والقرشيين، فرووا عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وآله قال: «**الناس تبع لقريش، وإن هذا الأمر فيهم ما بقي منهم اثنان**». إلى غير ذلك[4].

ولولا الحروب والغزوات، والأموال التي غمرتهم بها الفتوحات لتطوّر النزاع بينهما واتّخذ شكلاً جديّاً كانت له أسوأ النتائج وأكثرها أخطاراً. وإلى جانب هذا الصراع الذي استطاع الحاكمون بأساليبهم، ومساعدة الظروف أن يضعوا له حدّاً، ويحدّوا من أخطاره ونتائجه، كان الصراع بين الحاكمين وأتباعهم من جهة، وبين المتمسّكين بحقّ علي عليه السلام في الخلافة يتحرّك باتّجاه جديد وبأُسلوب بعيد عن العنف والاستفزاز لا يتعدّى علياً وأتباعه في مناظراتهم ومطالبتهم بحقّه الشرعي، ووصايا الرسول والنصوص التي تكرّرت منه في مختلف المناسبات، حتى إن موقف السيدة فاطمة عليها السلام

واقفا إذ اتّكأ فمات، قتلته الجن». فالظاهر أن الجن قتلته؛ لأنه بال واقفا! وما عشت أراك الدهر عجبا.

(١) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٢٣.

(٢) سورة الحشر الآية ٩.

(٣) وقد عقد لها البخاري بابا أسماه (مناقب الأنصار) في الجزء الرابع من الصحيح فراجعه.

(٤) انظر ج ٢ من صحيح البخاري ص ٢٦٤، وما بعدها.

مع الخليفة الأول، وإصرارها على استرجاع فدك، وموقفه المتصلّب منها بعد أن أقامت عليه الحجّة ولم تترك له منفذاً، هذا الموقف وملابساته لم يكن بعيداً عن الصراع في الخلافة.

وعلى أيّ الأحوال فلقد أدرك الحكّام خطر هذا الأُسلوب الذي اتبّعه علي وأتباعه، ومدى تأثيره على الرأي العام الذي لا يرى لعليعليه السلام مثيلاً بين صحابة الرسولصلى الله عليه وآله؛ ممّا دعا أتباعهم والمؤيدين لهم إلى وضع مجموعة من الأحاديث في فضل المهاجرين الأوّلين، والذين استولوا على الحكم بعد وفاته ليقابلوا النصوص التي وردت عن الرسول بمثلها. ومن أمثلة ذلك ما جاء عن جبير بن مطعم أنه قال: لما بُعث الله النبيصلى الله عليه وآله خرجت تاجراً إلى الشام، فأرسل إليّ عظيم الأساقفة فأتيته، فقال: هل تعرف هذا الرجل الذي ظهر بمكة يزعم أنه نبي؟ قال: فقلت: هو ابن عمي. فأخذ بيدي وأدخلني بيتاً فيه تماثيل وقال: انظر، ترى صورته هنا؟ فنظرت فلم أرَ شيئاً، فأخرجني من ذلك البيت وأدخلني بيتاً أكبر منه فيه مثلها، وقال: انظر هل تراه هنا؟ فنظرت فإذا صورة النبي، واذا صورة أبي بكر وهو آخذ بعقب النبيصلى الله عليه وآله، وإذا صورة عمر وهو آخذ بعقب أبي بكر، فقال: هل رأيته؟ فقلت: نعم هو ذا. قال: أتعرف الذي هو آخذ بعقبه؟ قلت: نعم، هو ابن أبي قحافة. قال: وهل تعرف الذي هو آخذ بعقبه؟ قلت: نعم، هو ابن عمّنا عمر بن الخطاب. فقال: أشهد أنه رسول الله، وأن هذا هو الخليفة من بعده، وأن هذا هو الخليفة من بعد هذا. إلى غير ذلك مما ينص على أن الخليفة من بعده أبو بكر[1].

ومن ذلك ما رووه عن دحية بن خليفة الكلبي أنه قال: لقيت قيصر بكتاب رسول اللهصلى الله عليه وآله وهو بدمشق، فأُدخلت عليه خالياً، فناولته الكتاب، فقبّل خاتمه وفضه وقرأه، ثم وضعه على وسادة أمامه، ودعا بطارقته وزعماء دينه، فقام فيهم على وسائد بُنيت له

---

(١) انظر ص ١٣٥ من نهاية الأرب الجزء السادس النسخة المصوّرة عن طبعة دار الكتب.

ثم خطبهم وقال: هذا كتاب النبي الذي بشّر به عيسى المسيح، وأخبر أنه من ولد إسماعيل. فنخروا نخرة عظيمة وصاحوا، فأومأ إليهم أن اسكتوا، ثم قال: أنا جرّبتكم لأرى غضبكم لدينكم، ونصركم له. وصرفهم، ثم استدعاني من الغد فأخلاني وآنسني بحديثه وأدخلني بيتاً عظيماً فيه ثلاثمئة صورة، فإذا هي صور الأنبياء والمرسلين، فقال: انظر، من صاحبك من هؤلاء؟ فنظرت فإذا صورة النبيﷺ كأنما ينطق، فقلت: هو ذا. فقال: صدقت. ثم أراني صورة عن يمينه، فقال: مَن هذا؟ قلت: هذه صورة رجل من قومه اسمه أبو بكر الصدّيق. فأشار إلى صورة أُخرى عن يساره، فقلت: هذه صورة رجل من قومه يُقال له عمر بن الخطّاب. فقال: إنّا نجد في الكتاب أن بصاحبيه هذين يتمّ الله أمره. قال دحية: فلما قدمت على النبيﷺ أخبرته بما جرى، فقال: «**صدق، بأبي بكر وعمر يتمّ هذا الأمر**»(١).

وقد أشار إلى ما ذكرناه ابن ابي الحديد في (شرح النهج) حيث قال: فلما رأت الشيعة ما وضعته البكرية في صاحبهم من الأحاديث، أوسعوا في وضع الأحاديث في عليعليه السلام، ثم قابلهم البكرية بمطاعن كثيرة في علي وولديه، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل، وأُخرى إلى ضعف السياسة، وحب الدنيا والحرص عليها(٢).

ولما جاء دور الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب مثّل أنصاره نفس الدور الذي مثّله أنصار أبي بكر، وزادوا على ذلك، لاسيما وأن القرشيين كانوا أشدّ نقمة عليه من سلفه؛ لأنه حاول أن يحدّ من نفوذهم وغطرستهم، ويحدّد لهم تصرّفاتهم، فاتّهموه بالفظاظة وسوء الخلق، فوضع له أنصاره عدداً من الأحاديث التي ترفع من شأنه، فرووا عن عائشة أنها قالت: لما ضمني الفراش مع رسول الله قال لي: «**يا عائشة، إن حسنات عمر بن الخطّاب أكثر من نجوم السماء، وإنه لحسنة من حسنات أبيك**». وإن رسول الله قال: «**لما أُسري بي إلى السماء رأيت فيها خيلاً ملجمة مسرجة لا تبول ولا تروث ولا تعرق،**

---

(١) انظر ص ١ ج١ من الجزء السادس نهاية الأرب.

(٢) انظر ج٣ من شرح النهج ص ١٧.

رأسها من الياقوت الأحمر وحوافرها من الزمرّد الأخضر وأبدانها من العقيان الأصفر، ذوات أجنحة، فقلت: لمن هذه؟ فقال جبرائيل: هذه لمحبي أبي بكر وعمر يزورون الله عليها». وأنه قال: **لو قعدت ألف سنة أُحدّث في فضائل عمر بن الخطّاب لم أنتهِ منها، وهو مع ذلك حسنة من حسنات أبي بكر»**. إلى غير ذلك من عشرات الأحاديث التي وضع قسماً منها أنصاره؛ ليقابلوا بها أحاديث الوصية وغيرها مما جاء عن النبيﷺ في عليعليه السلام[1].

كما وأن هناك أحاديث كثيرة لا يكاد الباحث يشكّ وهو يقرؤها بأنها وضعت لتأييد الحزب الأُموي في عصر مبكر من تاريخ الإسلام يوم اتّجه المسلمون إلى محاسبة عثمان على محاباته للمروانيين والمقرّبين إليه فأخذ أنصاره يروون عن الرسول في فضله وفضل البيت الأُموي مثل قولهم: إن النبيﷺ قال: «**دخلت الجنة، فتناولت تفاحة منها، ولما كسرتها خرجت منها حوراء، أشفار عينها كريش النسر، قلت: لمن أنت؟ قالت: لعثمان بن عفان»**[2]. وقولهم: إنه قال لعثمان: «**أنت ولي في الدنيا والآخرة**». و«**إن الجنة تبرق له إذا خرج في الليلة الظلماء**»[3]. وقولهم: إنه قال لمعاوية: «**إنك أحد الأُمناء السبعة، وإنك ستزاحمني على باب الجنة**»[4]. ونحو ذلك مما أورده السيوطي في (اللآلئ)، وابن الجوزي والفتني في موضوعاتهما.

هذا النوع من المرويات وضعوه؛ ليمتصّوا نقمة الجماهير الإسلامية التي امتدّت إلى خارج العاصمة تحاسب وتراقب تصرّفاته وتصرّفات عمّاله، ولكنها لم تجدهم شيئاً بعد أن وجد المسلمون أنفسهم أمام خطر يهدّد مقدّرات الأُمة ومقدّساتها بسبب تصرّف تلك الطغمة من حاشيته وبني عمومته. ولما انتقلت الخلافة إلى عليعليه السلام بعد مقتل

---

(١) انظر اللآلئ المصنوعة ص ٣٠٠، وما بعدها، المجلد الأول للسيوطي.

(٢) كنز العمّال ج ١٣ ص ٦٤ رقم الحديث ٣٦٢٦٣.

(٣) اللآلئ المصنوعة ج١ ص ٣١٧، وكذلك الفوائد المجموعة ص ٣٤١، باب مناقب الخلفاء الأربعة ح ٣٥.

(٤) ميزان الاعتدال للذهبي ج ٢ ص ١٣.

عثمان اتّخذ الصراع على الحكم شكلاً جدّياً لم يعرف له تاريخ المسلمين مثيلاً من قبل، واشترك فيه بالإضافة إلى الحزب الأُموي جماعة من الصحابة غرّروا بزوجة النبي السيدة عائشة، وتستروا بمعارضتها للحكومة الشرعية، واتّخذوا من مقتل عثمان مبرّراً لمعارضتهم، ورجعوا يترحّمون عليه، ويتحدّثون بحسناته بعد أن قذفوه بالانحراف عن سنة الرسول وسيرته، وألصقوا به ما لا يجوز على أحد من الناس، وحمّلوا علياًعليه السلام مسؤولية قتله؛ لتضليل الرأي العام وكسب أكبر عدد لتأييد حركتهم الانفصالية. وتمّ لهم بهذا وغيره من وسائل الإغراء والتضليل احتلال البصرة لفترة من الزمن؛ ممّا اضطرّ علياًعليه السلام إلى الوقوف بحزم وشدّة في وجه تلك الحركة قبل أن يستفحل خطرها. وكانت المعركة الحاسمة التي انتهت بانتصار عليعليه السلام ومقتل جماعة من زعماء تلك الحركة الانفصالية، والتحقت فلولهم بمعاوية الذي تحصّن بالشام في بداية الأمر بانتظار النتائج التي تسفر عنها المعارضة التي انتقلت من المدينة بقيادة الشيخين طلحة والزبير، وزوجة النبي التي كانت بنظر العامّة من أقرب زوجاته إلى قلبه وروحه.

وبلا شك إن الذين التحقوا بمعاوية بعد الفشل الذريع الذي منيت به حركتهم في البصرة كمروان بن الحكم، وعمرو بن العاص، وولده عبد الله، وآل أبي معيط، والطامعين في الأموال والحكم من الصحابة لم يكونوا يملكون من الدين ما يردعهم عن الكذب على الرسول؛ لرفع مستوى المعارضة التي تزعّمها معاوية بن أبي سفيان؛ لأن الحديث عن الرسولصلى الله عليه وآله كان يرفع ويضع، بل هو أمضى من الأسلحة التي كانت تستعمل يوم ذاك. وبلا شك إن حديث ابن العاص الذي يقول فيه: إن الرسول قال: «**إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء**»[(١)]. ومرويات عروة بن الزبير التي نسبها لخالته عائشة: «**من أراد ان ينظر إلى رجلين من أهل النار فلينظر إلى هذين**»[(٢)]، تعني بذلك علياً والعباس، وقولها المزعوم: إن رسول الله أوصى بأن تُقطع يد علي بن أبي طالب[(٣)]،

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٤ ص ٦٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٧٠.

وما رواه ابن العاص من دعاء النبي لمعاوية وأنه قال في دعائه: «**اللهم قهِ العذاب والحساب، وعلّمه الكتاب**»[١].

وما جاء عن ابن عباس أنه لما نزلت ﴿**إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾[٢] جاء العباس إلى علي وقال له: قم بنا يابن الأخ إلى رسول الله، فسارا إليه فسألاه عن ذلك فقال: «**إن الله جعل أبا بكر خليفتي على دين الله ووحيه، فاسمعوا له تفلحوا، وأطيعوه ترشدوا**»[٣]. وأنه قال يوماً لجبرائيل وقد مرّ بهما أبو بكر: «**أتعرفه يا جبرائيل؟**». قال: «نعم، إنه لفي السماء أشهر منه في الأرض؛ فإن الملائكة لتسميه حليم قريش، وإنه وزيرك في حياتك، وخليفتك بعد موتك»[٤].

إلى غير ذلك من عشرات الأحاديث التي وضعها معاوية وأنصاره في بداية ذلك العهد؛ حتى لا تكون الفضائل وقفاً على علي وحده، هذه الأحاديث وغيرها من موضوعات ذلك العصر كما ذكرنا. قال أحمد أمين في فجر الإسلام: «وتلمّح أحاديث كثيرة لا تكاد تشكّ وأنت تقرؤها أنها وضعت لتأييد الأمويين». وأضاف إلى ذلك: «إن ابن عرفة قال: إن أكثر الأحاديث المروية في فضائل الصحابة افتُعلت في أيام بني أمية؛ تقرّباً إليهم بما يظنّون أنهم يرغمون به أُنوف بني هاشم». ومضى يقول: «ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الوضّاعون في تفضيل القبائل العربية؛ ذلك أن هذه القبائل كانت تتنازع الرياسة والفخر والشرف، فوجدوا في الأحاديث باباً يدخلون منه إلى المفاخرة كالذي وجدوه في الشعر، فكم من الأحاديث وضعت في فضل قريش والأنصار وغيرهم، وأحاديث وضعت في تفضيل العرب على العجم والروم، فقابلها الموالي بوضع أحاديث في فضل العجم وغيرهم من العناصر الأُخرى!»[٥].

---

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٤٢.

(٢) سورة العصر الآية ١.

(٣) كنز العمّال ج ١١ ص ٥٥ رقم الحديث ٣٢٥٨٦.

(٤) انظر اللآلئ المصنوعة ج٢ ص ٢٩٤.

(٥) فجر الإسلام ص ٢١٤ بتصرّف يسير جدّاً.

وقد اشتدّ هذا النوع من الصراع في العصر الأُموي؛ حيث كان الأُمويون يعملون على إحياء مظاهر الجاهلية بجميع أشكالها، وتذويب الروح الإسلامية التي لم تفاضل بين جنس وجنس، ولا لون ولون إلا بالأعمال الصالحات التي تعود بالنفع على الأفراد والجماعات. وبلغ من احتقارهم للموالي واستغلالهم للكسب والربح أن الكثير من أعيان الصحابة والمسلمين كانوا يملكون مئات العبيد عن طريق الشراء والأسر، ويستعملونهم كما يستعملون بقية ممتلكاتهم من الحيوانات التي تدرّ عليهم الربح، فيفرضون عليهم مقداراً معيناً في كلّ يوم، وعليهم أن يعملوا بما يملكون من صنعة أو عمل لتوفير تلك الضريبة لأسيادهم وإلا يتعرضون لأسوأ المعاملات والعقوبات. ومن أجل ذلك كانوا يكدحون ليلاً ونهاراً ليضيفوا إلى ثروات أسيادهم دخلاً جديداً في كل يوم.

وجاء عن الزبير بن العوّام وغيره من أثرياء المسلمين أنهم كانوا يملكون نحواً من ألف من العبيد والموالي، ويستعملونهم للربح كما يستعملون قطعان الغنم والأبل. وقد شجّع الأُمويون هذا الأُسلوب من الاستغلال والإذلال، وكان شعارهم «السواد بستان قريش». يعنون بذلك أن ما عدا القرشيين من الموالي والعبيد وسائر الناس يجب أن يُستغلوا لخدمة أسيادهم القرشيين الحاكمين وغيرهم.

وحاول الحكام وغيرهم ان يبرّروا سوء معاملتهم للموالي وغيرهم؛ فوضعوا أحاديث في تفضيل العرب على غيرهم من سائر الناس، كما وضعوا أحاديث في فضل قريش على غيرها، فقد روى زياد بن عاصم القطّان عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ كان يقول: «**أبغض الكلام إلى الله تعالى الفارسية، وكلام الشياطين بالخزرية، وإن كلام أهل الجنة بالعربية**»[1]. وأنه قال: «**والذي نفسي بيده ما أنزل الله من وحي قط على نبي إلا بالعربية**»[2]. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تشير إلى تفضيل العرب على

---

(١) راجع الموضوعات لابن الجوزي ج ٣ ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه ج١ ص ١١٢.

غيرهم. كما نسبوا إليه أنه قال: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان**»[١]. وأنه قال: «**لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه في النار**». كما جاء في رواية البخاري[٢]، وأنه قال: «**أحبّوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي**»[٣]. وأنه كان يقول: «**لا خير في الحبش؛ إذا جاعوا سرقوا، وإن شبعوا زنوا**»[٤]. وأنه قال لعمّه العبّاس يحذّره من العبيد والموالي: «**يا عم، لا تكرمهم؛ فإنهم إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا فسقوا**»[٥]. وجاء عن أبي هريرة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**النبط قتلة الأنبياء، وأعوان الظلمة**»[٦]. وأنه قال: «**لو علم الله في الخصيان خيراً لأخرج من أصلابهم ذرية يعبدون الله، ولكنه علم أنه لا خير فيهم**»[٧]. وأن النبي ﷺ قال: «**دعوا الحبشة ما دعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم**»[٨].

إلى كثير من أمثال هذه الموضوعات مع العلم بأن أكثر الفقهاء والمحدّثين كانوا في عصر التابعين من الموالي، واشتهر منهم جماعة واتّجهت الأنظار إليهم كعكرمة مولى عبد الله بن العباس، وعطاء بن يسار وزيد بن مسلم، ومولى سعيد بن المسيّب، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وعمر بن دينار المعروف بين فقهاء المكّيّين، وعطاء بن أبي رباح، ومحمد بن سيرين، وأسلم مولى عمر بن الخطاب، ومجاهد، وعطاء بن عبد الله الخراساني، والحسن بن يسار فقيه البصرة، وسعيد بن جبير فقيه الكوفة، ويزيد بن حبيب، وكان بربري الأصل، وعنه أخذ الليث بن سعد وغيره، إلى كثير من الفقهاء

---

(١) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٥٥، وكذلك ج ٨ ص ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٥٥.

(٣) مستدرك الحاكم ج ٤ ص ٨٧.

(٤) مجمع الزوائد ج ٤ ص ٢٣٥.

(٥) الموضوعات لابن الجوزي ج ٢ ص ٢٣٤.

(٦) المصدر نفسه ص ٤٢.

(٧) المصدر نفسه ص ٢٣٥.

(٨) سنن النسائي ج ٦ ص ٤٤.

الذين كانوا المرجع في الفقه والحديث في مختلف العواصم ودور العلم. هؤلاء كانوا يحاولون بكثرة مروياتهم ان يوجهوا الأنظار إليهم ويرفعوا من شأن الموالي.

[دور الموالي في وضع الأحاديث]

وتؤكّد النصوص التاريخية أنهم قد وضعوا بين المرويات التي أخذوها عن أسيادهم أعداداً كبيرة نسبوها إليهم، واشتهر بين هؤلاء عكرمة مولى عبد الله بن العباس، وحينما ضجّ الناس من كذبه حبسه مولاه علي بن عبد الله في الكنيف[١]. وقال سعيد بن المسيّب لمولاه: إياك أن تكذب عليّ كما كذب عكرمة على عبد الله بن العباس[٢]. هذا بالإضافة إلى أنه كان الداعية الأول لفكرة الخوارج في المغرب، كما تؤكّد ذلك النصوص الموثوقة.

وممّن اشتهر بالكذب من هؤلاء ابن جريج الرومي المتوفى سنة (١٥٠)، وكان متّهماً بين المحدثين بالكذب ووضع الأحاديث، كما جاء ذلك عن البخاري والذهبي في تذكرة الحفّاظ[٣].

وساعد هؤلاء الموالي على الإكثار من الرواية ووضع الأحاديث أن أسيادهم كانوا من أعلام الفقه والحديث، ولم يكن التدوين شائعاً في ذلك العصر كما يجب، بل كان أكثر العلماء لا يستسيغه كما ذكرنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب، فأخذوا عنهم أكثر مروياتهم، وأضافوا إليها ما شاء لهم الهوى والغرض. ولما جاء دور التدوين لم يكن الذين نشطوا إلى هذه المهمة على مستوى المسؤولية والإخلاص لخدمة السنة وتصفيتها ممّا علق بها من موضوعات الأُمويين والموالي، ومفتريات العناصر الأخرى.

[موقف الزهري وأبي بكر بن حزم من الحديث]

بل كان بين أُولئك الذين تطوّعوا للتدوين وجمعه من الحفّاظ والفقهاء والقصاصين

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٢٣.

(٣) تذكرة الحفّاظ ج ١ ص ١٧٠.

جماعة لم يثبتوا في وجه الطعون والاتّهامات الموجّهة إليهم، كابن الشهاب المعروف بالزهري وأبي بكر بن حزم، وعطاء بن رباح، والأعرج عبد الرحمن بن هرمز، وسليمان بن يسار. وكان الزهري، ومحمد بن عمرو بن حزم من أقرب العلماء إلى الأُمويين، أما الزهري محمد بن مسلم فقد كان داعية للأُمويين، ولاه يزيد بن عبد الملك القضاء، واختاره هشام بن عبد الملك معلّماً ومؤدّباً لأولاده، وأنهى حياته وهو إلى جانب الأُمويين، ومن أفضل المقرّبين عندهم. ومن غير المعقول أن يقرّب الحكام إليهم من لا يقرّ ظلمهم وفسادهم في الأرض وبخاصّة جبابرة الأُمويين الذين لم يكن يعنيهم شيء أكثر من إحياء مظاهر الجاهلية الأُولى بكلّ مظاهرها وأشكالها، كما تؤكّد ذلك أكثر النصوص.

وجاء في المصادر الموثوقة أن عبد الملك بن مروان قد استعان بالزهري لما ضجّ المسلمون من منعهم عن الحجّ إلى بيت الله الحرام عندما كانت الحجاز تحت سيطرة عبد الله بن الزبير، فوضع له الزهري الحديث المعروف: «**لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس**». ونسبه إلى الرسول صلى الله عليه وآله[(١)]. وروى له أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «**الصلاة في المسجد الأقصى تعدل ألف صلاة في غيره**»[(٢)]. إلى غير ذلك من الأحاديث التي رواها في بيت المقدس؛ ليكون في مرتبة مسجد النبي وبيت الله الحرام.

وكان عبد الملك يحاول من وراء ذلك أن يحمل الناس إلى الحجّ إليه بدلاً من مكة المكرمة؛ وسواء صحّ عنه ذلك أم لم يصح فصِلته الأكيدة بالأُمويين لم يستطع أحد من أنصاره أن يتهرّب منها، وتكفي وحدها لأن تضعه في صفوف المتّهمين والمشبوهين.

وروى الخطيب البغدادي عن عبد الرزاق بن همام عن معمر بن راشد تلميذ

---

(١) راجع: تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦١.

(٢) لم نعثر عليه بهذا اللفظ، بل الوارد هو: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». صحيح البخاري ج ٢ ص ٥٦.

الزهري أن الوليد بن إبراهيم الأُموي جاء إلى الزهري بصحيفة وضعها أمامه، وطلب إليه أن يأذن بنشر أحاديث منها على أنه سمعها منه، فأجازه الزهري على ذلك من غير تردد كثير، وقال له: من يستطيع أن يخبرك بها غيري؟[١].

وحدّث معمر بن راشد عنه أنه قال: لقد أكرهنا هؤلاء الأُمراء على أن نكتب أحاديث[٢]. وهذا الحديث يشكّل اعترافاً من الزهري بأن الحكام كانوا يسخّرون فريقاً من البارزين بين المسلمين لهذه الأغراض ولو بالإكراه والإغراء، والحديث كان يسعفهم في تحقيق أغراضهم كما تسعفهم القوّة والقسوة.

وأما أبو بكر بن حزم فكان من أتباعهم المقرّبين، وقد انتدبه عمر بن عبد العزيز لكتابة أحاديث أهل المدينة، وفرض عليه أن يستعين بعمرة بنت عبد الرحمن، وكان يوم ذاك والياً على المدينة، والمدينة مصدر الحديث؛ بطبيعة مركزها السياسي والديني، ولأن المحدّثين في مختلف البلاد الإسلامية قد أخذوا عنها ونسبوا كل ما جمعوه ودوّنوه إلى صحابة الرسولﷺ. وكان حريصاً على تدوين مرويات خالته عمرة بنت عبد الرحمن التي نشأت في حجر عائشة، وأخذت عنها حتى أصبحت الراوية الأولى لها بعد ابن اختها عروة بن الزبير الذي نسب أكثر مروياته وموضوعاته إليها.

وبالفعل فلقد باشر ابن حزم بتنفيذ أمر الخليفة الصالح، فجمع آلاف الأحاديث التي كان يحدّث بها الرواة والقصّاصون في المدينة من غير تحقيق في أسانيدها، ولا دراسة لمتونها. ولم يكن بوسعه يوم ذاك أن يفعل أكثر من ذلك؛ لأن المرويات كلها عن طريق الصحابة، والمحدثون قد أسندوا كل ما عندهم إليهم، وكانت أحاديث أبي هريرة وكعب الأحبار وغيرهم ممن سخّرهم معاوية ليضعوا له الحديث في فضائل الخلفاء والأُمويين، وفي الطعن على عليّ وبنيه قد شاعت بين أهل المدينة، وانتشرت بين

---

(١) لم يذكر الخطيب البغدادي سنداً كهذا عن الزهري إلا في ج ٧ ص ١٤٠ وهو غير الذي ذكره المصنف.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ج ٥٥ ص ٢٣٠.

أحاديث الرسول، وكان ابن حزم نفسه ممّن ساهم في وضع الأحاديث، وساعد على ذلك بطبيعة مركزه السياسي الذي يفرض عليه أن يتجاوب مع الحاكمين قبل أن يأتي عمر بن عبد العزيز إلى الحكم.

وبلا شكّ فإن عمر بن عبد العزيز كان بريئاً يحاول الحد من فوضى المحدثين التي طغت على السنة وغيّرت معالمها، ومن غير البعيد أن تكون غايته إصلاح ما أفسده أسلافه، كما حاول أن يصلح ما أفسدوه في سياستهم وإدارتهم لأُمور الرعية، ولكن القدر قد عاجله قبل أن تصل إليه تلك المجاميع التي دونها ابن حزم وغيره[١].

[مع السباعي في دفاعه عن الزهري راوية الامويين]

وقد دافع الخطيب والسباعي في كتابيهما (السنة قبل التدوين)، و(السنة ومكانتها من التشريع) عن الزهري بحماس وحرازة [حرارة]، وحاولا وضعه في مرتبة القدّيسين، في حين أنهما يعترفان بصلته الأكيدة بالأُمويين، وارتباطه الوثيق بخمسة من خلفائهم كانوا يغدقون عليه العطاء. وكان هو بدوره يبذل بسخاء، ويمدّ للناس على الطرقات موائد الثريد والعسل. وأضاف السباعي إلى ذلك أنه مرّ يوماً بماء من مياه العرب، فشكا اليه أهل الماء أن عندهم ثماني عشرة عجوزاً ليس لهم من يخدمهن، ولم يكن يملك يوم ذاك درهماً واحداً، فاستلف ثمانية عشر ألفاً، وأخدم كل واحدة منهن جارية.

وكانت له رحلات تعليمية إلى الأعراب يعلّمهم ويفقّههم، فإذا كان فى الشتاء أطعمهم عسلاً وزبداً، وإذا كان ذلك في الصيف أطعمهم عسلاً وسمناً، فإذا تراكمت عليه الديون مرة بعد أُخرى قضاها عنه الخلفاء. إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي أوردها السباعي على إفراطه في العطاء، وتبذيره الأموال.

وفي الوقت ذاته يقول السباعي بأن والده كان فقيراً لايملك شيئاً، وهو إلى جانب

(١) كما نص على ذلك في قواعد التحديث ص ٤٧.

عبد الله بن الزبير في حروبه مع الأُمويين، وتركه شابّاً حدثاً لا مال له ولا متاع، فنشأ يتيماً يستعين على قوته بأخ له كان أكبر منه سناً. وبعد أن بزغ نجمه، واشتهر بين أعلام عصره، التجأ إلى الأُمويين وبقي معهم إلى ان وافته منيته في ضيعة له تدعى «أدامى» من قرى الحجاز على الحدود المتاخمة لفلسطين[١].

ومن رجع إلى تاريخ الأُمويين وسوء صنيعهم مع من كانوا يشعرون منه عدم الرضا عن تصرّفاتهم فضلاً عن معارضتهم، ومواقفهم المخزية مع الرعية، واستغلال ثروات الشعوب وتبذيرها على شهواتهم وأهوائهم ينتهي حتماً إلى أن الزهري لم يكن يعتمد على خزينة الدولة الأُموية في إسرافه، ولم يضعوها تحت تصرّفه لينفق منها ما يشاء بدون قيد أو شرط، ويضع موائد السمن والعسل لجميع الناس إلا بعد أن مشى في ركابهم، واستغلّوه باسم الدين والإسلام لصالحهم، وأصبح أسير عطائهم وهباتهم. لقد أعدّوا له مقصورة في قصورهم يُعلّم فيها الحديث والدين إلى جانب مقاصير البغايا والجواري والراقصات وحوانيت الخمر؛ ليضعوا هذه مقابل هذه، وأغدقوا عليه في العطاء أكثر من سواه؛ لأنه مستعدّ أكثر من غيره لأنْ يروي لهم عن الرسول ما يشاؤون ممّا يرفع من شأنهم، ويضع من شأن علي وبنيه الهداة الكرام. وقرّبوه إليهم، وأبعدوا غيره من العلماء؛ لأن غيره لم يسمح له دينه أن يروي لهم عن الرسول أن الحجّ إلى بيت المقدس يغنيهم عن الحجّ إلى بيت الله الحرام، والصلاة في بيت المقدس أفضل من الصلاة في مسجد الرسول والبيت الحرام.

لقد أسرف الزهري في الحديث الذي يؤيّد عروش الأُمويين، فأسرفوا في عطائه، وأقرّهم على ظلمهم وسوء صنيعهم مع الرعية، واستهتارهم بالقيم والمقدّسات، فأقرّوا تبذيره وتبديد الأموال واقتناء الضياع. إن الحاكم كالتاجر الجشع المحتكر الذي يبحث عن الربح من أي مصدر كان، ولا يضع في حسابه مدى ما تحدثه أرباحه

(١) انظر السنة للسباعي ص ٣٨٧ و ٣٨٨.

بالمستهلكين من أضرار ونكبات، ولا يدخل في حدود التصوّر أن يقضي هشام بن عبد الملك ديون الزهري وقد بلغت ألف ألف كما جاء في رواية ابن عساكر عن الشافعي[١] من غير ان يدرّ عليه هذا العطاء السخي ربحاً أسخى من عطائه، وهو المعروف بالشحّ والبخل بين خلفاء هذه الأُسرة، والقائل لعامله على مصر في جوانب كتاب كتبه إليه يستجديه العفو والعطف على الشعب المصري الذي نكب اقتصادياً نتيجة لانقطاع الأمطار وضعف الانتاج: «احلب الدرّ، فاذا جفّ فاحلب الدم»[٢]. ويحقّ لكلّ إنسان أن يسأل هؤلاء الذين يدافعون عن الزهري بصلابة وحرارة، ويبرّئون الأُمويين من استغلال المقربين إليهم من العلماء لماذا قرّبوا إليهم الزهري، وأغدقوا عليه العطاء، وأبعدوا بقية أعلام ذلك العصر، كسعيد بن المسيّب، والقاسم بن محمد، وأمثالهما من العلماء، ونكّلوا بجماعة منهم حتى مات سعيد بن المسيّب من سياطهم؟

ويدّعي السباعي وغيره أن هشاماً شتم الزهري، وأمره بالرحيل عنه؛ لأنه أبى أن يروي له أن الآية: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣] أُنزلت في علي عليه السلام، فقد جاء في الصفحة ٣٩٦ عن ابن عساكر أن هشاماً سأل سليمان بن يسار أحد الفقهاء الموالي عمّا تعنيه الآية، فقال له سليمان: إن المعنيّ بها هو عبد الله بن أبي سلول. فقال له هشام: كذبت، هو علي بن أبي طالب. فأقرّه ابن يسار على ذلك، ووجه نفس السؤال إلى الزهري، وأجابه بنفس الجواب، ولكنه بقي صامداً مُصِرّاً على رأيه بالرغم من التهديد والوعيد الذي لقيه من هشام بن عبد الملك، وأخيراً أمره بالرحيل عنه كما يدّعي السباعي، ولكنه يعود فيؤكد بأنه بقي معهم إلى آخر نفس من حياته، ووفى عنه من ديونه البالغة ألفي ألف، وفّى عنه منها ألف ألف، وبقي من أقرب المقرّبين بهم طيلة

---

(١) لقد أورد ابن عساكر في تاريخه قائمة بالديون التي قضاها هشام بن عبد الملك عن الزهري في ج ٥٥ ص ٣٧٣ وما بعدها.

(٢) تقدم فيما سبق.

(٣) سورة النور الآية ١١.

حياته. ومع ذلك فهو من الزهّاد والصلحاء وصلته بهم ليست صلة ضعيف بقوي، ولا مخدوع بخادع، بل صلة واثق بدينه معتزّ بعلمه يغضب ويثور إذا حُرِّفت حقيقة من حقائق التاريخ، وانحرف الحاكم عن الحقّ إلى الباطل ومن الهدى إلى الضلال كما يدّعي السباعي. مع العلم بأن تاريخ الأُمويين حافل بالشواهد والأدلّة على أنهم قد نكّلوا وشرّدوا كلّ معتزّ بعلمه ودينه، وكلّ من يعارض سياستهم وأُسلوبهم في الحكم(١).

وجاء في (ضحى الإسلام) عن بعض الحكّام أنه قال: إن الملوك يتحمّلون كل شيء إلا إفشاء السرّ، والتعرض للحُرُم، والقدح في المُلك، ومعارضة الحاكم(٢).

ومهما كان الحال فإذا جاز على الزهري أن يكون من الطراز الممتاز في تاريخ الإنسانية كما يزعم السباعي، فلا يجوز عليه أن يكون محظياً بعطفهم وعطائهم وقُربهم إلى الحدّ الذي يصوّره أنصاره ومحبّوه؛ لأن أتباع الحاكمين لا يبلغون هذه المرتبة إلا إذا كانوا في منتهى الطاعة والاستسلام، ينفذون رغباتهم كما يريدون، ويروون لهم عن الرسولﷺ أنه قال: «**إن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيئات**»، كما أراد الوليد بن عبد الملك من الزهري أن يروي له ويشيع بين الناس(٣). ويروي لهم أن الآية: ﴿**وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ نزلت في علي بن أبي طالب، كما فعل سليمان بن يسار عندما قال له الوليد: لقد كذبت، إنما نزلت في علي بن أبي طالب. فقال له: صدقت يا أمير المؤمنين، وأنت أعلم بما تقول(٤).

---

(١) ذكر ذلك الدكتور السباعي في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) في ص ٢٤٠ وما بعدها في معرض مناقشته للآراء التي طرحها المستشرق الهنغاري جولد تسيهر (Goldziher) في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام). وكان السباعي قد أفرد فصلاً كاملاً في ص ٢٣٢ وما بعدها من كتابه المذكور تحدث فيه عن الزهري ودافع عنه دفاعاً مستميتاً.

(٢) هذا النص منسوب إلى الخليفة المأمون كما نص على ذلك في (العقد الفريد) الجزء الأول، وهو بهذا الشكل: «وقال المأمون: الملوك تتحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملك، وإفشاء السرّ، والتعرّض للحرم».

(٣) العقد الفريد ج١ ص٧٨.

(٤) فتح الباري ج ٧ ص ٣٣٦.

[الأحاديث الموضوعة في فضل البلدان والبقاع]

أما إذا خالفهم وأنكر عليهم جورهم واستئثارهم، فمن غير المعقول أن يحظى بقربهم وعطائهم السخيّ الذي كان يحظى به الزهري وأمثاله من العملاء المدلّلين عند حكّام العباسيين والأُمويين الذين رووا للأُمويين أن الرسول قال: «**طوبى للشام**». فقال له الراوي: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟ فقال: «**لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها**»[(١)]. وأنه قال لمن طلب منه أن يختار له بلداً يسكنه: «**عليك بالشام؛ فأرضها خيرة الله في أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده**»[(٢)]. وروى لهم الزهري عن الرسول أنه قال: «**إن الله سبحانه نقل قرية من قرى الشام إلى الطائف لتنبت لهم الفواكه**». فالطائف من أرض الشام[(٣)]. ورووا لهم بسند يتّصل بسالم مولى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان أتى العراق فباض فيهم وأفرخ، ثم أتى مصر فبسط عبقريه وجلس، ثم أتى الشام فطردوه**»[(٤)]. وجاء في رواية ثانية عنه: «**إن إبليس دخل العراق فقضى حاجته فيها، ودخل الشام فطردوه حتى بلغ ميسا، ومنها ذهب إلى مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقريه**»[(٥)].

وجميع الروايات التي تصف الرحلات التي كان يقوم بها إبليس على كثرتها تؤكّد أنه لم يجد في الشام وبلادها ملجأ، وأكثر البلاد حفاوة به كانت العراق ومصر[(٦)].

كما رووا عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الشام معدن الإسلام**». وأنه قال في حديث رواه مجاهد عن ابن عباس: «**إن الله تكفّل لي بالشام وأهله**». وكان يؤكّد على المسلمين

---

(١) مسند أحمد ج ٥ ص ١٨٤.

(٢) المرجع ذاته ج ٤ ص ١١٠.

(٣) راجع: (فتح القدير) للشوكاني ج٣ ص ١١٤.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ج١ ص ٣١٨.

(٥) المرجع ذاته وفيه (حتى بلغ بساق) بدل (ميسا).

(٦) ويبدوا من ذلك ان مصراً يوم ذاك كانت ناقمة على سياسة الأمويين، ومن الجائز ان تكون ميول المصريين يوم ذاك إلى العلويين أكثر من ميولهم إلى الأمويين.

بأن يهاجروا إلى بلاد الشام، وبخاصّة منطقة عسقلان؛ لأنها ستكون في خير وعافية عندما تدور الرحى[١] على حدّ تعبير الراوي.

وجاء عن أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «**أربع مدائن في الدنيا من الجنّة: مكة، والمدينة، وبيت المقدس، ودمشق. وأربع مدائن من النار: رومية، والقسطنطينية، وأنطاكية، وصنعاء**»[٢]. وقد أكثروا من الرواية في فضل بلاد الشام ومُدنها، وبخاصّة عسقلان، فقد رووا عن النبي في فضلها عشرات الأحاديث، وجاء في بعضها أن أهل مقبرة عسقلان يُزفّون إلى الجنة كما تُزفّ العروس إلى زوجها، وأنه يحشر منها سبعون ألفاً يشفع كل واحد منهم إلى مثل ربيعة ومضر»[٣]. وأكثر هذه المرويات عن الزهري، وسليمان بن يسار، ومجاهد، وسالم مولى ابن عمر، وغيرهم.

وكما صنع الأُمويون صنع العباسيون حينما جاؤوا إلى الحُكم، فلقد وضعوا هم وأتباعهم من المرتزقة مئات الأحاديث في مختلف المواضيع بما في ذلك فضل البلدان، ومن بين تلك المرويات أحاديث تُشيد بفضل خراسان ومُدنها ومناطقها. ويغلب على الظن أنها من موضوعات العهد العباسي حيث انطلقت الثورة ضدّ الأُمويين من خراسان ومناطقها بقيادة أبي مسلم الخراساني، واختارها المأمون بعد ذلك مقرّاً له. هذا بالإضافة إلى أن الغزو الفارسي قد اتّسع في جسم الدولة العباسية، وتغلّب الغزاة على أكثر المراكز الحسّاسة فيها، وأصبحت العواصم العربية تعجّ بالفرس الوافدين إليها من خراسان وجهاتها، وبقية المدن والمقاطعات الإيرانية[٤]. فقد رووا عن عليعليه السلام حديثاً

(١) كنز العمال ج ١٢ ص ٢٨٩ رقم الحديث ٣٥٠٧٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ج ١ ص ٢٢٠.

(٣) انظر ص ٤٦٠ من اللآلئ المصنوعة وما بعدها.

(٤) قال الأُستاذ حنا الفاخوري: «لا غرو أن الانقلاب العباسي مع ما رافقه من طغيان العنصر الأعجمي، وانتفاض الشعوبية قد أحدث هزّة عنيفة في الكيان العربي، ولم يكن من السهل انصهار العقليات في وقت سريع، فنشأ صراع شديد شبيه بالصراع العصبي الذي كان قائماً بين القبائل.

طويلاً جاء فيه: «**إن بخراسان مدينة يُقال لها «مرو»، أسّسها ذو القرنين، وصلّى فيها عزير، أنهارها سيّاحة، وأرضها فيّاحة، على كل باب من أبوابها ملك شاهر سيفه يدفع عن أهلها الآفات إلى يوم القيامة**». ويمضي الراوي في حديثه عن مدن خراسان إلى أن يقول: «**وإن لله بخراسان مدينة يقال لها «الشاش» القائم فيها والنائم كالمتشحّط بدمه في سبيل الله. وأُن لله بخراسان لمدينة يُقال لها «بخارى»، وإن رجال بخارى آمنون من الصرخة عند الهول إذا فزعوا، مستبشرون إذا حزنوا، فطوبى لبخارى، يطّلع الله عليهم في كل ليلة اطّلاعة، فيغفر لمن شاء منهم، ويتوب على من تاب منهم**»[١].

ويستمر الراوي يعدّد مدن خراسان ومناطقها، فيذكر منها طوس وخوارزم وجرجان وقومس وسمرقند وغيرها، ويذكر ما أعدّه الله من الكرامات لكل واحدة منها، كما رووا أحاديث عن الرسول في فضل قزوين وجرجان وبغداد والبصرة وغيرها[٢]. وذكر السيوطي في كتابه (الخلفاء) فصلاً بعنوان (الأحاديث المُنْذِرة بخلافة بني أُمية) يشتمل على مجموعة من الأحاديث عن النبيﷺ تندّد بالأُمويين وحكّامهم، وبعده فصلاً بعنوان (الأحاديث المبشّرة بخلافة بني العباس) يشتمل على الأحاديث التي ترفع من شأن العباسيّين، وتبارك في عهدهم وحُكمهم[٣].

وكان لهذا الصراع دويّ بعيد في المجتمعات، وقد انتقل إلى صفوف العلماء والأُدباء، وراح قوم منهم يكابرون العرب ويفاخرونهم بمدنياتهم الراقية، ويهاجمون التقاليد العربية، والأساليب العربية في ثورة ونقمة...». الجامع في تاريخ الادب العربي، القسم الأول: الأدب القديم ص ٥٢٣.

(١) الموضوعات لابن الجوزي ج ٢ ص ٥٨، ومابعدها.

(٢) انظر ص ٤٦٧، وما بعدها من المصدر السابق.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٢.

[موقف العباسيين وأتباعهم من الشعراء والعلماء من أخصامهم السياسيين]

وبلا شكّ إن هذا النوع من الأحاديث من موضوعات العهد العباسي الذي استغلّ فيه الحكّام المحدثين والأُدباء، لمدحهم وتفضيلهم على من سواهم، وكان الأدب والحديث من أفضل ما يتقرب به المرتزقة من الحكّام في ذلك العصر. وحكى الصولي أن أحد أتباع العباسيين عاتب البرامكة في إغداقهم على الشعراء وحرمانه، فقال له الفضل: إن سلكت مذهب مروان بن حفصة في ذم العلويين أوصلك شعرك إلى ما تريد. فقال: والله لا أستحلّ ذلك. فأجابه الفضل بقوله: كلنا يفعل ما لا يحلّ له، فَلَكَ بنا وبسائر الناس أُسوة. فنظم القصيدة المشهورة التي يقول فيها:

أعــم نبـي الله أقـــرب زلفــة ... إليــه أم ابــن العــم في رتبــة النســبْ

وأيهــــا أولى بــــه وبعهـــــده ... ومــن ذا لــه حــقّ الــتراث بــها وجــبْ

فـإن كــان عبــاس أحــقّ بــتلكمُ ... وكــان عــلي بعــد ذاك عــلى ســببْ

وأبنـــاء عبـــاس هُـــمُ يرثونـــه ... كما العــم لابــن العــم لــلإرث قــد حجــبْ

ولما أنشدها الرشيد أجازه عليها بعشرين ألفاً[(١)].

وروى لهم المحدّثون فيما رووه في فضائلهم وكرامتهم أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «**إذا كان غداة الاثنين فائتني وولدك؛ حتى أدعو لك دعوة ينفعك الله بها وولدك**». قال: فغدونا اليه، فألبسنا كساء ثم قال: «**اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً، اللهم احفظه في ولده**»[(٢)]. كما رووا لهم أنه قال: «**الخلافة في ولد عمّي حتى يسلموها إلى المسيح**»[(٣)]. وأنه بشّره في رواية ثالثة بأربعين خليفة من

(١) الوضّاعون وأحاديثهم ص ٣٥.

(٢) سنن الترمذي ج ٥ ص ٣١٩ رقم الحديث ٣٨٥١.

(٣) قال محمود أبو رية ساخراً من هذا الحديث الموضوع: «وقد صحت نبوءة الحديث، فظل الملك

ولده، وسمّى له بعضهم باسمه[١].

كما رووا لهم أحاديث تشير إلى أن المهدي الذي أخبر عنه النبيﷺ هو من ولد العباس، وقد لقّب المنصور ولده محمداً بالمهدي لهذه الغاية. وجاء في رواية (الأغاني) أن المنصور حينما أراد ان يأخذ البيعة لولده المهدي من بعده كان ولده جعفر يعترض عليه في ذلك فأمر، بإحضار الناس، وقام الخطباء والشعراء، فتكلّموا وأكثروا من ذكر فضائله وفيهم مطيع بن أياس، فقال مطيع: حدثنا فلان عن فلان أن النبيﷺ قال: «**المهدي منا، محمد بن عبد الله، وأُمّه من غيرنا، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً**». فقال رجل من الحضور اسمه العباس: نعم لقد سمعت هذا. إلى غير ذلك مما يعسر علينا إحصاؤه[٢].

[موقف المعتزلة والمرجئة والقدرية من الحديث والمحدثين]

ويجب ألا يفوتنا ونحن نتحدّث عن الموضوعات وأسبابها ذلك الصراع الحادّ الذي ظهرت بوادره في النصف الثاني من القرن الأول بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأُمم التي انضمت إلى الإسلام، وحملت معها من تعاليمها وثقافتها ما لم يعرفه المسلمون، ولم يدخل بين تعاليمهم، وكان من نتائج هذا الاختلاط أن ظهر الخلاف بين المسلمين أنفسهم، وتباينت آراؤهم في كثير من المسائل التي تتّصل بالعقائد، وأصبح لكل رأيٍ أنصار وأتباع، فظهرت فكرة الإرجاء[٣] من قصور الخلفاء، وأصبحت ديناً

في بني العباس حتى تسلّمه منهم المسيح!!». أضواء على السنة المحمدية، هامش صفحة ١٣٥.

(١) والحديث هو: عن ابن عباس أن النبيﷺ قال عن عمه العباس: «هذا عمي، أبو الخلفاء الأربعين، أجود قريش كفّاً، وأجملها. من ولده السفاح، والمنصور، والمهدي. بي يا عم فتح الله هذا الأمر، وسيختمه برجل من ولدك». وقد أورده السيوطي في الأحاديث الموضوعة، وقال: موضوع، المتهم به الغلابي. راجع اللآلي المصنوعة ج ١ ص ٤٣٤ – ٤٣٥.

(٢) انظر ص ١٢٥ و ١٢٦ من ضحى الإسلام الجزء الثاني، وص ٢٤٠ و ٢٤١ جزء ٣.

(٣) تقدم فيما سبق.

لهم، كما تؤيّد ذلك رواية ابن عساكر عن النضر بن شميل، وجاء فيها أن النضر قال: دخلت على المأمون، فقال: كيف أصبحت يا نضر؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين. فقال: ما الإرجاء؟ فقلت: دين الملوك يصيبون به من دنياهم، وينقصون به من دينهم[١].

وقد اتّخذوه ديناً لهم في مقابل الأحكام القاسية التي نادى بها الخوارج، وتعصّبوا لها محاولين بذلك أن يجعلوا لثورتهم الصبغة الدينية ليربحوا عطف العامّة وتأييد الخاصّة من أتقياء الناس وعلمائهم الذين راعهم استهتار الأُمويين بالمقدسات وتعاليم الإسلام، فأدانوا حكّام الأُمويين بالكفر من خلال تكفيرهم لمرتكبي الكبائر، مما اضطرّ الحكّام أن يحتفظوا بصفة الإيمان بواسطة الموالين لهم الذين قالوا: إن الذنب مهما كان نوعه وخطره لا يُخرج الإنسان عن كونه مؤمناً مسلماً. وكان شعارهم: «**لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة**». و«**إذا استرعى الله عبداً أمْر الأُمّة كتب عليه الطاعات ولم يكتب عليه المعاصي**». ونسبوه إلى الرسولﷺ.

ومن بين هاتين النزعتين ظهرت فكرة الاعتزال، وكانت في بدايتها فكرة تمثّل الاعتدال بالنسبة إلى غلوّ الخوارج في التشديد على العصاة، وإفراط المرجئة في التسامح معهم إلى أبعد الحدود. واستمر الاعتزال يتّسع بعد أن كان محدوداً حتى تدّخل في أُمور الدين كلها، وحكم العقل فيما لا نصّ فيه، وتأوّل النصوص التي لا يستسيغ العقل ظواهرها ومحتوياتها. وكان من الطبيعي على أصحاب هذه النزعة أن يقفوا من الحديث موقف الحذِر الناقد، ويبحثوا عن عيوبه من الداخل والخارج، واتّسع الخلاف بينهم وبين المحدثين إلى أن بلغ حدود التكفير والتفسيق، وظهر الانقسام بين المسلمين في مختلف العواصم والبلاد، وكان صوت المعتزلة يرتفع عالياً في أغلب الأحيان وبخاصّة عندما يجدون من يساندهم ويتبنّى آراءهم من الحكّام، ويخفت حيناً آخر عندما يقف الحكّام إلى جانب الفريق الثاني، كما حدث ذلك بالفعل حينما تبنّاهم المأمون والمعتصم،

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٣٠٣.

وخذلهم المتوكّل ومن جاء من بعده. وكان بين الفريقين من لا يتورّع عن وضع الأحاديث التي تؤيّد رأيه وتسيء إلى أخصامه.

وإلى جانب هذه الاتّجاهات ظهر اتّجاهان آخران في عصر مبكر من تاريخ الإسلام أثارا جدلاً حادّاً بين المسلمين، وتطوّر الصراع فيهما وامتدّ عبر القرون الطوال، وساهم فيه العلماء والمحدّثون والمعتزلة وغيرهم من جميع الفرق والأحزاب. هذان الاتّجاهان كانا من أبرز الخلافات في العقائد، وأكثرها تعقيداً وغموضاً، وهما القدر بمعنى الاختيار، والجبر الذي يعود إلى أن جميع الأفعال مردّها إلى الإرادة الإلهية التي لا يملك معها الإنسان من أمره شيئاً.

وبالاضافة إلى هذا النوع من الخلاف في العقائد والأُصول ظهر نوع آخر من الخلاف أدّى إلى انقسام الفقهاء على أنفسهم، وبرز الخلاف بشكل أكثر وضوحاً وتصلبّاً بين الحجازيين الذين اعتمدوا الحديث في أحكام جميع الحوادث حتى الذي تجدّد منها بعد التطوّر الذي طرأ على حياتهم، وبين العراقيين الذين كانوا بطبيعة مركزهم الجغرافي على صلة وثيقة بالأُمم المتحضّرة. وتضاعف هذا الاتّصال بعد الفتح الإسلامي لتلك الأقطار المجاورة لهم، فطرأ تبدّل ملموس في حياتهم وأوضاعهم؛ مما اضطرّهم إلى البحث والتفتيش عن حلول جديدة لأكثر المشاكل والحوادث التي لم يعرف المسلمون نظيراً لها من قبل، في حين أن الحديث كان مصدره الحجاز، والحجاز كانت دار الضرب[١] على حدّ تعبير بعضهم، وأول بلد ظهر فيه الكذب في الحديث كما ذكرنا من قبل.

وجاء عن أبي حنيفة أنه لم يصحّ عنده من أحاديث الحجازيين أكثر من سبعة عشر حديثاً[٢]. وسواء صحّ عنه ذلك أم لم يصحّ، فممّا لا شكّ فيه أن الكذب في الحديث قد شاع بين الحجازيين منذ عصر الصحابة، ولم يعد حديثهم محلاً للوثوق والاطمئنان؛ مما

(١) أي يضرب فيه الحديث كما تضرب النقود، إشارة إلى عملية الوضع.

(٢) مقدّمة ابن خلدون ص ٤٤٢.

دعا فقهاء الأنصار إلى الانكماش عنه وعدم الاطمئنان إليه، والبحث عن أحكام تلك الحوادث عن غير طريق تلك المرويات، فاعتمدوا على العقل في استخراج العلل والمصالح؛ وأعطوا لكل حادثة حكماً يناسبها، وبلغت الخصومة أشدّها بين هذين الفريقين، ولم يعد أحدهما يطمئن لمرويّات الآخر وأحكامه التي يستخرجها ويتّهمه بالكذب على الرسول ﷺ.

وقد صوّر ابن قتيبة في كتابه (تأويل مختلف الحديث) موقف الفرق والأحزاب والفقهاء من الحديث بعد أن استعرض الفرق والأحزاب ونزعات الفقهاء والمحدثين، فقال: إن كلّ طائفة من هذه الطوائف المختلفة في المبادئ التي تعتمد عليها قد روت الأحاديث المختلفة التي تؤيد مذهبها واتّجاهها[١]. وتعلّق كل فريق منهم لتأييد مذهبه بأحاديث مختلفة تزيد من شكوك المرتابين وتفسح لأهل الأطماع والأهواء أن يستعملوه في سبيل مصالحهم كما يشاؤون. وبلغ بهم الإسفاف أن يضعوا الحديث في تفضيل المرض على الصحّة والغنى على الفقر[٢]، والقلق والخوف على الراحة والاطمئنان، ونحو ذلك؛ تسلية لأُولئك المنكوبين.

وفي مقابل ذلك وضع أنصار الاتّجاه الثاني بعض الأحاديث في مقابلها، كما وضع القصّاصون والمحدّثون عدداً من المرويات في تفضيل بعض الحيوانات كالفرس والإبل والأتان والأنعام، وذمّ بعض الحشرات والنباتات والبقاع والجبال ونحو ذلك، فرووا أن الله سبحانه لمّا أراد أن يخلق الخيل أوصى إلى ريح الجنوب: «**إني خالق منك خلقاً فاجتمعي**». فاجتمعت فأمر جبريل فأخذ منها قبضة فخلق منها فرساً كميتاً، وقال له: «**قد خلقتك فرساً، وجعلتك عربياً، وفضّلتك على سائر ما خلقت من البهائم**». في حديث طويل جاء فيه أن الفرس أفضل من البراق وغيره من المخلوقات[٣].

---

(١) لم أعثر على هذا النص في الكتاب المذكور، وربما أراد المؤلّف الحكاية عن ابن قتيبة، وقد تعرّض ابن قتيبة للفرق المختلفة وما تعلقت به من الأدلّة منذ الصفحة الاولى من كتابه هذا.

(٢) ربما أراد «الفقر على الغنى»، بقرينة: «تسلية لأُولئك المنكوبين».

(٣) ويبدو أن واضع هذا اللون من الأحاديث كان يتاجر بالخيل ويقتنيها.

كما رووا في فضل غيرها من الحيوانات والأنعام والنباتات بعض الأحاديث تفضّلها على الخيل وغيرها من المخلوقات[١] لا يعنينا من الإشارة إليها أكثر من تأييد النصّ الذي نقلناه عن ابن قتيبة من كتابه (تأويل مختلف الحديث).

والواقع أن أخصام أبي حنيفة قد تجنّوا عليه كثيراً، وألصقوا به ما لم يقله وما ليس فيه، فهو لم يقف من الحديث موقفاً سلبياً كما يزعمون، كما وأنه لم يكن إيجابياً مع الحديث يأخذ به مهما كان لونه كما كان يصنع بعض معاصريه من الحجازيين؛ لقد أدرك ما تعرّض إليه حديث الرسولﷺ، وما أُلصق به زوراً وافتراء، فاضطرّ في كثير من الأحيان إلى استنباط العلل وقياس غير المنصوص على المنصوص، فاتّهموه بالاستهتار بسنة الرسول، وأنه يأخذ بالقياس حتى مع وجود الرواية، وأحصوا عليه أنه أفتى بنحو من مئتي مسألة خالف فيها سنة الرسول[٢]. وادّعى ابن عبد البر في (الانتقاء) أن محمد بن إسماعيل البخاري قد جرّحه وعدّه مع الضعفاء والمتروكين. وأضاف إلى ذلك أن الشيخين البخاري ومسلماً لم يرويا عنه حتى ولا رواية واحدة[٣].

[موقف أنصار الرأي والحديث من الفقهاء والمحدثين]

وقال الأُستاذ أحمد أمين[٤] في كتابه (فجر الإسلام): «إن النزاع بين المدرستين: مدرسة الرأي، والحديث كان على أشدّه، ووجّه كل فريق قوارص اللوم للآخرين،

(١) انظر نهاية الأرب لأحمد بن عبد الوهاب النويري.

(٢) هذا القول منسوب إلى وكيع بن الجراح، كما نقل ذلك الخطيب في تاريخه ج١٣ ص ٣٩٠.

(٣) راجع هذه الأقوال وأمثالها في ترجمة الإمام أبي حنيفة من الجزء الثالث عشر من (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ص ٣٢٥، وما بعدها. وقد أفرط بعضهم في التجنّي على أبي حنيفة حتى إن الخطيب ينقل في المصدر السابق الذكر ص ٣٩٦ عن مالك أنه قال: «ما ولد في الإسلام مولود أضر على اهل الإسلام من أبي حنيفة!!».

(٤) تعبير المؤلّف عن الدكتور أحمد امين بـ «الأُستاذ» بالرغم مما كتبه هذا الأخير عن الشيعة لهو دليل على الخُلق العالي، وسموّ الروح العلمية التي يتمتّع بها السيد هاشم معروف.

ووضعت الأحاديث لتأييد كل مدرسة منها. واشتدت العصبية إلى حدّ أنه إذا نسبت مدرسة الحديث رواية إلى الرسولﷺ نسبت إليه مدرسة الرأي رواية تعاكسها، فقد روى عنه أهل الحديث أنه قال: «**يوشك رجل منكم متّكئاً على أريكة يحدّث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه. ألا وإن ما حرّم رسول الله مثل الذي حرّم الله**». وروى أهل الرأي في مقابل هذا الحديث أن رسول اللهﷺ قال: «**ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله؛ فإن والفق كتاب الله فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فلم أقله، وكيف أُخالف كتاب الله وبه هداني الله؟**»[(١)].

هذا ومن الصعب أن تتوفّر القناعة للباحث في أسانيد الروايات ومتونها بكذب هاتين الروايتين، وكل ما في الأمر أن أنصار النزعتين اتّخذوهما أساساً لوضع الأحاديث التي تؤيّد اتجاههما. ويجد المتتبّع عشرات الأحاديث تؤيّد أنصار الرأي، كما يجد في مقابلها ما يؤيد أنصار الحديث وينهى عن العمل بالرأي واستعماله في الحلال والحرام، وقد تخطّى الوضّاع هذه الناحية إلى وضع أحاديث تبشّر بأبي حنيفة قبل مولده بعشرات السنين، وتنوّه بأُسلوبه ونزعته التي اتبّعها في فقهه. وأضافوا إلى ذلك أن الرسول نفسه هو الذي وضع نواة القياس، وأرشد إلى الرجوع إليه عند فقدان النصوص في كتبه ورسائله التي كان يزوّد بها القضاة والمفتين خارج المدينة، وفي مقابل ذلك ظهرت طائفة من المرويات على الرسول تحذّر من الأخذ بالقياس ومن أنصاره والعاملين به، ومن أبي حنيفة بشخصه واسمه، فرووا عن الرسول أنه قال: «**سيكون في أُمتي رجل اسمه النعمان أضرّ عليها من إبليس**»[(٢)]. وحذّرهم منه كما حذّرهم من الأبالسة

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٤٤ بتصرّف لم يضرّ بالمعنى.

(٢) المروي أنه: «وسيكون في أُمتي رجل يقال له محمد بن إدريس، فتنته على أُمّتي أضرّ من فتنة إبليس». تاريخ بغداد ج٢ ص ٣٧٩ والمقصود هو الإمام الشافعي. نعم ورد عن مالك بن أنس أنه قال: «كانت فتنة أبي حنيفة أضرّ على هذه الأُمة من فتنة إبليس». تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٩٦.

والشياطين، إلى كثير من أمثال هذه المرويات التي اتّسمت بطابع الحزبية العنيفة للأشخاص والآراء والمذاهب.

ومجمل القول أن الدوافع على الكذب في الحديث لم تقتصر على الجانب السياسي، ولم يكن الجانب السياسي في يوم من الأيام أشدّ تأثيراً من الجوانب الأُخرى، مع العلم بأن الدوافع السياسية كانت أسبق من غيرها إذا استثنينا بعض العناصر التي اندسّت في صفوف الصحابة، وتستّرت بهذا الوصف، وقامت بدور ملموس في وضع الأحاديث لغرض التخريب والتشويش، كما ذكرنا في الفصول السابقة. وقد أوجز القاضي عياض كما جاء في (تاريخ التشريع الإسلامي) للخضري ص ٨٢ الحالة التي وصل إليها الحديث في العصر الأُموي، والدوافع على الكذب فيه بما حاصله أن الوضّاعين على حدّ تعبيره كانوا أقساماً:

فمنهم من كان يضع عليه ما لم يقله ترفّعاً واستخفافاً، كالزنادقة وأشباههم.

ومنهم من كان يضع خشية وتديّناً، كجهلَة المتعبّدين الذين وضعوا الأحاديث في الفضائل والرغائب.

ومنهم من كان يضع إغراباً وسمعة وتعصباً، كفسقة المحدّثين، ومتعصّبي المذاهب.

ومنهم من كان يضع الأحاديث تنفيذاً لرغبة الحكّام، وطلب العذر لهم فيما ارتكبوه من الجرائم والمنكرات.

ومنهم من كان يأخذ كلام العرب والصحابة وينسبه إلى الرسول لهوى في نفسه.

إلى غير ذلك من أصناف الكذّابين على الرسولﷺ.

[موقف الشيعة والمندسين في صفوفهم من الحديث]

وبلا شكّ إن الدوافع التي أجملها القاضي عيّاض على الكذب في الحديث في العصر الأُموي قد تضاعفت وتنوّعت في العصور التي تأخّرت عنه، فقد جاء دور جماعة من المتشيّعين لأهل البيتعليهم السلام الذين ظلّوا زمناً طويلاً يسمعون شتم علي على المنابر وفي

المساجد والمجتمعات، ويرون الأحاديث المكذوبة على الرسول في فضل الخلفاء والأُمويين تفرض حتى على الصبيان الصغار، وتدخل في مناهج التعليم في الكتاتيب وفي الحلقات، هؤلاء عندما دبّ الضعف في جسم تلك الدولة الجائرة، وظهرت طلائع الحزب المعارض، ووجدوا بين أيدي الناس سيلاً من المرويات المكذوبة، وبعضها كان يتناول علياً وبنيه بكل أنواع الإساءة لم يتورّعوا أن يضعوا بعض الأحاديث في الفضائل وانتقاص الخلفاء، ونسبوها إلى الأئمةعليهم السلام. في حين أنهمعليهم السلام كانوا يعارضون بحزم وإصرار كل من يحاول أن يضعهم فوق مستوى الناس، أو ينتقص أحداً من الخلفاء وصحابة الرسول الأبرار.

وجاء دور الفرق الشيعية في تلك الفترة من تاريخ المسلمين التي تعددت فيها الأحزاب، وتضاربت فيها النزعات والاتّجاهات حتى بين المحدّثين والفقهاء، هذه الفرق التي استعملت الحديث فيما استعملته من الوسائل لتأييد الأفكار التي تبنّتها، ونشطت في ترويجها والدعاية لها، كالكيسانية، والزيدية، والفطحية، وغيرها. وكان من أخطر الدخلاء على التشيّع جماعة تظاهروا بالولاء لأهل البيت، واندّسوا بين الرواة وأصحاب الأئمةعليهم السلام مدّة طويلة من الزمن استطاعوا خلالها أن يتقرّبوا من الإمامين الباقر والصادق، واطمأن إليهم جمعٌ من الراة، فوضعوا مجموعة كبيرة من الأحاديث ودسّوها بين أحاديث الأئمة، وفي أُصول كتب الحديث، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات. وقد اشتهر من هؤلاء محمد بن مقلاص الأسدي الذي يُكنيه الشهرستاني بـأبي زينب، والمقريزي بابن أبي ثور، والمغيرة بن سعيد، وبزيع بن موسى الحائك، وبشار الشعيري، ومعمر بن خيثم، والسري، وحمزة اليزيدي، وصائد الهندي، وبيان بن سمعان التميمي، والحرث الشامي، وعبد الله بن الحرث، وغير هؤلاء ممن لا يسعنا استقصاؤهم.

وكان بشار الشعيري، وحمزة اليزيدي، ومعمر بن خيثم، وبيان بن سمعان، والمغيرة بن سعيد من دعاة الإلحاد والغلوّ؛ فلقد ادّعى بشار بأن علياً هو الإله، وقال بالتناسخ.

وجاء عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال لمرزام، وكان جاراً لبشّار، قال له: «**إذا قدمت الكوفة فقل له: يقول لك جعفر: يا فاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا بريء منك**». قال مرزام: فلما قدمت الكوفة بلّغته الرسالة، فقال بشّار: وقد ذكرني سيدي؟ قال: نعم ذكرك بهذا. فقال له: جزاك الله خيراً[1].

وأما معمر بن خيثم فقد أحلّ جميع المحرّمات، وأما حمزة فكان يدّعي بأن أبا جعفر يأتيه بالوحي في كل ليلة، وأمّا بيان فلقد ادّعى النبوّة بعد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأما المغيرة بن سعد فلقد ادّعى النبوة. وكان أكثرهم أتباعاً لأنه كان يستعمل السحر والشعبذة والأساليب التي تضلّل البسطاء والمغفّلين.

وجاء عن أبي الحسن الرضا[2] أنه قال: «كان بيان يكذب على علي بن الحسين، فأذاقه الله حرّ الحديد، وكان المغيرة يكذب على أبي جعفر الباقر، وكان محمد ابن فرات يكذب على أبي الحسن موسى بن جعفر، وكان أبو الخطاب يكذب على أبي عبد الله الصادق».

وجاء عن يحيى بن عبد الحميد الحماني أن جعفر بن محمد كان رجلاً صالحاً مسلماً ورعاً، فاكتنفه قوم جهّال يدخلون عليه ويخرجون، يقولون: حدثنا جعفر بن محمد، ويحدثون بأحاديث منكرة كلّها كذب على الإمام جعفر بن محمد، يستأكلون بها الناس كالمفضل بن عمر، وبيان، وعمر النبطي، وغيرهم من الوضّاعين. ونسبوا اليه انه قال: ان معركة الامام تكفي عن الصلاة والصيام، وإن علياً في السحاب يطير مع الريح، وإن الله إله السماء والإمام إله الأرض. إلى غير ذلك من المقالات[3].

وتؤكّد المرويّات الصحيحة عن الإمام الصادقعليه السلام وغيره من الأئمّة أن المغيرة بن

(١) بحار الأنوار لمحمد باقر المجلسي ج ٢٥ ص ٣٠٤.

(٢) راجع هذه الرواية وأمثالها في باب (نفي الغلو في النبي والأئمة) من الجزء ٢٥ من بحار الأنوار ص ٢٦١ وما بعدها.

(٣) انظر إتقان المقال ص ٣٦٨.

سعيد، وبياناً، وصائداً الهندي، وعمر النبطي، والمفضل وغيرهم من المنحرفين عن التشيّع والمندسّين في صفوف الشيعة وضعوا بين المرويات عن الأئمّة عدداً كبيراً في مختلف المواضيع. وجاء عن المغيرة أنه قال: وضعت في أخبار جعفر بن محمد اثني عشر ألف حديث. وظلّ هو وأتباعه زمناً طويلاً بين صفوف الشيعة يتردّدون معهم إلى مجلس الأئمةعليهم السلام، ولم ينكشف حالهم إلا بعد أن امتلأت أُصول كتب الحديث الأُولى بمروياتهم كما تشير إلى ذلك رواية يحيى بن عبد الحميد السابقة.

وجاء في الكشي عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «**كان المغيرة بن سعيد يتعمّد الكذب على أبي ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المتستّرون بأصحاب أبي يأخذون كتب أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة فيدسّ فيها الكفر والزندقة، ويسندها إلى أبي، ثم يدفعها إلى أصحابه ليبثّوها بين الشيعة**»[1]. وبلا شكّ كان هو وأتباعه ينسبون الرواية المدسوسة إلى الموثوقين من أصحاب الأئمة؛ حتى لا ينكشفوا على واقعهم. هذا بالإضافة إلى فريق آخر من الوضّاعين كانوا يضعون الأحاديث التي تنفّر الناس منهم، كما يرشد إلى ذلك قول الإمام الباقرعليه السلام: «**لقد رووا عنّا ما لم نقله ولم نفعله؛ ليبغّضونا إلى الناس**»[2].

[رواية إبراهيم بن أبي محمود عن الإمام الرضا حول الأحاديث المكذوبة]

وجاء في رواية الصدوق عن الرضاعليه السلام أن إبراهيم بن أبي محمود قال له: يابن رسول الله، إن عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين وفضائلكم أهل البيت، وهي من رواية مخالفيكم، ولانعرف مثلها عندكم، أفَندينُ بها؟ فقال الإمام الرضاعليه السلام: «**يابن أبي**

---

(١) رجال الكشّي ص ١٩٥ – ١٩٦.

(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٦٥.

محمود، إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا، وجعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلوّ، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا: فإذا سمع السامع الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيّتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] «...». إلى ان قال: «**يا بن أبي محمود، احفظ ما حدّثتك به فقد جمعت لك فيه خير الدنيا والآخرة**»[2].

وعقّب التستري في كتابه (الأخبار الدخيلة) على هذه الرواية بقوله: «وأظن أن الأخبار التي روتها العامّة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[3] أن الله يشير بذلك إلى النجم الذي هوى في بيت عليعليه السلام كبرهانٍ على إمامته. هذا التفسير من الموضوعات التي أشار اليها الإمام الرضا؛ لأن أصغر النجوم هو أكبر من الأرض إلى نجوم السماء، فكيف يُعقل استيعاب دار علي لنجم لا تستوعبه الأرض بكاملها[4]؟

ومهما كان الحال فرواية الصدوق عن الرضاعليه السلام تعبّر تعبيراً صادقاً عن واقع أكثر الموضوعات في الفضائل والمثالب؛ لأن أعداء أهل البيت قد استعملوا جميع الأساليب لإيجاد فجوة بينهم وبين الناس، فسلكوا هذا الطريق بعد أن وجدوا أن حرب الإبادة تدرّ عليهم العطف وتقرّبهم من الناس، ونجحوا في هذا الأُسلوب إلى حدٍّ ما، فدسّوا بين مرويّاتهم مئات الأحاديث في شتم الخلفاء والصحابة، وفي إعطاء الأئمة صفة الخالق المدبّر، والاتّكال على ولاية علي وبنيه. وظلت آثار هذه الموضوعات تعصف في الأذهان، وتعبث في الأفكار والعقول حتى يومنا هذا بالرغم من تلك الجهود المخلصة التي توالت للكشف عن تلك الموضوعات، وتصفية الحديث والعقيدة ممّا علق بهما من

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٨.

(٢) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٧٢.

(٣) سورة النجم الآية ١.

(٤) انظر الأخبار الدخيلة ص ٢١٦ و ٢١٧.

آثار تلك الموضوعات ومفاسدها.

القصص

لقد شاع القصص بين العرب في أيام جاهليتهم، وكان المحور الذي تدور حوله أحاديثهم هي الحروب وأيامها، كيوم داحس والغبراء، ويوم الفجار، ويوم الكلاب، ويوم ذي قار(١)، والهوى وأخبار العاشقين، والأشعار المنسوبة إليهم، وعن السحر والكهانة، وأخبار الجن، وغير ذلك مما يعبّر عن عقلية العرب في جاهليّتهم(٢)، ويمثّل أدبهم وحياتهم. وقيل لبعض أصحاب الرسولﷺ: بماذا كنتم تتحدّثون إذا خلوتم في مجالسكم؟ قال: كنا نتناشد الشعر، ونتحدث عن أخبار الجاهلية(٣).

وأكثر ما شاع بينهم من القصص أخبار الجن والسحر والكهانة، وقد أخذوا الكثير من هذا النوع عن الأُمم المجاورة لهم، كالفرس والرومان، والسريان والأقباط،

(١) داحس والغبراء: حرب يقال: إنها استمرت أربعين سنة؛ بسبب سباق بين فرسين. ويوم الفجار ـ بكسر الفاء ـ: كان بين بكر بن وائل وبين تميم، ولم يكن فيه قتال كبير. ويوم الكلاب: وهو لتميم على مذحج، و«الكلاب» اسم ماء بين الكوفة والبصرة. ويوم ذي قار: كان من أعظم أيام العرب، وكان لبني شيبان؛ حيث إن كسرى أبرويز أغزاهم جيشا فانتصروا عليه، وهو أول يوم انتصر فيه العرب على الفرس. ولمن تهمّه هذه الأيام والحوادث هناك كتاب قيّم نشره جماعة من الأُدباء المصريين تحت عنوان (أيام العرب في الجاهلية) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه بمصر.

(٢) هناك جدل واسع في عالم الأدب العربي حول حياة العرب في الجاهلية، وحول مدى إمكانية الاطمئنان إلى الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا للوقوف على عقلية العرب قبل الإسلام. وقد أطلق شرارة هذا الجدل الدكتور طه حسين عندما ألّف كتاب (في الشعر الجاهلي)، والذي شكّك فيه في صحّة هذه الأشعار المنسوبة إلى عرب ما قبل الإسلام. هذا الكتاب أحدث ضجة واسعة في حينه؛ مما اضطرّ المؤلّف إلى القيام بتعديلات مفصلية، ونشره ثانية ولكن جاء اسمه هذه المرة (في الأدب الجاهلي) إلا إنه حتى في هذه الطبعة لم يتراجع عن تحفّظه حول الشعر الجاهلي وصحّة نسبته إلى عرب ذلك الزمان.

(٣) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي، ج١٠ ص ١٣ نقلا عن العقد الفريد ٦ ـ ٣، وما بعدها.

وغيرهم من الأُمم التي كانوا يتّصلون بها في رحلاتهم وأسفارهم، والتي تسرّبت إليهم من أخبار الهنود واليونان، والمسيحية واليهودية، والديانات الأُخرى التي كانت تظهر بين الحين والآخر في البلاد المتاخمة لهم، وحتى القبائل العربية نفسها.

وقد نقل المؤلّفون في السيَر وأخبار العرب والأُمم التي سبقت ظهور الإسلام ألواناً من القصص والأساطير في مختلف المواضيع، وأكثر ما يلفت النظر منها أن الكثير من الأساطير التي ينسبها الأخباريون إلى العصر الجاهلي لها نظائر بين أخبار الأُمم الأُخرى، كأحاديثهم عن السحر والسحرة، وعن الجنّ وأخبارها، والكهّان الذين يدّعي الأخباريون[١] أن العرب كانوا يلجؤون إليهم في المهمّات والخصومات، واكتشاف ما يجري عليهم في حاضرهم ومستقبلهم.

[القصاصون القدامى وأحاديثهم عن الجن والكهنة وغيرهما]

ومهما كان الحال فلقد أسرف القصّاصون القدامى في أخبارهم عن الحروب والغزوات، والعشق والعاشقين، والسحر والجنّ والكهّان، وغير ذلك ممّا كان شائعاً بين الجاهليين أنفسهم، وزاد فيها القصّاصون بعد ظهور الإسلام، وشوّهوا بعض حقائقها، كالذي نراه في أخبارهم عن ربيع بن ربيعة بن مسعود المعروف بسطيح، وعن شقّ بن صعب بن يشكر، وعفيراء، وخطر بن مالك الذي عُمّر نحواً من مئتي عام على حدّ زعمهم.

ومن القصص التي[٢] حدّث بها عنه لهيب بن مالك اللهيب بعد ظهور الإسلام أنه قال: حضرت عند رسول الله، فذكرت له الكهانة، وقلت له: يا رسول الله، نحن أول من عرف حراسة السماء، وزجر الشياطين، ومنعهم من استراق السمع عند القذف

(١) المقصود بالأخباريين هنا: المؤرّخون الذين يعتمدون على النصوص التاريخية من دون تمحيص أو تحقيق فيها.

(٢) في الأصل: الذي.

بالنجوم؛ وذلك أنا قد اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك، وكان شيخاً كبيراً قد أتت عليه مئة وثمانون عاماً، وهو أعلم كهّاننا، فقلنا له: يا خطر، هل عندك علم عن هذه النجوم التي يرمى بها؟ فإنا قد فزعنا لها، وخفنا سوء عاقبتها. فقال: ائتوني بالسَحَر، أُخبّركم بالخبر. فانصرفنا عنه يومنا، فلما كان من غدٍ عند السحر أتيناه، فإذا هو قائم على قدميه، شاخص إلى السماء بعينيه، فناديناه: يا خطر. فأومأ إلينا أن اسكتوا، فأمسكنا، فانقضّ نجم من السماء، فصرخ الكاهن: أصابه أصابه، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، يا ويله ماحاله، بلبله بلباله، عاوده خياله.

ومضى الراوي في حديثه بهذا الأُسلوب إلى أن قال: ثم أمسك الكاهن طويلاً، وقال: يا معشر بني قحطان، أُخبّركم بالحقّ والبيان، أقسمت بالكعبة ذات الأركان، والبلد المؤمن بالسكان، قد مُنع السمعَ عتاةُ الجان، بثاقب بكفّ سلطان، من أجل مبعوث عظيم الشان، يُبعث بالتنزيل والقرآن، تبطل فيه عبادة الأوثان. فقلنا له: يا خطر، ومَن هو؟ فقال: والحياة والعيش، إنه من قريش، ما في حكمه طيش، ولا في خلقه هيش، يكون في جيش.

وهكذا استمر يحدّث بهذا النوع من السجع إلى أن انتهى لنسبه واسمه في حديث طويل، وأُغمي عليه ثلاث ساعات على حدّ زعم الراوي. كل ذلك والنبيﷺ يستمع إلى هذه الأُسطورة مُعجَباً بأُسلوبها ومضمونها كما يدّعي الراوي[1].

وقد حدّث القصّاص عن جماعة من الكهّان بأنهم قد أخبروا عن النبيﷺ قبل ظهوره بعشرات السنين، منهم الكاهن المعروف بسطيح، وعفيراء، وغيرهما بهذا الأُسلوب، كما حدّثوا عن الجان وتقمّصها بالأصنام، وتزويدهم بالمعلومات عما كان وسيكون.

---

(١) السيرة الحلبية، ج١ ص ٣٣٧.

[أحاديث القصاصين عن إسلام عمر بن الخطاب وغيره]

ومن ذلك ما جاء عن إسلام عمر بن الخطاب بعد أن كان من أشدّ الناس عداوة لمحمدﷺ ودعوته، فلقد رووا عنه أنه أخذ سيفه وذهب يتحيّن الفرص لقتله، فمرّ بقوم من خزاعة، وقد اعتمدوا صنماً لهم يريدون أن يتحاكموا إليه، فقالوا لعمر: ادخل معنا لتشهد الحكم. فدخل معهم، فلما مثلوا بين يدي الصنم سمعوا هاتفاً من جوفه يقول:

يا أيها الناس ذوو الأجسامِ ... ما أنتُمُ وطائش الأحلامِ
ومسند الحكم إلى الأصنامِ ... أصبحتُمُ كرائع الأغنامِ

في أبيات كثيرة يقول فيها:

محمد ذو البر والإكرامِ ... أكرمه الرحمن من إمامِ
قد جاء بعد الشرك بالإسلامِ ... يأمر بالصلاة والصيامِ
والبر والصِلات للأرحامِ ... ويزجر الناس عن الآثامِ

ومضى الراوي يقول: فلم يحضره أحد إلا أسلم، غير أن عمر بن الخطاب مضى في طريقه إلى حيث يكون النبيﷺ، فالتقى بجماعة من بني سليم قد تنافروا إلى صنم لهم اسمه «ضمار»؛ ليحكم بينهم، فأدخلوا عمر بن الخطاب معهم عليه، فلما دخلوا على الصنم سمعوا هاتفاً من جوفه يقول:

أودى الضمار وكان يُعبد مرة ... قبل الكتاب وقبل بعثِ محمدِ
إن الذي ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم في قريش مهتدِ
سيقول مَن عبدَ الضمارَ ومثلَه ... ليت الضمارَ ومثلَه لم يُعبدِ

فتغير رأي عمر بن الخطاب وذهب إلى النبي وأسلم على يده[1].

---

(١) هو كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري؛ إذ إن هناك كتاباً بعنوان (نهاية الأرب) لكنه

ورووا أساطير من هذا النوع كانت السبب المباشر في إسلام جماعة من وجوه العرب كانوا يهزؤون ويسخرون من دعوة الرسول، منهم وائل بن حجر، وكان ملكاً مُطاعاً في قومه، ومازن الطائي الذي أخبره الجنّ من جوف الصنم بظهور النبيﷺ، وأمره بأن يؤمن بدعوته، في قصة طويلة رواها في المجلد السادس من (نهاية الأرب)[١] مع ما رواه من أخبار الجنّ، وتقمّصها بأصنام العرب[٢].

ومن ذلك ما رواه عن جبير بن مطعم عن أبيه أنهم عرفوا بنبوّة محمد وظهوره بمكّة من صنم كانوا يعبدونه قبل أن يعلن النبي عن دعوته بمدة من الزمن[٣].

ومن الذين أسلموا عن طريق الأصنام عبد الله بن ساعدة الهذلي، وروى القصّاصون عنه أنه قال: «كنا نعبد صنماً يقال له «سواع»، وكانت لي غنم جربت، فسقتها إليه، وأدنيتها منه أُريد بركته، فسمعت منادياً من جوفه يقول: العجب كلّ العجب، سدلت الحجب، ورميت الجن بالشهب، ونزل خير الكتب، على خير العرب»[٤]. في حديث طويل لا يعنينا منه أكثر من هذا المقدار. إلى كثير من أمثال هؤلاء، كما جاء في (نهاية الأرب)، والمجلد الأول من (مروج الذهب) للمسعودي، وابن عبد ربه في (العقد الفريد).

وقد أكثر هؤلاء وغيرهم من المؤرّخين القدامى من القصص عن البحار وعجائبها، والفرسان وبطولاتها، والكهّان وإحاطتهم بما كان وسيكون، واستخدام الأقباط والسريان والرومان وغيرهم للسحر في حروبهم وغيرها ممّا يحتاجون إليه، والعشق والعاشقين وأخبارهم وأشعارهم، وغير ذلك من القصص التي[٥] لا يشكّ الباحث في

(في معرفة أنساب العرب) للقلقشندي.

(١) أوردها المقريزي في (إمتاع الإسماع) ج٣ ص ٣٩٩.

(٢) انظر ص ١٥٧ وما بعدها ج٦ من (نهاية الأرب) طبع بيروت ـ تصوير.

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٤٤.

(٤) البداية والنهاية ج ٢ ص ٤٢٧.

(٥) في الأصل: الذي.

أحوال تلك الأُمم بأن تلك الأخبار أكثرها من موضوعات العصور الإسلامية الأُولى بعد أن أصبح القصص فنّاً يتعاطاه الندماء في قصور الخلفاء والأُمراء بالأُسلوب الذي يُرضي سادة القصور وسيّداتها، ويوّفر للقصّاصين العطاء الجزيل والعيش السعيد إلى جانب الجواري ـ والمغنين ـ التي كانت تعجّ فيها قصور الحكّام والأُمراء يوم أصبح المحدّثون والوعّاظ يتاجرون بالدين، ويتّخذون الحديث والوعظ وسيلة للعيش، وتنفيذ رغبات الحاكمين. وقد وضع القصّاصون والوعّاظ مجموعة كبيرة من الأحاديث لا تقلّ أخطارها على السنة النبوية وأحاديث أهل البيت عن أخطار المرويّات التي وضعها أتباع الحاكمين، والزنادقة، وقادة الفرق والأحزاب التي تفرّعت عن الإسلام والتشيّع؛ لتأييد مذاهبها واتّجاهاتها ونزعاتها.

[دور العناصر الأجنبية المعادية للإسلام في وضع الأحاديث]

هذه المجموعة من القصص والأحاديث قد أدخلت على الحديث وعلى تاريخ المسلمين الكثير من أساطير الأُمم التي سبقت ظهور الإسلام، وكانت ولا تزال وستبقى سلاحاً يعتمد عليها دعاة الهدم والتخريب ما دامت في بطون كتب الحديث والتاريخ إلى جانب الصحيح السليم فيها هنا وهناك. وتكاد الروايات تتّفق على أن جماعة ممّن كانوا يعتنقون المسيحية واليهودية قد حاولوا أن يدّسوا بين تعاليم الإسلام بعض الأساطير بقصد التشويش والتخريب، وظهرت نتف منها في عصر الرسول‌‌صلى الله عليه وآله، ولكنه بحرصه على رسالته، ورعايته استطاع أن يكشفهم، ويحبط دسائسهم. وكان أحد هؤلاء تميم الداري من نصارى اليمن الذين دخلوا الإسلام في السنة التاسعة من هجرة الرسول، وهو بطل أُسطورة الجسّاسة والدجّال اللذين أشرنا إليهما في موضع سابق من هذا الكتاب[(١)]. ونشط في عصر الخليفة الثالث عثمان بعد أن

(١) راجع: ص ١٦٥ من هذا الكتاب.

رخّص له في ارتياد المجالس والمساجد في يومين من كلّ أُسبوع يحدّث فيهما بأساطيره من أخبار الأُمم السالفة وغيرها ممّا يحقّق له أهدافه بالأُسلوب الذي يوجّه إليه الأنظار، ويُلفت إليه أكبر عدد من عوامّ الناس.

وجاء من بعده وهب بن منبّه المعروف بين المؤرّخين والمحدّثين بقصصه وأخباره عن الأُمم والأديان، وصاحب أبي هريرة الذي أخذ عنه وحدّث بمروياته، وكان منها دعاؤه الثاني الذي كان يخشى أن يحدّث به يوم كان عند من وصفوهم بالصحبة بقية من دين. ولعل وهباً وكعب الأحبار من أعظم المصادر لقصص الأنبياء وأساطير الماضين كما ذكرنا من قبل، وعلى أساسها قد وضع جماعة من المفسّرين تفاسيرهم لبعض الآيات والسور التي لا تزال كتب التفسير مشحونة بها.

وظلّت حركة القصّاصين تتّسع مع الزمن حتى استغلّهم الحكّام لأغراضهم السياسية، وكان أول من استعملهم لذلك معاوية بن أبي سفيان، فقد ولّى رجلاً أمْر القصص على الناس إذا فرغ المصلّون من صلاة الصبح، وكان يتّجه إلى من معه في المسجد، فيذكر الله سبحانه، ويصلّي على رسوله، ثم يدعو للخليفة وأهل بيته وجنوده وأتباعه، وينتقل بعد ذلك إلى الدعاء على أخصامه والمحاربين له، وجميع من خالفه ولم يقرّ له بالطاعة[١].

[أمثلة من أحاديث القصاصين]

ويدّعي اليعقوبي في المجلد الأوّل من تاريخه أن الحسن بن عليعليهما السلام مرّ يوماً بقاصّ يقص على باب مسجد رسول اللهصلى الله عليه وآله فقال له: «ما أنت؟». فقال: أنا قاصّ يابن رسول الله. فقال له: «**كذبت، محمدٌ القاصّ، قال الله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾**[٢]». قال: أنا مذكّر. فقال له: «**كذبت، محمدٌ المذكّر، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ**

---

(١) كما جاء في خطط المقريزي ج٢ ص ٢٥٣.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٦.

مُذَكِّرٌ﴾[١] ». قال له: فما أنا؟ قال له الحسن: «**أنت المتكلّف من الرجال**»[٢].

وجاء في (فجر الإسلام) عن كتاب القضاة للكندي أن كثيراً من القضاة كانوا يقومون بمهمة القصّاصين إلى جانب مهنة القضاء بأمر من الحاكمين، وأن أول من قصّ بمصر سليمان بن عمر التجيبي سنة (٣٨)، وولاه معاوية أمر القضاء إلى جانب القصص، ثم عزله عن القضاء وأعدّه للقصص لا غير[٣].

ويبدو من هذه الرواية وغيرها أنه كان للقصّاصين مركز بين مراكز الدولة يولّيه الخليفة لمن يراه صالحاً لهذه المهمّة كغيره من موظّفي الدولة، غير أن القاصّ لابدّ أن تكون له الصبغة الدينية؛ لأنه بالإضافة إلى الدعاء للخليفة وأنصاره، والدعاء على خصومه يقوم بمهمّة الإرشاد والترغيب في عمل الطاعات، ويفيض في وصف الهبات والمثوبات والعقوبات، ونحو ذلك من وصف الحور والقصور وما إلى ذلك، ويجعل لما يحدّث به سنداً يتّصل بالنبي أو الإمام.

وجاء في (الأغاني) أن بشار بن برد مرّ بقاصّ يقول: إن رسول الله قال: «**من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة، صحنه ألف فرسخ في مثلها، وعلوّه ألف فرسخ، وكلّ باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ في مثلها**». فالتفت بشار إلى قائده وقال: بئست الدار والله هذه في كانون الثاني[٤].

وجاء عن بعضهم أنه كان يقول: إذا استحسنّا أمراً جعلناه حديثاً[٥]، وإذا اتّهمهم أحد بالكذب على الرسول، ولم يستطيعوا التخلص منه إلتجؤوا إلى أُسلوب آخر،

---

(١) سورة الغاشية الآية ٢١.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٧.

(٣) انظر: فجر الإسلام ص ١٦ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٧٠.

(٤) الأغاني ج ٣ ص ١٥٣. وبشّار هنا يريد أن داراً بهذا الاتّساع وهذه الأبواب لا يمكن تدفئتها في شهر البرد كانون الثاني.

(٥) الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٣٩. وقد نسب هذا الكلام إلى أحد مشايخ الرافضة «الشيعة»! ونقول: نسبه الذهبي إلى الخوارج، انظر لسان الميزان ج١ ص١١.

وقالوا: نحن نكذب له لا عليه لنرقّق قلوب العامّة[(١)].

وقال بعضهم: لما رأينا الناس قد تلهّوا عن القرآن ببعض الأحاديث، وفقه أبي حنيفة، ومغازي ابن إسحاق وضعنا أحاديث في فضل السور والقرآن، لنصرف الناس عما اشتغلوا به إلى كتاب الله[(٢)].

وظلّ القصص يتطوّر وينتشر حتى أصبح مورداً للمرتزقة، ووسيلة من وسائل الاستجداء، فكان القصّاص يحدّث بعد الصلاة بالغرائب التي تلفت الأنظار إليه، وتثير عواطف العامّة، وينسب حديثه إلى الإمامعليه السلام والرسولصلى الله عليه وآله ولا يرى في ذلك إثماً وزوراً. فإذا فرغ من حديثه بسط رداءه، فيدفع له كلّ إنسان حسب مقدرته، ولا يبالي بما تقوله الخاصّة ما دام يجد من العامّة مَن يسمع له، ويتطلّع إلى هذا النوع من الحديث الذي يدرّ عليه العطاء، ويمنحه احترام العامّة وتقديرهم.

وجاء في موضوعات ابن الجوزي: عن أبي جعفر بن محمد الطيالسي أنه صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين في مسجد بالرصافة في بغداد، فقام قاصّ بين تلك الجموع وقال: حدّثنا أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس أن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «**من قال: لا إله إلا الله، خلق الله من كل كلمة طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان**». ومضى في حديث طويل يبلغ نحواً من عشرين ورقة على حدّ تعبير الراوي، يعدّد الهبات التي يمنحها الله في مقابل هذه الكلمة، فجعل أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين ينظر كل واحد منهما إلى الآخر مستغرباً، وسأل كلّ منهما صاحبه إذا كان قد حدّثه بذلك فحلفا بأنهما لم يسمعا بذلك غير الساعة. ولما فرغ الرجل من حديثه، وأخذ نصيبه من الحضور، أشار إليه يحيى بيده، فجاءه مسرعاً وهو يظن بأنه سيدفع له شيئاً، فقال له يحيى: مَن حدّثك بهذا الحديث؟ قال: يحيى بن معين،

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٠.

(٢) المصدر نفسه ص ٤١.

وأحمد بن حنبل. فقال: أنا يحيى، وهذا أحمد بن حنبل، والله ما سمعنا بهذا أبداً بين أحاديث رسول الله. فقال له: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، فلم أتحقّق ذلك إلا الساعة أن ليس في الدنيا غيركما؛ لقد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين. وقام عنهما كالمستهزئ بهما[(١)].

وجاء في كتاب (القصّاص والمذكّرين) لابن الجوزي أن الشعبي في أيام عبد الملك بن مروان نزل تدمر، فسمع شيخاً عظيم اللحية يقول: إن الله خلق صورين، في كل صور نفختان: نفخة الصعق، ونفخة القيامة. قال الشعبي: فرددت عليه وقلت له: إن الله لم يخلق إلا صوراً واحداً، وإنما هي نفختان. فقال لي: يا فاجر، إنما يحدّثني فلان عن فلان، وتردّ عليّ؟ ثم رفع نعله وضربني بها، وتتابع الضرب عليّ ممّن معه، فما أقلعوا عني حتى قلت لهم: إن الله خلق ثلاثين صوراً[(٢)].

وجاء عن ابن جرير الطبري أنه سمع أحد القصّاصين يفسّر قوله تعالى: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾[(٣)] أن الله سبحانه يجعل لمحمدﷺ مكاناً على العرش إلى جانبه. فأنكر عليه ذلك، وكتب على باب داره ما ينزّه به الله تعالى عن ذلك. فلما فهم القصّاص ذلك، أوعز إلى العامّة فأخذوا يقذفون داره بالحجارة حتى سدّوا عليه طريقه[(٤)].

---

(١) الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٤٦.

(٢) لم يتوفر لدينا كتاب (القصّاص والمذكّرين)؛ ولذا نرجع الباحث إلى تحذير الخواصّ للسيوطي ص٧٨.

(٣) سورة الإسراء الآية ٧٩.

(٤) ليس السبب هو مجرد الخلاف مع القصّاص وإنما هناك خلفيات أُخرى لهذه الواقعة، لنستمع إلى أبي الفداء في تاريخه قائلاً: «في سنة ٣١٧ هـ وقع بسبب تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ ببغداد فتنة عظيمة بين الحنابلة وغيرهم، ودخل فيها الجند والعامة، واقتتلوا فقتل بينهم قتلى كثيرة؛ لأن الحنابلة تفسّرها بجلوسهﷺ مع الله على الكرسي، وغيرهم بالشفاعة. راجع: تاريخ أبي الفداء ج ٢ ص ٧٤.

وبلغ من استيلائهم على العامّة أن أُم أبي حنيفة أو غيره من العلماء احتاجت حكماً من أحكام الشريعة، فسألت ابنها، فأجابها، فلم تقبل منه، ورجعت إلى بعض القصّاصين، فلمّا وافق ولدها في الرأي أخذت به(١).

وجاء في (المنتظم) لابن الجوزي أن أبا بكر الآدمي المتوفّى سنة ٣٦٨ كان من أحسن الناس صوتاً، وكان يسمى (صاحب الألحان)، فحجّ مرة مع بعض الصلحاء، فلما انتهوا إلى المدينة وجدوا رجلاً ضريراً قد جمع حلقة من الناس في مسجد الرسول ﷺ، وجلس بينهم يقصّ عليهم ويروي لهم الأحاديث المكذوبة والمفتعلة، فلم يُجْدِ الإنكار عليه، ولم يجدوا طريقاً لتفريق الناس عنه إلا بالإيعاز إلى أبي بكر بقراءة القرآن بصوته الساحر، فلما شرع في القراءة توجّه إليه العامّة، وانصرفوا عن الضرير(٢).

وكانت المعارك تشتدّ وتستعصي حتى على الحاكمين أحياناً بين السنّة والشيعة في بغداد وغيرها بسبب أحاديث القصّاصين من السنّة والشيعة، ويحلّ الخراب والدمار في محلاتهم بسبب أحاديثهم في الفضائل والمثالب. وأحياناً يتّفق القاصّ السنّي مع زميله الشيعي، ويقف كلٌ منهما إلى جانب في الأسواق العامة، فيحدّث الشيعي في فضائل علي عليه السلام، والسنّي بفضائل أبي بكر وعمر، فإذا مرّ الشيعي يدفع لمن يحدّث بفضائل علي وأهل البيت، والسنّي يدفع إلى الطرف الآخر، ويستولي عليهم الحماس أحياناً فيبذلون لكل منهما بسخاء. فإذا كان آخر النهار يجتمعان في خلوة بعيدة عن الأنظار، ويتقاسمان الناتج بينهما(٣).

---

(١) راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٣ ص ٣٦٣، وفيه: «أرادت أُم أبي حنيفة أن تستفتي في شيء، فأفتاها أبو حنيفة، فلم تقبل، فقالت: لا أقبل إلا ما يقول زرعة القاصّ، فجاء بها أبو حنيفة إلى زرعة، فقال: هذه أُمي تستفتيك في كذا وكذا. فقال: أنت أعلم مني وأفقه، فأفتِها أنت. فقال أبو حنيفة: قد أفتيتها بكذا وكذا. فقال زرعة: القول كما قال أبو حنيفة. فرضيت وانصرفت».

(٢) المنتظم ج٤ ص١٩٩، وانظر تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٤٥.

(٣) انظر يتيمة الدهر للثعالبي ج٣ ص ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٣، كما جاء في الحضارة الإسلامية

[الأساليب التي استعملها القصاصون في تحويل الأنظار اليهم]

وقد استعمل بعضهم أساليب الدجل والاحتيال بالإضافة إلى وضع الأحاديث، فقد جاء في (كشف الأسرار) للجوبري أن قصّاصاً قد استعمل قرداً وعلّمه السلام على الناس، والتسبيح والسواك، والبكاء في بعض الأحيان، فإذا كان يوم الجمعة بسط له سجادة في الجامع، وأركبه بغلة، ومشى بين يديه، والقرد يسلّم على الناس ويردّ لهم التحية. وكل من سأله عنه أجابه بأن هذا من أبناء الملوك، وقد أصابه السحر حتى اصبح على هذه الحالة. فإذا دخل الجامع، وقف القرد على السجادة في المحراب، وصلى ركعتين، وسبّح بعدهما واستاك. ثم يقف القاصّ بين تلك الجموع ويقول: «من أصبح معافى فإن لله عليه نِعماً لا تُحصى، اعلموا أن هذا القرد الذي ترونه بينكم والله لم يكن في زمانه أحسن منه شباباً، ولا أطوع منه لله، ولكن المؤمن معرّضٌ لقضاء الله وقدره، وكان من قضاء الله أن هذا الذي ترون قد زوّجه والده ابنة أحد الملوك، فأقام معها مدة طويلة، فقيل لها: إنه قد عشق مملوكاً له، فأدركتها الغيرة، فخرجت إلى بيت أهلها وسحرته، وأصبح كما ترون. وقد سألناها أن ترفع عنه السحر بعد أن هجره والده وأخرجه من مملكته، فادّعت أن لها عنده أثاثاً قيمته مئة ألف دينار، وتخلّف عليه من أصل هذا المبلغ عشرة آلاف دينار، ويطلب مساعدته للخروج من تلك الأزمة التي ألّمت به».

ويبكي القرد عند ذلك، فترقّ له القلوب، ولايخرج من الجامع إلا بمبلغ كبير من المال، وهكذا يصنع في كل بلدٍ يدخلها[1].

وقد بلغ من تأثير القصّاصين على العامة، وتفنّنهم في مختلف الأساليب التي تدرّ عليهم العطاء أنهم أصبحوا يستخفّون بالعامّة، ولا يراقبون الخاصّة ما دام عوام الناس

للمستشرق آدم متز.

(١) المختار في كشف الأسرار ج ١ ص ٦٩٥.

إلى جانبهم؛ فقد جاء في (الحضارة الإسلامية) المجلد الثاني أن بعض القصّاصين كان يأكل وهو سائر في شوارع بغداد، فاعترضه عثمان الورّاق وقال له: ويحك أما تستحي أن تأكل وأنت في الطريق؟ فقال له: أرأيت لو كنا في دار فيها بقر، أكنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا. قال: فاصبر حتى أعلمك أن عامّة من تراهم أشبه بالبقر. فقام بين الناس يقصّ عليهم ويعظهم، حتى اجتمع عليه خلق كثير، واشتدّ الزحام حوله، ثم قال: أيها الناس روى لنا غير واحد عن الرسولﷺ أنه قال: من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار. فلم يبقَ من ذلك الحشد أحد إلا وأخرج لسانه يومي به نحو أرنبة أنفه، فقال له عثمان الورّاق: صدقت كُل واصنع ما شئت.

ويدّعي ابن الجوزي وغيره ممن تعرضوا لأحوال القصّاص أن الإسرائيليات، وما يتّصل بها كانت من مواردهم الرئيسة التي اعتمدوها في قصصهم، وكانوا يحاولون أن يظهروا بمظهر من لا يجهل شيئاً، ولا يعجزه الجواب عن شيء، ولا يتورّعون عن الإجابة عن كل واقعة ولو كانت وهمية. فقد سُئل بعضهم عن العصفور لمَ سميّ بهذا الاسم؟ [فـ] أجاب: لأنه عصى وفرّ.

وادّعى بعضهم بأنه يعرف اسم العجل الذي عبده بنو إسرائيل، واسم الذئب الذي أكل يوسف، فقال له بعض الحضور: إن الذئب لم يأكل يوسف. فأجاب أنه يعرف اسم الذئب الذي لم يأكله. وكانوا مع ذلك يظهرون بمظهر النُسّاك والعبّاد، ويضعون على وجوههم مادة صفراء؛ ليظهروا بمظهر من أنهكتهم العبادة. وبعضهم يضع في عينيه مادة توجب سيلان الدمع دجلاً وتضليلاً للعوامّ؛ لإيهامهم بالبكاء خوفاً من الله سبحانه. ويتعمّدون أحياناً بإلقاء أنفسهم من على المنبر وهم يتحدّثون عن النار وأهوالها وأخطار يوم القيامة، إلى كثير من هذه الحالات التي فضحت أساليبهم، وألجأت الحكّام في أواخر القرن الثالث الهجري إلى منعهم من الدخول إلى المساجد، فأصدر المعتضد العبّاسي مَن ينادي في مدينة السلام: أن لا يقعد في الطريق ولا في

المسجد قاصّ ومنجّم وعرّاف. وأكدّ على مطاردتهم ومنعهم من دخول المساجد[١].

وقد عدّهم ابن الأثير في تاريخه مع المشعوذين، في حين أن القصّاص القدامى كانوا موضع تقدير العامّة والعلماء؛ لأن قصصهم لم تكن بعيدة عن الدين، ولم تبلغ الحالة التي بلغتها في القرن الرابع وما بعده. ولعل الصيغة التي غلبت على القصّاصين في أواخر القرن الرابع الهجري كانت السبب في تحوّل الأنظار إلى طائفة المذكّرين الذين ظهروا في ذلك العصر. ويدّعي المقدسي أن المذكّر كان يُجهد نفسه ليوجّه الأنظار إليه؛ ويصرف العامة عن القصّاصين، واستطاعت هذه الفئة أن تربح ثقة الخاصّة من العلماء الذين كانوا يوجّهون العامة إلى حلقاتهم ومجالسهم.

وجاء في (كشف المحجوب) ص٢٣٥ عن أبي طالب المكّي أن حضور الرجل مجالس الذكر أفضل من صلاته، وصلاته أفضل من حضور مجالس القصّاصين[٢].

وحدّث بعض القصّاصين يوماً فقال: «إن في الجنّة شجرة يخرج من أعلاها الحلل، ومن أسفلها خيل بلق من ذهب ملجمة بالدرّ والياقوت، لا تروث ولا تبول، ذوات أجنحة طوال، يجلس عليها أولياء الله فتطير بهم حيث يشاء الله»[٣]. إلى غير ذلك من مئات الأحاديث في وصف الجنان وعجائبها.

والى جانب هذا اللون من أحاديث القصّاصين نجد كتب الحديث مشحونة بلون آخر من الموضوعات في معجزات الأنبياء والأولياء كان القصّاصون والوعّاظ يستدرجون بها العامّة إلى مجالسهم، ويستدرّون بها هباتهم وعطاءهم. يتصدّر القصّاص مجلس العامة، أو يرقى الواعظ منبراً أُعدّ لهذه الغاية، فيحمد الله ويصلّي على نبيه، ثم يروي لهم ما لفّقه من غرائب الكرامات والمعجزات، وأخبار الإسكندر وعين الحياة،

---

(١) انظر تاريخ الطبري ج٣ ص ٢١٣ و ٢١٦، تاريخ أبي المحاسن ج٣ ص ٦٧، كما جاء في المجلد الثاني من الحضارة الإسلامية للمستشرق آدم متز.

(٢) انظر نفس المصدر ص ١٠٦ من تاريخ الحضارة الإسلامية.

(٣) وقد نسب هذا إلى الامام علي كما في وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٤٠٢.

وأخبار ابن أبي الدنيا الذي شرب منها وعاش آلاف السنين حتى أدرك القرن الرابع الهجري، وأخبار جنة عاد وعجائب قصورها وجواهرها وأشجارها، وغير ذلك من غرائب الأساطير والأخبار كما ستتعرض لذلك في الفصول الآتية من هذا الكتاب.

وقد نجح القصّاصون إلى حدٍّ ما في عرضهم للكرامات والمعجزات وإسرافهم فيها، فوضع قصّاص السُّنّة آلاف الكرامات للخلفاء والأولياء والصلحاء زوراً وافتراء على الله وعلى الإسلام، كما وضع قصّاص الشيعة مع ما وضعه أعداء الأئمة عدداً كبيراً من هذا النوع للأئمة الهداة عليهم السلام، ولبعض الصلحاء والأتقياء. في حين أن الأئمة كانوا في غنى عن كل ذلك، وقد لعنوا كل من يضعهم فوق مستوى الإنسان، وبغير المنزلة التي وضعهم الله بها.

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام حينما أحسّ بضعفاء الإيمان من المتشيعين ينظرون إليه والى آبائه وكأنهم فوق مستوى المخلوقين، وأدرك بأن أعداء الأئمة يروّجون لهذه الأفكار، حينما أحسّ بكل ذلك وقف موقف المتصلّب من هذه الأفكار المسمومة وقال: «**حببونا إلى الناس، ولا تقولوا فينا ما ليس بنا؛ فنحن عبيد الله لا نقدر أن نجلب لأنفسنا نفعاً ولا ندفع عنها ضرّاً. لنا ذكرٌ في كتاب الله، ونسبٌ من رسول الله، وولادة طيّبة. هكذا قولوا إلى الناس، ولعن الله من يقول فينا ما لم نقله في أنفسنا**»(١).

وأينما اتّجهت في كتب الحديث ما كان منها في التراجم، أو الفضائل، أو ثواب الطاعات والأعمال، أو تواريخ الأنبياء وأحوالهم ومصائبهم، أو الأخلاق والأحكام والجنة والنار تجدْ آثار القصّاصين والوضّاعين من الزنادقة والمندسّين في صفوف المسلمين والتشيع بارزة في أُسلوبها وصياغتها وتركيبها، ومنتشرة هنا وهناك، ولها طابعها الخاصّ وأُسلوبها البعيد عن منطق الأنبياء والأئمة الكرام عليهم السلام. والى القرّاء مثلاً من مروياتهم، فقد رووا عن محمد بن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «**إن في الجنة شجرة**

(١) أعلام الدين في صفات المؤمنين ص ١٤٣.

يُقال لها طوبى، لو أراد راكب الجواد أن يسير في ظلّها لسار فيه مئة عام. ورقها برود خضر، وزهرها رباط أخضر، وأفنانها سندس واستبرق، وثمرها حلل، وطعمها زنجبيل وعسل، وبطائحها ياقوت أحمر وزمرّد أخضر، وترابها مسك وعنبر وكافور أصفر، وحشيشها زعفران، يتفجّر من أصلها السلسبيل والمعين والرحيق، وأصلها مجلس من مجالس الجنّة يألفونه، ومتحدّث يجمعهم. فبينما هم يوماً في ظلّها يتحدّثون إذ جاءتهم الملائكة يقودون نجباً جبلت من الياقوت، ثم نفخ فيها الروح مزمومة بسلاسل من الذهب كأن وجهها المصابيح نضارة وحُسناً، وبرّها خزّ أحمر، ومرعزي أبيض مختلطان لم ينظر الناظرون إلى مثلها حسناً وبهاء. ذلّل من غير مهانة، نجب من غير رياضة، عليها رحائل ألواحها من الدرّ والياقوت، مفضّضة باللؤلؤ والمرجان، صفائحها من الذهب الأحمر، فأناخوا لهم تلك النجائب ثم قالوا لهم: إن ربّكم يقرئكم السلام، ويستزيدكم؛ لتنظروا إليه وينظر إليكم، وتكلّموه ويكلّمكم، وتحيّوه ويحيّيكم ويزيدكم من فضله ومن سعته؛ إنه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم.

فيتحوّل كل رجل منهم على راحلته، وينطلقون صفّاً واحداً معتدلاً لا يفوت شيء منه بشيء، ولا تفوت أُذن ناقة أُذن صاحبتها، ولا يمرّون بشجرة من أشجار الجنّة إلا أتحفتهم بثمرها وزحلت لهم عن طريقهم؛ كراهية أن ينثلم صفّهم. فلما وقفوا على الجبّار تبارك وتعالى، أسفر لهم عن وجهه الكريم، وتجلّى لهم في عظمته العظيمة».

وجاء في الرواية أن الله بعد أن رحّب بهم، واستمع إلى حديثهم، وتبادلَ وإياهم الحديث والثناء، قال لهم: «انظروا إلى مواهب ربّكم الذي وهب لكم، فإذا بقباب في الرفيع الأعلى[1]، وغرف مبنية من الدرّ والمرجان أبوابها من ذهب وياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق»[2].

(١) في جميع المصادر التي ذكرت الحديث: فإذا بقباب وقصور في أعلى عليين.

(٢) بحار الأنوار ج ٨ ص ١٥١.

وهكذا يمضي بعيداً في وصف تلك القصور وتعداد معادنها ومحتوياتها، ثم ينتقل إلى مشهد آخر من مشاهد الجنّة: «فيه من البرازين المصنوعة من الياقوت والزبرجد، واللؤلؤ والمرجان، والوِلدان الذين سخّرهم الله سبحانه لقيادتها، فيركبها أهل الجنّة، وتمضي بهم بين قصور الجنّة، وأشجارها وثمارها، وأنهارها، وحورها، إلى أن تصل بهم إلى بيوتهم». في حديث طويل يستغرق بلا شكّ مع القصّاصين أكثر من ساعتين، ثم ينتقل بهم إلى وصف نساء أهل الجنة، فيروي لهم عن أبي هريرة وغيره من صحابة الرسول أنه قال: «**إن الرجل ليتزوّج بخمسمئة حوراء وأربعة آلاف بِكر، وثمانية آلاف ثيّب يعانق كلّ واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا، ويصوّب نظره إليها أربعين سنة لا يصرفه عنها. وهكذا ينتقل من واحدة لأُخرى لا يملّ ولا يكلّ، ويكرّر الجماع بصورة مستمرّة يعاودها المرّة تلو الأُخرى، فيجدها عذراء لا يفتر ذَكره، ولا تشتكي قُبلها**». على حدّ تعبير الراوي عن أبي هريرة.

ويضيف الراوي إلى ذلك أن «أدنى أهل الجنة منزلة له ثلاثمئة خادم، ويقدّم له الطعام في كل يوم بثلاثمئة صفيحة من ذهب، في كل صفيحة لون ليس في الأُخرى، وإن له من الحور العين اثنتين وسبعين حورية سوى أزواجه في الدنيا، والواحدة منهن مقعدها ميل في ميل». ويمعن القصّاص في وصف الحور والولدان، والقصور والأشجار، وطيور الجنّة ومهمّاتها، وكيف يأكل أهل الجنة من أجنحتها ما لذّ لهم وطاب من أنواع المآكل والفواكه، إلى غير ذلك من الغرائب بالأساليب التي تغري العامّة والمغفّلين.

وحينما يتحدّثون عن أهل النار يحاولون أن يضعوا في أذهان المستمعين لها بأن الشفعاء والوسطاء لن يدعوا أحداً فيها مهما بلغت جرائمه إذا كان في قلبه مقدار حبة خردل من الإيمان؛ فقد جاء عن القاصّ المدني إسماعيل بن رافع[١] أن رسول الله ﷺ

(١) لقد كان أحد القصّاصين المتجوّلين بين المدينة والبصرة، واستقرّ بها أخيراً. وجاء في تهذيب

قال: «إن النار يقع فيها خلق كثير من خلق ربّك، أوقعتهم أعمالهم، فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تتجاوز ذلك، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه، ومنهم من تأخذ جسده كلّه إلا وجهه؛ لأن الله حرّم صورته عليها». ويضيف إلى ذلك أن رسول الله يقول: «يا ربي شفّعني فيمن وقع في النار من أُمتي. فيقول الله: أخرجوا من عرفتم. فيخرج أُولئك حتى لا يبقى منهم أحد، ثم يأذن الله في الشفاعة، فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع، فيقول الله: أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة دينار من الإيمان. فيخرج أُولئك حتى لا يبقى منهم أحد، ثم يشفع الله فيقول: أخرجوا من وجدتم في قلبه إيماناً ثلثي دينار. ثم يقول: ثلث دينار. ثم يقول: ربع دينار. ثم يقول: قيراطاً. ثم حبّة خردل. فيخرج أُولئك حتى لا يبقى منهم أحد، وحتى لا يبقى في النار من عمل خيراً قطّ، ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع، حتى إن إبليس يتطاول بما يرى من رحمة الله رجاء أن يُشفع له. ثم يقول جلّ شأنه: بقيت وأنا أرحم الراحمين. فيدخل يده في جهنم فيخرج منها ما لا يحصيه غيره كأنهم حمم، فيلقون على نهر يقال له «نهر الحيوان»، فينبتون أمثال الذرّ، مكتوب في رقابهم «الجهنّميّون عتقاء الرحمن»، يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب، ما عملوا خيراً لله قط، فيمكثون في الجنة ما شاء الله وذلك الكتاب في رقابهم، ثم يقولون: ربنا امحُ عنا هذا الكتاب. فيمحوه الله عز وجل عنهم»[1]. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي وضعها القصّاصون حول رحمة الله، وسعة مغفرته وعفوه.

وقد أُوتي هؤلاء مقدرة وبراعة في العرض، وخيالاً واسعاً في التصوير والإغراء قلّ أن تجد أُسطورة من أساطيرهم بدون سند يربطها بصحابي يسندها إلى النبي، أو برجل

التهذيب ص ٢٩٥ من المجلد الأول أنه كان من المتّهمين بالكذب على الرسولﷺ، يحدّث بالغرائب والمنكرات. وكانت وفاته في العشرة الثانية من القرن الثاني، كما نصّ على ذلك البخاري.

(١) انظر الله والانسان لعبد الكريم الخطيب ص ٤٥١ و ٤٥٢.

من أتباع الأئمة يسندها إلى الإمامعليه السلام، وأحياناً يختلقون أشخاصاً وأسماء، ويجعلون منها سنداً يربط حديثهم بالنبي أو غيره من الأئمة والأولياء. فإذا اعترضهم سائل قالوا: إنا نحفظ هذا، فكلّما استحسنّا أمراً أجريناه حديثاً، وألحقنا به هذا السند.

وقد أمعن القصّاصون والوعّاظ في الكذب على الرسول فنسبوا إليه وعوداً وأقوالاً في الزهد في الدنيا، وفضل البلاء والفقر والمرض والجوع، والأيام والساعات، والأذكار والأدعية، وأسرفوا في عرضهم للمكافأة التي يلقاها الإنسان إذا صلّى ركعتين في بعض الليالي أو الأيام، أو صام يوماً أو أكثر من بعض الشهور، أو سعى لزيارة بعض الأولياء فأعطوه على كلّ ركعة مئات القصور، وآلاف الحور والوِلدان، والأثاث المصنوع من الزبرجد والياقوت والمرجان. وعلى كل يوم صامه، أو خطوة مشاها إلى زيارة ولي، أو عيادة مريض آلاف الحسنات، وأسقطوا عنه آلاف السيّئات، وكان له أجر ألف حاجّ وألف معتمر، وثواب من صبر وأحسن عملاً كأيوب وأمثاله من النبيّين والصدّيقين، كما جاء في بعض المرويّات، وفرشوا له طريق الجنّة بالورود والرياحين حتى ولو لم يفعل بعد ذلك من الطاعات شيئاً، بل وحتى لو فعل المنكرات، كما تصرّح بذلك بعض مروياتهم.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم أن الإمام جعفر بن محمد قال: «**من ذكرنا أو ذُكِرنا عنده، فخرج من عينيه دمع مثل جناح البعوضة، غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر**»[1]. إلى غير ذلك من المرويّات التي سنعرض بعضها حسب المناسبات في الفصول الآتية من هذا الكتاب.

[وضع أحاديث قاعدة التسامح في أدلة السنن]

وحتّى لا يتسرّب الشكّ إلى هذه الموضوعات، وتبقى عنصراً مؤثّراً على العامة تشدّهم إلى تلك الحلقات التي كانت تملأ المساجد والنوادي، وتوفّر لهم الهبات

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٣.

والعطاء، فقد وضع القصّاصون أحاديث لتدعيم مرويّاتهم وأساطيرهم، وزيّفوا لها الأسانيد التي تربطها بالنبي والأئمة بأُسلوب يوحي بصحّتها، ويزفّ لهم البشائر بالحصول على تلك الدرجات التي وعدهم القصّاصون بها، فرووا لهم أن الإمام عليه السلام قال: «**من بلغه ثواب على عمل، فعمله رجاء ذلك الثواب، أُعطِيَه وإن لم يكن رسول الله قاله**»[1]. وأن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**من حدّث عني حديثاً هو لله رضاً فأنا قلته وبه أُرسلت**». إلى غير ذلك من المرويّات بهذا المعنى.

وقد أخذ بها الشيعة والسنّة، واستخرج الشيعة منها قاعدة أضافوها إلى مدارك الأحكام وأُصولها أطلقوا عليها قاعدة «**التسامح في أدلّة السنن**»، مع العلم بأن أسانيدها لم تتوفّر فيها شروط العمل بالرواية؛ لأن بينهم من هو متّهم في دينه، وبينهم من هو مجهول الحال إذا استثنينا رواية واحدة عدّها بعض المحدّثين من قِسم الصحيح؛ لأن الراوي لها من الممدوحين في كتب الرجال، مع العلم بأن مجرد ذلك لا يمنع من ردّ الرواية إذا كانت مخالفة لكتاب الله، أو للخبر المقطوع بصدوره. على أن هذا النوع من المرويات على تقدير صدوره فلابدّ و أن يكون المراد من البلوغ الذي نصّت عليه: هو البلوغ بالطرق التي تطمئن إليه النفس لا غيره. وقد نصّ كتاب الله على حرمة الكذب، وتوعّد الكاذبين بالعذاب والعقاب الشديد، ولعنهم أكثر من مرّة في مختلف المناسبات، ولم يستثنِ من ذلك الكذب في الطاعات والخيرات. كما وأن الرسول حينما توعّد الكاذبين عليه، ولعنهم كما جاء في قوله: «**من كذب عليّ فليتبوّأ مقعده من النار**»[2]. لم يستثنِ هذا النوع من الكذب عليه. ولا يستطيع أحد أن يدّعي بأن الكذب في الطاعات لا يعدّ كذباً، وقد اعترف القصّاص بأنهم يكذبون على الرسول، وكان عذرهم في ذلك انهم يكذبون له لا عليه.

---

(١) وقد عقد المجلسي في كتابه بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٥٦ بابا أسماه: «باب من بلغه ثواب من الله على عمل فأتى به». فذكر هذا الحديث وأشباهه في هذا الباب.

(٢) تقدم في ص ١٨٩ من هذا الكتاب ضمن كلام الإمام علي في (شرح نهج البلاغة).

ومن الغريب ان الفقهاء قد عدّوا الكذب من الكبائر، ومع ذلك فقد تساهلوا في هذا النوع من الأحاديث المكذوبة، وأمعنوا في البحث عن أدلّة الأحكام متناً وسنداً، فضّعفوا الحديث وأسقطوه لأقلّ شبهة في سنده أو متنه، ولمّا جاؤوا إلى أحاديث الترغيب والتخويف والفضائل، وقفوا إلى جانبها متجاهلين كلّ ما قرروه في أُصولهم وفقههم، لا لشيء إلا لأن القصّاص والوعّاظ قد رووا لهم عن الرسول والإمام أنهما قالا: «**من بلغه ثواب على عمل فعمله أُوتيه وإن لم يكن رسول الله قاله**»!

والأغرب من ذلك أن المتأخّرين ممّن ألّف في أُصول الفقه من علماء الشيعة قد أخذوا بهذه المرويات بدون تحقيق في مضامينها، ولا تمحيص لأسانيدها، وعلى أساسها قالوا بأن المرويّات المتعلّقة بالسنن كالتي تجري على ألسنة الوعّاظ وغيرهم؛ سواء كانت من نوع المسانيد، أو المراسيل يمكن إعطاء مضامينها حقّه[] من الرجحان أو الاستحباب، حتى ولو لم تكن صادرة عن المعصوم؛ لقاعدة «**التسامح في أدلّة السنن**» التي انتزعوها من أحاديث «من بلغه»، وكانت تلك الأحاديث من وحي السماء، بدعوى أن احاديث «من بلغه» لا يخلو مؤدّاها عن أحد الأُمور الثلاثة التالية:

الأول: أن تكون ناظرة إلى حصول الثواب الذي وعد به المخبر مهما كان نوعه ومقداره عندما يأتي الإنسان بذلك العمل رغبة في الثواب الموعود به.

الثاني: أن تكون ناظرة إلى الأمر بالعمل الذي أخبر به الواعظ أو الراوي بترتيب الثواب عليه، وبذلك يصبح العمل مستحباً وراجحاً، ويكون المعنى المتحصل من قول الراوي: «فعمله ابتغاء ذلك الثواب أُوتيه» هو الأمر بالعمل بصيغة الإخبار، أي اعمل ما بلغك ثواب عليه.

الثالث: أن تكون واردة لبيان جواز الأخذ بالأخبار الضعيفة الواردة في مقام الترغيب فى الطاعات. بمعنى أن الشروط التي لابدّ من توفّرها في الأخبار، كالوثاقة، والعدالة، والاتّصال، وموافقة الكتاب، وغيرها، هذه الشروط يمكن الاستغناء عنها في هذا النوع من الأخبار، فتكون أخبار «من بلغه» حاكمة على الأدلّة التي دلّت على

اعتبار تلك الشروط في أخبار الآحاد[1]. إلى غير ذلك من التصرّفات والتأويلات البعيدة عن ظواهر تلك المرويّات؛ لأن المعنى الظاهر منها لا يتعدّى الاحتمال الأوّل، ولكن الأخذ بها يتوقّف على صدورها عن النبي أو الإمامعليه السلام. وقد ذكرنا أن أسانيدها لم تتوفّر فيها الشروط المطلوبة، وأنها من صُنع القصّاصين والوعّاظ؛ ليؤكّدوا بها مرويّاتهم في الترغيب والترهيب التي يستدرّون بها عطف الناس وهباتهم. وعلى تقدير صحّتها فالبلوغ الذي أرشد النبي أو الإمام إلى الأخذ به هو البلوغ الذي تطمئن إليه النفس كما ذكرنا.

أقول ذلك في حين أني لا أستبعد بعض مرويات القصّاصين والوعّاظ وغير الموثوقين وإن لم تكن مستوفية للشروط المطلوبة في الراوي والرواية؛ إذ ليس كل ما يرويه غير الموثوق في دينه مكذوباً؛ لجواز أن يصدق الكاذب أحياناً، ولكن الذي أدّعيه أن الأخذ بجميع مرويّاتهم، واعتبارها في مستوى الصحيح ولو من حيث ترتيب الآثار عليها كما هو المستفاد من أخبار «من بلغه»، مع العلم بأن أكثرها مكذوبة عليه، أو مبالغ فيها بنحو لا يستسيغه العقل، ولا يقرّه منطق الشرائع والأديان، [و] جعلها في هذا المستوى يشجع الكَذَبة والمرتزقة من الوعّاظ على المتاجرة بالدين، واستغلال المستضعفين، وفي الوقت ذاته ربما يخدّر السامع عن العمل، ويبعث في نفسه روح الاتّكال على الثواب الموعود به عندما يسمع أن الدمعة التي لا تزيد عن جناح بعوضة إذا خرجت من عينه حزناً على ما أصاب أهل البيتعليهم السلام يغفر الله له بسببها **«جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»**[2]، كما جاء في رواية علي بن إبراهيم عن الإمام جعفر بن محمدعليه السلام.

وهل يرجو المستضعف من عوام الناس غير الجنّة التي وعد الله بها عباده المتّقين العاملين بأوامره والمنتهين عن نواهيه، فإذا أهدى له القصّاصون على صلاة ركعتين

---

(١) انظر التقريرات في الأُصول العملية للشيخ محمد علي الكاظمي ص ١٥٠.

(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٩٣.

يصليها في ليلة من ليالي رمضان ألف ألف حسنة، وقصوراً في الجنة من الزبرجد والياقوت، وعشرات الجواري والحور، كلّ جارية مقعدها ميل في ميل كما جاء في بعض المرويات التي تصف الحور العين، وتمحو من سجلّه آلاف السيئات، فلماذا يُجهد نفسه بعد ذلك في الطاعات واجتناب السيئات؟

وعلى كلّ حال فلقد مضى القصص يتحرّك بنحو آخر منذ القرون الأُولى وبخاصّة عند الشيعة بعد أن اجتاحتهم تلك الهزّات العنيفة والنكبات القاسية من واقعة الطف إلى غيرها من الجرائم التي صبغت الأرض بدماء الأولياء والصلحاء والأبرياء في العصرين الأُموي والعباسي، فأضاف الوعّاظ والقصّاصون من خطباء المنابر إلى تلك النكبات عشرات القصص من صنع الخيال تمثّل تلك الروح الإجرامية التي كانت تسيّر أُولئك الحاكمين الذين قتلوا وشرّدوا الملايين من الأبرياء والصلحاء باسم الإسلام الذي لم يعرف التاريخ أرحم منه للأبرياء، وأشد نقمة على الظلم والطغيان.

ومازال القصص يتحرّك ويتطوّر بأُسلوب جديد حتى عصرنا الحالي، فقد تطوّع إليه فريق باسم الدين يستغلّون المناسبات من بلد إلى بلد ليتحدّثوا فيها إلى الناس عن الزهد وهم من أشدّ الناس انهماكاً في الدنيا وسعياً وراء فضولها، وعن القناعة وقلوبهم تهفو حتى إلى اليسير مما يملكه غيرهم من وسائل العيش، وعن المظلومين والمعذّبين وما أعدّه الله لهم من النعيم الدائم في الآخرة ليصرفوهم عن التفكير بما حلّ بهم من أعداء الله والإنسانية من تعذيب وتشريد واستغلال، وعن الخيرات والأعمال الصالحات وما لفعلها ولتركها من الثواب والعقاب الأليم، وبعضهم من أبعد الناس عن الخيرات والأعمال الصالحات. ولعلّ ذلك من أبرز الأسباب لعدم تأثّر أُولئك الناس بمواعظهم، وخروجهم من تلك المجالس ذئاباً ولئاماً بمثل ما كانوا، أو أشدّ ضراوة ولؤماً.

ومهما كان الحال فلا أكون مغالياً إذا قلت: إن الكثير من المتديّنين من عوامّ الشيعة والسنّة يفعلون الكثير من المنكرات والمعاصي، ويعتقدون بأن زيارة الحسين عليه السلام

والبكاء أو التباكي عليه كما جاء في بعض المرويات، والأعمال المأثورة في رمضان وغيره توفّر عليهم ممارسة الالتزام بالطاعات واجتناب الشهوات اعتماداً على مرويات الوعّاظ والقصّاصين، وأحاديث «**من بلغه ثواب على عمل**».

ولا أُريد من ذلك أن أضع حدّاً لعطاء الله وعفوه وكرمه، وحدّاً لمحتويات الجنّة وخيراتها ونعيمها وملذّاتها بما تحيط به عقولنا وتصل إليه أفهامنا ومداركنا، ولا أُريد أن أستكثر ثواب الزيارات والأعمال الصالحات، لا أريد ذلك؛ لأن كرمه فوق حدود التصوّر، وخزائنه لا ينقصها العطاء، وعفوه يتّسع لجميع الناس، ولا يحيط بجنّاته ومحتوياتها إلا من أحاط بقدرته وعلمه، وهذا ما لم يتيسّر لأحد من الناس كائناً من كان، وإنما الذي أُريده أن القرآن الكريم الذي وضع أُصول الإسلام وفروعه، وحثّ على الطاعات والأعمال الصالحات، ووعد المطيعين والعاملين جنّات فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، ولم يحدّد أنواع تلك الملذّات والخيرات، قد توعّدهم في الوقت ذاته بالعقوبة الصارمة والعذاب الأليم، وصوّر لهم جهنم وأهوالها ومخاطرها، كما صوّر لهم الجنة ونعيمها وخيراتها، وترك الإنسان بين اليأس والأمل حتى لا يترك ما عليه اتّكالاً على عفوه ورحمته، ولا يقف مكتوف اليدين بمجرّد أنه عصاه في بعض الأعمال يائساً من قبوله إذا رجع لطاعته، بل فتح له باب التوبة، ومهّد له طريق العودة، ووعده أجراً عظيماً وجزاءً كريماً.

لقد ألمحت بعض الآيات والنصوص عن الرسول والأئمة إلى أن الله سبحانه قد يضاعف الجزاء على الأعمال الصالحات، ولكن لم يرد في آية من آيات الكتاب، ولا في حديث صحيح عن الرسول أو الأئمة عليهم السلام أن عملاً واحداً من أعمال الخير مهما كان نوعه يغفر الذنوب جميعها ولو كانت كـ «زبد البحر»، وعدد الرمل والحصى، كما جاء في أحاديث القصّاصين والوعّاظ التي نسبوها إلى الرسول والأئمة الهداة الميامين.

وهل يجوز على الرسول العظيم صلى الله عليه وآله أن يقول لابنته فاطمة سيدة النساء: «اعملي يا

فاطمة، فلن أُغني عنك من الله شيئاً»[١]، ويقول في الوقت ذاته لمن حضر معه وقعة بدر من المسلمين، «**اعملوا ما شئتم؛ فإن الله قد غفر لكم**»[٢]؟ وهل يجوز على من قال: إن الحديث إذا لم يوافق العقل والكتاب، فليس من أحاديثنا، وهو مدسوس علينا، هل يجوز عليه أن يقول ذلك، ثم يخبر عن نساء الجنة بأن مقعد الواحدة منهن ميل في ميل؟ وإذا كان مقعدها يحتاج إلى هذه المساحة العريضة الواسعة، فيجب أن يبلغ طولها ضعفي هذه المساحة على أقلّ التقادير. ولابدّ وأن يخلق الله لهن رجالاً بهذا الطول والعرض، أو يحشر الله المؤمنين بغير أجسامهم التي كانوا بها في الدنيا؛ ليتمّ التجانس بينهما.

إن الإسلام بعيد عن السخف والخرافات بُعد الخير عن الشرّ، والحقّ عن الباطل، ولكن أعداء الإسلام الذين لم يجدوا في مبادئه وأُصوله وتشريعاته ما ينفذون منه إلى أهدافهم وأغراضهم الدنيئة، أدخلوا بين مروياته هذه الأساطير وأمثالها لإثارة الشبهة والتشكيك، وإبرازه على غير واقعه.

[تطور القصص واستغلاله من قبل المرتزقة والوعاظ والخطباء]

ومجمل القول أن الكذب في الحديث قد انطلق مع خيال الإنسان إلى أبعد الحدود، فشمل جميع النواحي والجهات، فقد وضع القصّاصون والوعّاظ، وأعداء الإسلام والحكّام، وقادة الفرق والأحزاب، في كلّ موضوع من المواضيع عشرات الأحاديث ومئات الغرائب والقصص، وفي الحلال والحرام وضع زنديق واحد أربعة آلاف حديث، وهو ابن أبي العوجاء كما اعترف عن نفسه حينما عرضه جلاد المنصور على السيف[٣]. وجاء عن عمر بن سعيد أنه قال: لقد وضعت في أخبار جعفر بن محمد اثني

---

(١) كنز العمّال ج ١٦ ص ١٩ رقم الحديث: ٤٣٧٥٣.

(٢) صحيح البخاري ج ٧ ص ١٣٤.

(٣) الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٣٧.

عشر ألف حديث[١]، كما اعترف غيره بأقل من هذا المقدار وأكثر، حسبما يُستفاد من إحصاء أكاذيب الوضّاعين.

ومع أن الباحث أينما اتّجه في مجاميع الحديث السنّيّة والشيعيّة يجد الموضوع إلى جانب الصحيح في كل باب من الأبواب إلا إن الموضوعات في الفضائل والمثالب والترغيب والترهيب قد بلغت الحدّ الأقصى في غرابتها وبُعدها عن منطق الإسلام والأخلاق. هذا النوع من الموضوعات قد استخدمه الحكّام وأعداء الإسلام لأغراضهم الهدّامة، واستخدمه المرتزقة والقصّاص للاستجداء، ولا يزال المسلمون يعانون من آثاره السيئة التي مكّنت بينهم العداوة والبغضاء، وفرّقتهم شيعاً وأحزاباً.

---

(١) لم نعثر عليه.

الفصل الرابع

[نقد أحاديث الفضائل والمثالب ومرويات الغلو والكرامات والخوارق]

يشتمل هذا الفصل على أمثلة من المثالب في بعض الصحابة المنسوبة إلى الأئمة (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، وبعض الكرامات والفضائل بعضها لا يشكّ القارئ وهو يقرؤها في أنها من موضوعات أعداء الأئمة عليهم السلام من حيث متنها وسندها، والنوع الآخر من قسم الضعيف الذي لم تتوفر فيه الشروط المطلوبة في الراوي والرواية.

[موقف الحاكمين من آل البيت، وموقفهم عليهم السلام المتجسد في سنة الرسول وقرآنه]

وقبل الشروع في هذا الموضوع أعود فأكرر ما أشرت إليه في الفصول السابقة من أن الحكّام الأُمويين والعباسيين قد استغلّوا جماعة من الفقهاء والمحدّثين، فوضعوا على لسان الرسول في أخصامهم السياسيين عدداً كبيراً من الأحاديث التي تحقّق لهم أغراضهم ومقاصدهم، كما وضعوا لهم مجموعة من المرويّات في الطعن على الخلفاء والصحابة، والغلوّ المفرط في علي وبنيه عليهم السلام بقصد إظهارهم على غير واقعهم، وإيجاد فجوة بينهم وبين جمهور المسلمين الذين يدينون بشرعية الخلافة الإسلامية، وتقديس أكثر الصحابة. ونجحوا في هذا المخطط إلى حدٍ ما؛ حيث علقت تلك الأحاديث في أذهان الكثيرين ودوّنها المحدّثون، ولا يزال البعيدون عن واقع التشيّع ينظرون إليها وكأنها من أُصوله. وساعدهم على ذلك أنهم وجدوها بين مرويّاتهم، وبعضها في مجاميعهم التي ينظرون إليها بعين الرضا والإكبار، وقد تركها النقّاد والباحثون في الحديث لأسباب لا أستطيع تقديرها.

كما وأني لا أستطيع أن أُبرّئهم من مسؤولية هذا الإهمال؛ لأن بقاء تلك المرويات في مجاميعنا وبين أحاديثنا قد يسّر لأعداء الشيعة أن يتحاملوا عليهم، ويقفوا منهم تلك المواقف المسعورة والمشحونة بالكيد والبغي. وهل يجد العدوّ الذي يحاول التنكيل والتشهير سلاحاً أمضى وأشدّ فتكاً من هذه المرويات المنتشرة بين المرويات عن الأئمةعليهم السلام، والتي دوّنها الشيعة في مجاميعهم إلى جانب الصحيح فيها؟ في حين أن الإسلام قد حارب كل ما من شأنه إثارة الأحقاد والبغضاء، وأقام بنيانه على أساس التسامح والتساهل، وتطهير النفوس من كلّ ما من شأنه أن يعكّر الأجواء ويشحنها بالفتن والخلافات الجانبية التي لا تخدم مصلحة الإنسان في دنياه ولا في آخرته، ووضع الأُسس الكفيلة ببناء المجتمع الصالح الذي لا يمكن بناؤه إلا بالعمل المتواصل والجهد المخلص.

ومن هنا يدرك الإنسان المجرّد عن الأهواء والنزعات سرّ خلوده وبقائه، واحتياج الإنسان مهما بلغ وتعالت قدرته وسمت مواهبه إلى أن يستمدّ منه ويعمل بوحي من هديه وتعاليمه في مختلف الميادين.

كما وأن الأئمة من ولد الرسولصلى الله عليه وآله الذين يعكسون في سلوكهم وسيرتهم ومجالسهم، وفي كلّ حركة من حركاتهم روح الإسلام ومبادئه وتعاليمه، ويعبّرون عنها أصدق تعبير، كانوا أرفع من أن يستعملوا لغة السبّ والشتم للأشخاص، والتشفّي بلعنهم والتشهير بهم، لا سيما وهم يعلمون بأن ذلك قد يجرّ عليهم وعلى شيعتهم المشاكل والمتاعب، ولا ينفعهم بقدر ما يسيء إليهم. ان عظمة الأئمة من أهل البيت مستمدّة من سيرتهم وتفانيهم في سبيل الحقّ وخير الناس أجمعين، لا من الخرافات والأساطير، ولا من سيّئات أخصامهم. والتاريخ وحده هو الذي يكشف هذه الحقيقة، ويضع الإنسان إما في صفوف عباقرة العصور والمصلحين، أو في صفوف الأبالسة والشياطين.

هذا بالإضافة إلى أن الآثار الصحيحة تؤكّد أنهم كانوا يحرصون أشدّ الحرص على

أن يترفّع أصحابهم عن لغة السبّ والشتم وكشف العيوب، لقد سمع أمير المؤمنينعليه السلام جماعة من أصحابه يشتمون معاوية، فأنكر عليهم ذلك وقال: «**إني أكره لكم أن تكونوا قوماً سبّابين، فإذا ذكرتموه وأصحابه فقولوا عوضاً عن ذلك: اللهم اجمعنا وإيّاهم على الحقّ والهدى، واهدهم إلى صراطك المستقيم**»[١]. في حين أن معاوية قد عمل بما تقتضيه طبيعته وطينته، فأمر بلعن علي وشتمه على المنابر، وفي النوادي والحلقات، وأعدّ القصّاصين لهذه الغاية، كما أشرنا إلى ذلك في الفصول السابقة[٢]، مع العلم بأن الذين حكموا قبل معاوية كانوا أنزه منه، وأحرص منه على مصلحة الإسلام بعشرات المرّات. ومن الثابت أن الرواية التي رواها بعض المؤرّخين والمحدّثين، والتي تنصّ على أن علياًعليه السلام قد أمر أصحابه بلعن معاوية، وقنت بلعنه في صلاته[٣]، هذه الرواية من موضوعات معاوية وأتباعه، وضعوها ليبرّروا بها شتم علي ولعنه على منابر المسلمين، بل وحتى في الصلاة وجميع الطاعات.

وقد ذكرنا في الفصل السابق رواية إبراهيم بن أبي محمود عن الإمام الرضاعليه السلام حول هذا الموضوع[٤]، والتي يحدّد فيها موقف الأئمة من تلك المرويات.

[الأحاديث المنسوبة إلى الأئمة في تقريظ شيوخ الصحابة]

وذكر جماعة من المحدثين وكتّاب الفرق أن جماعة ممّن بايعوا زيداً في الكوفة قالوا له في الوقت الذي استعدّ لمواجهة أتباع الأُمويين: ما تقول (رحمك الله) في أبي بكر وعمر؟ فقال: غفر الله لهما، ما سمعت أحداً من آبائي تبرّأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً. فقالوا له: فلمَ تطالب إذن بدم أهل البيت؟ فقال: إن أشدّ ما أقول فيمن ذكرتم أنا كنا

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١١ ص ٢١.

(٢) تقدم فيما سبق.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١١ ص ٢٣.

(٤) تقدم فيما سبق.

أحقّ الناس بهذا الأمر، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا كفراً؛ فقد ولّوا فعدلوا، وعملوا بالكتاب والسنة. قالوا: فلمَ تقاتل إذن؟ قال: إن هؤلاء ليسوا كأُولئك؛ إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، وإني أدعو إلى كتاب الله وإحياء السنن وإماتة البدع؛ فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولي، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل. فرفضوه وانصرفوا، ونقضوا بيعته، فلحقهم اسم الرافضة[١] كما يبدو ذلك في كتب[٢] الفرق والمؤرخين.

ولو صحّ ما يُنسب إلى الائمةعليهم السلام من أنهم كانوا يشتمون، أو يرضون بالسبّ والشتم لا يمكن أن ينفي زيد هذا الأمر نفياً قاطعاً، ويصرّ على موقفه، وهو يعلم أن جماعة ممّن بايعوه سينفضّون من حوله، وهو في أمسّ الحاجة إلى الأنصار والأتباع.

وجاء عن الإمام علي بن الحسينعليه السلام أنه أنكر على جماعة من الشيعة شتمهم للخلفاء وقال لهم: «**أيها الناس، أحبّونا حبّ الإسلام، فما برح حبّكم لنا حتى أصبح علينا عاراً، وحتى بغّضتمونا إلى الناس**»[٣].

وجاء عنه أن جماعة من الشيعة نالوا من أبي بكر وعمر في مجلسه فقال لهم: «**أخبروني أأنتم من المهاجرين الأولين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله؟**»[٤]. قالوا: لا. قال: «**أفأنتم من الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم؟**»[٥]. قالوا: لا. فقال لهم: «**أما أنتم، فقد**

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٩٨.

(٢) في الأصل: كتاب.

(٣) تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٣٨٧، البداية والنهاية ج ٩ ص ١٢٢.

(٤) أشارة إلى الآية الثامنة من سورة الحشر وهي: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

(٥) إشارة إلى الآية التاسعة من سورة الحشر وهي: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

أقررتم على أنفسكم، وشهدتم بأنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾(١). قوموا عني لا بارك الله فيكم، ولا قرّب دوركم؛ أنتم مستهزئون بالإسلام، ولستم من أهله»(٢).

ورويت هذه الحادثة مع ولده الإمام محمد الباقرعليه السلام، ومن الجائز أن تكون قد تكرّرت معهما، وأجاب الثاني بعين جواب الأول؛ لأن منطقهما واحد، وهدفهما واحد، لا يدارون ولا يحابون، ولا يهمّهم إلا رضا الله وخير الناس أجمعين.

وروى جابر الجعفي عن الإمام الباقرعليه السلام أنه قال له وهو يودّعه: «أبلغ أهل الكوفة أني بريء ممّن تبرّأ من أبي بكر وعمر، ومن لم يعرف فضلهما فقد جهل السنة»(٣).

وروي عنه أنه قال له: «بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبّوننا ويتناولون أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما)، ويزعمون أني أمرتهم بذلك، فأبلغهم أني بريء منهم. والذي نفسي بيده، لو وُلّيت لتقرّبت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمدصلى الله عليه وآله إن لم أستغفر لهما وأترحّم عليهما»(٤).

وجاء عن الإمام الصادقعليه السلام أن عروة بن عبد الله سأله عن حلية السيوف، فقال: «لا بأس بها، فقد حلّى أبو بكر الصدّيق سيفه». قال له: أتقول الصدّيق؟ فوثب واستقبل القبلة، ثم قال: «نعم الصدّيق، فمن لم يقل له: الصدّيق، فلا صدّق الله له

خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(١) سورة الحشر الآية ١٠.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٤٢ ص ٣٨٩. والرواية يرويها الإمام الباقر عن أبيه، ولم نعثر على الرواية عن الإمام الباقر نفسه، كما سيذكر المؤلّف.

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٥٤ ص ٢٨٦.

(٤) المرجع نفسه.

قولاً»[1]. إلى غير ذلك من المرويات المنتشرة هنا وهناك.

وهذه المرويّات وإن لم تكن مستوفية للشروط المطلوبة من حيث متنها وسندها كما يبدو ذلك من رواية جابر المتقدّمة التي يقول الإمام فيها: «**لو وُلّيت، لتقربت إلى الله بدمائهم**»؛ فإنهم لا يستوجبون هذه العقوبة لمجرّد أنهم ينالون من أبي بكر وعمر، كما هو المعلوم، حتى ولو كان أبو بكر وعمر في منتهى القداسة، إلا إن هذه المرويّات على تقدير صدورها ولو لأي جهة من الجهات تلمح إلى أن لغة السُّباب والشتائم ليست مألوفة للأئمةعليهم السلام، ولا هي من منطقهم، ولا تساعدهم الظروف على استعمالها. وبالإمكان أن تكون تلك المرويات من صُنع الدسّاسين وأعداء الأئمة كما ذكرنا ذلك سابقاً حسبما يتّفق مع مصالحهم وأغراضهم الدنيئة.

وأنا لا أُريد أن أبرّئ بعض المتشيّعين من الطعن على الخلفاء، وإلصاق بعض الصفات المشينة بهم؛ فقد وضع بعضهم عدداً من المرويات حول هذا الموضوع، ونسبوها إلى الأئمة إلى جانب ما وضعه أعوان الحكّام من المرتزقة وأعداء أهل البيت، كما جاء في رواية إبراهيم بن أبي محمود عن الإمام الرضاعليه السلام[2]. كما وأني لا أُريد أن أُبرّئ أحداً من الظلم والاغتصاب، وأن أضع الظالمين في صفوف الأتقياء والصلحاء؛ فالله في كتابه قد لعن الظالمين في أكثر السور والآيات، ووعدهم بالخزي والعذاب الأليم، ولكن الذي أُريده أن الأئمّة الهداةعليهم السلام مع حرصهم الأكيد على التمسّك بالحقّ الذي جعله الله لهم، والذين هم أولى به من أي إنسان آخر مهما كانت منزلته وصفته، كانوا عندما يحاولون إظهار حقّهم وظلامتهم، لا يتعدّون أُسلوب القرآن الكريم في التنديد بالظالمين والغاصبين، ذلك الأُسلوب الذي يتناسب مع مقامهم الرفيع، وحرصهم على تماسك الأُمّة في مقابل أعداء الإسلام الذين يكيدون لله ورسوله وكتابه، كما نبّهت على ذلك أكثر من مرة في الفصول السابقة، والله من وراء القصد.

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤.

(٢) تقدم فيما سبق.

من الموضوعات في المثالب

جاء في (الوافي) من رواية سليم بن قيس عن سلمان الفارسي أنه جاء إلى علي عليه السلام وهو يغسّل رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخبره بما صنع الناس، وأخبره أن أبا بكر على منبر رسول الله، وأن الناس يبايعونه بكلتا يديه، فقال له علي عليه السلام: «**هل تدري أول من بايعه على منبر رسول الله؟**» فقال سلمان: لا أدري، غير بشير بن سعد، وأبي عبيدة، وعمر بن الخطاب، وسالم. فقال له الإمام: «**لا أسألك عن هذا، ولكن هل تدري أول من بايعه حين صعد على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله؟**». قال: رأيت شيخاً كبيراً متوكّئاً على عصاه، بين يديه سجادة، شديد التشمير[1]، صعد إليه أول من صعد وهو يبكي ويقول: الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيتك في هذا المكان، ابسط يدك. فبسط يده، فبايعه ثم نزل وخرج من المسجد. فقال علي عليه السلام: «**أتدري من هو؟**». قلت: لا، ولقد ساءتني مقالته، وكأنه شامت بموت النبي. فقال له علي عليه السلام: «**ذاك إبليس (لعنه الله)، أخبرني رسول الله أن إبليس ورؤساء أصحابه شهدوا نصب رسول الله إياي في غدير خمّ بأمر من الله، وأمر الأبالسة الذين حضروا معه يوم ذاك أن يبلّغ الشاهد منهم الغائب، فأقبل إبليس الأبالسة ومردة أصحابه، فقالوا: إن هذه أُمّة مرحومة معصومة، وما لنا عليهم من سبيل. فانطلق إبليس حزيناً كئيباً**». وأضاف إلى ذلك علي عليه السلام كما جاء في الرواية: «**إن رسول الله أخبرني أن الناس يبايعون أبا بكر، وأن أول من يبايعه على منبري إبليس في صورة رجل شيخ مشمّر، ويجمع شياطينه وأبالسته، فيسخر ويقول: زعمت أن ليس لي عليهم سبيل، فكيف رأيتم ما صنعت بهم حتى تركوا أمر الله وطاعته، وما أمرهم به رسول الله؟**»[2][3].

---

(١) يقال: شمّر عن ساعده أو عن ساقه إذا جدّ في الأمر وبدا مهتما فيه.

(٢) ويكفي هذه الرواية عيباً أنها من مرويات سليم بن قيس وهو من المشبوهين والمتّهمين بالكذب، وقد ورد في الكتاب المنسوب إليه أن محمد بن أبي بكر وعظ أباه عند الموت مع أنه كان في حدود السنتين من عمره، كما ورد فيه أن الأئمة ثلاثة عشر إماما!

(٣) الرواية في الكافي للكليني ج٨، ص٣٤٣. وكذلك في بحار الأنوار للمجلسي ج ٢٨، ص٢٦١.

وجاء فيه عن صباح المزني عن جابر الجعفي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام رواية بهذا المضمون جاء فيها: «**إن الناس لما بايعوا أبا بكر، لبس إبليس تاج الملك، ونصب منبراً وقعد في خيله وألويته وأمرهم أن يطربوا...**». وأضاف إلى ذلك الراوي أن الإمام الباقر فسّر الآية ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ**﴾[1] ببيعة أبي بكر[2][3].

وجاء في (الوافي) باب (ما نزل فيهم وفي أعدائهم) عن محمد بن أورمة، وعلي بن حسّان بسند يتّصل بالإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إن الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً﴾[4] نزلت في فلان وفلان وفلان[5]؛ ﴿آمنوا﴾ بالنبي صلى الله عليه وآله في أول الأمر، ﴿ثم كفروا﴾ حيث عرضت عليهم الولاية حين قال النبي: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»، ﴿ثم آمنوا﴾ في البيعة لأمير المؤمنين، ﴿ثم كفروا﴾ حيث مضى رسول الله، فلم يقرّوا له بالبيعة ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم فلم يبقَ فيهم من الإيمان شيء**»[6].

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٠.

(٢) لقد ورد في سند هذه الرواية صباح المزني وجابر الجعفي، وهما ضعيفان، وقد ورد في جابر قدح ومدح، والأكثر على أنه كان مخلّطاً. وتشير بعض المرويات عن الإمام الصادق أنه كان لا يرتضيه. وعلى أيّ الأحوال فلا يستطيع الباحث في تاريخه أن يخرج وبين يديه حكم ببراءته ولو من بعض ما نسب إليه.

(٣) الكافي ج ٨ ص ٣٤٤، بحار الأنوار ج ٢٨ ص ٢٥٦.

(٤) سورة النساء الآية ١٣٧.

(٥) والمقصود بهذه العبارة في هذه الرواية وأمثالها هم الخلفاء الثلاثة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان الذين سبقت خلافتهم خلافة الإمام علي بن أبي طالب.

(٦) الكافي ج ١ ص ٤٢٠، علما أنه قد وقع خلط، ووردت الآية في (الكافي) بهذه الصيغة (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم) وهي الآية ١٣٧ من سورة النساء ولكن بدون ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؛ فهذا الذيل وارد في الآية ٩٠ من سورة النساء. وقد علّق عليها بعض المحشين قائلاً: «إن هذا تنبيه على أن مورد الآيتين واحد»! فالحمد لله الذي منّ علينا بأمثال هذا المحشّي.

وروى ابن أورمة بنفس السند عن الإمام الصادقعليه السلام كما جاء في (الوافي) أنه قال في تفسير الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾(١) هم فلان وفلان وفلان؛ فقد ارتدّوا عن الإيمان في ترك ولاية علي، وإن الآية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾(٢) نزلت والله فيهم وفي أتباعهم»(٣).

وروي أيضاً عن الصادقعليه السلام أن الآية: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾(٤) نزلت فيه؛ حيث دخلوا الكعبة فتعاهدوا وتعاقدوا على كفرهم وجحودهم بما أنزل في عليعليه السلام، فألحدوا في البيت بظلمهم الرسول ووليه؛ فبعداً للقوم الظالمين(٥)(٦).

[من مرويات (معالم الزلفى) حول هذا الموضوع]

وجاء في (معالم الزلفى)(٧) عن العيّاش عن خيثمة الجعفي والمفضل بن عمر في الباب الثاني والعشرين في (صفة المحشر) أنهما قالا: كنّا عند أبي جعفر الباقر ليلاً ليس عنده أحد، فقال له المفضل: حدثنا بحديث نُسرُّ به. قال: «نعم». ثم استرسل الإمام في حديث طويل يصف فيه حالة الناس في المحشر، وحالة الأنبياء والأولياء، وما يلقونه من الترحيب والإكرام والتعظيم، وكيف يلتفّون بمحمد ويلوذون به، بوصف رائع

---

(١) سورة محمد الآية ٢٥.

(٢) سورة محمد الآية ٢٨.

(٣) الكافي ج ١ ص ٤٢٠.

(٤) سورة الحج الآية ٢٥.

(٥) هذه المرويات وأمثالها من تفسير الباطن المنسوب إلى محمد بن أورمة، وعلي بن حسّان، ويونس بن ظبيان، وأمثالهم من المتّهمين بالغلوّ والانحراف، وقد ضعّفهم المؤلّفون في الرجال، وتوقّفوا في مرويّاتهم. ويكفي هذه المرويات عيباً ورودها عن طريق هؤلاء بالإضافة إلى عيوبها الأُخرى.

(٦) الكافي ج ١ ص ٤٢١.

(٧) المقصود هو كتاب (معالم الزلفى في النشأة الأُخرى) لمؤلفه السيّد هاشم البحراني المتوفى في سنة (١٠٠٧) هجرية.

وخيال خلاق مبدع، شأن المفضل في أكثر مرويّاته عن الأئمة، وبخاصّة عندما يحاول الدسّ والتشويش على الأئمّة الهداة، ويمضي قائلاً: «فيقوم شيطان كلّ فرقة فيتّبعونه، حتى تبقى هذه الأُمّة، ثم يخرج منادٍ من عند الله سبحانه، فيقول: يا معشر الخلائق، أليس العدل من ربّكم أن يأتي كلّ فريق مع من كانوا يتولّونه في دار الدنيا؟ فيقولون: بلى، فيقوم شيطان فيتبعه من كان يتولاه، ثم يقوم الثاني فيتبعه من كان يتولاه، ثم يقوم شيطان ثالث فيتبعه من كان يتولاه، ثم يقوم معاوية بن أبي سفيان فيتبعه من كان يتولاه، ثم يقوم يزيد بن معاوية وأتباعه، ويقوم الحسين عليه السلام وأتباعه، ومروان وعبد الملك وعلي بن الحسين وأتباعهما». إلى أن يصل إلى الإمام الصادق. ثم قال الإمام على حدّ زعم المفضّل: «ثم أقوم أنا فيتبعني من يتولاني، وكأني بكما معي نجلس معاً على عرش ربّنا، ويؤتى بالكتب فنشهد على عدوّنا، ونشفع لمن كان من شيعتنا مرهقاً بالذنوب». ويقف الراويان عند هذا الحدّ بعد أن جاءت جارية الإمام، وأخبرته أن بعض القرشيين بالباب، فانقطع عن الحديث عند ذلك[1].

لقد اشتملت هذه الرواية على بعض الأُمور البعيدة عن منطق الإسلام وأُسلوب الأئمة، وبخاصّة التعبير عن الخلفاء الثلاثة بـ «الشياطين»، هذا التعبير الذي لم يقصد منه إلا الإساءة إلى الإمام الصادق، وإيجاد فجوة بينه وبين من لا يؤمن بمثل هذه الأساطير، ولا يرضى بالإساءة إلى الخلفاء الثلاثة.

ولم يكتفِ بكل ذلك حتى نسب إلى الإمام عليه السلام أنه يحتلّ عرش الربّ ومعه المفضّل وخيثمة، في حين أن الإمام قد لعن المفضّل، وحذّر أصحابه من مَكرِه ودسائسه في أكثر من مناسبة، ووصفه بالشرك والكفر. وقلّما تخلو رواية من مرويّاته من الغلوّ في الإمام، أو المبالغة فيما يحدّث به؛ لذلك فقد عدّه المؤلّفون في الرجال من الضعفاء المتروكين، مع وجود بعض المرويّات عن الإمام الصادق عليه السلام في الثناء عليه. وأقل ما يوجب ذلك التوقّف في أمره، والحذر من مرويّاته.

---

(١) معالم الزلفى ج٢ ص ١٧١.

وأما خيثمة الجعفي، فلقد ورد اسمه في كتب الرجال مع الحسان، ولم يرد في حديثهم عنه ما يشعر بوثاقته وصّحة الاعتماد على مرويّاته ما لم تتأيّد ببعض القرائن والشواهد. ومن غير الميسور أن تجد لهذا النوع من المرويّات شاهداً يرجّح صدورها عن الإمامعليه السلام.

وروي في (معالم الزلفى) في رواية أسندها أبو الخطّاب إلى حريز عن أبي جعفر الباقرعليه السلام في تفسير قوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾**[1] أن أبا بكر يقول: يا ليتني لم أتّخذ الثاني خليلاً[2].

وقد أكّد هذا المعنى جابر الجعفي في روايته عن أبي جعفر الباقرعليه السلام، وجاء فيها: إن أمير المؤمنين خطب الناس، وقال في خطبته: «**ولئن تقمصها دوني الأشقيان، ونازعاني فيما ليس لهما بحقّ، وركباها ضلالة، واعتقداها جهالة، فلبئس ما عليه وردا، ولبئس ما لأنفسهما مهّدا، يتلاعنان في دوارهما، فيتبرّأ كل منهما من صاحبه، ويقول لقرينه إذا التقيا: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾. فيجيبه الأشقى:** يا ليتني لم أتخذك خليلاً، لقد أضللتني عن الذكر بعد أن جاءني، **﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾**...»[3]. ويضيف الراوي إلى ذلك بعض الفقرات التي تنذر بسوء مصيرهما وشدّة عذابهما.

وروي بمضمونها عن الإمامين الباقر والصادق بأسانيد غير مستوفية للشروط كما نصّ على ذلك المؤلّفون في الرجال.

وأما أبو الخطاب محمد بن أبي زينب أحد الرواة لهذا اللون من الأحاديث فلقد قال فيه الشيخ محمد طه في رجاله بأنه ملعون باتّفاق الأصحاب، وقد لعنه الإمام الصادق،

---

(١) سورة الفرقان الاية ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) معالم الزلفى ج٢ ص ٥٠٢.

(٣) الكافي ج ٨ ص ٢٧.

وحذّر أصحابه من دسائسه ومروياته، كما نصّ على ذلك المرزا محمد، والنجاشي، والكشي، وغيرهم[١].

وجاء في (معالم الزلفى) عن الشيخ علي بن مظاهر تلميذ فخر الدين بن العلامة الحلّي عن أبي الحسن علي الهادي عليه السلام: «**إن حذيفة اليمان دخل في اليوم التاسع من ربيع الأول على النبي صلى الله عليه وآله، وعنده علي والحسنان عليهما السلام يأكلون معه، وهو يبتسم في وجوههم، ويقول لولديه الحسن والحسين: كلا هنيئاً لكما في هذا اليوم؛ فإنه اليوم الذي يقبض فيه عدوّ الله عمر بن الخطاب، عدو الله وعدوكما، ويستجيب فيه دعاء كما[٢]، كلا فإنه اليوم الذي يقبل فيه الله أعمال شيعتكما ومحبّيكما، كلا فإنه اليوم الذي يفقد فيه فرعون أهل بيتي وظالمهم وغاصب حقّهم، كلا فإنه اليوم الذي يعمد الله إلى ما عملوا من عمل فيجعله هباء منثوراً**».

ويمضي النبي كما يزعم الراوي يصف عمر بن الخطاب، ويلصق به العيوب والبدع، فلا يترك شيئاً إلا ويلصقه فيه، ولا لعنة إلا ويُتوّجه بها، ويعود إلى فضل اليوم التاسع من ربيع الأول وما أعّده الله فيه لشيعة علي فيقول: «**إن الله أمر السماوات السبع وما فيها أن يتعبّدوا في هذا اليوم ويستغفروا لشيعتكم، ورفع القلم عن الخلق لثلاثة أيام لا يكتب فيها على أحد سيئة مهما كان نوعها وخطرها؛ كرامة لمحمد وعلي، وتعظيماً لهذا اليوم الذي تهدم فيه أعظم ركن من أركان الجور والطغيان والفساد**»[٣]. في حديث طويل يبلغ أكثر من خمس صفحات إذا أردنا تدوينه بكامله، في حين أن جميع فقراته تشهد بأنه من صنع الدسّاسين الحاقدين على أهل البيت وشيعتهم[٤].

---

(١) راجع هذه الأقوال وغيرها في الترجمة الخاصة بأبي الخطاب من الجزء الخامس عشر من (معجم رجال الحديث) لأبي القاسم الخوئي ص ٢٥٥ رقم الترجمة ١٠٠١٢.

(٢) في المصادر التي نقلت الحديث: «ويستجيب فيه دعاء أُمّكما».

(٣) معالم الزلفى ج٣ ص ٣١٠.

(٤) هذا الحديث هو المعروف عند البعض من عوامّ الشيعة بحديث «كلا كلا» كناية عن أن النبي

ولو لم يكن في (معالم الزلفى) من المكذوبات غير هذا الحديث لكفاها وصمة وعاراً، على أن الأحاديث المكذوبة فيها لا تقلّ عن الأحاديث التي يمكن التغاضي عن عيوبها. وعلى أيّ الأحوال فالعارفون من الشيعة وعلماؤهم لا يعترفون بهذا الحديث وأمثاله من المنكرات، ولا يتنافى ذلك مع وجود هذا النوع من الأحاديث بين المرويات المنسوبة إليهم وفي بعض مجاميعهم؛ لأن أكثر المؤلفين في الحديث قد حشدوا في مجاميعهم كل ما وقفوا عليه من المرويات، وتركوا للباحث حرية النقد والاختيار. ويجد المتتبّع في مجاميع السنة، بل وفي صحاحهم أغرب من هذا الحديث وأبشع.

وروي في الكتاب المذكور عن سليم بن قيس أن علياً قال لسلمان وأبي ذرّ وعمّار والمقداد: «أُذكّركم الله، أسمعتم رسول الله يقول: إن تابوتاً من نار فيه اثنا عشر رجلاً؛ ستّة من الأوّلين، وستّة من الآخرين، في قعر جهنم في تابوت مقفل، في ذلك الجبّ صخرة إذا أراد الله أن يسعّر جهنم كشف تلك الصخرة عن ذلك الجب فأسعر جهنم من وهج ذلك الجبّ ومن حره؟». وجاء في الحديث أن علياً قال لهم: «**فسألت رسول الله وأنتم حضور، فقال: أمّا الأوّلون فابن آدم الذي قتل أخاه، وفرعون الذي حاجّ ابراهيم في ربّه، ورجلان من بني إسرائيل بدّلا كتابها وغيّرا سنتها، أحدهما هَوّد اليهود والآخر نَصّر النصارى، وعاقر ناقة صالح، وقاتل يحيى بن زكريا، والدجّال، والأربعة من أصحاب الكتاب، وجبتهم وطاغوتهم الذين تعاهدوا وتعاقدوا على عداوتك يا أبا الحسن**»[(١)].

وروي في الكتاب المذكور عن يزيد بن هرون، وعن كتاب (تحف الإخوان)، وعن إسحاق بن عمّار الصيرفي، وجماعة آخرين حول الشيخين الجليلين ومصيرهما في الآخرة

بزعم الراوي كان يكرّر هذه الكلمة على الإمامين الحسن والحسين استبشاراً بهذا اليوم الذي يقتل فيه الخليفة، ويلاقي مصيره المحتوم. ومن الثابت ان الخليفة الثاني كانت وفاته في أواخر ذي الحجة من سنة ٢٣ هجرية.

(١) معالم الزلفى ج٣ ص ٣٢٣.

بأسانيد ضعيفة واهية لايجوز الاعتماد عليها في شيء من أُمور الدين بمقتضى الأُصول التي وضعها علماؤنا الأعلام للأخذ بالرواية. هذا بالإضافة إلى متون تلك الروايات وصياغتها التي لا تنسجم مع أُسلوب الأئمةعليهم السلام في التعبير عن مقاصدهم وأهدافهم النبيلة الفاضلة، هذا الأُسلوب الذي يتميّز بالتسامح والدعوة إلى كلّ ما من شأنه ان يؤلّف ولا يفرّق، ويجمع ولا يشتّت، ويأخذ بيد الناس إلى ما فيه خيرهم في الدنيا، وسعادتهم في الآخرة.

أقول ذلك وأنا على يقين من أن القوم قد انتزعوا الحقّ من أصحابه الشرعيّين بعد أن تمّت عليهم الحجة، ولم تترك لهم مخرجاً كما تؤكّد ذلك المرويّات عن النبيصلى الله عليه وآله، ولكن أصحاب الحقّ كانوا فوق مستوى الإنسان الذي يريد أن ينفّس عن غمّه بمثل هذه الأساليب التي لا تجدي نفعاً، وقد تجرّ عليهم وعلى من يتحدّث بها أسوأ أنواع البلاء والتعذيب، والله سبحانه لكل ظالم بالمرصاد.

[رواية كعب الأحبار حول وفاة عمر بن الخطاب]

وروي عن ابن عبّاس وكعب الأحبار حديثاً طويلاً جاء فيه أن عبد الله بن عمر قال: لمّا دنت وفاة أبي كان يغمى عليه تارة ويفيق أُخرى، فلمّا أفاق قال: يا بني أدركني بعلي بن أبي طالب قبل الموت. فقلت له: وما تصنع معه، وقد جعلتها شورى، وأشركت معه غيره؟ قال: يا بني سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: «**إن في النار تابوتاً يُحشر في اثنا عشر رجلاً من أصحابي**». ثم التفت إلى أبي بكر وقال: «**احذر أن تكون أوّلهم**». ثم التفت إلى معاذ بن جبل وقال: «**إياك أن تكون الثاني**». ثم التفت إليّ وقال: «**إياك يا عمر أن تكون الثالث**». وحينما أُغمي عليّ يا بني رأيت التابوت وليس فيه إلا أبو بكر، ومعاذ بن جبل، وأنا الثالث لا أشكّ فيه.

قال عبد الله: فمضيت إلى علي بن أبي طالب وقلت: يابن عم رسول الله، إن أبي يدعوك لأمر قد أحزنه. فقام عليعليه السلام، فلما دخل عليه، قال: يابن عم رسول الله، ألا

تعفو عنّي وتحلّني منك ومن زوجتك فاطمة الزهراء، وأُسلّم لك الخلافة؟ فقال له علي عليه السلام: «**على شرط أن تجمع المهاجرين والأنصار، وتعطي الحقّ الذي حرصت عليه من ملكه، وما كان بينك وبين صاحبك من معاهدتنا، وتقرّ لنا بحقّنا، وأعفو عنك وأحلّك، وأضمن لك عن ابنة عمي فاطمة**»[1]. قال عبد الله: فلما سمع أبي ذلك حوّل وجهه إلى الحائط، وقال: النار يا أمير المؤمنين، ولا العار[2].

هذا الحديث لو تغاضينا عن سنده المتّصل بكعب الأحبار المعروف بين المحدّثين والمؤرّخين بالكذب على الرسول والصحابة الكرام، وإدخال البدع والغرائب والمنكرات بين أحاديث المسلمين وتفاسيرهم للقرآن الكريم، لو تغاضينا عن ذلك فلا يسع أيّ باحث أن يتغاضى عن الخلل الموجود في متنه، لقد اضطرب عمر بن الخطاب حينما اطلّع على زميليه في تابوت من نار على حدّ زعم الراوي، وكان قد حذّره الرسول أن يكون أحد المعذّبين فيه، ولما نظر إليه هاله هذا المنظر، واستغاث بعليّ ليخلصه من هذا المصير. ويدّعي الراوي أن علياً لم يتصلّب معه، ووافق على ذلك، ولماذا تراجع عمر ووطّن نفسه على النار وهو في اللحظات الأخيرة، وعلى فراش الموت لا أمل له بالنجاح، ولا طمع له بالسلامة من تلك الطعنة التي لم يكن بريئاً منها كعب الأحبار؟ إن هذا الحديث إذا لم يكن من صنع كعب الأحبار، فممّا لا شكّ فيه بأنه من صنع أعداء الشيعة الذين كانوا يحاولون أن يشحنوا القلوب بالحقد على الشيعة وأئمّة الشيعة بواسطة هذه المرويات وأشباهها.

[رواية (بصائر الدرجات) عن ظهور المهدي والمراحل التي ترافقه]

وجاء في (مختصر بصائر الدرجات) للشيخ حسن بن سليمان الحلّي من حديث

(١) ليست فاطمة ابنة عم الامام علي، وإنما هي ابنة ابن عمه، ولعلّ الراوي لم يلتفت إلى هذا حين صاغ هذه الرواية.

(٢) راجع مدينة المعاجز لهاشم البحراني ج ٢ ص ٩٥.

طويل يبلغ نحواً من تسع صفحات رواه المفضّل بن عمر عن الإمام الصادقعليه السلام تناول فيه المفضّل وصفاً شيّقاً لبعض المراحل التي تسبق ظهور المهدي محمد بن الحسن، والتي تقترن بظهوره، والانتصارات الباهرة التي يحقّقها بأُسلوب يبدو عليه الافتراء والتشويش على الأئمة الكرام. ويمضي المفضّل في حديثه ليصف موقف الإمام المنتظر من الشيخين الجليلين أبي بكر وعمر، وإخراجهما من المكان الذي دفنا فيه بجوار الرسولصلى الله عليه وآله، وأنه يخرجهما من قبرهما غضّين طريّين كصورتهما يوم كانا حيّين، ويأمر برفعهما على شجرة يابسة نخرة، فيصلبهما عليها، فتخضرّ وتورق، فيقول المرتابون من أهل ولايتهما: هذا والله الشرف حقاً؛ لقد فزنا بمحبّتهما وولايتهما. ثم ينادي منادي المهدي: «**كلّ من أحبّ صاحبي رسول الله، فلينفرد جانباً**»[1]. فيتجزّأ الخلق جزأين: أحدهما موالٍ، والآخر متبرّئ منهما، فيعرض عليهم المهدي البراءة، فيقولون: إنا نتبرّأ منك ومن آبائك، وبخاصّة بعد أن رأينا في هذا الوقت من نضارتهما وغضاضتهما وحياة الشجرة بهما. فيأمر المهدي ريحاً سوداء فتهبّ عليهما، فيجعلهما كأعجاز نخل خاوية، ثم يأمر بإنزالهما من الشجرة، فيُنزلان إليه، فيحييهما بإذن الله، ويأمر الخلق بأن تجتمع اجتماعاً عامّاً، ثم يقصّ على الناس فعالهما، وما وقع من المفاسد ابتداء من قتل هابيل إلى إشعال النار على باب أمير المؤمنين، وضرب فاطمة، ورفس بطنها، وسمّ الحسن، وقتل الحسين.

يضيف الراوي إلى ذلك: إن الإمام قال: «**إن كل دم سفك، وفرج نكح حراماً، وكلّ فاحشة وإثم وظلم وجور منذ عهد آدم إلى قيام القائم هو منهما**». فيقتصّ منهما في ذلك الوقت، ثم يصلبهما على شجرة، ويأمر ناراً تخرج من الأرض فتحرقهما والشجرة، ثم يأمر الريح فتنسفهما في اليمّ نسفاً.

---

(١) لو تحقق هذا في زماننا فسينفرد قرابة السبعمئة مليون مسلم من أهل السنة والجماعة، ليت الراوي أخبرنا بتلك الساحة العظيمة التي ستستوعب هذا العدد الهائل من الناس.

ويدّعي المفضّل أنه سأل الإمام عما يجري عليهما بعد ذلك، فقال: «**إنهما يقتلان في كل يوم وليلة ألف قتلة، ويردّان إلى ما كانا عليه**».

ثم يأخذ المفضل في وصف مواقف الحجّة، وعدد جنوده من الملائكة والجن والإنس، ولقائه مع الحسين عليه السلام ومعه جند عظيم من الجن والإنس والملائكة، ثم بعلي صاحب القبّة البيضاء على النجف القائمة على أربعة أركان: أحدهما بالنجف، والثاني بهجر، والثالث بصنعاء، والرابع بأرض طيبة.

ولم يقف المفضّل عند هذا الحدّ، بل يمضي ليخبر عن رجوع رسول الله ولقائه بالمهدي، فيقول: قلت له: يا سيدي، رسول الله وأمير المؤمنين يكونان معه؟ فقال: «**لابدّ أن يطأ الأرض حتى ما وراء القاف، إي والله، وما في الظلمات وقعر البحار**»[١]. إلى غير ذلك من الكذب والافتراء على الإمام الصادق عليه السلام.

وجاء في الحديث أن الحجة يخرج أمره إلى ثقاته ووكلائه، ويقعد ببابه محمد بن نصير النميري في غيبته بصابر، ثم يظهر بمكّة. ومن المتّفق عليه أن محمد بن نصير النميري من الغلاة الكذّابين[٢]. وجاء في (إتقان المقال) وغيره أن محمد بن نصير ادّعى النبوّة، وأن الإمام العسكري أرسله إلى الناس، وكان يقول بالتناسخ، وإباحة المحرّمات، ونكاح الرجال بعضهم بعضاً، وأن اللواط هو أحد الطيّبات التي أحلّها الله. إلى غير ذلك من المقالات المنافية لاصول الإسلام وفروعه.

وقد اشتمل سند الرواية بالإضافة إلى المفضّل على عمر بن الفرات، والحسين بن حمدان، وهما من الغلاة الكذّابين الذين لا يوثق بهم، ولا يُعتمد على مرويّاتهم. واتفق المؤلّفون في الرجال على أن الحسين بن حمدان كذّاب، صاحب مقالة فاسدة، ملعون لا يُلتفت إليه، على حدّ تعبيرهم[٣].

---

(١) مختصر بصائر الدرجات ص ١٨٦.

(٢) راجع ترجمته في ج ١٨ من معجم رجال الحديث لأبي القاسم الخوئي ص ٣١٧ تحت الرقم: ١١٩٣١.

(٣) انظر ص ٢٧٧ من الإتقان.

ولو تغاضينا عن سنده ففي متنه أكثر من شاهد على أنه من موضوعات الغُلاة أو الزنادقة الذين دسّوا آلاف الأحاديث في أخبار جعفر بن محمد الصادق؛ لتشويه وجه التشيّع الناصع بمثل هذه الخرافات التي لا تقبلها العقول، ولا تنسجم مع مبادئ الإسلام وأهدافه الرفيعة السامية.

[من مرويات (الكافي) و(الوافي) وغيرهما حول هذه المواضيع]

وجاء في (الوافي) عن محمد بن أورمة، وعلي بن حسام عن أبي عبد الله الصادق في تفسير الآية: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[1] : «**إن الذين ﴿هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ﴾، وإلى صراط الحميد هم حمزة وجعفر وعبيدة بن عبد المطلب وسلمان والمقداد وعمار وأبو ذر، هؤلاء هداهم الله إلى الطيّب من القول، وهو ولاية علي بن أبي طالب، وإن الآية ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[2]: أبو بكر وعمر وعثمان**»[3].

وهذا التفسير من تفسير الباطن المنسوب لمحمد بن أورمة، وعلي بن حسّان، وهما من المتّهمين بالغلو، ولهما كتاب في تفسير الباطن، كما نصّ على ذلك المؤلّفون في أحوال الرجال. وجاء في كتب الرجال أن علي بن حسّان كان فاسد الاعتقاد، وهو يروي في الغالب عن عمّه عبد الرحمن بن كثير الهاشمي، وهو من المتّهمين بالكذب وتأويل القرآن بمثل هذه التأويلات البعيدة عن ظاهره وأُسلوبه[4].

وروى بسطام بن مرة عن إسحاق بن حسّان عن الهيثم بن واقد عن علي بن الحسين العبدي، وسعد الإسكاف عن الأصبغ أن أمير المؤمنين عليه السلام سُئل عن قوله تعالى: ﴿أَنِ

---

(١) سورة الحج الآية ٢٤.

(٢) سورة الحجرات الآية ٧.

(٣) الكافي ج ١ ص ٤٢٦.

(٤) انظر ص ٣٢٦ و ٣٣٩ من إتقان المقال، وانظر رجال المرزا محمد، حرف الميم.

اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[١]، فقال: «الوالدان هما النبي ﷺ وعلي عليه السلام، ﴿وان جاهداك﴾: الشيخان، ﴿على أن﴾ تعدل عما أُمرت به من وصاية علي، ﴿فلا تطعهما وصاحبهما﴾: النبي والوصي ﴿في الدنيا معروفاً﴾، أي عرّف الناس فضلهما، وادعُ إلى سبيلهما»[٢].

ولعلّ هذا التأويل من أسوأ أنواع التصرّف بالكلام والتلاعب بالألفاظ، والراوي له عن الأصبغ هو سعد الأسكاف، وبينه وبين الأصبغ أكثر من تسعين عاماً. هذا بالإضافة إلى أنه من المتّهمين بالكذب والانحراف. وبقية الرواة لهذا الحديث كلّهم من المجهولين، ولم أعثر على أحد منهم في كتب الرجال.

وروي عن محمد بن أورمة، وعلي بن عبد الله عن علي بن حسّان عن عمه عبد الرحمن بن كثير أن أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: «نزلت في فلان وفلان وفلان؛ آمنوا بالنبي فى أول الأمر، ثم كفروا حيث عرضت عليهم الولاية حين قال النبي ﷺ: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه». ثم آمنوا بالبيعة لعلي عليه السلام، ثم كفروا حيث مضى رسول الله ﷺ»[٣].

وروي أيضاً بهذا السند عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير الآية: ﴿﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾[٤] قال: «إنها تعني فلاناً وفلاناً وفلاناً؛ حيث إنهم ارتدّوا عن الإيمان بولاية علي. وإن الآية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾[٥] نزلت فيهم وفي أتباعهم؛ حيث تعاقدوا

---

(١) سورة لقمان الآية ١٤ ـ ١٥.

(٢) شرح أصول الكافي لمحمد صالح المازندراني ج ٧ ص ١٠١.

(٣) تقدمت في ص ٣١٠ من هذا الكتاب.

(٤) سورة محمد الآية ٢٥.

(٥) سورة محمد الآية ٢٨.

مع بني أمية على ألا يُصيّروا هذا الأمر فينا بعد النبي، ولا يعطونا من الخمس شيئاً، فقالوا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾، فأنزل الله فيهم: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾[1] »[2].

لقد ورد هذا السند في بعض المرويّات السابقة، وجميع رجاله من المتّهمين بالكذب والغلو في الأئمة كما ذكرنا.

وإني إذ أكتفي بهذه الأمثلة، وأقف عند هذا الحدّ من المرويات في المطاعن لا أدّعي بأني قد استقصيت جميع المرويّات في هذا الموضوع؛ فالمتتبّع لكتب الحديث والأدعية يجد هنا وهناك أمثلة أُخرى ربّما تكون كهذه الأمثلة أو أصرح منها[3] إلا إن الباحث عندما يعرض متونها وأسانيدها على علمي الرجال والدراية لايكاد يجد رواية من تلك المرويّات، ولا دعاء على تلك الأدعية التي تتعرّض لهذا الموضوع سالمة من العيوب التي يجب الوقوف عندها.

وأعود لأُكرّر بأني لا أُريد من ذلك أن أُقدّس الحكّام والصحابة، ولا أن أُبرّئ أحداً من تلك الأحداث القاسية التي لطّخهم بها التاريخ، ولم يترك منفذاً لبراءتهم منها، ولا أُريد أن أقول: إن الأئمة عليهم السلام قد هادنوا الظلم والظالمين والمتمردين على أوامر الله ونواهيه، وكانوا يترحّمون على الماضين، ويباركون تصرّفاتهم وأعمالهم، لا أُريد شيئاً من ذلك، ولكن الذي أُريده أنهم قد حاربوا الظالمين والطغاة والمنحرفين عن الخطّ الإسلامي بسلوكهم وسيرتهم وتعاليمهم التي كانت تعكس وجه الإسلام الصحيح، وفي الوقت ذاته تفضح مخطّطات الطغاة من حكام تلك العصور الذين تستّروا بالإسلام والدين، وحملوا قلوب الأبالسة والشياطين. أمّا التشفي بالسبّ والشتم الذي

---

(١) سورة الزخرف الآية ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) الكافي ج ١ ص ٤٢٠.

(٣) لقد وضع محمد باقر المجلسي مجلّدين كاملين من كتابه بحار الأنوار، وخصّصهما لمطاعن الخلفاء الثلاثة.

يلجأ إليه الحمقى من الناس احياناً، فليس من شأنهم ولا من أخلاقهم، ولم يرضَ عليعليه السلام لشيعته ومحبّيه أن يستعملوه مع معاوية الذي أسرّ الشرك وأظهر الإسلام، فكيف يرضاه الإمام الصادق لمن هم أطهر من معاوية وأمثاله بعشرات المرات؟

[من مرويات عروة بن الزبير وغيره في الطعن على علي وبنيهعليهم السلام]

وبعد التتبّع في المرويّات السنيّة أستطيع أن أقول بأن المرويات التي وضعها أتباع الحاكمين والحاقدين ممّن ينتسبون إلى السنّة ليست بأقلّ من المرويات الشيعية، ولا المرويات الشيعية التي تسيء إلى الخلفاء بأقسى منها. والى القرّاء أمثلة منها لإثبات هذه الحقيقة، فمن ذلك ما رواه الزهري عن عروة بن الزبير عن خالته عائشة أنها قالت: كنت عند رسول الله إذ أقبل علي والعباس، فقال النبي: «**يا عائشة، إن هذين يموتان على غير ملّتي**»[(١)].

وروي عنها أنها قالت[(٢)]: «**إن سرّكَ أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين**». قالت عائشة: فنظرت، وإذا بعلي والعباس قد أقبلا[(٣)].

وروى عمرو بن العاص كما جاء في صحيحي مسلم والبخاري أنه سمع النبي يقول: «**إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنما وليّ الله وصالح المؤمنين**»[(٤)].

وروى الأعمش أن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية عام الجماعة، دخل مسجة الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مراراً وقال: يا أهل الكوفة، أتزعمون أني أكذب على رسول الله، وأحرق نفسي بالنار؟ والله

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٤ ص ٦٣.

(٢) أي عن النبي الأكرمصلى الله عليه وآله.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٤ ص ٦٤.

(٤) صحيح البخاري ج ٧ ص ٧٣، صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٦ وفيهما: (آل أبي) بدل (آل أبي طالب).

لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**إن لكل نبي حرماً، وإن حرمي بالمدينة ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**». وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها. فلما سمع معاوية أكرمه وأجازه، وولاه إمارة المدينة[١].

وجاء في (شرح النهج) عن أبي جعفر الإسكافي أن المغيرة بن شعبة كان يكره علياً ويلعنه، ويضع الأحاديث فيه وينسبها إلى رسول الله، كما كان يفعل مثله سمرة بن جندب، وقد بذل له معاوية خمسمئة ألف درهم ليروي للناس عن رسول الله أن الآية: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ**﴾[٢] نزلت في ابن ملجم؛ لأنه قتل علياً، والآية: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾[٣] نزلت في علي بن أبي طالب[٤].

وجاء في المجلد الأول من (شرح النهج) ص ٣٦٠ أن الروايات تظاهرت عن عروة بن الزبير أنه كان يسبّه ويضرب بإحدى يديه على الأُخرى ويقول: وما يغني أنه لم يخالف إلى ما نهى الله[٥]، وقد أراق دماء المسلمين؟ وأضاف إلى ذلك أن حريز بن عثمان كان يبغضه ويروي الأحاديث المكذوبة فيه، فقد روى حمزة بن حسان عنه أنه كان يقول إذا ذكر علي عليه السلام: ذاك الذي أحلّ حرم رسول الله.

وقال يحيى بن صالح الوضّاحي: لقد أتيت حريز بن عثمان، فناولني كتاباً فإذا فيه: حدّثني فلان عن فلان أن النبي أوصى عندما حضرته الوفاة أن تقطع يد علي بن أبي طالب[٦].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٤ ص ٦٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٧.

(٣) سورة البقرة الآيات ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٤ ص ٧٢.

(٥) في المصدر: نُهي عنه.

(٦) السقيفة وفدك ص٥٦، شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٧٠.

وقال أبو جعفر الإسكافي: كان المغيرة صاحب دنيا، يبيع دينه بالقليل النزر، يرضي معاوية بها يسيء إلى علي‌عليه‌السلام، وقد قال يوماً في مجلس معاوية: إن علياً لم ينكحه رسول الله ابنته حبّاً به، ولكنه أراد أن يكافئ إحسان أبي طالب. وأضاف إلى ذلك أبو جعفر: وقد صحّ عندنا أن المغيرة لعنه على منبر العراق مرّات لا تُحصى[١].

وقد وضع أعداء علي كالمغيرة وأشباهه عن لسان العبّاس أنه سبّ علياً ووصفه بالكذب والخيانة، وجاء في (صحيح مسلم)[٢] أن العباس تنازع هو وعلي في ميراث رسول الله، فجاء إلى عمر بن الخطاب وقال له: يا أمير المؤمنين، اقضِ بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر[٣].

وروى المبرد في (الكامل) أن خالد بن عبد الله القسري لما كان أميراً على العراق في خلافة هشام كان يلعن علياً على المنبر ويقول: اللهم العن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم صهر الرسول على ابنته، وأبا الحسن والحسين، ثم يلتفت إلى الناس ويقول: هل كنّيت؟[٤].

وكان الوليد بن عبد الملك إذا ذكره يقول: كان لصاً وابن لص. وهذه اللغة هي التي اعتادها الحكّام وولاتهم، وأذنابهم والمرتزقة طيلة عهدهم، وأصبح شتمه من أفضل الوسائل التي يتقرّب بها إليهم الناس[٥].

وجاء في (شرح النهج) أن رجلاً اعترض الحجّاج وهو في طريقه فقال له: أيها

---

(١) انظر ج١ من شرح النهج ص ٣٩٩ وما بعدها.

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص١٥٢. وأضاف إليها قوله: الخائن.

(٣) انظر الغدير ج٧ ص ١٤٩.

(٤) الكامل ص ٤١٤ (طبع أوربا)، وكذلك شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٥٧.

(٥) كانت ماكنة الإعلام الأموي تستخدم شتّى أنواع الأساليب لتشويه سمعة الإمام علي وإبرازه بصورة الرجل المنحل البعيد عن الدين، فقد نقل المسعودي في مروج الذهب ج ٣ ص ٤٢ فقال: ذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصّاً من لصوص الفتن!

الأمير إن أهلي عقّوني فسموني علياً؛ فغيّر اسمي، وصلني بها أتبلّغ به؛ فإني فقير لا أملك شيئاً. فقال الحجاج: ما ألطف ما توسّلت به، قد سمّيتك كذا، وولّيتك العمل الفلاني، فاذهب إليه(١).

وقد ذكرنا فيما مضى أن هشام بن عبد الملك فرض على أتباعه من علماء ذلك العصر أن يرووا أن الآية ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نزلت في علي عليه السلام، فأقرّوه على ذلك(٢).

إلى غير ذلك من المرويّات الكثيرة التي تؤكّد أن الموضوعات في علي وبنيه إن لم تكن أكثر من الموضوعات المنسوبة إلى الشيعة في الخلفاء وأشدّ فحشاً، فلا تقلّ عنها كمّاً وكيفاً؛ فكما أن هذه المرويات لا تعكس رأي السنة في علي (عليه أفضل الصلاة والسلام)، فكذلك المرويات المنسوبة إلى الشيعة؛ فانهم عندما يحاكمون أسانيدها يحكمون عليها بالضعف، ولا يتحاشى أكثرهم من تكذيبها وعدّها مع الموضوعات.

أمثلة من المرويات في الفضائل

لقد ذكرنا في الفصول السابقة أسباب الكذب في الحديث، والمراحل التي مرّ بها، وذكرنا في أوائل هذا الفصل أمثلة من الموضوعات في المثالب، وإني إذ أُقدّم هذه الأمثلة من المرويات في الفضائل والكرامات أُقدّمها وأنا واثق بأن أكثرها مكذوب على الأئمة الكرام عليهم السلام.

[أمثلة من المرويات في الفضائل حول ميلاد النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام]

فمن ذلك ما جاء في (إكمال الدين وإتمام النعمة) للصدوق عن جماعة من المحدّثين عن عبد الله بن العباس عن أبيه عن أبي طالب عليه السلام انه قال: «خرجت إلى الشام تاجراً

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٥٨.
(٢) تقدم فيما سبق.

سنة ثمانٍ من مولد النبيّ ﷺ في وقت أشدّ ما يكون من الحرّ، فلما أجمعت[1] على المسير، قال لي رجال من قومي: ما تصنع بمحمد؟ وعلى من تريد أن تخلّفه؟ قلت: لا أُريد أن أُخلّفه على أحد من الناس، أُريد أن يكون معي، والله لا يفارقني حيثما توجّهت أبداً.

فذهبت وحشوت حشية كساء كتافاً، وكنّا ركباً كثيراً، فكان والله البعير الذي عليه محمد أمامي يسبق الركب كلّهم، وإذا اشتدّ الحرّ جاءت سحابة بيضاء مثل قطعة الثلج فتسلّم عليه وتقف فوق رأسه، وكانت ربما أمطرت علينا السحابة بأنواع الفواكه وهي تسير معنا. فكنّا حيثما نزلنا تمتلئ الحياض، ويكثر الماء، وتخضرّ الأرض، فكنّا في كلّ خصب وطيب من الخير. ومعنا قوم قد وقفت جمالهم، فمشى إليها رسول الله، ومسح يده عليها فسارت. فلما قربنا من بصرى الشام إذا نحن بصومعة قد أقبلت تمشي كما تمشي الدابّة السريعة، حتى إذا قربت منا وقفت، وإذا فيها راهب، والسحابة لا تفارق رسول الله ساعة واحدة، وكان الراهب لا يكلّم الناس ولا يدري ما الركب ولا ما فيه من التجّار، فلمّا نظر إلى النبي عرفه، وسمعته يقول: إن كان أحد فأنت أنت. فنزلنا تحت شجرة عظيمة قريبة من الراهب، قليلة الأغصان ليس عليها حمل، وكان الركبان ينزلون تحتها، فلما نزل رسول الله، اهتزّت الشجرة والتفّت أغصانها على رسول الله، وحملت ثلاثة أنواع من الفواكه: فاكهتان للصيف، وفاكهة للشتاء، فتعجّب جميع من كان معنا من ذلك.

فلمّا رأى بحيرا الراهب ذلك، ذهب فاتّخذ لرسول الله طعاماً بقدر ما يكفيه، ثم جاء وقال: من يتولّى منكم أمر هذا الغلام؟ فقلت: أنا عمه. فقال: يا هذا، أله أعمام غيرك؟ فأي الأعمام أنت؟ فقلت: أنا أخو أبيه من أُمّ واحدة. فقال: أشهد أنه هو، وإلا فلست بحيرا. ثم قال لي: يا هذا، أتأذن لي أن أُقرّب هذا الطعام منه ليأكله؟ فلما أذنت له قرّبه إليه، فرأيته كارهاً لذلك، فالتفتّ إلى النبي ﷺ وقلت: يا بني رجل أحبّ أن يُكرمك،

(١) الظاهر أنها: ازمعت، وإن كان لها وجه.

فكُل من طعامه. فقال النبي: «لا آكل دون أصحابي». فقال الراهب: لم يكن عندي أكثر من ذلك، فاستأذنه النبيﷺ أن يأكل هو وأصحابه، وكانوا مئة وسبعين رجلاً، والطعام لا يكفي إلا لواحد، فأكلوا جميعهم حتى شبعوا وتجشّؤوا على حدّ تعبير الراوي، وبحيرا قائم على رأس النبي يقبّله بين الحين والآخر، ويكرّر: هو هو، وربّ المسيح. والحضور لا يفهمون شيئاً.

وأخير اعترضه رجل من الركب وسأله عن صلته بالغلام، فقال لهم: إني أرى ما ترون منه، ولكنّي أعلم ما لا تعلمون، ولو علمتم أمر هذا الغلام لحملتموه على رقابكم، واللهُ ما أكرمكم إلا له، ولقد رأيت له نوراً أمامه ما بين السماوات والأرض، ورجالاً في أيديهم مراوح من الياقوت والزبرجد، وآخرين ينثرون عليه أنواع الفواكه، ثم هذه السحابة لا تفارقه حتى إن صومعتي مشت إليه كما تمشي الدابّة على رجلها، ثم هذه الشجرة لم تزل من عهد طويل يابسة قليلة الأغصان، ولمّا جلس تحتها كثرت أغصانها وحملت ثلاثة أنواع من الفواكه: فاكهتان للصيف، وفاكهة للشتاء، ثم الحياض التي امتلأت بعد أن غار ماؤها من أيام تمرّج بني إسرائيل بعد الحواريين بدعاء شمعون عليهم.

وأضاف بحيرا: إن شمعون أخبر في كتابه أن هذه الحياض إذا امتلأت، فاعلموا أنه لأجل نبي يخرج في أرض تهامة»[(١)].

ومضى الراهب يسأل النبي عن بعض الأسرار وهو يجيبه، وبحيرا يعدد له انتصاراته وما سيجري في زمانه من الكرامات والفتوحات، ويقبّل يديه مرّة ورجليه أُخرى، ويقول: لقد ضحكت الأرض يوم مولدك، وهي لا تزال ضاحكة مستبشرة إلى يوم القيامة، وبكت الكنائس والبيع والشياطين ولا تزال تبكي»[(٢)].

---

(١) إكمال الدين وتمام النعمة ١٨٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٥.

وأضاف الراوي بعد حديث طويل من بحيرا يسمعه الركب بكامله: إن بحيرا أشار على عمه أن يردّه خوفاً عليه من النصارى واليهود. فلما دخل بصرى اهتزّت قصور الشام كلّها، وعلا منها نور أعظم من نور الشمس، وازدحم حوله الناس ينظرون إليه حتى لم يبقَ راهب ولا حَبر إلا وخرج، ومن بين هؤلاء أعظم الأحبار المسمى بنسطور، وبقي ثلاثة أيام لا يملّ من النظر إليه. إلى غير ذلك من الغرائب التي اشتملت عليها هذه الرواية.

ويستطرد المؤلّف والقصّاصون في عرض المرويات التي تتعلّق برحلات النبي المتتالية إلى الشام وبصرى منذ الثامنة من عمره إلى السنة التي بعث فيها، وما رافق ذلك من العجائب والغرائب والكرامات التي تمّت بين النبي والرهبان والأحبار والبطاركة الكبار؛ مما يوحي بأنها من صنع المندسّين في الإسلام من المسيحيين واليهود، ولخلق جوّ من التشكيك في رسالة محمدﷺ، وأنه استمدّها من اليهودية والنصرانية، وغيرهما من الأديان.

[استغلال المستشرقين وغيرهم لتلك المرويات للتشكيك في الإسلام]

كما أثار هذه الشبهة جماعة من أعداء الإسلام؛ المستشرقين وغيرهم، ولا يزالون يثيرونها وبخاصّة عندما يجدون هذه المرويات بين أيدي المسلمين وفي مجاميعهم. وممّن صرّح بذلك أنطون سعادة في كتابه (الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية)، فلقد جاء فيه ما حاصله أن محمداً بقي في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى المبادئ الثلاثة التالية: «**الإيمان بالله، ووحدانيته، واليوم الآخر**»، وهذه المبادئ أخذها من الرهبان خلال اتّصالاته بهم في سفراته إلى بلاد الشام. ولما انتقل إلى المدينة واستتب له الأمر شكّل دولة بها وأخذ التشريعات والأنظمة التي دعا إليها من التوراة حيث كانت المدينة مركزاً رئيسياً ليهود الجزيرة العربية(١).

---

(١) راجع الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية للأستاذ انطون سعادة، دار فكر للأبحاث

وقال الأُستاذ كتاني في كتابه (فاطمة الزهراء) صفحة ٤٠ ما حاصله أن محمداً وضع فكرة النبوّة في ذهنه بواسطة الرهبان الذين اتّصل بهم خلال رحلاته إلى الشام، ووضع الفكرة موضع التصميم والتنفيذ في غار حراء.

ومع الأسف الشديد إن هذا الكتاب طبع في النجف الأشرف قبل سنتين تقريباً، ونال مؤلّفه الجائزة الأُولى التي أقرّتها الهيئة المشرفة على المباراة التي دعت إليها لجنة من الفضلاء والأُدباء لوضع كتاب عن الزهراء عليها السلام، وهي خمسمئة دينار بدون أن يعلّقوا عليه، مع أن كلامه حول الموضوع كان ظاهراً في الدسّ على الإسلام، ولكن الهيئة التي اختارت كتاب الكتّاني من بين عشرات الكتب، وقدّمته على غيره قد تأثّرت حسبما أعتقد بأُسلوبه الطري الساحر، وألفاظه المختارة البرّاقة، وغطّى ذلك على ما فيه من دسٍّ وأخطاءَ فكرية.

وعلى أيّ الأحوال فالأُستاذان سعادة وكتّاني ليسا بأوّل من أثار هذه الشبهة حول رسالة النبي العظيم صلى الله عليه وآله؛ فلقد سبقهم عدد من المستشرقين وغيرهم، واعتمد بعضهم على هذه المرويات التي دوّنها المحدّثون في مجاميعهم بدون تدبّر في مضامينها ولا تقدير لما ينتج عنها. مع العلم بأن الحاجة يومذاك ـ والنبي صلى الله عليه وآله لا يزال في الثامنة من عمره ـ لا تدعو إلى هذا النوع من الإعجاز الذي لم يجرِ له في أدقّ المراحل التي مرّت بها دعوته خطورة وضيقاً.

[خروج النبي مع أبي طالب إلى الشام وما رافق ذلك من الكرامات]

وهل من الممكن أن يشاهد ذلك الركب المؤلّف من مئة وسبعين رجلاً من تجّار مكة صومعة مقبلة على محمد وهو طفل صغير تمشي على رجلين بخشوع واحترام، وشجرة يابسة تحمل لهم ثلاثة أنواع من فواكه الصيف والشتاء، وغمامة تسير معهم عبر الصحراء الواسعة، وحياضاً تتدفّق فيها المياه العذبة في تلك الصحراء القاحلة التي لا

والنشر، ١٩٩٧م.

شيء يراود فيها أذهان المسافرين غير التخوّف من الموت عطشاً، ورهباناً وبطارقة يتدافعون بحماس وحرارة لينظروا محمداً ويتبرّكوا بطلعته، وقصوراً شامخة في بصرى وبلاد الشام تنحني إجلالاً واحتراماً، وعالماً يموج بعضه في بعض يتزاحم على النظر إليه، فهل من المعقول أن يشاهد ذلك الحشد الذي كان يرافقه جميع هذه الحوادث الكونية، ومع ذلك لا يتغيّر موقفهم منه، ولا تختلف نظرتهم إليه قبل ذلك؟ هل من الممكن أن تجري هذه الحوادث بمرأى ومسمع من مئة وسبعين رجلاً من التجّار، ولا يرويها سوى شذّاذ الرواة؟ في حين أن نظرتهم إليه لم تتأثّر بتلك الحوادث المزعومة أبداً، وكانوا ينظرون إليه قبل النبوّة بإكبار وإعجاب من خلال سيرته وأمانته وصدقه وجميع صفاته التي امتاز بها عن جميع المكّيّين والعرب أجمعين.

على أن الصدوق نفسه يروي في موضع آخر أن أبا المويهب الراهب استقبل وفداً من تجار مكّة، وسألهم عن نسبهم وبلدهم، فأخبروه بأنهم قرشيّون مكّيّون، ولما سألهم عن محمدﷺ قالوا له: والله ما في قريش أخمل ذكراً منه، وهو يتيم قريش، وأجير لامرأة منّا يقال لها خديجة. فحرّك رأسه وقال: هو هو. ولما رآه خلا به ساعة يناجيه ويكلّمه، وأخرج شيئاً من كمّه، فأبى رسول الله أن يقبله، ثم أخبرهم بنبوّته كما أخبرهم بوصيّه عليعليه السلام وصفاته وأسمائه، وأضاف إلى ذلك: إنا نجد صفة عليّ عندنا، كما نجد صفة محمد وما اختصّهما الله به[1].

وهذه الرواية تشير إلى أن هذه الرحلة إلى الشام كانت قبل نبوّته يوم كان عاملاً عند خديجة، وذلك بعد أن تجاوز العشرين من عمره، وأن ما أخبرهم به الراهب كان غريباً عنهم لم يسمعوه من قبل. في حين أن الرواية الأُولى تنصّ على أنه كان في حدود الثامنة من عمره، وأن الركب التجاري الذي رافق تلك الرحلة كان يضمّ مئة وسبعين تاجراً من المكّيّين والقرشيّين، وكلّهم شاهدوا تلك الحوادث التي رافقت تلك الرحلة.

وقد ذكر حديث سفره إلى الشام كلّ من المسعودي في (مروج الذهب)، والحافظ

---

(١) إكمال الدين وإتمام النعمة ص ١٩٠.

ابن كثير في البداية والنهاية. ولكن رواية المسعودي لم تشتمل على شيء من تلك الغرائب، وكل ما جاء فيها أن النبي كان له من العمر اثنا عشر عاماً، ولّما مرّ الركب ببحيرا رأى النبي فعرفه بصفته، وصنع له طعاماً، ووضع يده على كتفه، وأشار على الوفد أن يردّوه إلى المدينة خوفاً عليه من أهل الكتاب. وأخبر بذلك أبا بكر وبلالاً، وكانا من الوفد المرافق له، وهما أخبرا عمّه بذلك، فردّه إلى المدينة، وأخبر قريشاً بما كان من أمره.

وأما رواية (البداية والنهاية)، فمع أنها أوسع من رواية المسعودي إلا إنها تختلف اختلافاً كبيراً عن رواية الصدوق، واقتصرت على حديث الغمامة التي كانت تظلّله، وعلى إطعام الوفد وإخبارهم بما يكون من أمره، ونصيحة أبي طالب بإرجاعه إلى المدينة[١] تخوّفاً عليه. وتضيف إلى ذلك أن عمه قد أرجعه مع أبي بكر وبلال، في حين أن أبا بكر كان في حدود التاسعة من العمر، وبلالاً كان أقل من ذلك على حدّ تعبير ابن كثير في روايته[٢].

وجاء في رواية الواقدي أن بحيرا حينما رأى النبيﷺ أشار على عمّه بإرجاعه سرّاً إلى مكّة، وأوصاه به خيراً. وهي أقرب إلى الصحّة من غيرها[٣].

وجميع ما أورده المؤلّف حول هذا الموضوع رواته بين عامّي غير موثوق في أحاديثه، وبين شيعي مجهول الحال. والشيء المظنون به أن الرسول الأعظمﷺ لم يخرج مسافراً إلى الشام سوى مرّة واحدة في تجارة لخديجة بنت خويلد بعد أن تجاوز العشرين من عمره. ومما لا شكّ فيه أن رحلته تلك قد تكلّلت بالنجاح الذي لم تكن ترجوه خديجة

---

(١) الظاهر: مكّة.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص٢٤٧، وهي فيها أصرح من رواية (البداية والنهاية)؛ حيث قال فيها: «كما سيأتي بيان ذلك في (السيرة)...».

(٣) انظر مروج الذهب ج١ ص ٤٤ والبداية والنهاية ج٧ ص ٢٨٦، وإكمال الدين لمحمد بن بابويه القمي.

ولا غيرها من التجّار، ووجد التجار الذين رافقوه من مظاهر الخير والبركة ما لم يعرفوه من قبل. ومن الجائز أن يكون لبحيرا وغيره من الرهبان دور مع النبيﷺ لم يتجاوز حدود الفراسة فيما سيكون من أمره بعد أن وجدوا فيه ملامح الرجل الذي يبشّر به الإنجيل، وكانوا يتوقعون ظهوره بين الحين والآخر.

وروى ابن بابويه عن أحمد بن يحيى، ومحمد بن إسماعيل عن جماعة بسند يتصل بأبي طالب أن أبا بكر بن عبد الله بن أبي جهم حدّث عن أبيه عن جده أن أبا طالب روى عن عبد المطلب أنه قال: بينما أنا نائم في الحجر[١] إذ رأيت رؤيا هالتني، فأتيت كاهنة قريش وعليّ مطرف خزّ، [وجمّتي][٢] تضرب منكبيّ، فلما نظرت إليّ عرفت في وجهي التغيّر[٣]، فاستوت وأنا يومئذٍ سيّد قومي، فقالت: ما شأن سيّد العرب متغيّر اللون؟ هل رابه من حدثان الدهر ريب؟ فقلت لها: بلى[٤]، إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة قد نبتت على ظهري، ونال رأسها السماء، وضربت أغصانها المشرق والمغرب. ورأيت نوراً يظهر منها أعظم من نور الشمس سبعين مرّة، ورأيت العرب والعجم ساجدة لها، وهي كلّ يوم تزداد عظماً ونوراً. ورأيت رهطاً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخذهم شابّ من أحسن الناس وجهاً، وأنظفهم، ثياباً فيأخذهم، ويكسر ظهورهم، ويقلع أعينهم. فرفعت يدي لأتناول غصناً من أغصانها، فصاح بي الشابّ وقال: مهلاً ليس لك فيها نصيب. فقلت: لمن النصيب، والشجرة مني؟ فقال: النصيب لهؤلاء الذين قد تعلّقوا بها. فانتبهت فزعاً مرعوباً.

فرأيت لون الكاهنة قد تغيّر، ثم قالت: لئن صدقت رؤياك، ليخرجن من صلبك

(١) أي: حجر اسماعيل.

(٢) من المصدر.

(٣) في الأصل: التغيير، وهو خطل، وما أثبتناه من المصدر، وهو الصواب؛ بدليل قول الكاهنة بعدُ: «متغيّر»، وليس: «مغيّر».

(٤) كذا، والصواب: نعم.

ولد يملك المشرق والمغرب، ويتنبّأ في الناس.

وأضاف الراوي أن أبا طالب كان يحدّث بهذا الحديث والنبي قد خرج، ويقول: كانت الشجرة والله أبو القاسم الابن. فيقولون له: فلمَ لم تؤمن به؟ فيقول خوف السبّة والعار(١).

هذا الحديث إن صحّ شيء منه ـ وليس ببعيد أن تكون تلك الرؤيا صحيحة ـ ولكني لا أشكّ بأن آخره من الموضوعات؛ لأن أبا طالب كان من أسرع الناس إلى الإيمان بمحمدﷺ، وأقواهم يقيناً به، وأخلصهم لدعوته. وكيف يرى إسلامه عاراً وسبّةً كما يزعم الراوي، ولولاه لتراكمت على النبي الصعوبات، وضاقت الدنيا في وجهه، وهو القائل:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً

إلى غير ذلك ممّا تواتر عنه من الأقوال والأفعال التي تؤكّد صدق إيمانه وإخلاصه للرسول ودعوته، وبراءته من كلّ ما ألصقه به الأُمويّون وأتباعهم؟ على أن الرواة له من العامّة، وهم ما بين ضعيف ومجهول الحال، كما يظهر من لسان الميزان لابن حجر العسقلاني(٢).

[حديث إسلام سلمان الفارسي والمراحل التي مر بها قبل إسلامه]

وجاء في (إكمال الدين) عن محمد بن يحيى العطار، وأحمد بن إدريس عن أحمد بن محمد بن عيسى من رواية طويلة لو أراد القارئ أن يقرأها لم ينتهِ منها بأقلّ من عشرين دقيقة، تشتمل على المعجزات والكرامات قبل ولادة النبي بأكثر من خمسين عاماً، جاء فيها أن سلمان الفارسي عُمّر أكثر من مئتين وخمسين عاماً، وأنه سمع وهو سائر مع أبيه

---

(١) إكمال الدين وتمام النعمة ص ١٧٣.

(٢) وللمزيد حول مسألة إيمان أبي طالب او عدمه راجع أعيان الشيعة لمحسن الأمين ج ٨ ص ١١٤ في ترجمة أبي طالب.

في منطقة بشيراز قبل نبوّة محمد بزمن طويل صوتاً يخرج من صومعة يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن عيسى روح الله، ومحمداً حبيب الله». فرسخ حبّه في لحمه ودمه، ولم يعد يتهنأ بطعام وشراب، وامتنع يوم ذاك ان يسجد لمطلع الشمس كما كان يصنع.

ثم رأى كتاباً معلقاً في سقف البيت، ففتحه وإذا به: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا عهد الله إلى آدم أنه خالق من صلبه نبيّاً يقال له محمد. يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن عبادة الأوثان، ويأمر بترك المجوسية والتزام النصرانية، وأنه[1] من أوصياء عيسى». ولمّا علم أبوه بحاله، وحبّه لمحمد عذّبه، ووضعه في بئر عميقة، وعامله بأشدّ ما يكون من القسوة. ولمّا طال عليه الأمد في البئر استغاث بمحمدﷺ، وذلك قبل مولده بأكثر من مئتي عام، فأرسل الله إليه من أخرجه منها إلى الصومعة، فاستقبله صاحب الدير، وأطلعه على أمر محمد وبشّره به.

ولمّا مات انتقل منها إلى انطاكية بأمر منه، وأرسل معه رسالة إلى رهبانها، ولما وصلها استقبله الرهبان، وأشاروا عليه بالذهاب إلى الإسكندرية بعد موتهم. ولما مات راهب الإسكندرية التحق بقوم قد باعوه من يهودي بعد أن استعبدوه مدة من الزمن. ولما رأى النبي ومعه علي وجعفر وعقيل في بستان من بساتين المدينة، أيقن بالفرج، فاشتراه النبي بأربعمئة نخلة صفراء غرسها علي في ساحته فشبّت وساوت جميع ما في البستان من نخيل وأشجار[2].

إلى غير ذلك من الغرائب التي اشتملت عليها قصّة إسلامه، وعمره الطويل، وتنقّلاته من بلد إلى بلد، وما رافق ذلك من أحداث وكرامات. في حين أن سندها غير سالم من العيوب، وعلى تقدير صحّته، فسلامة السند لا تثبت صدور الرواية عن المعصوم؛ فلقد روى الثقات عشرات الأحاديث المدسوسة التي وضعها المغيرة بن

(١) الظاهر أنه الرسول الأكرمﷺ؛ إذ في المصدر: «يا روزبه(اسم سلمان الذي سماه به أبوه)، ائتِ وصي عيسى، وآمن واترك المجوسية».

(٢) إكمال الدين وإتمام النعمة ص ١٦١.

سعيد وأمثاله من الوضّاعين، وأدخلوها في كتب أصحاب الإمامين الباقر والصادقعليهما السلام، كما أشار إلى ذلك الإمام الرضا في حديثه الذي وصف به موقف الرواة والمحدّثين في ذلك العصر.

[حديث الأسقف عن إسلامه ووصفه للدابة التي أرشدته إلى الإسلام]

وجاء في (معالم الزلفى) عن كتاب (بستان الواعظين)[1] عن محمد بن إدريس أنه قال: رأيت بمكّة أسقفاً وهو يطوف في الكعبة، فقلت له: ما الذي رغب بك عن دين

---

(١) هو كتاب (بستان الواعظين ورياض السامعين) لابن الجوزي. والنسخة التي بين أيدينا هي من نشر مؤسّسة الكتب الثقافية/ بيروت، (١٤١٩) هـ/ (١٩٩٨)م، الطبعة: الثانية، تحقيق: أيمن البحيري. لكن الغريب في الأمر الذي حدا بنا إلى كتابة هذه التعليقة ـ وهو ما لم يطّلع عليه المؤلّف؛ لعدم اطّلاعه على هذا الكتاب ـ هو أن ابن الجوزي قد نقلها بشكل مغاير تماماً لما نقله عنه البحراني؛ ذلك أن ما فيه من تمجيد إنما هو لأبي بكر وعمر وعثمان وشيعتهم، كما سينقله المؤلّف بعدُ عن كتبهم، وليس لأمير المؤمنين وفاطمة والحسنينعليهم السلام وشيعتهم؛ ففيه قوله على لسان الدابّة وهي تسبّح: لا إله إلا الله العزيز الجبّار، محمد رسول الله النبي المختار، أبو بكر الصدّيق صاحبه في الغار، عمر الفاروق مفتاح الأمصار، عثمان القتيل في الدار، عليّ سيف الله على الكفّار، فعلى مبغضيهم لعنة الجبّار، ومأواهم جهنّم وبئس القرار. فلم تزل تكرّر هذه الكلمات حتى إذا طلع الفجر قالت: لا إله إلا الله الصادق الوعد والوعيد، محمد الهادي الرشيد، أبو بكر الصدّيق الموفّق السديد، عمر بن الخطاب سور من حديد، عثمان القتيل الشهيد، علي ذو البأس الشديد، فعلى مبغضيهم لعنة الربّ المجيد.إلى أن قال: فقالت: أتمَّ إسلامك بالترحّم على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضوان الله عليهم أجمعين). قلت: ومن أتاكم بذلك؟ فقالت: قومنا حضروا عند رسول اللهصلى الله عليه وآله فسمعوه يقول: «إذا كان يوم القيامة، تأتي الجنّة فتنادي بلسان طلق: يا إلهي، قد وعدت أن تشدّ أركاني. فيقول الجليل جلّ جلاله: قد شددت أركانك بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وزيّنتك بالحسن والحسين». بستان الواعظين، المجلس: ١٧، حكاية الشافعي عن مؤمني الجن برقم: ٤٣٨. ونحن إنما ذكرنا هذا للتنبيه إلى ضرورة أمانة النقل، اللهم إلا أن يكون ما ذكره البحراني عن ابن الجوزي في نسخة غير هذه، وأن هذه قد حرّفت، مع أن هذا مستبعد أشدّ الاستبعاد؛ لامتناع صدور مثل ذلك الإقرار لأمير المؤمنين وأهل بيتهعليهم السلام منه وهو المعروف بميوله واتّجاهاته، وانحرافه عن أمير المؤمنينعليه السلام.

آبائك وأجدادك؟ فقال: لقد استبدلت خيراً منه. فقلت له: وكيف ذاك؟ قال: ركبت البحر، فلما توسّطناه انكسر بنا المركب، فعلوت لوحاً، فلم تزل الأمواج تدفعني حتى رمتني في جزيرة من جزر البحر فيها أشجار كثيرة، ولها ثمر أحلى من الشهد وألين من الزبد، وفيها نهر جارٍ عذب، فحمدت الله تعالى على ذلك، وقلت: آكل من هذا الثمر، وأشرب من هذا النهر، حتى يأتي الله بالفرج. فلمّا ذهبت إليها، خفت على نفسي من الدوابّ التي فيها، فعلوت شجرة من تلك الأشجار ونمت على غصن منها، فلمّا كان في جوف الليل وإذا بدابّة على وجه الماء تسبّح وتقول: لا إله إلا الله العزيز الجبّار، محمد رسول الله النبي المختار، وعلي بن أبي طالب سيف الله على الكفّار، وفاطمة وبنوها صفوة الجبّار، وعلى مبغضيهم لعنة الجبّار، ومأواهم جهنم وبئس القرار.

فلم تزل تكرّر هذه الكلمات حتى مطلع الفجر، ثم قالت: لا اله إلا الله صادق الوعد والوعيد، محمد الرسول الهادي الرشيد، وعلي ذو البأس الشديد، وفاطمة وبنوها خيرة الرب المجيد، وعلى مبغضيهم لعنة الرب المجيد. فلمّا وصلت البر فإذا رأسها رأس نعامة، ووجهها وجه إنسان، وقوائمها قوائم البعير، وذنبها ذنب الأسماك، فخشيت على نفسي منها وهربت من أمامها، فلما رأتني وقفت وقالت: أيها الإنسان قف وإلا هلكت. فوقفت لها، فقالت: ما دينك؟ قلت: النصرانية. فقالت: ويحك، ارجع إلى دين الإسلام؛ فقد حللت بفناء قوم من مسلمي الجنّ لا ينجو منهم إلا من كان مسلماً. فقلت لها: وكيف الإسلام؟ قالت: تشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. ولما قلتها، قالت: أتمّ[1] إسلامك بموالاة علي بن أبي طالب وأولاده، وبالصلاة عليهم والبراءة من أعدائهم. فقلت: ومن أتاكم بهذا؟ قالت: قوم منّا حضروا عند رسول الله فسمعوه يقول: «**إذا كان يوم القيامة تأتي الجنّ فتنادي بلسان طلق: يا إلهي قد وعدتني أن تشدّ أركاني وتزيّنني. فيقول الجليل جلّ جلاله: قد شددت،**

(١) من (بستان الواعظين)، وفي الأصل: قد تمّ. ولا يستقيم معها السياق.

أركانك، وزينتّك بابنة حبيبي فاطمة الزهراء، وبعلها علي بن أبي طالب، وابنيها الحسن والحسين، والتسعة من ذرية الحسين عليهم السلام».

ثم قالت الدابة: المقامَ تريد، أم الرجوع إلى أهلك؟ فقلت لها: الرجوع. فقالت: اصبر حتى يجتاز مركب. وإذا بمركب يجري، فأشارت إليهم، فدفعوا إليها زورقاً، فلما علوت معهم وإذا في المركب اثنا عشر نصرانياً، فقصصت عليهم ما جرى عليّ فأسلموا كلّهم[١].

هذه الرواية بالإضافة إلى غرابتها، ووصفها تلك الدابّة بهذا التركيب العجيب الذي يجمع بين الإنسان والنعامة والبعير والسمك في مخلوق واحد، بالإضافة إلى ذلك، فلقد رواها محمد بن إدريس[٢]، وقد جاء عنه في (إتقان المقال) أنه عامّي المذهب. وقال ابن حجر في (لسان الميزان): أنه كان ضعيف الحديث، يروي المناكير، لا يصح الاعتماد على مرويّاته[٣].

وكما هي موجودة بين أحاديث الشيعة بهذا النصّ موجودة بين مرويات السنّة بهذا النصّ أيضاً إلا في الفقرات التالية؛ فقد جاء في رواية كتب الشيعة لها أن الدابّة التي تصفها الرواية بالشكل الذي ذكرناه كانت تقول: لا اله إلا الله العزيز الجبّار، محمد رسول الله المختار، وعلي بن أبي طالب سيف الله على الكفّار، وفاطمة وبنيها صفوة الجبّار، وعلى مبغضيهم لعنة الجبّار، ومأواهم جهنّم وبئس القرار. وظلّت تكرّر هذه الكلمات حتى مطلع الفجر، ثم قالت: لا إله إلا الله صادق الوعد والوعيد، محمد

(١) انظر ص ٣٢٢ من معالم الزلفى.

(٢) لاحظ أن ابن الجوزي ينصّ على أنه محمد بن إدريس الشافعي كما عنون به حكايته، وليس هو محمد بن إدريس الراوي.

(٣) لم نعثر عليه بهذا التعبير غير أن ابن حجر ذكر في ترجمة إبراهيم بن زيد الأسلمي التفليسي سنداً فيه محمد بن إدريس الأصبهاني، وقال عنه: كلّهم من دون مالك ـ وهو ممّن ذكر في السند كذلك ـ ضعفاء. وأما قوله: «منكر الحديث»، فيعني به إبراهيم بن زيد التفليسي.

الرسول الهادي الرشيد، وعلي ذو البأس الشديد، وفاطمة وبنوها خيرة الربّ المجيد، وعلى مبغضيهم لعنة الربّ المجيد.

ورواية السنة تقول: إن الدابة كانت تردّد: لا إله إلا الله العزيز الجبّار، محمد الرسول المختار، وأبو بكر الصديق صاحبه في الغار، وعمر الفاروق فاتح الأمصار، وعثمان القتيل في الدار، فعلى مبغضيهم لعنة العزيز الجبّار. ولم تزل تكرّر هذه الكلمات حتى مطلع الفجر، فلما طلع الفجر قالت: لا إله إلا الله الصادق الوعد والوعيد، محمد رسول الله الهادي الرشيد، وأبو بكر صاحب الرأي السديد، وعمر بن الخطاب سور من حديد، وعثمان بن عفان صاحب الفضل الشديد.

ويمضي الراوي ليصفها فيقول: إن رأسها رأس نعامة، ووجهها وجه إنسان، وقوائمها قوائم بعير، وذنبها ذنب سمكة، كما وصفتها الرواية الشيعية. ثم يقول الراوي: إنه بعد أن هرب منها نطقت بلسان فصيح، ونصحته أن يرجع إلى الحنفية بعد أن أخبرها بأنه يعتنق النصرانية، وقالت: إنك قد حللت بفناء قوم من الجنّ لا ينجو منهم إلا من كان مسلماً. وأضاف إلى ذلك أنها قالت: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وأمرته بأن يترحّم على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وأخبرته بأن قوماً من الجن حضروا عند رسول الله وسمعوه يقول: «**إذا كان يوم القيامة تأتي الجنّة فتنادي بلسان طلق فصيح: إلهي قد وعدتني أن تشدّ أركاني. فيقول لها الجليل جلّ جلاله: قد شددت أركانك بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وزيّنتك بالحسن والحسين**»(١).

وجاء في الرواية الشيعية أنه قال لها: قد شددت أركانك وزيّنتك بابنة حبيبي فاطمة وبعلها علي بن أبي طالب، وابنيها الحسن والحسين، وبالتسعة من ذرية الحسين. إلى آخر الرواية التي تتّفق بنصّها الحرفي ولا تختلف في شيء الا بما ذكرناه؛ ممّا يؤكّد أنها من الموضوعات. ويبقى أن السنة وضعوها أوّلاً فيما وضعوه من فضائل الخلفاء، وحوّرها

(١) مصباح الظلام لمحمد الجرداني ج ٢ ص ٣٠.

الشيعة بما رويناه أوّلاً لتكون فضيلة لعلي وأبنائهعليهم السلام، أو أنها من مخترعات الشيعة، وحوّرها السنة بشكلها الموجود في كتبهم.

ولا أجد لديّ ما يؤيّد أحد الأمرين، وكلّ ما في الأمر أن السنّة رووها عن محمد بن آدم[١]، والشيعة رووها عن محمد بن إدريس. ومهما كان الحال فهي من النوع الذي أشار إليه الإمام الرضاعليه السلام في جواب من سأله عن مرويّات العامة في فضائل الأئمّة، كما جاء في الفصول السابقة[٢].

[حديث الجام الذي نزل على النبي بحضور المهاجرين والأنصار]

وجاء في الكتاب المذكور عن الحسين بن حمدان الحصيني عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام أنه قال: «جلس النبيصلى الله عليه وآله في رحبة مسجده في المدينة، ومعه طائفة من المهاجرين والأنصار، وعلي عن يمينه وأبو بكر بين يديه، إذ دخلت غمامة لها زجل وحفيف[٣]، فقال النبيصلى الله عليه وآله: يا أبا الحسن، قد أتتنا هدية من الله سبحانه. ثم مدّ رسول الله يده إلى الغمامة، فتدلّت، فبدا منها جام[٤] يلمع حتى غشيت أبصار من حضر في المسجد من لمعانه وشعاع نوره، وفاح في المسجد روائح أزالت من طيبها عقول الناس، والجام يسبّح الله ويقدّسه، ويحمده بلسان عربي مبين، حتى نزل في بطن راحة رسول الله اليمنى، وهو يقول: السلام عليك يا حبيب الله وصفوته، ونبيه ورسوله المختار من العالمين، والمفضّل على جميع أنبياء الله أجمعين من الأوّلين والآخرين، وعلى وصيّك خير الوصيّين، وأخيك خير المؤاخَين، وخليفتك خير المستخلَفين، وإمام

(١) بل عن محمد بن إدريس كذلك.

(٢) تقدم فيما سبق.

(٣) إذا قيل عن الغمام بأنه زاجل، فالمقصود أن له رعداً، وأما الحفيف فمعناه الصوت الخاطف كالذي يكون من جناحي الطائر، أو تلهّب النار، او مرور الريح في الشجر.

(٤) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وقد غلب استعمالها في قدح الشراب.

المتّقين، وأمير المؤمنين، ونور المستنيرين، وسراج المقتدين، وعلى زوجته فاطمة خيرة نساء العالمين، الزهراء في الزاهرين، والبتول أُم الأئمة الراشدين، وعلى سبطيك ونوريك وريحانتيك وقرة عينيك الحسن والحسين.

فسمع ذلك رسول الله، وجميع من حضر يستمعون هذا كلّه من الجام، ويغضّون أبصارهم من أنواره الباهرة، ورسول الله يكثر من حمد الله وشكره، حتى قال الجام وهو في كفّه: يا رسول الله، إن الله بعثني إليك وإلى أخيك وابنتك فاطمة والحسن والحسين، فردّني يا رسول الله إلى كفّ علي عليه السلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: خذه يا أبا الحسن تحفة إليك. فمدّ يده اليمنى فصار في بطن راحته، فقبّله وشمّه وقال: مرحباً بزلفة الله إلى رسول الله وأهل بيته. وأكثر من حمد الله والثناء عليه، والجام يكبّر الله ويهلله ويقول: يا رسول الله، قل لعلي يردّني إلى فاطمة والحسن والحسين، كما أمرني الله عز وجلّ. فأمره رسول الله بذلك، فقام علي وبيده الجام حتى دخل على فاطمة، ونوره يزيد على نور الشمس، ورائحته قد أذهلت العقول، فردّه إلى يدها، وتداوله الحسنان، وأرجعوه إلى رسول الله.

فقام عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله، مالك تستأثر بكلّ ما أتاك من عند الله سن تحية وهدية؟ فقال رسول الله: ويحك يا عمر، ما أجرأك! أما سمعت ما قال الجام؟ حتى تسألني أن أُعطيك ما ليس لك. فقال: أتأذن لي في أخذه وشمّه؟ فقال: ويحك، ما ذلك لك ولا لغيرك من الناس. فقال: أتأذن لي في لمسه بيدي؟ فقال الرسول: ما أشدّ إلحاحك، قم فإن تلقَه فما محمد رسول الله، ولا جاء بحقّ من عند الله. فمدّ يده إلى الجام فلم تصل إليه، وانصاع الجام وارتفع نحو الغمامة وهو يقول: يا رسول الله ما هكذا يفعل المزور بالزائر».

وهكذا يمضي الراوي في حديث طويل، ويصف الحوار الذي دار بين الجام والرسول بأُسلوب تملّه النفوس، ولا تقبله العقول[1].

(١) انظر ص ٣١٨ من الكتاب المذكور.

ولو تغاضينا عن العيوب الموجودة في متنه من حيث أُسلوبه وصياغته، واشتماله على هذا النوع من الكرامات التي تتّسع قدرة الله لها ولأكثر منها عندما تدعو الحاجة لذلك، مع العلم بأن الموقف لا يستدعي شيئاً من تلك الكرامات. ولو تغاضينا عن كل ذلك، فالراوي الأول الحسين بن حمدان الحصيني(١) كان فاسد المذهب، كذّاباً ملعوناً، لا يُلتفت إلى شيء من مرويّاته كما جاء في (إتقان المقال) وغيره.

وأما الراوي الثاني لهذا الحديث الذي رواه عن الإمام الصادق، وهو المفضل بن عمر، فحاله غني عن البيان، وقد تحدّثنا عنه في بعض مرويّاته السابقة.

[رواية أبي مخنف عن مولد الإمام وما رافق ذلك]

وروي في الكتاب المذكور عن أبي مخنف بإسناده إلى جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: سألت رسول الله عن مولد علي عليه السلام فقال: «**يا جابر سألت عجيباً عن خير مولود، اعلم أن الله تعالى لمّا أراد أن يخلقني ويخلق علياً، خلق قبل كل شيء درّة عظيمة أكبر من الدنيا عشر مرّات، ثم إن الله سبحانه قد استودعنا في تلك الدرة، فمكثنا فيها مئة ألف عام نسبّح الله تعالى ونقدّسه. فلمّا أراد إيجاد الموجودات نظر إلى الدرّة بعين التكوين، فانفجرت نصفين، فجعلني ربي في النصف الذي احتوى على النبوّة، وجعل علياً في النصف الذي احتوى على الإمامة، ثم خلق من تلك الدرّة مئة بحر، فمن بعضه بحر العلم، وبحر الكرم، وبحر السخاء، وبحر الرضا، وبحر الرأفة، وبحر العفة**».

ومضى الراوي في حديثه إلى أن عدّ أربعين بحراً على هذا النسق، وأضاف إلى ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لقد مكثنا في هذه البحور سبعة آلاف عام، وبعدها خلق الله القلم، وقال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب توحيدي. فمكث القلم سكرانَ من قول الله عزّ وجلّ عشرة آلاف عام، ثم أفاق بعد ذلك، و[قال: وما أكتب؟ قال:](٢) اكتب:

(١) الأشهر أنه الخصيبي.

(٢) من مدينة معاجز الأئمّة ج٢ ص٣٦٨.

لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله. فلما فرغ القلم من كتابته قال: ياربّ، ومن هؤلاء الذين قرنت اسميهما باسمك؟ قال تعالى: يا قلم، محمّد نبيي وخاتم أنبيائي، وعلي وليي وخليفتي على عبادي وحجّتي عليهم. وعزّتي وجلالي، لولاهما ما خلقتك ولا خلقت اللوح المحفوظ. ثم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: صفاتي وأسمائي. فكتب وظلّ يكتب ألف عام حتى كلّ وملّ. ثم إن الله خلق من نوري السماوات والأرض، والجنة والنار، والكوثر والصراط، والعرش والكرسي، والسحاب والحجب، وخلق من نور علي عليه السلام الشمس والقمر والنجوم قبل أن يخلق آدم بألفي عام. ثم إن الله أمر القلم أن يكتب على كل ورقة من أشجار الجنّة وعلى كلّ باب من أبوابها وأبواب السماوات والأرض والجبال والشجر: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله». ثم أمر نور رسول الله ونور علي أن يدخلا «في حجاب العظمة».

ومضى الراوي يعدّد ما لعلي ولرسول الله صلى الله عليه وآله من فضل وآثار قبل أن يخلق آدم بآلاف السنين، إلى أن قال: «فلما خلق الله آدم كنت أنا في إصبعه السبابة، وعلي في إصبعه الوسطى، وابنتي فاطمة في التي تليها، والحسن في الخنصر، والحسين في الإبهام». إلى غير ذلك من الغرائب التي اشتملت عليها الرواية.

ويكفي هذه الرواية عيباً أنها من مرويات أبي مخنف لوط بن يحيى، وقد ضعّفه السنّة والشيعة، ولم يثقوا بمروياته. وله كتب كثيرة في السير والأخبار جمع فيها كلّ ما رأى وسمع، كما هو الحال بالنسبة إلى جميع المؤلّفين في العصور الأُولى[1].

[من مرويات الغلاة عن مولد السيدة فاطمة عليها السلام]

وجاء في (معالم الأخبار)[2] عن سدير الصيرفي أن الإمام الصادق عليه السلام روى عن

(١) انظر لسان الميزان ج٤ ص ٤٩٢ واتقان المقال في علم الرجال ص ١١٩.

(٢) الظاهر أنه كتاب (معالم الأخبار) لكاظم بن هادي بن أحمد المشهدي (١٣٢٤ ـ ١٣٧٩ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٥٩ م). متأدّب من أهل النجف، وكان مولعاً بتاريخ عصره.

رسول اللهﷺ أنه قال: «خلق الله نور فاطمة قبل أن يخلق الأرض والسماء، فقال له بعض الناس: يا رسول الله، أليست هي إنسية؟ فقال: فاطمة حوراء إنسية، خلقها الله من نور قبل أن يخلق آدم إذ كانت الأرواح، فلمّا خلق الله آدم عرضت على آدم، قيل له: يا نبي الله، وأين كانت فاطمة؟ قال: كانت في حُقة[1] تحت ساق العرش. قيل: يا رسول الله، فما كان طعامها؟ قال: التسبيح والتهليل والتمجيد. فلما خلق الله آدم وأخرجني من صلبه، أحبّ الله أن يخرجها من صلبي، جعلها تفّاحة في الجنة، وأتاني بها جبرائيل فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. قلت: وعليك السلام. قال: إن ربك يقرئك السلام ويقول: إن هذه تفّاحة أهداها الله إليك من الجنة. قال: فأخذتها وضممتها إلى صدري، قال: إن ربك يقول لك: كُلها. ففلقتها فرأيت فيها نوراً ساطعاً فزعت منه، فقال: كُلها ولا تخف؛ فان ذلك النور للمنصورة في السماء، وفي الأرض فاطمة. قلت: ولم سُميّت في الأرض فاطمة؟ قال: سُميّت فى الارض فاطمة لأنها فطمت شيعتها من النار، وفطم أعداؤها عن حبّها، وسميّت في السماء المنصورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ﴾[2] أي بنصر فاطمة لمحبّيها»[3].

إن من الجائز الغريب أن تكون هذه الرواية من صنع الغلاة، وقد نسبت إلى سدير الصيرفي زوراً وبهتاناً؛ لأن النبي والأئمة الهداة ما كانوا في يوم من الأيام ليحدّثوا الناس بما لا تدركه عقولهم، ولا تحيط به حتى أوهامهم. وبعد أن أحسّوا بذلك السيل الجارف من المرويّات المكذوبة عليهم، أمروا شيعتهم وأتباعهم بأن لا يأخذوا بالرواية إلا بعد عرضها على كتاب الله، وعدم مخالفتها لنصوصه وظواهره. ومن غير الجائز عليهم أن يحدّثوا بمثل هذه الغيبيات حتى ولو كانت صحيحة في الواقع، ثم يعلنوا على الملأ أن كل رواية تخالف كتاب الله فهي مكذوبة علينا. على أن الراوي لهذه الرواية عن الصادق

---

(١) الحُقة ـ بالضم ـ: الجُحر.

(٢) سورة الروم الآية ٣ ـ ٤.

(٣) معاني الأخبار للصدوق ص ٣٩٧.

هو سدير الصيرفي، وقد جاء عنه أنه كان مخلطاً على حدّ تعبير المؤلّفين في الرجال، ولم يخرجوا من ترجمته بنتيجة توحي بجواز الأخذ بمروياته والاعتماد عليها[١].

وروى السيد هاشم البحراني في كتابه (نزهة الأبصار) جملة من الأساطير حول مولد النبي وعلي والزهراء والأئمة الكرام (عليهم أفضل الصلاة والسلام) كلّها من صُنع الغلاة وأعداء الأئمة والإسلام بدافع التشنيع عليهم، والتشويه لآثارهم الخيّرة التي كانت وستبقى ما بقي على وجه الأرض إنسان من أفضل ما يُقدّمه الإنسان في هذه الدنيا من خير وتعاليم لبني الإنسان. وبذلك وحده قد استحقّوا التقديس والتعظيم، وأصبحوا فوق مستوى الناس أجمعين، لا بتلك الغيبيّات والأساطير التي تلفّقها حشوية الشيعة كالبحراني والبرسي وصاحب (جامع الأخبار) والشيخ حسن بن سليمان الحلي الذي اختصر بصائر الدرجات لسعد بن عبد الله الأشعري، وغيرهم ممن ألّف في الحديث، ودوّن كل ما سمعته أُذناه ورأته عيناه من غير تحقيق في متونها وأسانيدها، ولا تفكير في مفاسدها بالرغم من أن الأئمة أنفسهم قد أنكروا تلك الأحاديث، ولعنوا كل من يُحدّث عنهم بما لا تقبله العقول ولا تُدركه الأوهام والأفهام. وسلام الله على الإمام زين العابدين الذي قال لجماعة سمعهم يتحدّثون عنه وعن آبائه بمثل هذه الغيبيّات والأوهام، قال: «**حبّبونا إلى الناس، ولا تبغّضونا إليهم. لعن الله من قال فينا ما لم نقله في أنفسنا. لنا ذكر في كتاب الله ونسب من رسول الله، وولادة طيبة. هكذا قولوا إلى الناس**»[٢]. أي لا تحدّثوا عنّا بأكثر من ذلك، واطرحوا الغيبيّات جانباً، وردّوها على من جاءكم بها.

[رواية كعب الأحبار في مجلس معاوية عن مولد النبي وفضائل عترته]

ومهما كان الحال فمن تلك المرويات ما رواه محمد بن بابويه عن جماعة منهم محمد

(١) انظر المصدر نفسه، قسم الضعفاء ص ١٨٧.

(٢) تقدّم فيما سبق.

بن موسى بن المتوكل عن محمد بن سنان عن زياد بن المنذر عن ليث بن سعد أنه قال لكعب الأحبار في مجلس معاوية: كيف تجدون صفة مولانا النبي؟ وهل تجدون فضلاً لعترته؟ فقال له معاوية: هات ما عندك يا أبا إسحاق. فقال كعب الأحبار: لقد قرأت اثنين وسبعين كتاباً كلّها أنزلت من السماء، وقرأت صحف دانيال، ووجدت في كلّها ذكر مولده ومولد عترته، ولم يولد مولود قط نزلت عليه الملائكة ساعة ولادته ما خلا عيسى وأحمد، وما وكلت الملائكة بأُنثى حملت غير مريم وآمنة أُم أحمد. وكان من علامة حمله أنه لما كانت الليلة التي حملت به آمنة نادى منادٍ في السماء: أبشروا؛ فقد حملت آمنة بأحمد هذه الليلة، وما بقي يومئذٍ في الأرض دابّة تدبّ، ولا طائر يطير إلا علم بمولده. ولقد بُني في الجنة ليلة مولده سبعون ألف قصر من ياقوت أحمر، وسبعون ألفاً من لؤلؤ رطب، فقيل: هذه قصور الولادة، وتزيّنت الجنان وضحكت ولا تزال ضاحكة إلى يوم القيامة.

ولقد بلغني أن حوتاً من حيتان البحر يقال له «طنيوسا»، وهو سيد الحيتان، له سبعمئة ألف ذنب، يمشي على ظهره سبعمئة ألف ثور، الواحد منها أكبر من الدنيا، لكل ثور سبعمئة ألف قرن من زمرّد أخضر، وما بقي يومئذٍ جبل إلا نادى صاحبه بالبشارة. ولقد خضعت الجبال كلّها لأبي قبيس كرامة لمولده، ولقد ضُرب بين السماء والأرض سبعون عموداً من أنواع الأنوار، لا يشبه كلّ واحد صاحبه.

ولقد بلغني أن الكوثر قد اضطرب واهتزّ، فرمى بسبعمئة ألف قصر من قصور الدرّ والياقوت نثاراً لمولد محمد.

وأضاف كعب الأحبار إلى ذلك: إنا نجد في الكتب أن عترته خير الناس، وأنه لا يزال الناس في أمان من العذاب ما دام منهم إنسان.

ومضى كعب الأحبار يحدّث عن فاطمة الزهراء وذريّتها بمثل حديثه عن مولد الرسول؛ حتى نهض معاوية مغضباً[1]. إلى غير ذلك من الأساطير التي اعتاد كعب

(١) أمالي الصدوق ص ٦٩٨.

الأحبار أن يزوّد بها المسلمين لغاية في نفسه.

على أن من أبطال هذه الأُسطورة محمد بن موسى المتوكّل، وقد عدّه بعض المؤلّفين في الرجال مع الثقات لا لشيء إلا لأن الصدوق قد روى عنه، وهو لا يروي إلا عن الثقات على حدّ تعبيره. مع العلم بأنه قد روى عشرات الروايات عن غير الموثوقين كما يظهر ذلك لكل من تتبّع مرويّاته.

وورد في سندها محمد بن سنان، وزياد بن المنذر، وليث بن سعد:

أمّا محمد بن سنان، فهو من المتّهمين بالكذب على الأئمةعليهم السلام. وجاء عن الفضل بن شاذان أنه قال: لا أُحلّ لكم أن ترووا أحاديث محمد بن سنان. كما عدّه في بعض كتبه مع الكذّابين كأبي الخطّاب، ويونس بن ظبيان، ويزيد الصائغ، وغيرهم[1].

وأما زياد بن المنذر الملقب بسرحوب، فقد كان زيديّ المذهب، وإليه تنسب الفرقة الجارودية. وتصفه بعض المرويّات عن الأئمة بالكذب والكفر.

وأما ليث بن سعد، فلم أجد له ذكراً بين رجال الشيعة.

وممّا يؤكّد كذب هذه الرواية أن الراوي يدّعي أن حديث كعب كان في مجلس معاوية في أيام خلافته، ومن غير الممكن أن يسمح لأحد أن يحدّث في فضل فاطمة وبنيها في مجلسه، وهو الذي كان يعاقب بشدّة كلّ من يذكر علياً أو يحدّث عنه ولو كان الحديث في أحكام الله وحلاله وحرامه.

[مقتطفات من مرويات ابن شهر آشوب وغيره حول هذه المواضيع]

وممّا جاء في ولادة عليعليه السلام عن محمد بن علي بن شهر آشوب في نخبة (المناقب) عن زيد بن قعنب، وجابر الأنصاري أنه كان راهب يقال له الملتزم بن وهيب قد عبدَ الله مئة وتسعين عاماً لم يسأله بها حاجة، فسأل ربّه يوماً أن يريه وليّاً له، فبعث الله بأبي طالب، فسأله عن مكانه وقبيلته، فلما أجابه، وثب إليه، وقبّل رأسه وقال: الحمد لله

(١) رجال النجاشي ص ٣٢٨.

الذي لم يمتني حتى أراني وليّه. ثم قال له: أبشر يا هذا، فإن الله قد ألهمني أن ولداً يخرج من صلبك هو ولي الله، اسمه علي، فإذا أدركته فأقرئه مني السلام. فقال: وما برهانه؟ قال: وما تريد؟ قال: طعام من الجنة في وقتي هذا. فدعا الراهب بذلك، فما استتمّ كلامه حتى أُتي بطبق عليه من فاكهة الجنة: رطب، وعنب، ورمان، فتناول رمّانة فتحوّلت ماء في صلبه، فجامع فاطمة، فحملت بعليعليه السلام، وارتجّت الأرض وزلزلت بهم، وعلت قريش إلى ذروة أبي قبيس، فجعلت ترتجّ ارتجاجاً حتى تدكدكت بهم الصخور، وتناثرت وتساقطت الآلهة على وجوهها.

فصعد أبو طالب الجبل وقال: أيها الناس إن الله سبحانه قد أحدث في هذه الليلة حدثاً، وخلق بها خلقاً، إن لم تطيعوه ولم تقرّوا بولايته وبإمامته لم يسكن ما بكم. فأقرّوا بولايته وبإمامته، فرفع يده أبو طالب وقال: إلهي وسيدي ومولاي، أسألك بالمحمدية المحمودة، والعلوية العالية، والفاطمية البيضاء إلا تفضّلت على تهامة بالرأفة والرحمة. فكانت العرب تدعو بها في مبدأ الجاهلية وهي لا تعلمها.

فلما قربت ولادة عليعليه السلام، أتت فاطمة بنت أسد إلى بيت الله وقالت: ربي إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، ومصدّقة بكلام جدّي إبراهيم، فبحقّ الذي بنى هذا البيت، وبحقّ المولود الذي في بطني إلا ما يسّرت عليّ ولادتي. فانفتح البيت ودخلت فيه، وإذا هي بحوّاء، ومريم، وآسية، وأُمّ موسى، وغيرهن، فصنعن مثل ما صنعن برسول الله وقت ولادته. فلما ولد سجد على الأرض يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأشهد أن علياً وصي محمد رسول الله، بمحمد يختتم الله النبوة، وبعلي تتمّ الوصية، وأنا أمير المؤمنين». ثم سلّم على النسوة، وأشرقت السماء بضيائه، فخرج أبو طالب قائلاً: أبشروا فلقد ظهر ولي الله، به يختتم الله الوصيّين، وهو وصيّ رسول رب العالمين. ثم أخذ علياً، فسلّم علي عليه وقال له: «**الحق بالملتزم وخبّره بما رأيت، فإنه في كهف كذا من جبل المكارم**»[1].

---

(١) في المصدر: إكام.

فخرج حتى أتاه فوجده ميّتاً جسداً ملفوفاً في مدرعة مسجّى، فسلم عليه أبو طالب، فأحياه الله وقام وهو يمسح على وجهه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن علياً ولي الله، والإمام بعد نبي الله. فقال أبو طالب: أبشر فإن علياً قد طلع إلى الأرض. فسأل عن ولادته، فأخبره أبو طالب بما جرى له، فبكى الملتزم وسجد لله شكراً، ثم تمطّى وقال له: غطّني بمدرعتي. فغطّاه بها، فإذا هو ميت كما كان، فأقام أبو طالب ثلاثاً، وخرجت حيّتان وقالتا: السلام عليك يا أبا طالب، الحق بولي الله؛ فإنك أحقّ بصيانته وحفظه من غيرك. فقال لهما: من أنتما؟ قالتا: نحن من جملة من يذبّ عنه الأذى إلى ان تقوم الساعة؛ فحينئذٍ تكون إحدانا قائده، والأُخرى سائقه ودليله إلى الجنة[1].

هذه الرواية من مرويات ابن شهرآشوب، وحاله معروف في الاعتماد على الروايات الضعيفة وبخاصّة إذا كانت في المناقب، كما هو الحال في غيره من المحدّثين الذين جمعوا كلّ ما سمعوه مهما كان مصدره ومضمونه. على أن أحد الرواة لها وهو يزيد بن قعنب لم أعثر له على ذكر بين رواة الشيعة والسنّة.

وجاء في كتاب (نزهة الأبصار) عن أصحاب التواريخ على حد تعبيره أن رسول الله ﷺ كان جالساً وعنده جنّي يسأله عن قضايا مشكلة، فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام، فتصاغر الجني حتى صار كالعصفور، ثم قال: أجرني يا رسول الله، قال: «**ممن أُجيرك؟**». قال: من هذا الشاب المقبل. فقال له النبي: «**وما ذاك؟**». قال الجنّي: أتيت سفينة نوح لأُغرقها يوم الطوفان، فلما تناولتها ضربني هذا فقطع يدي، ثم أخرج يده المقطوعة، فقال النبي: «**وهو ذاك**».

وأضاف إلى ذلك أن جنّياً كان جالساً عند رسول الله ﷺ، فلمّا أقبل أمير المؤمنين

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٢١، وفيه أن اسم الراهب هو المثرم بن دعيب على عادتهم في إيراد أسماء غريبة لينقلوا أذهان البسطاء من الناس إلى الغيبيات، ويدلّسوا عليهم بشعوذات ما أنزل الله بها من سلطان.

استغاث به الجنّي وقال: أجرني يا رسول الله من هذا الشاب المقبل. قال: «**وما فعل بك؟**». قال: تمرّدت على سليمان، فأرسل إليّ نفرين من الجن فطلت عليهم، فجاءني هذا الفارس فأسرني وجرحني، وهذا مكان الضربة إلى الآن لم يندمل[1].

ويكفي هذه الرواية عيباً أنها من مرويات (نزهة الأبصار) الذي حشد فيه مؤلّفه كل ما لذّ له وطاب من المراسيل والمنكرات، والمجاهيل وضعاف الأحاديث.

[من مرويات الشيخ البرسي في كتابه (مشارق أنوار اليقين)]

وروي في (معالم الزلفى) عن الشيخ رجب البرسي مؤلّف كتاب (مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين) المشحون بالغلو والأخبار المكذوبة على علي وبنيه عليهم السلام روي عنه قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً في دكة القضاء إذ نهض إليه رجل يقال له «صفوان الأكحل» وقال له: يا أبا الحسن أنا رجل من شيعتك وعلي ذنوب أريد أن تطهرني منها، قال علي عليه السلام: «**وما أعظم ذنوبك وما هي؟**»[2]. قال: أنا ألوط بالصبيان. قال: «**أيما أحبّ إليك: ضربة بذي الفقار، أو أقلب عليك جداراً، أو أرميك بالنار؟ فإن ذلك جزاء ما ارتكبته**». فقال: يا مولاي، أحرقني بالنار؛ لأنجو من نار الآخرة. فقال علي لعمار: «**اجمع لي ألف حزمة من القصب لنضرمه غداة غدٍ بالنار**». ثم قال للرجل: «**انهض وأوصِ بما لك وما عليك**».

فنهض الرجل، وأوصى بما له وما عليه، وقسّم أمواله على عياله وأولاده، وأعطى كلّ ذي حقّ حقّه، وبات على حجرة علي في بيت نوح شرقيّ جامع الكوفة، فلما صلّى أمير المؤمنين قال: «**يا عمار، نادِ في الكوفة: اخرجوا وانظروا إلى حكم علي عليه السلام**». فقال جماعة منهم: أليس قد قال: إن الشيعة لا تأكلهم النار؟ هذا رجل من شيعته ومحبّيه،

---

(١) المصدر غير متوفّر لدينا، انظر مشارق أنوار اليقين ص ١٢٦.

(٢) في المصدر: «قل لي بأعظم ذنوبك ما هي؟»، وفي غيره «أعظم ذنوبك ما هو؟»، وهما أوفق مع السياق.

فإذا أكلته النار تبطل إمامته. فسمع بذلك أمير المؤمنين، فأخذ الرجل وبنى عليه ألف حزمة من الحطب، وأعطاه كبريتاً وقال له: «**اقدح وأحرق نفسك، فإن كنت من شيعة علي ومحبّيه لا تأكلك النار، وإن كنت من المكذّبين والمخالفين فالنار تأكل لحمك وتكسر عظمك**». فقدح الرجل النار وأحرق القصب بكامله، وكان قد لبس ثياباً بيضاء، فخرج من تحت النار ولم تعلق به ولا أصاب ثيابه شيء حتى من الدخان، فقال الإمام: «**كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً، وخسروا خسراناً مبيناً**». وقال: «**شيعتنا منّا، وأنا قسيم الجنّة والنار**»[١].

والذي يجب أن يقال: إن هذا الحديث من الموضوعات؛ لأن النار خلقها الله للعصاة ولو كانوا من ألصق الناس نسباً بعلي عليه السلام، والجنّة للمطيعين ولو لم تربطهم برسول الله وعلي سوى رابطة الإسلام والإيمان، كما أكّد ذلك القرآن الكريم والحديث الصحيح. وليس للشيعة مهما بلغوا من الولاء والإيمان بعلي وبنيه أي امتياز على غيرهم، والصلاة والسلام على رسول الله القائل لابنته فاطمة: «**اعملي يا فاطمة، فلن أُغني عنك من الله شيئاً**»[٢]. وإذا وضعنا اللواطيّين والمفسدين من الشيعة إلى جانب غيرهم من الشيعة المطيعين لأوامر الله في الجنة كان أُولئك أكرم على الله من هؤلاء. وفي عقيدتي إن الذين وضعوا هذا النوع من المرويات قد أساؤوا إلى التشيّع، وشوّهوا وجهه الصحيح الذي عناه الإمام الصادق بقوله لبعض الشيعة: «**ليس من شيعتنا من كان في بلد فيها أربعون ألفاً وفيهم من هو أورع منه**»[٣].

وعلى أيّ الأحوال فالأمر في هذه الرواية سهل بعد أن كانت من مختارات الشيخ رجب البرسي المعروف بالغلوّ والإفراط في الصفات التي وصف بها الأئمة كما يبدو ذلك من كتابه (مشارق أنوار اليقين) الذي روى فيه الغرائب، وأعطى للأئمة جميع

---

(١) لم أعثر على هذا الخبر في (مشارق الأنوار). نعم أورده ابن شاذان القمّي في الفضائل ص ٧٤.

(٢) كنز العمّال ج١٦ ص١٩ رقم الحديث ٤٣٧٥٣، مجمع الزوائد ج١ ص٤٩.

(٣) وسائل الشيعة للعاملي ج ١٥ ص ٢٤٧. مع اختلاف قليل لم يضرّ بالمعنى.

خصائص الخالق، وروى فيه قصّة زواج عبد الله من آمنة، وحملها بالنبيﷺ، وكيف اضطرب العالم، وظهرت فيه الكرامات والمعجزات من اللحظة التي اتّصل فيها عبد الله بآمنة حتى بقية مراحل حملها لحظة فلحظة، وما رافق ذلك من الحوادث الكونية، والمفاجآت التي لم يعرف البشر لها تفسيراً، ولا سمع بنظيرها في أخبار الأُمم السالفة.

ويمضي البرسي في حديثه فيقصّ على العالم حوادث الشهر الثالث من حمله، فيقول: ولما أتى على رسول الله في بطن أُمّه ثلاثة أشهر كان أبو قحافة راجعاً من الشام، فلما بلغ قريباً من مكّة وضعت ناقته جمجمتها على الأرض ساجدة، فضربها ضرباً موجعاً، فلم تنهض به ولم ترفع رأسها من السجود. فبينما هو يحاولها وإذا بهاتف يهتف ويقول: لا تضرب يا أبا قحافة من لا يطيعك، ألا ترى أن الجبال والبحار والأشجار والآدميّين تسجد لله سبحانه؟ فقال أبو قحافة: يا هاتف، وما السبب في ذلك؟ قال: اعلم أن النبي الأُمّي قد أتى عليه الآن ثلاثة أشهر في بطن أُمّه. قال أبو قحافة: ومتى يكون خروجه؟ قال: سترى ذلك، فالويل كلّ الويل لعبدة الأصنام من سيفه وسيف أصحابه. وكلما مرّ عليه شهر في بطن أُمّه تسجد الجبال وجميع الكائنات، ويضطرب الناس لهول ما يلاقون وما يشاهدون من الغرائب والعجائب التي لم يعرفوها [من][(١)] قبل.

ثم ينقل البرسي عن الواقدي حوادث الشهر الثامن فيقول: إنه كان في بحر الهوى حوتة يقال لها طينوسا[(٢)] هي سيدة الحيتان، فتحركت الحيتان والحوتة معها، واستوت قائمة على ذنبها، فارتفعت مع الأمواج، فقالت الملائكة: «إلهنا وسيدنا، أما ترى ما تفعل طينوسا؛ فإنها لا تطيعنا، وليس لنا بها قوة». قال: فصاح استحيائيل الملك صيحة عظيمة، وقال لها: «قرّي في مكانك». فقالت: لقد أمرني ربّي يوم خلقني أن إذا ولد محمد بن عبد الله بالاستغفار له ولأُمّته، والآن سمعت الملائكة يبشّر بعضهم بعضاً؛ فلذلك قمت وتحرّكت. فأمرها أن تقرّ في مكانها، وأخبرها بأنه لم يولد إلى الآن.

---

(١) في الأصل: ممّا.

(٢) من الفضائل لشاذان بن جبرئيل القمّي ص ١٦، وفي الأصل: طينوسنا، وكذا في المورد التالي.

ويمضي الراوي في حديث طويل يصف المراحل التي مرّ بها إلى انتهاء حمله وأيّام ولادته، وما رافقها من الأحداث الغريبة بهذا اللون من الوصف، إلى أن انقضى الشهر التاسع على حملها، وكانت فيه ولادته بعد مضي تسعة آلاف سنة، وتسعمئة وأربعة أشهر، وتسعة أيّام من وفاة أبي البشر آدم عليه السلام.

وهنالك الأحداث الجسام في السماوات والأراضين التي روّعت العالم بأسره، وارتاع منها حتى إبليس وأولاده على حدّ تعبير البرسي، وحثا على رأسه التراب، وتكسّرت الأصنام، وسجدت الأوثان في المشرق والمغرب.

وهكذا يمضي في وصف قصّة حياته الكريمة، وما رافقها يوماً فيوماً من الحوادث الكونية إلى أن ماتت أُمّه، وانتقل إلى حاضنته حليمة، وما رأته من الآيات والكرامات والبركات مما تعجز عن إدراكه العقول، ولا يقع في حدود التصوّر والخيال في حديث طويل، إلى أن أتمّ السنتين عند حاضنته، فخرج يوماً يتنزّه، فأرسل الله سبحانه له سحابة تظلّله من حرارة الشمس، وتتناثر منها المياه حتى تسيل على وجه الأرض، ولم يصب النبي منها بشيء، فتخضرّ الأرض وتعود الحياة إلى جميع الأشجار اليابسة، وتثمر من جميع الفواكه والأثمار. ويمرّ على روضة فيها جبل شاهق كالحائط لا يستطيع أحد أن يتسلّقه، فيحاول أن يصعد إليه فلم يتمكّن، فيصيح استحيائيل في الجبل صيحة ترعشه فيهتزّ خوفاً منها ويقول له: ويحك أيها الجبل، أطلِع محمداً خير المرسلين عليك. فيفرح الجبل، ويتراكم بعضه على بعض كما يتراكم الجلد في النار، فيصعد النبي إلى أعلاه، وتخرج الحيات والعقارب التي تبلغ حجم البغال من تحته، فيصيح بها الملك بالرجوع حتى لا يراها محمد[1]. إلى غير ذلك من الأساطير التي تشبه أساطير الهنود القدامى والأُمم الغابرة.

ويكفي هذه الأُسطورة عيباً أنها من مرويات الواقدي الذي كان من أقدم المؤلّفين في

---

(١) نقلها عن الواقدي في (بحار الأنوار) ج ١٥ ص ٢٨٤.

التاريخ والمغازي، وكان يجمع كلّ ما طرق سمعه من القصص والأخبار. وجاء عنه أنه ترك ستّمئة قمطر من كتبه، ومع أنه كان يعتمد على ذاكرته في جميع مدوناته، وقوي الذاكرة لم يكن يحفظ شيئاً من القرآن، حتى إن المأمون أراده أن يصلّي الجمعة بالناس، فاعتذر بأنه لا يحفظ سورة الجمعة، وألحّ في اعتذاره، فلازمه المأمون شطراً من الليل يلقّنه إيّاها، فكان كلّما حفظ منها جزءاً [نسيه][1] عندما يتّجه إلى الجزء الآخر، حتى ملّ المأمون، وأخذه النعاس، فكلّف علي بن صالح أن يلقّنه إياها، وأخيراً مضى الليل بكامله ولم يصنع شيئاً[2].

[رأي المؤلف في تلك المرويات وجامعها وكتابه]

ومهما كان الحال [فـ] إن الله سبحانه إذ يصنع المعجز على يد الأنبياء ـ وربما على يد الأولياء ـ فبمقدار ما للمعجزة من روعة وجلال وإكبار واستغراب، لابدّ أن تكون الفائدة منها والأهداف الداعية إليها موضع تقدير وإكبار من حيث آثارها وفوائدها. وبتعبير آخر لا يكون الإعجاز ـ لاسيما إذا كان من الحوادث الكونية ـ إلا حيث يرى الله سبحانه أن رسالة رسله لا يمكن أن تتمّ وتعمّ إلا بذلك. فلقد تكلّم عيسى في المهد، وأحيا الموتى، وتوالت آياته ومعجزاته، وانشقّ البحر لموسى حتى وقف الماء بشكل عمودي، وكانت عصاه آية من الآيات فوق إمكانيات السحرة. كما تشايعت

---

(١) في الأصل: ينساه، وهو خطل؛ لأن فعلَ (كلما) وجوابَها لا يكونان إلا ماضيين.

(٢) انظر الجزء الثالث من الكنى والألقاب [في الأصل: الكنز] للشيخ عبّاس القمي ص ٢٣١. [وانظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٣ ص ٢١٦ ـ ٢١٧، قال: وكان الواقدي مع ما ذكرناه من سعة علمه وكثرة حفظه لا يحفظ القرآن. عنه في كلّ من: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٥٤ ص ٤٤٦، سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٩ ص ٤٦٠، وأضاف: قال علي: ففعلت، فبقي كلّما حفّظته شيئاً، نسي شيئاً، فاستيقظ المأمون، فقال لي: ما فعلت؟ فأخبرته، فقال: هذا رجل يحفظ التأويل، ولا يحفظ التنزيل، اذهب فصلّ بهم، واقرأ أيّ سورة شئت، أخبار القضاة لمحمّد بن خلف بن حيان ج ٣ ص ٢٧٠، وجميعهم نقل عبارة الخطيب البغدادي].

الآيات والمعجزات لمحمدﷺ بعد أن بعثه الله نبياً. كلّ ذلك لم يكن إلا تتميماً لرسالاتهم، وإرغاماً للجاحدين والطغاة الظالمين الذين وقفوا في وجه النبوّة، وجنّدوا كلّ إمكانيّاتهم؛ حتى لا ترتفع راية الحقّ، ولا تعلو كلمة الله على كلمة الشيطان. أما حيث يكون رسول الغد حملاً أو طفلاً فلا تدعو الحاجة إلى شيء من ذلك.

ولقائل أن يقول: إن محمداً أكرم على الله من عيسى وجميع الأنبياء، وقد توالت الكرامات لعيسى من حين ولادته حيث تكلّم في المهد، وأخبر بما سيكون من أمره كما نصّ على ذلك القرآن الكريم.

والجواب عن ذلك أن حمل السيدة مريم قد أُحيطَ بكثير من الشُّبَه والاتهامات من اليهود وغيرهم؛ حتى اعتقد الناس بها السوء، كما تدلّ على ذلك الآية: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾[1]. فأنطقه الله، وأظهر على يده ويد أُمّه بعض الكرامات لتزكيتها، ولتثبيت نبوّته التي جدّ اليهود في إحاطتها بسياج كثيف من الشُّبه والاتّهامات.

ومن الجائز أن تظهر بعض الملامح والحالات التي تبشّر بمستقبله الزاهر كالتي ظهرت للنبي منذ طفولته إلى أن اختاره الله رسولاً ونذيراً بعد أربعين عاماً من ولادته، والتي كان بسببها محلاً لاحترام الجميع وثقتهم واطمئنانهم إليه، واعتمادهم على أمانته وصدقه في جميع أُمورهم ومشاكلهم، أمّا تلك الغرائب والحوادث الكونية التي رواها الواقدي، واختارها البرسي والبحراني وغيرهما من حشوية الشيعة، والتي تتابعت وتوالت منذ أن كان نطفة إلى أن أصبح علقة ومضغة وعظاماً يكسوها لحم طري، إلى أن أطلّ بوجهه الكريم على هذا العالم، وانطلقت أنفاسه في فضاء مكّة وبعدها بين أحياء العرب؛ حيث كانت حليمة السعدية تتولّى حضانته وتربيته كالمذهولة هي وجميع من في حيّها، هذه الكائنات التي ظهرت في السماء والأرض، والبحار، وفي كهوف

---

(١) سورة مريم الآية ٢٨.

الجبال، على حدّ زعم الراوي [فـ] لو صحّت لطبّق بشهرتها مكّة وجوارها، وكان لها أثرها في إذلال جبابرة المكّيّين والقرشيّين، وإرغامهم على التصديق بدعوته بيسر وسهولة.

مع العلم بأنهم كانوا من أشدّ العرب والأُمم تعصّباً وضراوة في وجه دعوته المباركة، ولم يستطع أن يفرض رسالته عليهم إلا بعد أن أكلت الحروب منهم ومن أتباعه، وأصبح أقوى منهم عدّة وعتاداً. هذا بالإضافة إلى أن المؤرّخين القدامى لم يتعرّضوا لتلك الكائنات، ولم تتعرّض المرويّات ولا الآثار إلى أنه هو أو عمّه أبو طالب الذي كان من أشدّ الناس تحمّساً لدعوته ودفاعاً عنها وعن أتباعها، لم تتعرّض إلى أنه كان قد احتجّ عليهم بشيء من تلك الأحداث الجسام التي يدّعيها البرسي والواقدي من تاريخ حمله، وولادته، وتربيته ونشأته، ورحلاته المزعومة إلى الشام وما رافقها من الغرائب والكائنات مما نقلناه وتركنا ما هو أعظم منه غرابة وبُعداً عن الحقّ والواقع.

كما وأن ما دوّنه البحراني في كتابه من الأحداث التي يدّعي إقرانها بولادة الإمام وغيره من أئمّة الهدى، والزهراءعليها السلام كلّه من موضوعات القصّاصين، وأعداء الإسلام الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا في وجه الزحف الإسلامي المتصاعد يوماً بعد يوم، فدخلوا فيه مرغمين، وأدخلوا معهم هذا اللون من الغيبيّات والغرائب والأساطير؛ ليصنعوا منها منفذاً إلى التشكيك به، وإبرازه بشكل أُسطوري يزيد المتشكّك تعقيداً، وضعفاء الإيمان ريباً وتضليلاً.

وبشيء من الإيجاز فإن كتب البحراني والبرسي وأمثالهما ممّن جمعوا الحديث على علاته ومصائبه قد مكّنت أعداء الإسلام من بثّ سمومهم، وزودتهم بأسلحة الهدم والتخريب والتشويش على الإسلام والتشيّع الذي لم يعتمد في جهة من جهاته على غير المحسوس من سيرة أهل البيت، وعلمهم الموروث، وتضحياتهم المتواصلة في سبيل الله وخير الناس أجمعين.

وإني إذ أترك (معالم الزلفى) إلى غيرها من كتب الحديث لا لأني لم أجد فيها محلاً

للتشكيك والريب أكثر مما نقلته عنها؛ فإن أكثر مروياتها لو عرضت على أُصول علمي الرجال والدراية لا يثبت منها إلا القليل في وجه النقوض والاتّهامات الموجّهة إليها، وإنما أتركها لأُقدّم في كتابي نماذج في مختلف المواضيع من الموضوعات في غيرها من مجاميع الحديث. وفي الوقت ذاته أُريد أن يفهم غيرنا أن جميع مؤلّفاتنا في الحديث تخضع للنقد والتجريح حتى الكتب الأربعة، ولا نصفها بالصحّة كما وصف غيرنا ستّة من مجاميعهم بالرغم من أنها مشحونة بالموضوعات والأساطير.

[مقتطفات من (الوافي) وغيره مما دسه الغلاة بين أحاديث الأئمة]

وجاء في (الوافي) عن محمد بن الحسين عن الحكم بن مسكين عن إسحاق بن عمّار عن رجل عن أبي عبد الله‏عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1]، إنه قال: «الأمانة هي ولاية علي بن أبي طالب»[2].

وقد جاء في سند هذه الرواية الحكيم بن مسكين، ولم يتعرّض المؤلّفون في الرجال لمدحه أو ذمّه غير أنه ورد في التعليقة على رجال الميرزا محمد أن بعض المؤلّفين في الدراية حاول أن يعدّه مع الموثوقين؛ لبعض الاعتبارات التي لاتغني شيئاً. والظاهر أن محمد بن الحسين الراوي لها عن ابن مسكين هو محمد بن الحسين الصائغ، وهو من الضعفاء والمتّهمين بالغلوّ. وممّا يؤيّد ذلك أن هذا النوع من التفاسير أكثر رواته من الغلاة المتّهمين بوضع الأحاديث. هذا بالإضافة إلى أن إسحاق بن عمار لم يذكر الرجل الذي رواها عن الإمام الصادق بوصفه أو اسمه، يكفيها ضعفاً ذلك. على أن المؤلّفين في التفسير لم يتعرّض أحد منهم لهذا الاحتمال، والأقرب إلى الاعتبار أن هذا التفسير مأخوذ من كتاب (تفسير الباطن) لعلي بن حسّان، أو من تفسير علي بن إبراهيم

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢.

(٢) الكافي ج ١ ص ٤١٣.

المنسوب إلى العسكري عليه السلام. ومن المعلوم أنه قد أُحيط بأكثر من الشكّ والريب عند الشيعة الإمامية؛ لأنه يعتمد على الباطن في أكثر المناسبات.

هذا بالإضافة إلى أن الرواة الذين نسبوه إلى العسكري عليه السلام لم تتوفّر فيهم الشروط المطلوبة بالراوي، كما يظهر من المؤلّفات في هذا الموضوع[١].

وروي في (الوافي) عن علي بن الحكم عن المفضل بن صالح عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر أن الآية: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[٢] : «**إنه عهد إلى آدم بولاية محمد والإئمّة من ولده، فترك ولم يكن له عزم على ذلك**»[٣]. وأضاف الإمام إلى ذلك: «**إنا نحن أولو العزم**»؛ لأنه عهد اليهم في محمد وأوصيائه والمهدي وسيرته، فأجمع عزمهم على الإقرار به. وأكّد ذلك محمد بن عيسى القمي، ومحمد بن سليمان، وعبد الله بن سنان، وقالوا: إن الإمام الصادق أقسم بأن الآية نزلت على محمد بالصيغة التالية: «**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل كلمات في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم فنسي**».

وقد جاء في سند هذه الرواية المفضل بن صالح، واتّفق المؤلّفون في أحوال الرواة أنه كان كذّاباً، يضع الحديث، ولم يرد عن أحد منهم ما يشعر بجواز الاعتماد على مرويّاته. كما ورد في سندها محمد بن سليمان، وسواء كان ابن عبد الله الديلمي، أو ابن زكريا الديلمي، فهما من المتّهمين بالكذب، ولا يعوّل على مرويّاتهما على حدّ تعبير المؤلّفين في الرجال. ومع التغاضي عن جميع ذلك، فإن آدم من الأنبياء الذين اختارهم الله لرسالته،

---

(١) قال السيد أبو القاسم الخوئي ـ وهو زعيم الطائفة الشيعية في وقته ـ حول هذا التفسير ما نصه: «التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، إنما هو برواية هذا الرجل ـ علي بن محمد بن سيار ـ وزميله يوسف بن محمد بن زياد، وكلاهما مجهول الحال، ولا يعتدّ برواية أنفسهما عن الإمام عليه السلام، اهتمامه عليه السلام بشأنهما، وطلبه من أبويهما إبقاءهما عنده، لإفادتهما العلم الذي يشرّفهما الله به. هذا مع أن الناظر في هذا التفسير لا يشكّ في أنه موضوع. وجلّ مقام عالم محقّق أن يكتب مثل هذا التفسير، فكيف بالإمام عليه السلام؟». معجم رجال الحديث ج ١٣ ص ـ ١٥٧.

(٢) سورة طه الآية ١١٥.

(٣) الكافي ج ١ ص ٤١٦.

ومع ذلك فكيف يصحّ عليه أن يخالف عهد الله، ولا يعزم عليه كما تنصّ هذه الرواية؟

وروي عن علي بن محمد عن بعض أصحابنا كما جاء في سند الرواية عن السراد عن محمد بن المفضل عن أبي الحسن الماضي أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: «يريدون أن يطفئوا ولاية علي بن أبي طالب، ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾[1] أي متمّ إمامة علي».

وأضاف إلى ذلك أن «الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾[2] نزلت في علي عليه السلام، وأن ﴿الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ هما ولاية علي بعد رسول الله، ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[3] أي متمّه بولاية علي عليه السلام».

ومضى الراوي يقول: «وإن الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ تعني أنهم إذا قيل لهم: ارجعوا إلى ولاية علي يسغفر لكم رسول الله ﴿لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[4] عن ولايته. وإن الآية: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5] قد ضربها الله مثلاً لمن حاد عن ولاية علي أمير المؤمنين، فهو يمشي مُكباً على وجهه لا يهتدي لأمره، ومن يتبعْ علياً يمشِ على صراط مستقيم، وهو نفسه الصراط المستقيم. وإن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[6] أي أن ولاية علي هي قول جبرائيل، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾[7] تشير إلى أن المنافقين قالوا بأن محمداً قد كذب على ربّه في استخلاف علي

---

(١) سورة الصفّ الآية ٨، ويحتمل أنه يريد الآية ٣٢ من سورة التوبة، لكن هذه فيها: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٣.

(٣) سورة التوبة الآية ٣٣.

(٤) سورة المنافقون الآية ٥.

(٥) سورة الملك الآية ٢٢.

(٦) سورة الحاقة الآية ٤٠.

(٧) سورة الحاقة الآية ٤١.

من بعده».

قال السائل: فما المراد من قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾[١] قال: «**الهدى هو الولاية، ومن آمن بها لا يخاف بخساً ولا رهقاً**».

ومضى الراوي في حديثه المزعوم عن الإمام موسى بن جعفر يطبّق عشرات الآيات على ولاية علي حتى انتهى إلى الآية: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾[٢]، فقال الإمام: «**النذر هو ولاية علي بن أبي طالب**». وأضاف يقول: «**إن المراد بـ ﴿المصلين﴾ في الآية ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[٣]، أي من أتباع علي أمير المؤمنين...**»[٤]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي فسّرها الإمام على حدّ زعم الراوي بولاية أمير المؤمنين، في حين أن ظواهرها لا تشير إلى هذه التفاسير ولو من بعيد.

ولو كان الرواة لهذه الرواية من الموثوقين المعروفين بالصدق والأمانة لم يكن لنا بدّ من التصديق والإذعان؛ لأن الأئمّة أعرف بظاهر القرآن وباطنه، وأسباب نزوله، وعامّه وخاصّه من جميع الناس، ولكن لا سبيل لنا إلى ذلك بعد أن كانت هذه التفاسير من الغرائب، والرواة لها من غير الموثوقين في أقوالهم وأفعالهم؛ فإن الراوي لها عن الإمام موسى بن جعفرٍ محمدُ بن الفضل الأزدي الصيرفي متّهم بالغلوّ، ومعدود بين ضعفاء الرواة، وكان معاصراً لأبي الحسن الرضا، ويروي عنه وعن أبيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام[٥].

وروي عن سلمة بن الخطاب عن الحسين بن عبد الرحمن عن علي أبي بصير عن

---

(١) سورة الجن الآية ١٣.

(٢) سورة الانسان الآية ٧.

(٣) سورة المدّثر الآية ٤٣.

(٤) انظر الكافي ج ١ ص ٤١٦ ـ ٤٣٢.

(٥) انظر رجال المرزا محمد، والإتقان للشيخ محمد طه.

الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1] أنه قال: «من أعرض عن ولاية علي يحشر يوم القيامة أعمى القلب والبصر عن الولاية». وأضاف إلى ذلك الإمام على حدّ زعم الراوي أن «من أعرض عن الولاية يبقى متحيّراً يوم القيامة، فيقول لربّه: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾[2] ؟ فيأتيه الجواب ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾، وهم الأئمة ﴿فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى﴾[3]، وتُترك في نار جهنم كما تركت الأئمّة واتبعت غيرهم، ﴿وكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[4]، أي من أشرك بولاية أمير المؤمنين، وترك الأئمّة ولم يتّبع آثارهم. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ أي معرفة أمير المؤمنين والأئمّة ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي يستوفي نصيبه من دولتهم ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[5] أي ليس له نصيب من دولة الحق عند ظهور القائم عليه السلام[6].

وجاء في سند هذه الرواية سلمة بن الخطاب، والظاهر اتّفاق المؤلّفين في أحوال الرجال على ضعفه وعدم جواز الاعتماد على مرويّاته، إلا إذا اقترنت ببعض القرائن التي ترجّح صدورها عن الإمام عليه السلام. وقد رواها عن الحسين بن عبد الرحمن، ولم أجد له ذكراً في كتب الرجال. وأما الراوي الأخير لها عن الإمام وهو علي أبو بصير على حدّ زعم سلمة بن الخطاب، فهو من المجهولين الذين لم تتعرّض لهم كتب الرجال. والذين يكنّون بأبي بصير أربعة لا غير: أبو بصير عبد الله بن محمد الأسدي، وأبو بصير علباء

(١) سورة طه الآية ١٢٤.

(٢) سورة طه الآية ١٢٥.

(٣) سورة طه الآية ١٢٦.

(٤) سورة طه الآية ١٢٧.

(٥) سورة الشورى الآية ٢٠.

(٦) الكافي ج ١ ص ٤٣٢.

بن دارع، وأبو بصير ليث بن البختري، وأبو بصير يحيى بن أبي القاسم. وكلّهم من المتّهمين، وأفضلهم كما يبدو من كتب الرجال أبو بصير ليث بن البختري، حيث وثّقه جماعة، وطعن فيه آخرون ونسبوا إليه ما يُشعر بفساد عقيدته. وجاء عن أبن أبي يعفور أنه قال له: حجّ بمالك؛ فأنت ذو مال كثير. فقال له أبو بصير: اسكت، والله لو كانت الدنيا وقفاً لصاحبك لاشتمل عليها بردائه. يعرّض بالإمام عليه السلام[1].

وروي في باب (أن الجن تأتيهم فيسألونهم عن معالم دينهم) عن محمد بن علي عن يحيى بن مساور عن سعد الإسكاف أنه قال: أتيت أبا جعفر عليه السلام في بعض ما أتيته فجعل يقول: «لا تعجل». حتى حميت الشمس عليّ، وجعلت أتتبّع الأفياء، فما لبث أن خرج عليّ قوم كأنهم الجراد الصفر، قد أنهكتهم العبادة، فوالله لأنساني ما كنت فيه من حسن هيئة القوم. فلمّا دخلت عليه قال لي: «**أراني قد شققت عليك**». قلت: أجل، والله لقد أنساني ما كنت فيه قوم مرّوا بي لم أرَ قوماً أحسن هيئة منهم في زي رجل واحد، كأن ألوانهم الجراد الصفر، قد أنهكتهم العبادة. فقال: «**يا سعد رأيتهم؟**». قلت: نعم. قال: «**أُولئك إخوانك من الجن**». فقلت: يأتونك؟ قال: «**نعم، يأتوننا يسألون عن معالم دينهم وحلالهم وحرامهم**»[2].

وهذه الرواية رواها يحيى بن مساور عن سعد الإسكاف؛ أما يحيى، فهو مجهول الحال ولم أجد من تعرّض له بمدح أو قدح. وأما سعد الإسكاف فهو من المتّهمين، وقيل بأنه كان ناووسياً[3] من أتباع عجلان بن ناووس. وقد جاء عن الإمام الصادق ما يشعر بمدحه، فقيل: إنه قال له حينما تولّى القضاء للعباسيين: «**أُحبّ أن يكون في كل**

(١) انظر رجال المرزا محمد، حرف اللام في ترجمته، وانظر ترجمة الأسدي في رجال الكشي ص ١٥٥ و ١٥٦.

(٢) الكافي ج ١ ص ٣٩٤.

(٣) الناووسية: إحدى الفرق الشيعية، أتباعها يرون ان الإمامة ممتدّة من الإمام علي إلى الإمام جعفر الصادق، ويقفون عنده، ويعتقدون أنه لايزال حياً، وهو الإمام المهدي الذي سوف يظهر في آخر الزمان.

ثلاثين ذراعاً قاضٍ مثلك»[١].

وعلى أيّ الأحوال فإن الذين تحدّثوا عنه لم يخرجوا بنتيجة إيجابية توجب الوثوق به والاطمئنان إلى حديثه، وبخاصّة إذا تعلّقت أحاديثه بالأُمور الغيبية.

وروي عن محمد بن الحسن عن إبراهيم بن هاشم عن عمر بن عثمان عن ابراهيم بن أيوب، وعمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: بينما أمير المؤمنين على المنبر إذ أقبل ثعبان من ناحية باب من أبواب المسجد فهمّ الناس أن يقتلوه، فأمرهم أمير المؤمنين أن يكفّوا عنه، فأقبل الثعبان ينساب حتى انتهى إلى المنبر، فتطاول وسلّم على أمير المؤمنين عليه السلام، فأشار عليه أمير المؤمنين أن يقف حتى ينتهي من خطبته، فلما فرغ منها أقبل عليه وقال له: «**من أنت؟**». قال: أنا عمر بن عثمان خليفتك على الجن. وإن أبي مات وأوصاني أن آتيك واستطلع رأيك، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين فما تأمرني به؟ وما ترى؟ فقال أمير المؤمنين: «**أُوصيك بتقوى الله، وأن تنصرف فتقوم مقام أبيك في الجنّ؛ فإنك خليفتي عليهم**». فوّدعه وانصرف، فقلت: جعلت فداك، فيأتيك عمر؟ وذاك واجب عليه؟ قال: «**نعم**»[٢].

[من مرويات (الكافي) التي لا يثق بها الشيعة]

ورواها في (الكافي) بنفس السند[٣]، والذي رواها عن جابر هو عمرو بن شمر. وجاء في كتب الرجال عنه أنه كان يضع الأحاديث في كتب جابر وينسبها إليه. ونصّ النجاشي على أنه ضعيف جدّاً[٤]. وجاء في (الخلاصة) للعلامة أنه لا يعتمد على شيء من مرويّاته[٥]. هذا بالإضافة إلى أن جابراً الجعفي من المتّهمين عند أكثر المؤلّفين في

---

(١) راجع اختيار معرفة الرجال للطوسي ج ٢ ص ٤٧٦.

(٢) شرح أُصول الكافي، للمازندراني، ج ٦ ص ٤١٧.

(٣) الكافي ج ١ ص ٣٩٦.

(٤) أسماء مصنّفي الشيعة (رجال النجاشي) ص ٢٨٧ تحت الرقم ٧٦٥.

(٥) خلاصة الأقوال ص ٣٧٨.

الرجال كما ذكرنا من قبل. أما إبراهيم بن أيوب الذي رواها عن عمرو بن شمر فلم أجد له ذكراً في كتب الرجال، والذي رواها عنه لم يتعرّض أحد له بمدح أو قدح، والظاهر أن الراوي لها عن إبراهيم بن هاشم محمدُ بن الحسن بن شمون، وهو من الغلاة المعروفين بالكذب ووضع الأحاديث.

وروي أيضاً عن محمد بن الحسن عن سهل بن زياد عن رجل على حدّ تعبير الراوي عن محمد بن جحرش عن حكيمة أنها قالت: رأيت الإمام الرضا عليه السلام واقفاً على باب بيت الحطب وهو يناجي، ولست أرى أحداً، فقلت: يا سيدي، لمن تناجي؟ فقال: «**هذا عامر الزهراني أتاني يسألني ويشكو إليّ**». فقلت: أُحب أن أسمعه. فقال لي: «**إنك إن سمعته حممت سنة كاملة**». فقلت: أُحبّ أن أسمعه. فقال: «اسمعي». فسمعت شبه الصفير، وركبتني الحمّى سنة كاملة[١].

ورواها في (الكافي) بنفس السند أيضاً[٢].

والظاهر أن محمد بن الحسن الراوي لها عن سهل بن زياد هو ابن شمون، وهو من الوضّاعين كما ذكرنا من قبل. وأما الحسن بن سهل بن زياد، فقد جاء عنه أنه كان ضعيفاً جدّاً، فاسد الرواية والمذهب، يروي المراسيل ويعتمد المجاهيل، وقد أخرجه أحمد بن محمد بن عيسى من قم، وأظهر البراءة منه، ونهى عن الاستماع إليه والرواية عنه[٣].

وأما محمد بن جحرش الراوي لها عن حكيمة، فلم يرد له ذكر في كتب الرجال، وجميع ما ورد في (الوافي) و(الكافي) وغيرهما حول هذا الموضوع لا تجد رواية منه تطمئنّ النفس إلى أحد رواتها.

وروي في (الوافي) عن أحمد بن محمد الكوفي عن حنان بن سدير الصيرفي عن أبيه

---

(١) شرح أُصول الكافي ج ٦ ص ٤١٦.
(٢) الكافي ج ١ ص ٣٩٥.
(٣) انظر رجال الشيخ محمد ص ٢٩٨.

سدير الصيرفي عن أبي إسحاق الليثي عن أبي جعفر الباقرعليه السلام أنه قال له: «**أخبرني عن المؤمن من شيعة أمير المؤمنين إذا بلغ وكمل في المعرفة، هل يزني ويلوط ويشرب الخمر ويذنب؟**». فكثر تعجبي من ذلك وقلت: يابن رسول الله، إني أجد من شيعة أمير المؤمنين ومواليكم من يشرب الخمر ويأكل الربا ويزنى ويلوط ويتهاون بالصلاة والزكاة وجميع الواجبات، وإذا جاءه المؤمن في حاجة يسيرة لا يقضيها له! فتبسّم الإمامعليه السلام وقال: «**يابن إسحاق، هل عندك شيء غير هذا؟**». قلت: نعم يابن رسول الله، وإني أجد الناصب الذي لا أشكّ في كفره يتورّع عن هذه الأشياء، ولا يستحلّ درهماً لمسلم، ويقوم بحوائج المسلمين لله تعالى! فقالعليه السلام: «**لهذا الأمر سرّ باطن مكنون، وباب مغلق مخزون، قد خفي عليك وعلى كثير من أمثالك، وإن الله سبحانه لم يأذن أن يخرج سره وغيبه إلا لمن يحتمله**».

ومضى الإمامعليه السلام على حدّ زعم الراوي يصف علمهم وصعوبة تحمّله وأخطار إذاعته، وما يترتّب على ذلك من المفاسد والمشاكل، ثم تلا هذه الآية: **عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾**[1]. وأضاف إلى ذلك أن «**أعمال الناصب تذهب هباء منثوراً**»، وتلا قوله تعالى: **﴿وقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾**[2].

وقال: «**إن الله يقول: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾**»[3]. **وبعد أن تحدّث عن النواصب وموقفهم من ولاية عليعليه السلام قال: «إن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾**[4]». وأضاف إلى ذلك: «**إن الله خلق أرضاً طيّبة طاهرة، وفجّر فيها ماء**

---

(١) سورة الجن الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣.

(٣) سورة الغاشية الآيات ٣ ـ ٥.

(٤) سورة النجم الآية ٣٢.

عذباً زلالاً فراتاً، وفرض عليها ولايتنا أهل البيت، فقبلتها، فأجرى عليها ذلك الماء سبعة أيام، ثم نقّب عنها فأخذ من صفوة ذلك الطين، فجعله طين الأئمّة، ثم أخذ جلّ جلاله ثفل[١] ذلك الطين فخلق منه شيعتنا ومحبّينا من فضل طينتنا. فلو ترك طينتكم كما ترك طينتنا لكنتم أنتم ونحن سواء». قلت: يابن رسول الله، ما صُنع بطينتنا؟ قال عليه السلام: «خلق الله أرضاً سبخة خبيثة منتنة، وفجّر منها ماء أُجاجاً مالحاً آسناً[٢]، ثم عرض عليها ولاية أمير المؤمنين فلم تقبلها، وأجرى عليها ذلك الماء سبعة أيام، ثم نضب عنها فأخذ من كدورة ذلك الطين المنتن الخبيث، فخلق منه أئمّة الكفر والطغاة والفجرة، ثم عمد إلى بقية ذلك الطين ومزجه بطينتكم، ولو ترك ذلك الطين ولم يمزجه بطينتكم ما عملوا أبداً عملاً صالحاً، ولا تشهّدوا الشهادتين، ولا أدّوا إلى أحد أمانته، ولا فعلوا شيئاً من الواجبات، ولا اجتنبوا شيئاً من المحرّمات. ثم مزج الطينتين بالماء الأول والثاني؛ فما تراه من شيعتنا ومحبّينا من زنا ولواط وخيانة وشرب للخمر وترك للصلاة وبقية الواجبات، فهي كلها من عدونا وسنخه[٣] و مزاجه الذي مزج بطينته، وما تراه من الناصب من الزهد والعبادة والمواظبة على أعمال الخير والواجبات، فذلك كله من طينة المؤمن.

فإذا عرضت الأعمال على الله سبحانه يقول الله عز وجل: أنا عدل لا أجور، ومنصف لا أظلم، وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني، لا أظلم مؤمناً بذنب مرتكب من سنخ الناصب وطينته، هذه الأعمال الصالحات كلّها من طينة المؤمن، والأعمال الرديئة التي أتى بها المؤمن تلحق الناصب لأنها من طينته، وكل شيء يرجع إلى أصله وجوهره». ثم تلا قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذاً لَّظَالِمُونَ﴾[٤]. ومضى الإمام كما يزعم الراوي يقرّب هذا المعنى ويستدلّ عليه بآيات من

(١) مقصود الرواي: الرواسب المتبقية من ذلك الطين المذكور.

(٢) الماء الآسن: الماء الذي تغيّر لونه ولايمكن شربه.

(٣) أي رائحته المنتنة.

(٤) سورة يوسف الآية ٧٩.

القرآن في حديث طويل لا يعنينا منه أكثر من هذا المقدار.

ورواه في (الكافي) أيضاً بهذا النص[١].

وهذه الرواية تخالف نصوص القرآن الكريم الذي حمّل كل إنسان سيّئات أعماله، وفي الوقت ذاته تدلّ على أن جميع ما يأتيه الإنسان من خير أو شر إنما من لوازم الطينة التي خُلق منها، وليس له اختيار في شيء من أُموره. هذا بالإضافة إلى أن الرواة بين مجهول الحال، وبين متّهمٍ في عقيدته، والكذب على الأئمة عليهم السلام.

وروي عن الحسن بن موسى عن أحمد بن عمر عن يحيى بن أبان عن شهاب أنه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**لو علم الناس كيف خلق الله هذا الخلق لم يلم أحد أحداً**». فقلت: أصلحك الله، وكيف ذاك؟ قال: «**إن الله تعالى خلق أجزاء بلغ بها تسعة وأربعين جزءاً، ثم جعل الأجزاء أعشاراً، فجعل كل جزء تسعة[٢] أعشار، ثم قسّمه بين الخلق، فجعله في رجل عشر جزء وفي آخر عشري جزء حتى بلغ به جزءاً تاماً، وفي آخر جزءاً وعشر جزء، وفي آخر جزءاً وعشرين جزء، وفي آخر جزء وثلاثة أعشار الجزء حتى بلغ به جزأين تامين، ثم بحساب ذلك حتى بلغ بأرفعهم تسعة وأربعين جزءاً. فمن لم يُجعل فيه إلاّ عشر جزء لم يقدر أن يكون مثل صاحب العشرَين، وكذلك صاحب العشرَين لا يكون مثل صاحب الثلاثة أعشار، وكذلك من تمّ له جزء لا يقدر أن يكون مثل صاحب الجزأين**». وأضاف إلى ذلك: «**لو علم الناس أن الله تعالى خلق هذا الخلق على هذا لم يلُم أحد أحداً**»[٣].

وهذه الرواية ترفع عن الإنسان مسؤولية أعماله؛ لأنه يصبح مسيّراً لتلك الأجزاء التي أودعها الله فيه، وكما لا يجوز لأحد أن يلوم أحداً على سوء تصرّفاته، لا يصحّ من

(١) هذا الحديث رواه الصدوق في علل الشرائع ج ٢ ص ٦٠٦، ونقله عنه المجلسي في بحار الأنوار ج ٥ ص ٢٢٨. ولم أعثر عليه لا في (الكافي) ولا في (الوافي).

(٢) في المصدر: عشرة، وهو الصحيح؛ لأن الواحد لا يكون تسعة أعشار، بل عشرة أعشار.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٤٤.

الله وهو العادل الرؤوف الرحيم الذي لا يجور ولا يظلم أحداً أن يحاسب ويعاقب ما دام الإنسان مرتبطاً بما أودع الله فيه من الأجزاء وأعشار الأجزاء، وليس بإمكانه أن يتخطّاها. هذا بالإضافة إلى أنها تدعو إلى اليأس والركود، وعدم التطلّع إلى الأفضل.

على أن الرواة لهذا الحديث بين من هو مجهول الحال، وبين من هو متّهم في دينه وعقيدته.

وجاء عن شهاب الراوي لها عن الإمامعليه السلام أن الإمام الصادق قال فيه: «وأما شهاب، فهو شرّ من الميتة والدم ولحم الخنزير». وقيل: إنه كان ناووسياً يقول بإمامة عبد الله بن جعفر بن محمدعليهما السلام[1]. وقد حاول بعضهم الدفاع عنه، ولكنه لم يخرج بنتيجة تطمئن إليها النفس.

وروي عن الحسن بن شمون عن الأصم عن عبد الله بن القاسم البطل عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام أنه قال في تفسير الآية: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾[2]: «إنها تعني قتل أمير المؤمنين، وطعن الحسن بن عليعليه السلام، وقتل الحسين. وإن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴾[3] تعني أن الله سيبعث قوماً قبل خروج القائم، فلا يدَعون واتراً لآل محمد إلا قتلوه، ثم يخرج القائمعليه السلام. وإن قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾[4] تعني خروج الحسينعليه السلام، في سبعين من أصحابه، فلا يشكّ أحد فيه، ويكون الحجّة محمد بن الحسن خلفهم. فإذا استقرّت المعرفة في قلوب المؤمنين أنه الحسين جاءه الموت، فيغسّله الحسين، ويلحده في حضرته؛ لأن الوحي لا يلي أمره إلا وحي مثله»[5].

(١) اختيار معرفة الرجال ج ٢ ص ٧١٢، الرقم: ٧٨٠.
(٢) سورة الأسراء الآية ٤.
(٣) سورة الإسراء الآية ٥.
(٤) سورة الإسراء الآية ٦.
(٥) الكافي ج ٨ ص ٢٠٦.

والرواة لهذه الرواية كلّهم من المنحرفين عن التشيّع الصحيح، ومن الوضّاعين كما نصّ على ذلك المؤلّفون في أحوال الرواة.

وروي عن صالح بن أبي حماد عن الوشّا عن كرام عن عبد الله بن طلحة أنه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الوزغ، فقال: «**رجس، وهو مسخ كله، فإذا قتلته فاغتسل**». ثم قال: «**كان أبي في الحجر ومعه رجل يحدّثه فإذا هو بوزغ يولول بلسانه، فقال أبي للرجل: ما يقول هذا الوزغ؟ فقال: لا علم لي بما يقول. فقال أبي: إنه يقول: والله لئن شتمتم عثمان لأشتمن علياً حتى تقوم من هنا. وأضاف إلى ذلك أبي أنه ليس يموت من بني أُمية ميت إلا ويمسخ وزغاً؛ إن عبد الملك بن مروان لما نزل به الموت مسخ وزغاً، وذهب من بين ولده وحاشيته، وكانوا حوله، فلمّا فقدوه عظم ذلك عليهم، ولم يدروا ما يصنعون، ثم اجتمع أمرهم على أن يأخذوا جذعاً فيضعونه كهيئة الرجل، ففعلوا ذلك ثم ألبسوا الجذع درعاً من حديد وألبسوه الأكفان ودفنوه ولم يطّلع على ذلك إلا أنا وولده**»[1].

وبلا شك فإن هذه الرواية من الموضوعات؛ لأن الإمام الصادق أرفع شأناً وأعلى مقاماً من أن يستمع لمثل هذه الأساطير ويحدّث بها، على أن الرواة لهذه الرواية بين مجهول الحال، وبين متّهم بالكذب كصالح بن حمّاد، وبين من أنكر إمامة موسى بن جعفر ووقف على الإمام الصادق وهو كرام بن عمر. وأما عبد الله بن طلحة الراوي لها عن الإمام الصادق عليه السلام فلم أجد له ذكراً في كتب الرجال[2].

وجاء في (الكافي) عن أحمد بن محمد عن عمر بن عبد العزيز عن الخيبري عن يونس بن ظبيان والمفضل بن عمر وأبي سلمة السراج والحسين بن ثوار بن أبي فاختة أنهم قالوا: كنا عند أبي عبد الله الصادق فقال: «**عندنا خزائن الأرض ومفاتيحها، ولو شئت أن أقول بإحدى رجليّ: أخرجي ما فيك من الذهب لأخرجت**». ثم ضربها بإحدى

(١) الكافي ج ٨ ص ٢٣٢.

(٢) انظر الكشي ورجال المرزا محمد وغيرهما.

رجليه، فخطّها في الأرض خطّاً، فانفرجت الأرض، ثم مدّ يده فأخرج سبيكة ذهب قدر شبر، وقال: «**انظروا حسناً**». فنظرنا فإذا سبائك الذهب بعضها فوق بعض، فقال له بعضنا: جعلت فداك أُعطِيتم ما أُعطِيتم وشيعتكم محتاجون؟ فقال: «**إن الله سيجمع لنا ولشيعتنا الدنيا والآخرة، ويدخلهم جنات النعيم، ويدخل عدوّنا الجحيم**»(١).

وقد اشترك في هذه الرواية أربعة من المتّهمين بالكذب والغلوّ:

الخيبري بن علي الطحّان؛ فقد جاء في (منهج المقال) عنه أنه ضعيف في مذهبه. وقال عنه جماعة: إن في مذهبه ارتفاعاً، يعنون بذلك الغلو.

وعمر بن عبد العزيز؛ فلقد وصفه الشيخ محمد طه في رجاله بأنه كان مخلّطاً. وجاء عن الفضل بن شاذان أنه يروي الغرائب والمناكير.

وأما المفضل بن عمر ويونس بن ظبيان، فحالهما معروف، ويكفيهما ما جاء عن الإمام الصادق في ذمّهما، والتحذير منهما، ولعنهما. وجاء عنه أنه قال: «**لعن الله يونس بن ظبيان ألف لعنة تتبعها ألف لعنة**»(٢).

ومن الجائز على الإمام عليه السلام أن يصنع أكثر من ذلك بقدرة الله سبحانه، ولكن وجود هؤلاء في سند رواية من هذا النوع يضعها في قفص الاتهام.

ومن الموضوعات ما جاء في (الكافي) عن سهل بن زياد، ومحمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسن بن الياس الحريشي عن الإمام الصادق عليه السلام(٣) أنه قال: بينا أبي

---

(١) الكافي ج ١ ص ٤٧٤.

(٢) لقد استقصى السيد أبو القاسم الخوئي جميع الأقوال في معرض ترجمته ليونس بن ظبيان، فراجعها في معجم رجال الحديث ج ٢١ ص ٢٠٤.

(٣) من المصدر، وفي الأصل: عن الإمام الباقر عليه السلام، وهو إمّا خطأ مطبعي، أو سهو من قلم المصنّف؛ لأنه قدس سره في مناقشته الرواية بعد ذلك ناقشها على أن احداثها وقعت بين الإمام الباقر عليه السلام وابن عباس رضي الله عنه، أي أن الراوي لها على حدّ زعم الرواية هو الإمام الصادق عليه السلام كما هو مذكور في المصدر. أمّا إذا كان الراوي لها هو الإمام الباقر عليه السلام، فحينئذٍ لا ضير؛ لأن أحداثها تكون وقتئذٍ مع الإمام السجّاد عليه السلام، وهو ما يتناسب مع عمر ابن عباس رضي الله عنه.

جالس وعنده نفر إذ استضحك حتى اغرورقت عيناه دموعاً، ثم قال: «**أتدرون ما أضحكني؟**». فقالوا: لا يابن رسول الله. فقال: «زعم ابن عبّاس أنه من الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا، فقلت له: هل رأيت الملائكة يابن عباس تخبرك بولايتها لك في الدنيا والآخرة مع الأمن من الخوف والخزي؟ فقال: إن الله يقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[١]، وقد دخل في هذا جميع الأُمّة. فاستضحكت، ثم قلت: صدقت يا بن عباس، أنشدك الله، هل في حكم الله جلّ ذكره اختلاف؟ فقال: لا. فقلت: ماترى في رجل ضرب رجل أصابعه بالسيف حتى سقطت، ثم ذهب وأتى آخر فأطار كفّه، فأتى به إليك وأنت قاضٍ؟ كيف أنت صانع؟ قال: أقول لهذا القاطع: أعطه دية كفّه، وأقول لهذا المقطوع صالحه على ما شئت. قلت: جاء الاختلاف في حكم الله، ونقضت القول الأول، أبى الله أن يحدث في خلقه شيئاً من الحدود وليس له تفسير في الأرض. اقطع قاطع الكفّ أصلاً، ثم أعطه دية الأصابع، هكذا حكم الله ليلة تنّزل فيها أمره، إن جحدتها بعدما سمعتها من رسول الله فأدخلك الله النار، كما أعمى بصرك يوم جحدتها عليَّ بن أبي طالب. قال: فلذلك عُمي بصري؟ قال: وما علمك بذلك، فوالله إن عمي بصره إلا من صفعة جناح الملك.

قال: فاستضحكت، ثم تركته يومه ذاك لسخافة عقله، ثم لقيته فقلت: يابن عبّاس، ما تكلّمت بصدق مثل أمس، قال لك علي بن أبي طالب: إن ليلة القدر في كل سنة، وإنه في تلك الليلة أمر السنة، وإن لذلك الأمر ولاة بعد رسول الله ﷺ، فقلت: من هم؟ فقال: أنا وأحد عشر من صلبي أئمّة محدّثون. فقلت: لا، أراها كانت مع رسول الله ﷺ[٢]. فتبدّى له الملك الذي يحدّثه، فقال: كذبت يا عبد الله، رأت عيناي الذي حدّثك به علي ولم ترَه عيناه، ولكن وعى قلبه ووقر في سمعه، ثم صفعك بجناحه فعميت. فقال ابن عباس: ما اختلفنا في شيء فحكمه إلى الله. فقلت: فهل حكم الله في

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠.

(٢) في المصدر: لا أراها كانت إلا مع رسول الله. وهو الأوفق بالسياق، بل هو كما ذكره المؤلّف بعدُ.

حكم من حكمه في أمرين؟ قال: لا. فقلت: هلكت وأهلكت[١].

وقد عدّ التستري في كتابه (الأخبار الدخيلة) هذه الرواية من الموضوعات، وعلّق عليها بما حاصله أن عبد الله بن العباس كان من صفوة الموالين لأهل البيت[٢]. والرواية تشير إلى خلاف ذلك كما يبدو من قوله في جواب عليعليه السلام: لا أراها كانت إلا مع رسول الله. بالإضافة إلى ما جاء في صدرها. على أن الذي يظهر من الرواية أن هذا الجدل بين الإمام الباقرعليه السلام وعبد الله بن العباس كان في حال إمامته، ومن المعلوم ان الإمامة قد انتقلت إلى الباقر سنة ٩٥ بعد وفاة أبيه علي بن الحسين، وذلك بعد وفاة عبد الله بن العباس بسبعة وعشرين عاماً حيث كانت سنة ٦٨، ويومها كان الإمام الباقر في حدود العاشرة من عمره.

ومضى التستري يقول: إن الحديث ينص على أن عبد الله بن العباس قد فقد بصره بعد أن صفعه جبرائيل بجناحه؛ لأنه خالف أمير المؤمنينعليه السلام في حديثه عن ليلة القدر، مع أن بعض النصوص التاريخية تؤكّد أن ذهاب بصره كان لبكائه على بني عمومته علي والحسنين. واستطرد يقول: فلماذا أعماه جبرائيل وهو المدافع والمحامي عن علي وبنيه، ولم يضرب معاوية وغيره من المبغضين لعلي بجناحيه؟

والذي يجب التنبيه عليه أن الحديث المذكور مع قطع النظر عن كلّ هذه الملابسات يكتنفه الغموض، وعدم الانسجام، والاضطراب بنحو لا يشبه كلام الأئمة. ورواته من المتّهمين بالغلوّ والكذب على الأئمة. وجاء في سهل بن زياد أنه من الغلاة الكذّابين، وقد أخرجه الأشعري من مدينة قمّ لهذه الغاية، ووصفه ابن شاذان بالحمق. وأما الحسن بن العباس الحريشي فقد جاء عنه في كتب الرجال أنه ضعيف جدّاً، له كتاب (إنا انزلناه في ليلة القدر)، رديء الحديث، مضطرب الألفاظ كما ذكرنا من قبل. وجاء في (الخلاصة) عن ابن الغضائري أن كتابه فاسد الألفاظ، تشهد مخايله على أنه

---

(١) الكافي ج ١ ص ٢٤٧، باختلاف عنه يسير.

(٢) الأخبار الدخيلة ص ٢٣٦.

من الموضوعات. وأضاف: إن هذا الرجل لا يلتفت إليه، ولا يكتب حديثه[١].

وروى الكليني تسعة أحاديث بهذا السند، وكلّها بالإضافة إلى ضعف سندها مضطربة الألفاظ، يكتنفها الغموض والتشويش البعيدان عن منطق الأئمةعليهم السلام، منها حديث طويل يعرض فيه حواراً دار بين الإمام الباقر وإلياس الذي أشار الله إليه في القرآن الكريم حول ليلة القدر، وأن الله يتنزّل فيها على الأوصياء كما كان يتنزّل على النبيصلى الله عليه وآله[٢].

ويكفي هذه المرويات عيباً أن سندها قد اشتمل على الحسن بن العباس بن الحريشي، وسهل بن زياد.

وروي في (الكافي)[٣] و(الوافي) عن موسى بن سعدان عن عبد الله بن القاسم عن أبي سعيد الخراساني عن أبي عبد اللهعليه السلام أن الإمام الباقر قال: «**إن القائم إذا قام بمكّة، وأراد أن يتوجّه إلى الكوفة نادى مناديه: ألا لا يحمل أحد منكم طعاماً ولا شراباً. ويحمل حجر موسى بن عمران وهو وقر بعير، فلا ينزل منزلاً إلا انبعثت منه عين، فمن كان جائعاً شبع، ومن كان ظامئاً روي، فهو زادهم حتى ينزلوا النجف من ظهر الكوفة**»[٤].

وقد ورد في سند هذه الرواية عبد الله بن القاسم البطل، ومحمد بن الحسين الصائغ، وموسى بن سعدان، وكلهم من المتّهمين الذين لا يعتدّ بمرويّاتهم كما ذكرنا من قبل. وأما الراوي الأخير لها عن الإمام الصادقعليه السلام فهو من المجهولين كما نصّ على ذلك المرزا محمد في رجاله.

وجاء في (الكافي) عن عبد الله بن محمد عن متبع عن الحجاج البصري عن مجاشع عن معلى عن محمد بن الفيض عن الإمام الباقرعليه السلام أنه قال: «**كانت عصا موسى لآدم،**

---

(١) راجع هذه الأقوال وغيرها في ترجمة «سهل بن زياد» في معجم رجال الحديث ج ٩ ص٣٥٤ ـ ٣٧٠.

(٢) الكافي ج ١ ص ٢٤٢.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٣١.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٣١.

فصارت لشعيب، ثم صارت لموسى بن عمران. وإنها لعندنا، وإني عهدي بها آنفاً، وهي خضراء كهيئتها حين انتزعت من شجرتها، وإنها لتنطق إذا استُنطقت، أُعدّت لقائمنا عليه السلام يصنع بها ما كان يصنع موسى، وإنها لتروّع وتلقف ما يأفكون، وتصنع ما تؤمر به، يفتح لها شفتان إحداهما في الأرض والأخرى في السقف وبينهما أربعون ذراعاً تلقف ما يأفكون بلسانها»[(١)].

والرواة لهذه الرواية ما بين متّهم بالغلوّ ووضع الأحاديث، وبين مجهول الحال كما يبدو ذلك في كتب الرجال وأحوال الرواة.

وروي في (الكافي) و(الوافي) عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن إبراهيم بن إسحاق الأحمر عن عبد الله بن حماد عن سيف التمّار أنه قال: كنّا عند أبي عبد الله الصادق جماعة في الحجر، فقال: «**علينا عين**». فالتفتنا يمنة ويسرة فلم نجد أحداً، فقلنا: ليس علينا عين. فقال: «**وربّ الكعبة، وربّ هذه البنية ـ ثلاث مرات ـ لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما، ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما؛ لأن موسى والخضر أُعطيا علم ما كان، ولم يُعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثناه عن رسول الله صلى الله عليه وآله**»[(٢)].

لقد نصّت هذه الرواية على أن النبي عنده بالإضافة إلى علم ما كان علمُ ما هو كائن وما سيكون، وقد ورّثه للأئمّة الأطهار. ومعنى ذلك أن الله سبحانه لم يستأثر بشيء، وعلمه بكامله قد انتقل للنبي والأئمّة، وهو مخالف لنصوص القرآن. وجاء في بعض المرويات عن النبي أنه كان يقول لأصحابه: «**ما لي ولكم تسألونني عمّا لا أعلم وأنا عبد الله لا علم لي إلا ما علّمني ربّي؟**»[(٣)]. وقال لهم مرة: «**أنا أعلم بأُمور دينكم، وأنتم أعلم بأُمور دنياكم**»[(٤)]. إلى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تنصّ على أنه لم يدّعِ لنفسه

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٣١.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٠.

(٣) تفسير الآلوسي ج ١٦ ص ٢٤.

(٤) تقدم فيما سبق.

علم ما كان وما سيكون كما تنصّ هذه الرواية.

على أن إبراهيم بن إسحاق الأحمر الراوي لها عن عبد الله بن حماد، قد وصفه المؤلّفون في الرجال بالضعف، وقال عنه ابن الغضائري: في مذهبه ارتفاع. وجاء في (الفهرست) أنه ضعيف في حديثه، ومتّهم في دينه. كما نصوا على أن عبد الله بن حماد الراوي لها عن سيف التمّار لا يجوز الاعتماد على حديثه إذا لم يكن مدعوماً ببعض القرائن التي ترجّح صدوره. وأما سيف التمّار الراوي لها عن الإمام فهو مشترك بين الضعيف والموثّق[(١)].

وجاء في رواية أُخرى عن محمد بن سنان، ويونس بن يعقوب، والحارث بن المغيرة، وعبد الله بن بشير الخثعمي أن الإمام الصادق عليه السلام كان يقول: «**إني لأعلم ما في السماوات والأرض، وأعلم ما في الجنة والنار، وأعلم ما كان وما سيكون**». ويضيف إلى ذلك أنه كان «**يعلم كل ذلك من كتاب الله؛ لأن فيه تبيان كلّ شيء**»[(٢)].

والذي نعتقده ونؤمن به إيماناً راسخاً لا يتزعزع أن الأئمّة يعلمون ما لا يعلمه غيرهم من الناس من أيّ كان من الناس، وأنهم ورثوا عن رسول الله الكثير والكثير مما أُوحي إليه من الكائنات والغيبيّات، وليس من الضروري أن نؤمن بأن القرآن قد اشتمل على جميع ما في السماوت، والجنّة والنار، وما كان وسيكون إلى يوم القيامة، ولم يشتمل على أيّ نقص، على أن فيه تبياناً لكلّ شيء مما كان وسيكون إلى يوم الدين. على أن الرواة لهذه الرواية لم تتوفّر فيهم الشروط المطلوبة بالراوي والرواية، فهم ما بين مجهول الحال، وبين من هو متّهم في عقيدته ومرويّاته كما يبدو ذلك للمتتبّع في أحوال الرواة.

وروى الشيخان في (الكافي) و(الوافي) مجموعة من المرويات التي تصف الإمام عليه السلام

---

(١) انظر رجال الشيخ محمد طه ص ٣١٢ و ص ٢٥٥، ورجال المرزا محمد، وغيره من كتب الرجال.

(٢) الكافي ج ١ ص ٢٦١.

وهو حمل في بطن أُمه منذ الأيام الأُولى إلى وقت ولادته، وأنه يسمع الكلام بعد مضي أربعين يوماً على حمله، وأنه يولد على راحتيه رافعاً صوته بالتكبير والتهليل، ويرى مَن خلفه كما يرى مَن أمامه، ولا يجنب ولا يتثاءب ولا يتمطّى. ولخروجه رائحة كرائحة المسك، تبتلعه الأرض. وإذا لبس درع رسول الله كانت عليه وفقاً، وإذا لبسها غيره من الناس طويلهم وقصيرهم زادت عليه شبراً، إلى غير ذلك من الصفات التي لا ترفع من شأن الإمام ولا يضرّه عدمها.

وجميع المرويات حول هذا الموضوع لا تكاد تجد رواية منه يخلو سندها عن كذّاب أو منحرف عن التشيّع الصحيح، كما يبدو ذلك للمتتبّع في أحوال الرواة. ومن المعلوم أن مجرد ذلك لا يثبت كون الرواية من الموضوعات؛ لجواز أن يصدق غير العادل ومن لا يتورّع عن الكذب، ولكن التديّن بها والأخذ بمضمونها لا تقرّه أُصول علم الدراية ما لم تقترن بشاهد يرجّح صدورها عن الإمام عليه السلام كما ذكرنا. وليس في المرويّات الصحيحة، والنصوص القرآنية وأُصول الإسلام والتشيّع ما يصلح لأداء هذه المهمّة.

وروى ابن بابويه القمي في كتابه (إكمال الدين وإتمام النعمة) في خلال حديثه عمّن اجتمع بالإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري عليه السلام حديثاً طويلاً عن محمد بن علي بن محمد بن حاتم النوفلي المعروف بالكرماني عن جماعة من الرواة، منهم محمد بن بحر الشيباني أنه قال: حدّثني أحمد بن مسرور عن سعد بن عبد الله القمي، وجاء في الحديث بعد أن وصف المراحل التي مرّ بها حتى دخل دار أبي محمد الحسن العسكري، فوجد الحجّة المنتظر جالساً على ركبتي أبيه وهو غلام صغير يلعب في رمانة ذهبية مرصعة بالمجوهرات، تلمع نقوشها، فأظهر الله على يده من الكرامات والغيبيّات وهو يلهو ويلعب ويقبض على يد أبيه كلّما أراد ان يكتب شيئاً ما يبهر العقول.

وجاء في الرواية أنه سأله عن بعض الأشياء التي كان قد استعصى فهمها عليه، ومنها قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[1]، واستطرد السائل

(١) سورة طه الآية ١٢.

يقول: إن فقهاء الفريقين يدّعون بأنها كانت من إهاب الميتة. فقال الإمامعليه السلام: «إن ذلك لا يليق بنبي كموسى، ولا يصحّ عليه أن يلبس من حيوان ميت، وتأويلها أن موسى ناجى ربّه بالوادي المقدس وقال له: إني قد أخلصت لك المحبّة، وغسلت قلبي عمّن سواك، فقال الله تعالى: ﴿**اخلع نعليك**﴾، أي انزع حبّ أهلك من قلبك إن كنت صادقاً في محبّتك لي.

وأضاف إلى ذلك الراوي أنه قال له: فأخبرني يابن رسول الله عن تأويل ﴿**كهيعص**﴾[١]، فقال الإمامعليه السلام على حدّ زعم الراوي: «هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عليها عبده زكريا، ثم قصّها على محمدصلى الله عليه وآله، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلّمه أسماء الخمسة، فأهبط عليه جبرائيل فعلّمه إياها، فكان زكريا إذا ذكر محمداً وعلياً وفاطمة والحسن سري عن همّه، وانجلى كربه، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة، فقال ذات يوم: يا إلهي، ما بالي إذا ذكرت أربعاً منهم تسلّيت بأسمائهم عن همومي، وإذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي؟ فأنبأه تعالى عن قصته وقال: ﴿**كهيعص**﴾؛ الكاف: اسم كربلاء، والهاء: هلاك العترة، والياء: يزيد بن معاوية ظالم الحسين، والعين: عطشه، والصاد: صبره. فلما سمع ذلك زكريا اعتكف في مسجده، وأقبل على البكاء والنحيب. وكانت ندبته: إلهي أتفجع خير خلقك بولده؟ أتنزل هذه الرزية بفنائه؟ إلهي أتلبس ثياب هذه المصيبة علياً وفاطمة؟

وجاء في الرواية: «إنه سأل الله أن يرزقه ولداً، ويحبّبه إلى قلبه، ويفجعه به كما فجع محمداً بولده الحسين. فرزقه الله يحيى وفجعه به»[٢]. إلى غير ذلك ممّا اشتملت عليه هذه الرواية من الغرائب التي يجب الوقوف عندها وإن كان ما نقلناه منها ليس بأقلّ[٣] غرابة ممّا أهملنا ذكره؛ فلقد جاء في بعض المرويات الصحيحة أن الله سبحانه إنما أمره

---

(١) سورة مريم الآية ١.

(٢) إكمال الدين وإتمام النعمة ص ٤٥٤.

(٣) الصحيح كونها: أكثر.

بأن يخلع نعليه؛ لأنها كانت من جلد حمار ميّت، وهذا لا يتنافى مع مقامه. والشيء الغريب الذي لا يقرّه العقل، ولا تساعد عليه النصوص الصحيحة أن يأمره الله سبحانه بأن ينزع حبّ أهله من قلبه، مع أن ذلك لا يزاحم حبّه لله وإخلاصه له، مع العلم بأن التعبير عن النعلين بحبّ الأهل من أسوأ أنواع التجوّز الذي لا يجوز اشتمال القرآن عليه. هذا بالإضافة إلى أن الله سبحانه قد أمر بتعظيم الوالدين والإحسان إليهما في أكثر من آية في كتابه.

وأما التفسير الذي قد اشتملت عليه الرواية لـ ﴿كهيعص﴾، فتنافيه الأخبار الكثيرة التي وردت في تفسير هذه الحروف، فلقد جاء في بعضها أن المراد من هذه الكلمة أن الله هو الكافي الهادي الوالي العالم الصادق في وعده.

وجاء في رواية ثانية عن الصادق عليه السلام أنه قال في تفسيرها: «**الكاف كافٍ لشيعتنا، والهاء هادٍ لهم، والياء وليهم، والعين عالم بالمطيعين منهم، والصاد صادق لهم وعدهم**»[(١)].

وجاء في رواية ثالثة أن هذه الكلمة تشير إلى أسماء الله سبحانه، وجاء عن الأصبغ أن علياً كان في حالات الشدّة يقول: «﴿**ياكهيعص**﴾...»[(٢)]، إلى غير ذلك من المرويات حول تفسير هذه الحروف.

هذا كله بالإضافة إلى أن سند هذه الرواية قد اشتمل على بعض الأشخاص المتّهمين بالكذب في الحديث، منهم محمد بن بحر الشيباني، فقد جاء عنه أنه من القائلين بالتفويض ومن المغالين، وممّن يعتمد على الضعفاء. على أن بعض المؤلّفين في الرجال يرجّحون أن سعد بن عبد الله القمّي وإن عاصر الإمام العسكري ولكنه لم يروِ عنه ولا عن ولده محمد بن الحسن. ويرى بعضهم أن هذا الحديث من جملة الموضوعات؛ نظراً لضعف سنده، واشتماله على بعض الأُمور التي لا تجوز على الإمام[(٣)].

---

(١) معاني الأخبار ص ٢٨.

(٢) بحار الأنوار ج ٣٢ ص ٤٦١.

(٣) انظر الأخبار الدخيلة للتستري ص ٩٦ وما بعدها، وانظر الحديث بكامله في ص ٢٥١ وما

وجاء في (الكافي) و(الوافي) عن محمد بن الفضل أن الإمام أبا الحسن عليه السلام قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[1] قال: «**المساجد هم الأوصياء**»[2].

وبلا شكّ فإن هذه الرواية من موضوعات الغلاة؛ وممّا يؤيّد ذلك أن محمد بن الفضل الراوي لها قد ألصق به المؤلّفون في أحوال الرواة هذه التهمة. وأما الراوي الأوّل لها وهو محمد بن إسماعيل، فهو مشترك بين الضعيف والثقة[3].

ولو افترضنا أن الرواة لهذه الرواية كلّهم من الموثوقين، فهل يجوز على الإمام الصادق الصدوق أن يتصرّف في القرآن الكريم بمثل هذا النوع من التأويل الذي لا يتناسب مع أُسلوب القرآن وإعجازه، وهو القائل: «**إذا اشتبهت عليكم الأحاديث المروية عنا فاعرضوها على كتاب الله، فما خالف كتاب الله فليس من أحاديثنا**»[4].

وروي في (الكافي) مجموعة من الروايات التي فسّرها الإمام على حدّ زعم الرواة بالأئمة عليهم السلام.

[من مرويات علي بن حسان وسلمة بن الخطاب وعبد الرحمن بن كثير]

فمن تلك المرويّات ما رواه عن سلمة بن الخطّاب عن الحسن بن عبد الرحمن عن

بعدها من إكمال الدين.

(١) سورة الجن الآية ١٨.

(٢) الكافي ج ١ ص ٤٢٥.

(٣) محمد بن إسماعيل بن بزيع، من المتّفق على وثاقته. ومحمد بن إسماعيل بن بشير، وثّقه جماعة وضعّفه آخرون. ومحمد بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق لقد وشى على الإمام موسى بن جعفر إلى الرشيد كما جاء في (الكافي). ومحمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن الجعفي لم يتعرّض له أحد بقدح أو مدح. ومحمد بن إسماعيل الجعفري مجهول الحال أيضاً.

(٤) ورد في بعض الروايات: «اعرضوها على كتاب الله، فما وافق كتاب الله عزّ وجل فخذوه، وما خالف كتاب الله فردوه». الكافي ج ١ ص ٤٣١.

علي بن أبي حمزة عن أبي بصير أن الإمام الصادقعليه السلام قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾[١]، قال: «إن الرسول دعا قريشاً إلى ولايتنا فنفروا وأنكروا، فـ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾: الذين أقرّوا لأمير المؤمنين ولنا أهل البيت: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾. فقال الله ردّاً عليهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾: من الأمم السالفة ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾[٢]...».

قلت قوله: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾ فقال: «كلّهم كانوا في الضلالة لا يؤمنون بولاية علي ولا بولايتنا، فكانوا ضالّين مضلّين، فيمدّ لهم في ضلالتهم وطغيانهم حتى يموتوا، فيصيّرهم الله شرّاً مكاناً وأضعف جنداً». قلت: قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾[٣] قال: «أما قوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾، فهو خروج القائم وهي الساعة، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ في ذلك اليوم مانزل بهم من الله تعالى على يد قائمه، فذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً﴾، يعني عند القائم».

قلت قوله: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[٤] قال: «يزيدهم ذلك اليوم هدى على هدى باتّباعهم القائم؛ حيث لا يجحدونه ولا ينكرونه».

قلت: قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾[٥] قال: «إلا من دان الله بولاية أمير المؤمنين والأئمة من بعده، فهو العهد عند الله».

قلت: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[٦] قال:

---

(١) سورة مريم الآية ٧٣.

(٢) سورة مريم الآية ٧٤.

(٣) سورة مريم الآية ٧٥.

(٤) سورة مريم الآية ٧٦.

(٥) سورة مريم الآية ٨٧.

(٦) سورة مريم الآية ٩٦.

«ولاية أمير المؤمنين هي الودّ الذي قال الله تعالى».

قلت: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً﴾(١) قال: «**إنما يسّره الله سبحانه على لسانه حين أقام أمير المؤمنين علماً فبشّر به المؤمنين وأنذر الكافرين، وهم الذين ذكرهم الله في كتابه: ﴿لداً﴾، أي كفاراً**».

قال: وسألته عن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢)، فقال: «**هم الذين لا يؤمنون بولاية أمير المؤمنين والأئمة من بعده**». ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(٣): «**عقوبة منه لهم؛ حيث أنكروا ولاية أمير المؤمنين والأئمة من بعده هذا في الدنيا وفي الآخرة في نار جهنم مقمحون. ثم قال الله: يا محمد، ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وولاية علي والأئمة من بعده،﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي ولاية أمير المؤمنين**عليه السلام»(٤).

والرواة الأربعة لهذه الرواية لا يجوز الاعتماد على مرويّاتهم ما لم تقترن ببعض الشواهد والقرائن، وقد تحدّثنا أكثر من مرّة عن سلمة بن الخطّاب، ونقلنا آراء المؤلّفين في الرجال فيه. وأما الحسن بن عبد الرحمن فقد ورد هذا الاسم في (منهج المقال) مرّتين: الأُولى الحسن بن عبد الرحمن الأنصاري الكوفي. والثانية الحسن بن عبد الرحمن الكوفي. ولم يتعرّض لهما بقدح أو مدح.

وأما علي بن أبي حمزة فقد كان القائد لأبي بصير يحيى بن القاسم الراوي للحديث عن الإمامعليه السلام، وجاء عنه أنه كان واقفيّاً كذّاباً متّهماً ملعوناً على حدّ تعبيرهم. ولقد قال علي بن الحسن بن فضّال: لقد كتبت عنه تفسير القرآن من أوّله إلى آخره، ولكني لا

(١) سورة مريم الآية ٩٧.

(٢) سورة يس الآية ٧.

(٣) سورة يس الآية ٩.

(٤) الكافي ج ١ ص ٨.

أستحلّ أن أروي عنه حديثاً واحداً»[١]. وجاء عن أبي الحسن الرضاعليه السلام أنه قال بعد موته: «**إنه أُقعد في حفرته، فسئل عن الأئمة، فأخبر بأسمائهم حتى انتهى إليّ فوقف واضطرب، فضرب على رأسه ضربة امتلأ قبره منها ناراً**». كما جاء عنه أنه كان أشدّ أهل الدنيا عداوة لله، وهو أوّل من أظهر فكرة الوقف، وأنكر إمامة الرضاعليه السلام.

ويدّعي المؤلّفون في الرجال أنه هو وجماعة منهم زياد بن مروان النقدي، وعثمان بن عيسى الرواسي كانوا من وكلاء الإمام موسى بن جعفرعليه السلام، وكان له أموال كثيرة عندهم، فوقفوا على إمامته وامتنعوا عن تسليم الأموال لخليفته الإمام الرضا[٢]. والظاهر أن أبا بصير الذي روى عنه علي بن أبي حمزة هو يحيى بن القاسم؛ لأنه كان قائده على حدّ تعبير الشيخ محمد طه في (الإتقان)، وكان متّهماً في حديثه،ومخلّطاً، كما نص على ذلك المؤلّفون في الرجال.

وعلى أيّ الأحوال فولاية علي تؤكّدها النصوص المتواترة عن النبي والأئمةعليهم السلام، وبها يتميّز المحقّ من المبطل، والطيّب من الخبيث، والضالّ من المهتدي على شرط أن يسير الموالي على نهجهم القويم، وطريقهم المستقيم، ولا نحتاج إلى هذا التحوير والتأويل البعيد عن أُسلوب القرآن الكريم. وبلا شكّ فإن مضمون هذا الحديث ينطبق على الجاحدين ولاية عليعليه السلام والعاملين على غير هديه، ولكن ضعف رواتها يثير الشكّ في صدورها عن الإمامعليه السلام.

وبعد التتبّع في الأحاديث المنتشرة في مجاميع الحديث كـ (الكافي) و(الوافي) وغيرهما، نجد أن الغلاة والحاقدين على الأئمّة والهداة لم يتركوا باباً من الأبواب إلا ودخلوا منه لإفساد أحاديث الأئمّة والإساءة إلى سمعتهم، وبالتالي رجعوا إلى القرآن الكريم لينفثوا عن طريقه سمومهم ودسائسهم؛ لأنه الكلام الوحيد الذي يتحمّل ما لا يتحمّله غيره،

---

(١) معجم رجال الحديث ج ٦ ص ١٨.

(٢) انظر ص ٣٢٢ من الإتقان، وص ١٧٣ من منهج المقال. ولعلي بن أبي حمزة ولد يدعى الحسن بن علي بن أبي حمزة كان متّهماً كأبيه، كما تنصّ على ذلك المؤلّفات في أحوال الرواة.

ففسّروا مئات الآيات بما يريدون، وألصقوها بالأئمّة الهداة زوراً وتضليلاً. وألّف علي بن حسّان، وعمّه عبد الرحمن بن كثير، وعلي بن أبي حمزة البطائني كتباً في التفسير كلّها تخريف وتحريف وتضليل، لا تنسجم مع أُسلوب القرآن وبلاغته وأهدافه.

وليس بغريب على من ينتحل البدع أن يكون في مستوى المخرّفين والمهوّشين، إنما الغريب ان يأتي شيخ المحدّثين بعد جهاد طويل بلغ عشرين عاماً في البحث والتنقيب عن الحديث الصحيح، فيحشد في كتابه تلك المرويّات الكثيرة، في حين أن عيوبها متناً وسنداً ليست خفيّة بنحو تخفى على من هو أقلّ منه علماً وخبرة بأحوال الرواة. وجاء العلماء والمحدّثون من بعده فاحتضنوا (الكافي) ومرويّاته؛ لأنه بنظر فريق لم يتخطَّ المرويات الصحيحة، وبنظر الفريق الأكثر جمع كمية كبيرة من المرويات الصحيحة إلى جانب المرويات المكذوبة على أهل البيت. والفريقان مسؤولان عن موقفهم هذا منه. وكم كنت أتمنّى أن يقيّض الله سبحانه من يعلّق على الطبعة الحديثة، ويضع إشارة على كل رواية لم تستوفِ شروط الصحّة.

وجاء في (الكافي) عن أبي سعيد العصفوري عن عمر بن ثابت عن أبي الجارود عن أبي جعفر الباقرعليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني واثني عشر من ولدي وأنت يا علي زر الأرض ـ يعني أوتادها وجبالها ـ بنا أوتد الله الأرض أن تسيخ بأهلها، فإذا ذهب الاثنا عشر من ولدي ساخت الأرض بأهلها ولم يُنظروا»[(١)].

وجاء في رواية أُخرى بنفس السند أن الأئمة من ذريته اثنا عشر.

وهاتان الروايتان مخالفتان لضرورة المذهب وإجماع الإمامية في جميع العصور؛ لأن لسان الأُولى أن النبي واثني عشر من ولده وعلياً أوتاد الأرض. والثانية تنصّ على أن الأئمّة من ولده اثنا عشر إماماً.و مقتضاها ان الائمة ثلاثة عشر اماما ولم يذهب لذلك أحد من الإمامية. هذا بالإضافة إلى أن الرواة لهاتين الروايتين بين من هو مجهول الحال كأبي سعيد العصفوري، وبين متّهم بالكذب والانحراف كعمرو بن ثابت، وأبي

---

(١) الكافي ج ١ ص ٥٣٤.

الجارود؛ فلقد جاء عن عمرو بن ثابت أنه ضعيف لا يعتدّ بمرويّاته كما نصّ على ذلك بعض المؤلّفين في الرجال.

وجاء عن أبي الجارود أن الإمام الباقر كان يسميه «سرحوباً»، وإليه تنسب الفرقة السرحوبية من الزيدية.

وجاء في (الكشي) أن سرحوباً اسم لشيطان أعمى يسكن البحر. وكان أبو الجارود مكفوفاً أعمى القلب والبصر. وأضاف إلى ذلك أن أبا نصر قال: كنا عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فمرّت بنا جارية معها قمقم فقلبته، فقال أبو عبد الله: «**إن الله عزّ وجل قد قَلَبَ قَلْبَ أبي الجارود كما قلبت هذه الجارية القمقم**». وجاء عنه أنه قال: «**والله، إن أبا الجارود لايموت إلا تائهاً**». وعن أبي بصير أن الإمام الصادق ذكر [كثير النوّاء][1]، وسالم بن أبي حفصة، وأبا الجارود، وقال: «**كذّابون مكذّبون كفار، عليهم لعنة الله**». إلى غير ذلك مما ورد فيه[2].

وجاء في رواية أُخرى عن الحميري عن أحمد بن هلال عن ابن أبي عمير عن أبي السفاتج عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر عن جابر الأنصاري أنه قال: دخلت فاطمة عليها السلام وبين يديها لوح يكاد يعشي ضوءه الأبصار، فيه ثلاثة أسماء في ظاهره، وثلاثة أسماء في باطنه، وثلاثة أسماء في أحد طرفيه وثلاثة أسماء في الطرف الآخر، يرى من ظاهره ما في باطنه، ومن باطنه ما في ظاهره، فعددت الأسماء فإذا هي اثنا عشر، فقلت لها: مَن هؤلاء؟ فقالت: «**هذه أسماء الأوصياء من ولدي آخرهم القائم**». قال جابر الأنصاري: فرأيت فيها «محمد» في ثلاثة مواضع[3].

وجاء في رواية رابعة رواها الحسن بن موسى الخشّاب بسند ينتهي إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام يقول فيها: «**الاثنا عشر إماماً من آل محمد كلّهم محدّث من ولد رسول**

---

(١) من المصدر، وفي الأصل: كثيراً لغواً.

(٢) انظر الكشي ص ١٩٩ و ص ٢٠٠.

(٣) إكمال الدين وإتمام النعمة ص ٣١١.

الله صلى الله عليه وآله وولد علي عليه السلام؛ فرسول الله، وعلي هما الوالدن»(١).

ويكفي هذه الروايات عيباً أن مضمونها لا يلتزم به أحد من الإمامية، وكلهم متّفقون على أن الأئمة أحد عشر من ولد فاطمة عليها السلام، وعلي عليه السلام هو الثاني عشر، والأحد عشر من ذريته.

وجاء في روضة (الكافي) عن علي بن إبراهيم عن الحسن بن محبوب عن مقاتل بن سليمان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: سألته عن طول آدم وحوّاء حين هبطا إلى الأرض، فقال: «**وجدنا في كتاب علي عليه السلام أن الله تعالى لمّا أن أهبط آدم وزوجته حواء إلى الأرض أن رجليه كانا بثنية الصفا ورأسه دون أُفق السماء، وأنه شكا إلى الله تعالى ما يصيبه من حرّ الشمس، فأوحى الله إلى جبرائيل: إن آدم قد شكا ما يصيبه من حرّ الشمس فأغمزه غمزة وصيّر طوله سبعين ذراعاً بذراعه، واغمز حواء غمزة فصيّر طولها خمسة وثلاثين ذراعاً بذراعها**»(٢).

وجاء في مرويّات السنّة عن عطاء أنه لما أهبط الله آدم من الجنة كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم ويأنس إليهم، فهابته الملائكة، وشكت إلى الله تعالى في دعائهم وصلاتهم، فخفّضه إلى الأرض، فلمّا فقد ماكان يسمع منهم استوحش حتى شكا إلى الله في صلاته ودعائه، فوُجّه إلى مكّة، فصار موضع قدمه قرية، وخطوته مفازة حتى انتهى إلى مكّة(٣).

وروي عن ابن عباس أن خطوه كان مسيرة ثلاثة أيام، وأن رأسه كان يبلغ السماء، فاشتكت منه الملائكة، فهمزه الرحمن همزة فتطأطأ مقدار أربعين سنة(٤).

وأضاف الطبري بسنده إلى ابن عبّاس أن آدم حين هبط كان رأسه يمسح السماء،

---

(١) الكافي ج ١ ص ٥٣١.

(٢) الكافي ج ٨ ص ٢٣٣.

(٣) راجع جامع البيان للطبري ج ١ ص ٧٦٠، المصنف لعبد الرزاق الصنعاني ج ٥ ص ٩١.

(٤) تاريخ الطبري ج١ ص ٨٣.

فمن ثم صلع وأورث ولده الصلع[١].

وبلا شكّ إن هذه المرويّات من صنع القصاصين، أو من موضوعات كعب الأحبار ووهب بن منبّه وغيرهما، الذين أدخلوا الإسرائيليات على الحديث والتفسير، كما ذكرنا في الفصول السابقة[٢].

على أن الراوي لها عن الإمام وهو مقاتل بن سليمان كان من بترية الزيدية أتباع الحسن بن صالح بن حي الملقّب بالأبتر، وإليه تنسب فرقة البترية من الزيدية.

[من مرويات مدينة المعاجز للبحراني]

وجاء في (مدينة المعاجز) عن (كامل الزيارات) لابن قولويه عن عبد الله الأصمّ عن عبد الله بن بكر الأرّجاني أنه قال: صحبت أبا عبد الله الصادق عليه السلام في طريقه من المدينة إلى مكّة، فنزلنا منزلاً يقال له «عسفان»، ثم مررنا بجبل أسود عن يسار الطريق وحش، فقلت له: يابن رسول الله، ما أوحش هذا الجبل! ما رأيت في الطريق مثل هذا. فقال لي: **«يابن بكر، أتدري أيّ جبل هذا؟»**. فقلت: لا. قال: **«هذا جبل يقال له «الكمد»، وهو على وادٍ من أودية جهنم، وفيه قتلة أبي عبد الله الحسين، استودعهم الله فيه، تجري من تحتهم مياه جهنم من الغسلين والصديد والحميم، وما يخرج من الفلق وما يخرج من آثام، وما يخرج من طينة خبال، وما يخرج من جهنم ولظى وحطمة وسقر والهاوية والجحيم والسعير. وما مررت بهذا الجبل في سفري فوقفت به إلا رأيتهم يستغيثون. وإني لأنظر إلى قتلة أبي وأقول لهما: إن هؤلاء فعلوا ما أسّستما، لم ترحمونا إذ وليتم، وقتلتمونا وحرمتمونا [ووثبتم][٣] على حقّنا، فلا رحم الله من يرحمكما، ذوقا وبال ما قدّمتما، وما الله بظلام للعبيد»**.

(١) المرجع نفسه ص ٨٦.

(٢) تقدم فيما سبق.

(٣) من المصدر، وفي الأصل: ووشيتم.

فقلت: جعلت فداك ومن معهم؟ فقال: «**كلّ فرعون عتا على الله، وحكى الله عنه فعاله، وكلّ من علّم العباد الكفر**».

قلت: من هم؟ قال: «**لويس الذي علّم اليهود أن يد الله مغلولة، ونسطور الذي علّم النصارى أن عيسى المسيح ابن الله، وأنه ثالث ثلاثة، وفرعون موسى الذي قال:﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾**[1]**، ونمرود الذي قال: قهرت أهل الأرض وقتلت أهل السماء، وقاتل أمير المؤمنين، وقاتل فاطمة الزهراء ومحسن، وقاتل الحسن والحسين**عليهما السلام**. وأما معاوية وعمرو بن العاص، فما يطمعان في الخلاص ومن معهم ممّن نصب لنا العداوة، وأعان علينا بلسانه ويده وماله**».

قلت: جعلت فداك، فأنت تسمع هذا كلّه ولا تفزع؟ قال: «**يابن بكر، إن قلوبنا غير قلوب الناس، وإن الملائكة تنزل علينا في رحالنا، وتتقلّب على فراشنا، وتشهد طعامنا، وتحضر موتنا، وتأتينا بأخبار ما يحدث قبل أن يكون، وتصلّي معنا وتدعو لنا، وتتقلّب على أجنحتها صبياننا، وتمنع الدوابّ ان تصل إلينا، وتأتينا ممّا في الأرض من كلّ نبات في زمانه، وتسقينا من ماء كلّ أرض، نجد ذلك في آنيتنا. وما من يوم ولا ساعة ولا وقت صلاة إلا وهي تنبّهنا لها، وما من ليلة تأتي علينا إلا وأخبار كلّ أرض عندنا وما يحدث فيها، وأخبار الجنّ و[أهل الهوى]**[2]** من الملائكة، وما من ملك يموت في الأرض ويقوم غيره مقامه إلا أتتنا بخبره وكيف سيرته بالذين من قبله، وما من أرض من ستّة أرضين إلى الأرض السابعة إلا ونحن نؤتى بخبرها**».

فقلت له: جعلت فداك، إلى أين ينتهي هذا الجبل؟ قال: «**إلى الأرض السادسة، وفيها جهنم على وادٍ من أوديتها، عليه حفظة أكثر من نجوم السماء وقطر المطر وعدد ما في البحار والثرى، وقد وكّل كلّ ملك منهم بشيء وهو مقيم عليه**».

قلت: جعلت فداك، إليكم جميعاً يلقون الأخبار؟ قال: «**لا، إنما يُلقى ذلك إلى**

---

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٢) من المصدر، وفي الأصل: الهواء.

صاحب الأمر، وإنّا لنحمل ما لا يقدر العباد على حمله ولا على الحكومة فيه، فمن لم يقبل حكومتنا جبرته الملائكة على قولنا، أو أمرت الذين يحفظون ناصيته أن يقصروه على قولنا، فإن كان من الجنّ من أهل الخلاف والكفر أوثقته وعذّبته حتى يصير إلى ما حكمنا به».

قلت: جعلت فداك، فهل يرى الإمام ما بين المشرق والمغرب؟ قال: «يابن بكر، فكيف يكون حجّة على ما بين قطريها وهو لا يراهم ولا يحكم فيهم؟ وكيف يكون حجّة على قوم غيّب لا يقدر عليهم ولا يقدرون عليه؟ وكيف يكون مؤدّياً عن الله وشاهداً على الخلق وهو لا يراهم؟ وكيف يكون حجة عليهم وهو محجوب عنهم، وقد حيل بينهم وبينه أن يقوم بأمر ربه فيهم، والله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾(١) يعني به من على الأرض؟ والحجة بعد النبي يقوم مقامه»(٢).

ويكفي هذه الرواية شاهداً على أنها من الموضوعات اضطراب متنها وأُسلوبها البعيد عن منطق الإمام الصادق. هذا بالإضافة إلى أن رواتها من المتّهمين بالغلوّ ووضع الأحاديث، فقد رواها عبد الله بن الأصمّ عن عبد الله بن بكر الأرّجاني، وقد ذكرنا فيما سبق رأي المؤلفين في أحوال الرواة في عبد الله بن الأصمّ، وأما عبد الله بن بكر الأرّجاني فقد جاء عنه أنه كان ضعيفاً في روايته، مرتفع القول، لا يعبأ به(٣).

[أحاديث رد الشمس لعلي عليه السلام وكلامه معها]

وجاء في (عيون المعجزات) و(مدينة المعاجز) عن جماعة من المحدّثين بسندهم إلى

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٢) كامل الزيارات للمشهدي ص ٥٤٠، الفصول المهمّة في أُصول الأئمة للحرّ العاملي ج ١ ص ٣٣٧.

(٣) انظر ص ٣١١ من إتقان المقال، وانظر (منهج المقال) للمرزا محمد ترجمة عبد الله بن عبد الرحمن الأصم. والظاهر اتّفاق المؤلّفين في أحوال الرواة على ضعفهما وعدم الاعتداد بمروياتهما.

أبي سمينة محمد بن علي الصيرفي عن إبراهيم بن عمر اليمان عن حماد بن عيسى الجهني المعروف بغريق الجحفة عن عمر بن أُذينة عن أبان بن أبي عياش عن سليم بن قيس أنه قال: سمعت أبا ذر جندب بن جنادة يقول: رأيت السيد محمداًﷺ وقد قال لعلي ذات ليلة: «**إذا كان غداً اقصد إلى جبال البقيع وقِف على نشز**[1] **من الأرض، فإذا بزغت الشمس فسلّم عليها، فإن الله أمرها أن تجيبك بما فيك**». فلما كان من الغد خرج أمير المؤمنين ومعه أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين والأنصار حتى وافى البقيع، ووقف على نشز من الأرض، فلما طلعت الشمس قال: «**السلام عليك يا خلق الله الجديد المطيع له**». فسمعوا دويّاً من السماء وجواب قائل: «**وعليك السلام يا أوّل يا آخر، يا ظاهر يا باطن، يامن هو بكلّ شيء عليم**».

فلما سمع أبو بكر والمهاجرون والأنصار كلام الشمس صعقوا، ثم أفاقوا بعد ساعات وقد انصرف أمير المؤمنين عن المكان، فوافوا رسول اللهﷺ مع الجماعة، وقالوا: أنت تقول: إن علياً بشر مثلنا، وقد خاطبته الشمس بما خاطب الباري نفسه؟ فقال النبيﷺ: «**وما سمعتموه منها؟**». فقالوا: سمعناها تقول: «يا أوّل». قال: «**صدقت؛ هو أوّل من آمن بالله وصدّق نبوتي**». قالوا: سمعناها تقول: «**يا آخر**». قال: «**صدقت؛ هو آخر الناس عهداً بي؛ يغسّلني ويكفّنني ويدخلني قبري**». قالوا: وسمعناها تقول: «ياظاهر». قال: «**صدقت؛ ظهر علمي كلّه له**». قالوا: وسمعناها تقول: «يا باطن». قال: «**قد بطن سرّي كلّه له**». قالوا: وسمعناها تقول: «يا من هو بكلّ شيء عليم». قال: «**صدقت؛ هو العالم بالحلال والحرام، والفرائض والسنن، وما شاكل ذلك**»[2].

وجاء في رواية ثانية أن الشمس تكلّمت معه والنبيﷺ في طريقه إلى هوازن، ومعه

---

(١) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

(٢) مدينة المعاجز، ج ١ ص ٢١٨.

حشد كبير من المسلمين يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف مقاتل[(١)] .

وجاء في رواية ثالثة أنّ الشمس ردّت له التحية وقالت له: «يا خير الأوصياء، لقد أُعطيت في الدنيا والآخرة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت». فقال لها عليعليه السلام: «وما أُعطيت؟». فقالت: «لم يؤذن لي أن أُخبرك فيفتتن الناس، ولكن هنيئاً لك العلم والحكمة في الدنيا والآخرة؛ فأنت ممّن قال الله فيهم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، وأنت ممّن قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ﴾[(٣)]، فأنت المؤمن الذي خصّك الله بالإيمان»[(٤)].

وهذه الروايات من موضوعات الغلاة الذين قالوا: إن صوت الرعد هو صوت علي في السماء. وهي إما من الأخبار التي دسّها أصحاب المغيرة بن سعيد في كتب أصحاب الباقر، أو ممّا دسّه أصحاب أبي الخطّاب في كتب أصحاب الصادقعليه السلام، وجعلوا لها أسانيد من أصحاب الأئمّة كما جاء عن يونس بن عبد الرحمن عن الرضاعليه السلام على حدّ تعبير التستري في كتابه (الأخبار الدخيلة)[(٥)].

ولو لم يكن في سندها إلا محمد بن علي الصيرفي أبو سمينة لكفاها عيباً، وقد جاء عنه أنه كان فاسد الاعتقاد، معروفاً بين أهل الكوفة بالكذب والغلوّ، لا يلتفت إليه ولا يكتب حديثه على حدّ تعبير المرزا محمد، والغضائري[(٦)]، وغيرهما من المؤلّفين في أحوال الرواة. هذا بالإضافة إلى أنها قد اشتملت على بعض الأوصاف التي لا يصحّ أن يوصف بها غير الله سبحانه، وقد قال الإمام الصادق لمن كان يصفهم بهذه الصفات، وينسب لهم العلم بما كان وسيكون، والقدرة على جميع الكائنات، قال: «لعن الله من

(١) المصدر نفسه ص ٢٢١.

(٢) سورة السجدة الآية ١٧.

(٣) سورة السجدة الآية ١٨.

(٤) مدينة المعاجز، ج ١ ص ٢٢٠.

(٥) انظر ص ٢٤٠ من الكتاب المذكور.

(٦) رجال ابن الغضائري لأحمد بن الحسين الغضائري الواسطي البغدادي ص٩٤.

قال فينا ما لم نقله في أنفسنا»[١].

ولو افترضنا صحّة هذا الأمر، ووقوع هذا النوع من الحوادث بمحضر هذا الحشد من المهاجرين والأنصار كما يزعم الراوي، فلماذا لم يحتجّ به الإمام عليه السلام يوم أُقصي عن حقّه في الخلافة، ويوم الشورى وقد احتجّ عليهم بسوابقه وعلمه وتضحياته والتنصيص عليه من الرسول صلى الله عليه وآله مع أن حادثة من هذا النوع وبحضور هذا الجمع الغفير كما يزعم الراوي تكفي وحدها لدحض مزاعمهم وأباطيلهم مهما كان نوعها.

على ان حديث ردّ الشمس ومكالمتها للبشر ليس من مختصّات الشيعة، بل هو موجود بين مرويّات السنّة للخلفاء ولجماعة من العلماء والأولياء بشكل أوسع وأفظع، كما سنشير إلى ذلك في أواخر هذا الفصل.

[أحاديث الجمجمة مع علي عليه السلام]

وجاء في (عيون المعجزات) وغيرها من كتب الفضائل عن العباس بن الفضل عن موسى بن عطية الأنصاري عن حسان بن الأزرق عن أبي الأخوص، وعمار الساباطي أن أمير المومنين لمّا دخل المدائن بإيوان كسرى، وكان معه دلف[٢] ابن منجم كسرى، فلما جاء الزوال قال لدلف: «قم معي». وكان معه جماعة من أهل ساباط، فما زال يطوف في مكان كسرى ويقول لدلف: «كان لكسرى هذا المكان لكذا، وهذا لكذا». ودلف يقول له: هو والله كذلك، حتى طافا بالمكان كله ودلف يقول له: قد وضعت الأشياء كلّها في مكانها، لم يغب عنك شيء. ثم نظر إلى جمجة نخرة بالية، فقال لبعض أصحابه: «خذ هذه الجمجمة». وكانت مطروحة على وجه الأرض، فأخذها وجاء بها إلى الإيوان، ودعا بطشت فيه ماء ووضع الجمجمة فيه، ثم قال لها: «أقسمت عليك إلا

(١) مستطرفات السرائر لابن إدريس ص ٦٥٠، عن الامام زين العابدين، باختلاف عنه.

(٢) هو دلفُ بن مجيرٍ منجمِ كسرى، انظر مستدرك وسائل الشيعة للميرزا النوري ج ١٨ ص ١٦٨، جامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي ج ٢٦ ص ٦٧.

ما أخبرتني من أنا ومن أنت». فنطقت الجمجمة بلسان فصيح وقالت: «أما أنت فأمير المؤمنين وسيد الوصيين، وأما أنا فعبد الله وابن أمة الله كسرى أنوشروان».

فانصرف القوم الذين كانوا معه من أهل ساباط إلى أهاليهم، وأخبروهم بما كان وما سمعوه من الجمجمة، فاضطربوا واختلفوا في معنى أمير المؤمنين، وجاؤوا إليه وقالوا: قد أفسد هؤلاء قلوبنا بما أخبروه عنك، وقال بعضهم فيك ما قالت النصارى في المسيح، وما قاله عبد الله بن سبأ، فإن تركتهم على هذا كفر الناس. فلما سمع ذلك قال: «ما تحبّون أن أصنع بهم؟». قالوا: تحرقهم كما أحرقت عبد الله بن سبأ وأصحابه. فدعاهم لأن يرجعوا عن مقالتهم فيه، فأبوا وقالوا: لا يخاطب جمجمة إلا الله. فأمر بالنار وأحرقهم فيها، ولمّا أحرقوا أمر بسحقهم وذرّى رمادهم بالهواء.

ولما كان اليوم الثالث من إحراقهم، رجعوا إلى منازلهم بأحسن ما كانوا عليه، فجاء أهل ساباط وقالوا: يا أمير المؤمنين، الله الله في دين محمد؛ إن الذين أحرقتهم قد رجعوا إلى منازلهم بأحسن ماكانوا عليه. فقال: «لقد أحرقتهم وذريتموهم في الهواء، ولكن الله سبحانه أحياهم». فانصرفوا وهم يقولون فيه بمقالة ابن سبأ[(١)].

والرواة لهذه الرواية بين من ورد له ذكر في كتب الرجال كأبي الأخوص، وموسى بن عطية من غير أن يتعرّضوا لهما بقدح أو مدح، وبين من لم يرد له ذكر فيها كالعباس بن الفضل، وحسّان بن أحمد الأزرق. والراوي الأخير لها عن الإمام وهو عمار

(١) عيون المعجزات ص ١٠. والجدير بالذكر أن عبد الله بن سبأ الذي تتكلّم عنه رواية الجمجمة ـ والعهدة على الراوي ـ لم يثبت وجوده تاريخياً؛ فقد تعرّض له الدكتور طه حسين في كتابه (علي وبنوه)، وذكر القصص الكثيرة التي تروى عنه، ثم علّق عليها قائلاً: «هذه كلها أُمور لا تستقيم للعقل، ولا تثبت للنقد، ولا ينبغي أن تقام عليها أُمور التاريخ». وشكّك في وجوده: «نحن لانجد ذكراً لابن سبأ في المصادر المهمّة... فلم يذكر في (أنساب الأشراف) للبلاذري». ثم ذكر الأسباب التي دعت إلى اختراع هذه الشخصية الوهمية: «إن خصوم الشيعة بالغوا في أمر ابن سبأ هذا ليشنّعوا على علي وشيعته». علي وبنوه ج٢ ص ٣٢٧. وللمزيد حول هذا الموضوع راجع الكتاب القيّم (عبد الله بن سبأ) للعلامة مرتضى العسكري.

الساباطي كان من المعاصرين للإمامين موسى بن جعفر والرضاعليهما السلام، وهو فاطمي المذهب. وقد رواها عن أمير المؤمنين بلا واسطة، وبينه وبينه أكثر من تسعين عاماً.

ومهما كانت حالة الرواة لها فلا شكّ بأنها من صنع الغلاة، أو أعداء أهل البيت. ومن هذا النوع الذي أشار اليه الإمام الرضا كما جاء في رواية أبي محمود التي نقلناها في الفصول السابقة[1]. وأنا على يقين بأن أكثر الذين دوّنوها بين المرويات في الفضائل والكرامات لا يتردّدون في كذبها. على أن الكرامات إنما يجريها الله سبحانه على يد الأنبياء والأوصياء إذا كانت تؤكّد دعوتهم، وترفع الشكّ والريب من قلوب المرتابين والمشكّكين. أما إذا لم ترفع حقّاً وتضع باطلاً[2]، بل توجب الكفر والضلال كما جرى لأهل ساباط الذين اعتنقوا فكرة السبئية، ونسبوا إليه الربوبية حين كلّمته جمجمة كسرى، وأحرق المرتابين ونسفهم في الهواء نسفاً، ثم أحياهم ورجعوا إلى بيوتهم بأحسن مما كانوا على حدّ زعم الراوي، فلا تصحّ على الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليخرج الناس من ظلمات الشرك والجحود إلى نور الإيمان بإله واحد لا شريك له ولا نظير، ومن ظلمات الجهل إلى نور المعرفة والعلم، ومن عبادة الأشخاص والأصنام والشهوات إلى عبادة الخالق المنعم الرؤوف الرحيم.

وروي في (مدينة المعاجز) عن أبي رواحة عن المغربي أن أمير المؤمنين لما انتهى من حرب النهروان أبصر جمجمة نخرة بالية فقال: «هاتوها». فحرّكها بسوطه ثم قال لها: «أخبريني من أنت؟ فقير أم غني؟ شقيّ أم سعيد؟ ملك أم رعية؟». فقالت بلسان فصيح: يا أمير المؤمنين أنا أبروز بن هرمز، ملك الملوك، ملكت مشارقها ومغاربها، وسهلها وجبلها، وبرّها وبحرها، أنا الذي أخذت ألف مدينة في الدنيا، وقتلت ألف ملك من ملوكها، أنا الذي بنيت خمسين مدينة، وفضضت خمسمئة جارية بكر، واشتريت ألف عبد تركي وأرمني وزنجي، وتزوّجت بسبعين ألفاً من بنات الملوك،

---

(١) تقدم فيما سبق.

(٢) في الأصل: إذا لم ترفع باطلاً ولم تضع حقّاً.

وما من ملك في الأرض إلا غلبته وظلمت أهله. فلما جاءني ملك الموت قال: «يا ظالم يا طاغي يا باغي، خالفت الحقّ». فتزلزلت أعضائي، وارتعدت فرائصي، وعرض عليّ أهل حبسي، فإذا هم سبعون ألفاً من أولاد الملوك.

فلما رفع ملك الموت روحي سكن أهل الأرض من ظلمي، فأنا معذّب في النار أبد الآبدين، ووكّل الله بي سبعين ألف ألف من الزبانية، في يد كلّ واحد مرزبة من نار، لو ضربت على جبال أهل الأرض لتدكدكت. فكلّما ضربني الملك بواحدة من تلك المرازيب تشتعل فيّ النار [فيحييني الله تعالى][(١)] ويعذبني بظلمي لعباده. ووكّل الله تعالى بعدد كلّ شعرة في بدني حيّة تلسعني، وكل ذلك أُحسّ به كالحي في دنياه، فتقول لي الحيّات والعقارب: «هذا جزاء ظلمك للعباد».

ثم سكنت الجمجمة، فبكى جميع عسكر أمير المؤمنين، وضربوا على رؤوسهم وقالوا: «يا أمير المؤمنين، جهلنا حقّك بعدما علّمنا رسول الله، وأنت لم ينقص منك شيء، فاجعلنا في حلّ فيما فرّطنا فيك، ورضينا بغيرك على شرفك ومقامك. فأمر بتغطية الجمجمة في التراب، فعند ذلك وقف ماء النهر عن الجري، وصعد على وجه الماء كلّ سمك وحيوان كان في النهر، وتكلم كلّ واحد مع أمير المؤمنين[(٢)] ودعا له وشهد بامامته.

وهذه الرواية أفظع من سابقتها، وأسوأ حالاً منها، وفي متنها ألف شاهد وشاهد على أنها من نوع الكذب الخالص الذي لا يجوز تدوينه ولا السكوت عنه. ولعن الله المغيرة بن سعيد وأبا سمينة وأبا خديجة وغيرهم من الكذبة والزنادقة، ولعن الله أعداء الأئمّة الذين لم يتركوا وسيلة من وسائل التشويش والتشنيع عليهم إلا وخاضوا فيها، وغفر الله للشيخ البرسي الذي دوّن هذه الخرافة وغيرها من الخرافات والأساطير في كتابه (مشارق أنوار اليقين) وعدّها من (أسرار أمير المؤمنين). وبلا شك فإن أمير

---

(١) من المصدر، وفي الأصل: فيجبني.

(٢) مدينة المعاجز ص ٢٨٨.

المؤمنين بريء منها ومن المغالين فيه، ومن كلّ من ينشرون هذه الخرافات ويتاجرون بها. ولنا وقفة مع البريسي وكتابه في موضع آخر من هذا الكتاب.

وجاء في (مدينة المعاجز) و(عيون المعجزات) عن محمد بن هارون بن موسى عن أبيه هارون بن موسى عن محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد عن محمد بن علي، وإدريس بن عبد الرحمن عن داود الرقّي أنه قال: أتيت المدينة، فدخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فلما استويت في المجلس بكيت، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**ما يبكيك يا داود؟**». فقلت: يابن رسول الله، إن قوماً يقولون لنا: لم يخصّكم الله بشيء سوى ما خصّ به غيركم، ولم يفضّلكم بشيء سوى ما فضّل به غيركم. فقال: «**كذبوا**». ثم قام فرفس الأرض برجله وقال: «**كوني بقدرة الله**». فإذا هي سفينة حمراء وسطها درّة بيضاء، وعلى أعلى السفينة راية خضراء عليها مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، يقتل القائم أعداء الله، وينصره بالملائكة. وإذا وسط السفينة أربعة كراسي من أنواع الجواهر، فجلس أبو عبد الله على واحد، وأجلس موسى على واحد، وإسماعيل على واحد، وأجلسني على واحد، ثم قال لها: «**سيري على بركة الله**». فسارت في بحر عجاج أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فسرنا بين جبال الدرّ والياقوت حتى انتهينا إلى جزيرة وسطها قباب من الدرّ الأبيض، محفوفة بالملائكة، ينادون: «مرحباً يابن **رسول الله**». فقال: «**هذه قباب الأئمة من ولد محمد صلى الله عليه وآله، كلّما افتُقد واحد أتى هذه القباب، حتى يأتي الوقت الذي ذكره الله في كتابه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾**[1] ...».

ثم ضرب يده إلى أسفل البحر، فاستخرج منه درّاً وياقوتاً وقال: «**يا داود، إن كنت تريد الدنيا فخذها**». فقلت: لا حاجة لي في الدنيا يابن رسول الله. فألقاها في البحر، ثم نهض وقال: «**قوموا؛ حتى تسلّموا على أمير المؤمنين عليه السلام، وعلى أبي محمد الحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، وأبي جعفر الباقر**». فقمنا حتى انتهينا إلى قبّة وسط القباب،

(١) سورة الاسراء الآية ٦.

فرفع الستر فإذا أمير المؤمنين جالس، فسلّمنا عليه وخرجنا، ثم أتينا قبّة الحسن وبقية الأئمة فسلّمنا عليهم جميعاً، ثم قال: «**انظروا إلى يمين الجزيرة**». فإذا قباب لا ستور عليها، فقال: «**هذه لي ولمن يأتي من بعدي**». وفي وسط الجزيرة قبّة للقائم من آل محمد، ثم قال: «**ارجعوا**». فرجعنا إلى مجلسنا كما كنّا في الدار، وعادت الدار إلى ما كانت عليه[(١)].

وهذه الأُسطورة التي صوّرها الرواة، وكان داود الرقّي من أحد رواتها على حدّ زعمهم بهذا اللون الغريب ليست ممّا يستعصي على الإمام بقدرة الله سبحانه ومشيئته، ولكن السؤال الذي قد يطرحه حتى المؤمن بقدرة الإمام على هذه الأحداث الجسام، هو: إن الإمام هل يطلب من الله سبحانه أن يوّفر له القدرة على هذه الأُمور العظام لمجرد كلمة سمعها من بعض المتشيّعين له حتى ولو لم يترتب عليها إرشاد الحائرين وهداية الضالين؟ إن سير الأحداث يؤكّد لنا أنهم لم يلجؤوا إلى الإعجاز حتى في أدقّ المراحل وأشدّها خطراً على أنفسهم وعلى الإسلام. وفي الحالات العصيبة كانوا يظهرون لأصحابهم بمظهر سائر الناس العاجزين عن مجابهة الأخطار. وقد سمعوا وشاهدوا من أعدائهم شتى أنواع التعسّف والجور والتهم، وقابلوا كل ذلك بالصبر الجميل، والتسليم لقضاء الله وقدره، مع أنهم لو سألوا الله سبحانه لوفّر لهم ما يحبّون ويرغبون.

هذا بالإضافة إلى أن داود الرقي الذي رافق الإمام في هذه الرحلة كان متّهماً في دينه ومرويّاته، فقد نصّ النجاشي في ترجمته على أن الغلاة يدّعون بأنه من أركانهم، ويروون عنه الغرائب والمناكير[(٢)]. وقال ابن الغضائري: إنه كان فاسد المذهب، ضعيف الرواية، لا يلتفت إليه[(٣)]. وقد حاول جماعة تزكيته مما نسب إليه، ولكنهم لم ينتهوا إلى نتيجة

---

(١) مدينة المعاجز ج ٥ ص ٣٠٢.

(٢) رجال النجاشي ص ١٥٦.

(٣) رجال ابن الغضائري لأحمد بن الحسين الغضائري الواسطي البغدادي ص٥٨.

حاسمة بشأنه تجعله فوق الشبهات. كما وأن محمد بن هارون أحد الرواة لهذه الأُسطورة من المتّهمين في وضع الأحاديث[١].

وروي عن الحسن بن شعيب، ومحمد بن سنان عن يونس بن ظبيان أنه قال: استأذنت على أبي عبد الله الصادقعليه السلام، فخرج إليّ معتب، فأذن لي، فدخلت ولم يدخل غيري، فلما صرت في الدار، نظرت إلى صورة أبي عبد الله الصادقعليه السلام فسلّمت عليه، وكان بين يديه رجلان كأن على رؤوسهما[٢] الطير، فقال لي: «ادخل». فدخلت الثانية فإذا رجل على صورتهعليه السلام وإذا بين يديه جمع كثير كلّهم صورهم واحدة، فقال: «من تريد؟». قلت: أُريد أبا عبد الله. فقال: «قد وردت على أمر عظيم؛ إما كفر، أو إيمان».

ثم خرج من البيت رجل حيث بدا به الشيب، فأخذ بيدي وأوقفني على الباب، وغشّى بصري من النور، فقلت: السلام عليك يا بيت الله ونوره وحجابه. فقال: «وعليك السلام يا يونس». فدخلت البيت، فإذا بين يديه طائران يحكيان، فكنت أفهم كلام أبي عبد الله ولا أفهم كلامهما، فلمّا خرجا قال: «يا يونس، سل، نحن النور في الظلمات، ونحن البيت المعمور الذي من دخله كان آمناً، نحن عزّة الله وكبرياؤه». قلت: جعلت فداك، رأيت شيئاً عجيباً، رأيت [رجلاً][٣] على صورتك، قال: «يا يونس، إنا لا نوصف، ذاك صاحب السماء الثالثة سألني أن أستأذن الله له أن يصير مع أخٍ له في السماء الرابعة». فقلت: هؤلاء الذين في الدار؟ قال: «هؤلاء أصحاب القائم من الملائكة». فقلت له: فهذان؟ قال: «جبرائيل وميكائيل نزلا إلى الأرض فلم يصعدا حتى يكون هذا الأمر إن شاء الله وهم خمسة آلاف. يا يونس بنا أضاءت الأبصار، وسمعت الآذان»[٤].

---

(١) انظر منهج المقال للمرزا محمد، وغيره من المؤلّفين في أحوال الرواة.

(٢) الصحيح: رأسيهما.

(٣) من المصدر، وفي الأصل: بطاً.

(٤) دلائل الإمامة لمحمد بن جرير الطبري الشيعي ص٢٧٠، مدينة المعاجز ج ٥ ص ٤٤٣.

ويكفي هذه الرواية عيباً أن بطلها يونس بن ظبيان الذي قال فيه الإمام الصادق: «لعن الله يونس بن ظبيان ألف لعنة تتبعها ألف لعنة، كل لعنة تبلغه قعر جهنم». والذي قال فيه: «أما إن يونس مع أبي الخطّاب في أشدّ العذاب مقرونان وأصحابهما مع فرعون وآل فرعون في أشدّ العذاب»[١]. وبقية الرواة لها عن يونس بين متّهم في وضع الأحاديث والانحراف عن التشيّع كمحمد بن سنان، وبين مجهول لم يرد له ذكر في كتب الرجال[٢].

وجاء في (مدينة المعاجز) و(عيون المعجزات) عن يونس بن ظبيان عن المفضل بن عمر أنه قال: دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام وهو جالس على بساط أحمر في وسط داره وأنا أقول: اللهم إني لا أشكّ في أن حجّتك على خلقك هو[٣] إمامنا جعفر بن محمد عليه السلام، [فلقّني منه ما يزيدني][٤] في بياناً ويقيناً. فرفع رأسه إليّ وقال: «﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[٥]. يا مفضّل، ناولني تلك النواة». وأشار بيده إلى نواة في جانب الدار، فأخذتها وناولته إياها، فنصبها على الأرض ووضع سبابته عليها، وغمزها وغيّبها في الأرض، ودعا بدعوات سمعت منها: «اللهم فالق الحبّ والنوى». ولم أسمع الباقي، فإذا تلك النواة قد نبتت نخلة، وأخذت تعلو حتى صارت بإزاء علوّ الدار، ثم حملت حملاً حسناً، وتهدّلت وبسرت ورطبت رطباً، وأنا أنظر إليها، فقال لي: «اهززها يا مفضّل». فهززتها، فنثرت علينا رطباً في الدار جنيّاً أصفى من الجوهر، وأعطر من رائحة المسك والعنبر، فقال لي: «التقط وكل». فالتقطت وأكلت وأطعمت.

---

(١) لقد جمع السيد أبو القاسم الخوئي جميع الروايات الواردة في يونس بن ظبيان، واقوال الرجاليّين فيه في الترجمة رقم ١٣٨٦٢ من معجم رجال الحديث ج ٢١ ص ٤٠٢.

(٢) انظر ص ٣٠٩ و ٣١٠ من الكشي.

(٣) في الأصل: و، ومعها لا يستقيم السياق؛ إذ معها تبقى «أن» من قوله: «لا أشكّ في أن حجّتك» من غير خبر.

(٤) من المصدر، وفي الأصل: فوفق لي منه أن يزيد في.

(٥) سورة طه الآية ٣٦.

ثم قال لي: «اجمع كلّ ما يسقط من هذا الرطب، وأهدِه إلى مخلصي شيعتنا الذين أوجب الله لهم الجنة؛ فلا يحلّ هذا الرطب إلا لهم، وأهدِ إلى كلّ نفس منهم واحدة». قال المفضّل: فضممت ذلك الرطب، وظننت أني لا أُطيق حمله إلى منزلي، فخفّ عليّ حتّى حملته، وفرّقته فيمن أمرني به منهم في الكوفة، فخرج بأعدادهم لا يزيد رطبة واحدة، فرجعت إليه، فقال لي: «اعلم يا مفضل، أن هذه النخلة تطاولت وانبسطت في الدنيا، فلم يبقَ مؤمن ولا مؤمنة من شيعتنا بالكوفة وغيرها إلا وظهرت له بمقدار مضيّك إلى منزلك ورجوعك إلينا. فهذا من فضل الله أعظم ممّا أُعطي داود، وإن كنا قد أُعطيناه وأُعطينا ما لم يعطوا كرامة من الله لحبيبه محمدﷺ، وإن كنت من شيعتنا ستردّ إلينا وإليك من طول الدنيا وعرضها رسائل بأن النخلة وصلت إليهم، وطرحت إلى كلّ واحدة رطبة منها». قال المفضل: فلم تزل الكتب ترد إلينا من سائر الشيعة في سائر الدنيا بذلك، فعرفت والله عددهم من كتبهم[1].

ومقتضى هذه الرواية أن الكتب التي أُرسلت إلى المفضل بلغت حدود الملايين؛ لأن كلّ شيعي في أنحاء الدنيا الواسعة قد ظهرت لديه تلك النخلة، وألقت له رطبة من ثمارها، وكتب بذلك إلى المفضّل على حدّ زعمه. والشيعة في عصر الإمام الصادق كانوا أكثر من أيّ زمان مضى.

وإذا جاز لنا أن نقول بأن الإمامعليه السلام قد يصنع المعجزات التي من هذا النوع بقدرة الله سبحانه، فمن غير المعقول أن يصنعها بحضور المفضّل ويونس بن ظبيان وأمثالهما من الغلاة، وضعاف الإيمان، والكذب على أهل البيت الذين لعنهم هو والأئمّة من بعده، ووصفهم بالكفر والشرك. وهل يصحّ على الإمام الصادقعليه السلام أن يلعن المفضّل عشرات المرات ويقول له: «يا كافر يا مشرك». ثم يأخذ نواة ويغرسها في داره فتنمو لساعتها وتبلغ الغاية فتثمر وتتساقط رطباً أصفى من البلور بلحظة واحدة، ويكلّفه

---

(١) مدينة المعاجز ج ٦ ص ١٦٨.

بتوزيع ثمارها على الشيعة في مختلف أنحاء العالم في لحظات معدودات فيأكلون ويكتبون إلى المفضّل [في] تلك اللحظات القصار ملايين الكتب، ثم يلعنه بعد ذلك في النوادي والمجتمعات لا لشيء إلا لأنه وضعه فوق مستوى المخلوقات؟ وهل يعدو ذلك أن يكون إلا كمن ألقى إنساناً مكتوفاً في اليم، قال له: إياك أن تبتلّ بالماء[١] ؟

ومجمل القول أن هذه الرواية كسابقتها من موضوعات الغلاة وأعداء الأئمّة، وقد دوّنها حشوية الشيعة ومن يرى رأي الغلاة كالبرسي والبحراني وغيرهما، كما دوّنوا غيرها بدون محاكمة لمتونها، ولا تمحيص لأسانيدها فضلّت بها وبأمثالها فئات، وتاهت بمعناها عقول وأفهام، (نسأله سبحانه ببركة الأئمّة الهداة أن يلهمنا السداد في القول والتوفيق في العمل؛ إنه قريب مجيب).

ومن أمثلة الغرائب التي رواها في (مدينة المعاجز) أن رجلاً من أكابر بلخ كان يزور قبر النبيّ ﷺ ويحمل معه الهدايا الثمينة إلى الإمام زين العابدين، فاستمرّ على ذلك أعواماً حتى أنكرت عليه زوجته صنيعه؛ لأن الإمام لم يكافئه على هداياه، فحجّ في تلك السنة وأكل من طعام الإمام، ثم صبّ الماء على يد الإمام في طشت كبير، فامتلأ الطشت بأنواع المجوهرات الثمينة، فأمره الإمام أن يحمله معه إلى زوجته، فحمله إليها، فطلبت منه أن ترافقه في تلك السنة لزيارة الإمام زين العابدين، فمرضت في الطريق وماتت في القرب من مدينة الرسول. فجاء الرجل إلى الإمام باكياً حزيناً، وأخبره بما جرى لزوجته، فأمره الإمام أن يرجع إلى المكان الذي توفّيت فيه، وقال له: إنك تجدها حية تنتظر قدومك؛ فإن الله قد أحياها بقدرته وحكمته.

فخرج الرجل مسرعاً، وهو بين مصدّق ومكذّب، فلما دخل الخيمة وجد زوجته سالمة، فقال لها: كيف أحياك الله؟ فقالت: لقد جاءني ملك الموت وقبض روحي، وهمّ

---

(١) اليمّ هو البحر. والمؤلّف يريد أن يستشهد ببيت الحلاج:

ألقاه في اليمِ مكتوفاً وقال لهُ   إياكَ إياكَ أن تبتلّ بالماءِ

انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٢ ص١٤٣.

أن يصعد بها، وإذا برجل صفته كذا وكذا، وجعلت تعدّد أوصاف الإمام وهو يقول: صدقت؛ إنه الإمام زين العابدين. فلما رآه ملك الموت مقبلاً انكبّ على قدميه يقبلهما ويقول: «السلام عليك ياحجّة الله في أرضه، السلام عليك يا زين العابدين». فقال له: «يا ملك الموت، أعد روح هذه المرأة إلى جسدها؛ فإنها قاصدة إلينا، وقد سألت ربي أن يبقيها ثلاثين سنة أُخرى، ويحييها حياة طيبة». فقال الملك: «سمعاً وطاعة». ثم أعاد روحي إلى جسدي، وأنا أنظر إلى ملك الموت قد قبّل يده الشريفة وخرج عني.

فأخذ الرجل بيد زوجته، وأتى بها إلى مجلس الإمام وهو مع أصحابه، فانكبّت على ركبتيه تقبّلهما، ولم تزل مع بعلها في جوار الإمام إلى أن ماتا[(١)].

وهذه الرواية كغيرها من مرويات الغلاة والقصّاصين البعيدة عن واقع الأئمّة عليهم السلام الذي تؤكّده مواقفهم الكثيرة التي كانوا يتجنّبون فيها عن كل ما من شأنه إدخال الشُّبه على ضعفاء شيعتهم. والسلام على الإمام زين العابدين القائل لجماعة من المتشيّعين: «**ما برح حبّكم لنا حتى أصبح علينا عاراً، لقد بغّضتمونا إلى الناس بما قلتموه فينا**»[(٢)].

هذا بالإضافة إلى أن الراوي لهذه الأُسطورة بينه وبين الإمام مئات السنين، وقد أرسلها من غير أن يذكر أحداً من رواتها، فهي من أسوأ أنواع المراسيل التي لم يتأكّد مضمونها بشاهد من كتاب أو سنة.

[الحديث عن خولة أم محمد بن الحنفية كما جاء في الأخبار الدخيلة وغيرها]

ومن الموضوعات ما رواه في (مدينة المعاجز) و(الخرائج) عن دعبل الخزاعي عن الرضا عليه السلام عن أبيه وجدّه أنه قال: كنت عند الإمام الباقر، إذ دخل عليه جماعة من الشيعة فيهم جابر بن يزيد، فقالوا: هل رضي أبوك علي عليه السلام بخلافة الأول والثاني؟

---

(١) مدينة المعاجز ج ٤ ص ٣١١.

(٢) تقدم فيما سبق.

فقال: «اللهم لا». فقالوا: لِمَ نكح من سبيّهم خولة الحنفية إذ لم يرضَ بإمامتهم؟ فقال عليه السلام: «**امضِ ياجابر إلى منزل جابر بن عبد الله الأنصاري، وقل له: إن محمد بن علي يدعوك**». قال جابر بن يزيد: فأتيت منزله، وطرقت عليه الباب، فناداني جابر من داخل الدار: اصبر يا جابر بن يزيد. فقلت في نفسي: من أين علم جابر الأنصاري أني جابر بن يزيد؟ ولايعرف الدلائل إلا الأئمّة من آل محمد. والله لأسألنه إذا خرج إليّ. فلما خرج قلت له: من أين علمت أني جابر بن يزيد، وأنت داخل الدار؟ قال: خبّرني مولاي الباقر البارحة أنك تسأله عن الحنفية في هذا اليوم، وأنه سيبعثك اليّ تدعوني إليه. فقلت: صدقت.

فسرنا جميعاً حتى أتينا المسجد، فلما بصر مولانا الباقر بنا ونظر إلينا، قال للجماعة: «**قوموا إلى الشيخ فاسألوه حتى ينبئكم بما سمع ورأى**». فقالوا: يا جابر هل رضي إمامك علي بخلافة من تقدّمه؟ فقال: اللهم لا. فقالوا: لِمَ نكح من سبيهم، إذا لم يرضَ بإمامتهم. فقال جابر: آه آه؛ لقد ظننت أني أموت ولا أُسأل عن هذا. أما إذ سألتموني، فاسمعوا وعوا، حضرت السبي وقد أُدخلت الحنفية فيمن أُدخل، فلما نظرت إلى جمع الناس عدلت إلى تربة النبي صلى الله عليه وسلم، فرنّت رنّة، وزفرت زفرة، وأعلنت بالبكاء والنحيب، ثم نادت: السلام عليك يا رسول الله وعلى أهل بيتك من بعدك، هؤلاء أُمّتك سبونا سبي النوب والديلم، والله ما كان لنا إليهم من ذنب إلا الميل إلى أهل بيتك، فجعلت الحسنة سيّئة، والسيّئة حسنة فسبينا.

ثم انعطفت إلى الناس وقالت: لِمَ سبيتمونا وقد أقررنا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؟ قالوا: منعتمونا الزكاة، قالت: هب الرجال منعوكم، فما بال النساء؟ فسكت المتكلّم كأنما أُلقم حجراً، ثم ذهب إليها طلحة وخالد بن عفّان يرميان إليها ثوباً، فقالت: لست بعريانة فتكسوني. فقيل لها: إنهما يرغبان أن يتزايدا عليك، فأيّهما زاد على صاحبه أخذك من السابين. فقالت: هيهات والله لا يكون ذلك أبداً، لا يملكني ولا يكون لي بعلاً إلا من يخبرني بالكلام الذي قلته ساعة خرجت من بطن أُمّي.

فسكت الناس ينظر بعضهم إلى بعض، وورد عليهم من ذلك الكلام ما أبهر عقولهم، وأخرس ألسنتهم، وبقي القوم في دهشة من أمرها، فقال أبو بكر: ما لكم ينظر بعضكم إلى بعض؟ قال الزبير: لقولها الذي سمعت. قال أبو بكر: ما هذا الأمر الذي أحصر أفهامكم؟ إنها جارية من سادات قومها، ولم تعتدْ على ما رأت ولقيَت، وقد دخلها الفزع فقالت ما لا تحصيل له. فقالت له: لقد رميت بكلامك غير مرمى، والله ما داخلني جزع أو فزع، وما قلت إلا حقّاً، ولا نطقت إلا فصلاً، ولابدّ أن يكون كذلك، وحقّ صاحب هذه البنية.

ثم سكتت وأخذ خالد وطلحة بثوبيها، وجلست هي ناحية من القوم، فدخل علي عليه السلام، فذكروا له جمالها وقصتها، فقال: «**هي صادقة فيما قالت، وكانت حالتها وقصتها كيت وكيت، وكلّ ذلك مكتوب في لوح معها**». فرمت باللوح لهم لما سمعت كلامه فقرؤوه، فإذا هو كما قال علي عليه السلام، لا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، فقال أبو بكر: خذها يا أبا الحسن، بارك الله لك فيها. فأخذها وسلّمها إلى أسماء بنت عمير إلى أن قدم أخوها، وتزوّجها بالعقد لا بالملك(١).

ورواها في (المناقب) في باب إخباره بالمنايا، وزاد فيها أن علياً عليه السلام قال لها: «**يا خولة، اسمعي الكلام وعي الخطاب، لمّا كانت أُمّك حاملة بك، وضربها الطلق، واشتدّ بها الأمر نادت: اللهم سلمني من هذا المولود سالماً. فسبقت الدعوة لك بالنجاة، فلما وضعتك ناديت من تحتها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، سيملكني سيد يكون لي منه ولد. فكتبت ذلك الكلام في لوح من نحاس ودفنته في الموضع الذي سقطت فيه، فلما كانت الليلة التي قبضت فيها أُمّك أوصت إليك بذلك، ولما كان وقت سبيك لم يكن لك همّة إلا أخذ ذلك اللوح، فأخذتيه وشددتيه على عضدك. هاتي اللوح؛ فأنا صاحبه، وأنا أمير المؤمنين، وأبو ذلك الغلام الميمون، واسمه محمد**». فدفعت اللوح إلى أمير

---

(١) مدينة المعاجز ج ٥ ص ١٧٤، الخرائج والجرائح ج ٢ ص٥٦٤.

المؤمنين وقرأه عثمان لأبي بكر، فما زاد حرفاً واحداً، وقال الناس: صدق الله ورسوله إذ قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[(١)].

وقد رويت قصة الحنفية في البحار بشكل أوسع وأغرب ممّا ورد في هاتين الروايتين، وجاء فيها أنها قد أخبرت أُمها وهي حمل في بطنها بما يجري عليها، وبما سيكون من أمرها وأمر ولدها محمد[(٢)].

إن الكرامات التي نسبها القصّاصون إلى خولة الحنفية هي أعظم ممّا وقع لعيسى بن مريمعليه السلام، فلقد تكلم في المهد تزكية لأُمّه السيدة مريم التي حامت حولها الشُّبه بعد حملها بقدرة الله، فأنطقه الله بعد ولادته، وبرّأها مما أُلصق بها زوراً وبهتاناً. ولكن خولة نطقت حين حملها وحين ولادتها، وأقرّت بنبوّة محمدصلى الله عليه وآله، وإمامة عليعليه السلام، وأخبرت برؤيا أُمّها وبما يجري عليها، وسجّلت أُمّها كلّ ذلك في لوح، وعرضته عليها بعد سنتين من ولادتها، ووضعته في عقيصتها[(٣)] لتكون لها الحجّة بذلك يوم سبيها كما جاء في رواية المجلسي.

إلى غير ذلك من الغرائب التي لم تصدر من الأنبياء فضلاً عن سائر الناس، على أن هذا الاختلاف الواقع بين المرويات الثلاث يكفي لضعفها وعدم الاعتداد بها حتى ولو كانت من حيث سندها مستوفية لسائر الشروط المعتبرة في الراوي، في حين أنها من المراسيل التي لم تتوفّر حتى بالذين أرسلوها لشروط العمل بالرواية. هذا بالإضافة إلى أن المؤرّخين لم يتّفقوا على رأي واحد فيما يعود لهذه الحادثة، فلقد ذهب المدائني إلى أنها من سبي عليعليه السلام حينما بعثه النبي لقمع حركة الردّة التي قام بها عمرو بن معدي كرب، وكانت خولة لبني زبيد الذين جنحوا إلى الارتداد، وقبل ذلك قد غزوا بني

---

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب، ج ٢، ص ١١١.

(٢) بحار الأنوار لمحمد باقر المجلسي ج ٤١ ص ٣٢٦.

(٣) يقال: «عقصت المرأة شعرها»، إذا لوّته وأدخلت أطرافه في أصوله، وجعلت منه مثل الرمّانة على رأسها. والشكل الحاصل من ذلك يقال له: «عقيصة».

حنيفة، وسبوا منهم خولة الحنفية، فلما رجع علي من غزوته ومعه السبي كانت من سهامه، وبقيت عنده إلى أن توفيت فاطمة عليها السلام، فأولدها محمداً المعروف بابن الحنفية[(١)].

ونصّ البلاذري في (فتوح البلدان) أنها من سبي بني أسد في خلافة أبي بكر في قصة ذكرها بما حاصله أن بني أسد أغارت على بني حنيفة فسبت منها خولة، واشتراها منهم علي عليه السلام، ولمّا عرف أهلها بمكانها وفدوا على علي عليه السلام وأخبروه بحالها فأعتقها وتزوّجها[(٢)]. إلى غير ذلك مما جاء حول الحنفية وقصّتها.

وبلا شكّ فإن رواية البلاذري لا يمكن الأخذ بها بشكلها الحالي؛ لأن هذا النوع من الغزو والسبي لا يسوّغ ملكيّة السبي، ولا تقرّه الشرائع، ومن غير الجائز ان يُقدم علي عليه السلام على شرائها وتملّكها بهذا النحو إلا أن يكون إقدامه على ذلك لأجل إنقاذها من هؤلاء الغزاة. ولابدّ أن يكون زواجه منها بعد إنقاذها وإرجاعها إلى أهلها بالعقد لا بالملك.

وعلى أيّ الأحوال فإن المرويات التي من هذا النوع المنتشرة في كتب الحديث هنا وهناك لا تثبت في مقابل النقد، ولا تنسجم مع مبدأ أهل البيت ومنطقهم السليم الذي وصفه الإمام الرضا بقوله: **«فإن مع كلّ قول منا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة له ولانور عليه فذلك قول الشيطان»**[(٣)].

[من مرويات القضاء المنسوب لعلي عليه السلام للشيخ محمد تقي التستري]

وجاء في الكتاب المعروف بـ (قضاء علي بن أبي طالب) تأليف الشيخ محمد تقي

---

(١) عنه في أنساب الأشراف ص ٢٠٠.

(٢) نصّ البلاذري على هذا في أنساب الأشراف ص ٢٠١، ولم أعثر عليه في (فتوح البلدان) كما ذكر المؤلف.

(٣) اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ج ٢ ص ٤٩٠.

التستري أن تسعة إخوة أو عشرة على حدّ تعبير الراوي كانوا في حيّ من أحياء العرب، وكانت لهم أُخت واحدة، فقالوا لها: كل ما يرزقنا الله نطرحه بين يديك على شرط ان لا تتزوّجي. فوافقتهم على ذلك، وقعدت في خدمتهم، فحاضت يوماً، فلما طهرت وأرادت أن تغتسل ذهبت إلى عين كانت في القرب من حيّهم، فلما دخلت الماء دخلت فيها علقة صغيرة وهي لا تعلم. ومضت أيام على ذلك والعلقة تكبر حتى علت بطنها وظهر عليها الحمل، فظن إخوتها أنها حملت سفاحاً، فأرادوا قتلها، فرجّح بعضهم أن يرفعوا أمرها إلى عليعليه السلام. فوفدوا عليه وقصّوا له أمرها، فاستحضر طستاً مملوءاً بالحماه، وأمرها أن تقعد فيه، فلما أحسّت العلقة برائحة الحماه نزلت من جوفها، فقالوا: يا علي، أنت ربّنا العلي، تعلم علم الغيب، فزبرهم وقال: «**إن رسول الله أخبرني بذلك عن الله أن هذه الحادثة تقع في هذا اليوم من هذا الشهر وفي هذه الساعة**»[(١)].

والرواية من المراسيل كأكثر مرويات هذا الكتاب الذي لفّقه التستري وغيره ونسبوه إلى أمير المؤمنينعليه السلام بدون تحقيق في مصادر مرويّاته، ولا وعي لمتونها التي لا تثبت في وجه النقد والمحاكمة. وهذه الرواية من أكبر الشواهد على ذلك. لقد ادّعى الذين وضعوا هذه الأُسطورة ان العلقة ـ وهي حيوان صغير للغاية يتولّد في الماء، وأكثر ما يوجد في الماء الراكد ـ قد دخلت في فرج تلك الفتاة التي لاتزال عذراء، ومن الجائز أن يكون الأمر كذلك، وقد يطول بها الأمد فتمتصّ من دماء المحل الذي تكون فيه، ولكن مهما بلغ بها الحال لا يمكن أن يتجاوز حجمها حجم الجرادة الصغيرة. وعندما تبلغ هذا الحجم ترافق وجودها آلام قاسية، وعوارض لايمكن لأيّ إنسان أن يتحمّلها؛ لأنها تنهش باللحم وتمتصّ الدماء. ومن المعلوم أن هذا الحجم لا يوجب ارتفاع البطن كما جاء في الرواية، ولا تلازمه عوارض الحمل. وعلى تقدير أن تلك العلقة قد بلغت حجم الجنين كما يظهر من الرواية، فكيف خرجت بتلك السهولة وهي

---

(١) قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص ٢٤٩.

لا تزال عذراء كما يبدو من الرواية؟

وبلا شك إن الذين وضعوا هذا النوع من المرويّات قد تعمّدوا فيها تلك الفجوات من الاضطراب والتهافت؛ لينفذوا من خلالها إلى التشكيك بالأئمة الهداة، كما ذكرنا في الفصول السابقة.

وقد دوّن التستري في نفس الكتاب حادثة أُخرى من هذا النوع من غير أن يذكر لها سنداً يربطها بالإمام عليه السلام جاء فيها أن جماعة تتكوّن من ألف فارس جاؤوا بجارية إلى علي عليه السلام، فقال له أبوها: لقد خطبها ملوك العرب، ونكّست رأسي؛ لأنها عاتق حامل. فقال علي عليه السلام لداية الكوفة: «**انظريها، هل هي حامل أم لا؟**». فلاحظتها وقالت له: هي حامل يا أبا الحسن. فقال عليه السلام: «**من يقدر على قطعة ثلج في هذه الساعة؟**». فقال أبوها: إن الثلج في بلدنا كثير، ولكنه يبعد مئتين وخمسين فرسخاً. فمدّ يده وكان على منبر الكوفة، وردّها وفيها قطعة ثلج، فأمر بطشت وضعه تحت الجارية، ووضع قطعة الثلج مما يلي فرجها، فرمت الجارية علقة وزنها سبعمئة وخمسون درهماً ودانقان، وكان الإمام قد أخبرهم حينما قدموا عليه بما جرى للجارية وهي في العاشرة من عمرها، وكيف دخلت العلقة في فرجها، كما أخبرهم بوزنها، فنهض أبوها وهو يقول: «**أشهد أنك تعلم ما في الأرحام، وما في الضمائر**»[1].

وهذه الرواية كسابقتها من المراسيل التي لا يجوز الاعتماد عليها حسب الأُصول المقرّرة في علمي الرجال والدراية. هذا بالإضافة إلى أنها قد اشتملت على أُمور لا يمكن الالتزام بها؛ لأن وجود علقة بهذا الحجم في جوف إنسان يكفي وحده للقضاء عليه. ومهما توفّرت للعلقة أسباب الحياة والنمو لا يمكن أن تبلغ هذا الوزن في حين أن قدرة الله سبحانه فوق الحدود والقيود، ولكن المقدور لابدّ وأن يكون مسايراً للقدرة، فالله سبحانه قادر على أن يجعل الجرادة أو الوزّة بحجم الفيل، ولكن الوزّة بماهيتها

(١) قضاء علي بن أبي طالب ص ٤٠.

وحقيقتها غير قابلة لذلك. فاستحالة وقوع مثل ذلك يرجع إلى المقدور لا إلى القدرة. على أن حضور ألف فارس على خيولهم مع فتاة متّهمة بتلك التهمة إلى الخليفة الحاكم في منتهى الغرابة لاسيما من تلك المسافة البعيدة التي تُقدّر بمئات الفراسخ[1].

ومن مرويات التستري الذي وصف نفسه بالتحقيق ما رفعه إلى ميثم التمّار أنه قال: كنت بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام في جامع الكوفة في جماعة من أصحابه وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وكأنه البدر بين الكواكب، إذ دخل علينا طويل عليه قباء خزٍّ أدكن، وقد اعتمّ بعمامة خضراء، وهو متقلّد بسيفين، فدخل وبرك بغير سلام، ولم ينطق بكلام، فتطاولت إليه الأعناق، ونظروا إليه وقد وقف عليه الناس من جميع الآفاق، وأمير المؤمنين عليه السلام لا يرفع رأسه. فلما هدأت من الناس الأنفاس والحواس، أفصح عن لسان كأنه حسام جذب من غمده وقال: أيّكم المجتبى في الشجاعة، والمعمّم بالبراعة؟ أيّكم المولود في الحرم، والعالي في الشيم، والموصوف في الكرم، الأصلع البطل الدعّاس، المضيّق للأنفاس، والآخذ بالقصاص؟ أيّكم غصن أبي طالب وبطله المهيب، والسهم المصيب؟ أيّكم خليفة محمد الذي نصره في زمانه، واعتزّ به سلطانه وعظم به شأنه؟

فعند ذلك رفع أمير المؤمنين إليه رأسه وقال: «**مالك يا أبا سعد بن الفضل بن ربيع بن مدركة بن الأشعث بن أبي أسمع الرومي؟ سل عمّا شئت**». قال: قد بلغنا عنك أنك وصي رسول الله وخليفته على قومه من بعده، [و] أنك محلّ المشكلات، وأنا رسول إليك من ستّين ألف رجل يُقال لهم «العصمة»، وقد حمّلوني ميّتاً من مدّة قد اختلفوا في سبب موته، وهو بباب المسجد، فإن أحييته علمنا أنك صادق نجيب الأصل، وتحقّقنا أنك خليفة محمّد على قومه، وإن لم تقدر على ذلك رددناه إلى قومه، وعلمنا أنك تدّعي غير الصواب، وتظهر من نفسك ما لا تقدر عليه. قال أمير المؤمنين: «يا ميثم، اركب

---

(١) بل مئتين وخمسين فرسخاً.

بعيرك، ونادِ في شوارع الكوفة ومحالّها: من أراد أن ينظر إلى ما أعطى الله علياً أخا رسوله، وزوج ابنته من العلم الربّاني، فليخرج إلى النجف».

فخرج الناس إلى النجف، فقال عليه السلام: «**يا ميثم، هات الأعرابي وصاحبه**». قال ميثم: فخرجت فرأيته راكباً تحت القبة التي فيها الميت، فأتيت بهما إلى النجف، فعند ذلك قال عليه السلام: «**قولوا فينا ماترون، وارووا عنا ما تشاهدون منا**». ثم قال: «**يا أعرابي، أبرك الجمل، وأخرج صاحبك أنت وجماعة من المسلمين**». قال ميثم: فأخرجنا تابوتاً فيه غلام أول ما تمّ عذاره على خدّه، بذوائب كذوائب المرأة الحسناء، فقال علي عليه السلام: «**كم لميّتكم هذا؟**». قالوا: أحد وأربعون يوماً. قال: «**وما سبب موته؟**». قال الأعرابي: إن أهله يريدون أن تحييه؛ ليخبرهم من قتله؛ لأنه بات سالماً، وأصبح مذبوحاً من أُذنه إلى أُذنه، ويطالب بدمه خمسون رجلاً يقصد بعضهم بعضاً، فاكشف الشكّ والريب يا أخا محمد. قال عليه السلام: «**قتله عمّه؛ لأنه زوّجه ابنته فخلاها وتزوّج من غيرها، فقتله حنقاً عليه**». فقال الأعرابي: لا نقنع بقولك؛ فإنا نريد أن يشهد لنفسه عند أهله لترتفع الفتنة والسيف والقتال.

فعند ذلك قام الإمام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**والله ما بقرة بني إسرائيل بأجلّ عند الله منّي قدراً**». ثم دنا من الميت وقال له: «**قم بإذن الله يا مدرك بن حنظلة بن غسان بن بحر بن فهر؛ فقد أحياك الله على يد علي بن أبي طالب**». قال ميثم التمّار: فنهض غلام أضوأ من الشمس أضعافاً، ومن القمر أوصافاً، وقال: لبّيك لبّيك ياحجّة الله على الأنام، المتفرّد بالفضل والإنعام. فقال له الإمام: «**مَن قتلك؟**». قال: قتلني عمي الحارث بن غسّان. فقال له الإمام: «**انطلق إلى قومك**». فقال: يا مولاي، لا حاجة لي إليهم، أخاف أن يقتلوني مرة أُخرى. فالتفت الإمام إلى صاحبه وقال له: «**امضِ إلى قومك وأخبرهم**». وبقي الغلام مع أمير المؤمنين إلى أن قتل بصفين[1].

---

(١) قضاء علي بن أبي طالب ص ٢٤٥.

لقد حارب أمير المؤمنين فكرة الغلوّ بشدة حينما ظهرت بوادرها بقيادة عبد الله بن سبأ كما يدّعي الأخباريون والمحدثون، وعاقب عليها بالقتل والإحراق بالنار. وكان يحرص أشد الحرص على أن يبقى في الأذهان والأفكار صورة الإنسان المخلوق الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً ما لم تمدّه القدرة الإلهية بعنايتها ورعايتها، ولم يقدم على أيّ عمل تضيق به عقول العامّة، ويستغلّه المشعوذون لتنفيذ مخطّطاتهم وأغراضهم التي تستّروا بالتشيّع والولاء لتحقيقها.

ولو تغاضينا عن كلّ ذلك، فإذا صحّ أنه دعا الناس في الكوفة دعوة عامّة لمشاهدة هذا الحدث العظيم، فمن المقطوع به أنه لم يتخلّف عن الحضور إلا القليل النادر. وحادثة من هذا النوع لا يمكن أن يتجاهلها التاريخ وتتناساها تلك الأُلوف التي تكدّست يوم ذاك لمشاهدتها كما يزعم الراوي، في حين أنه لم يتعرّض لها إلا التستري في القضاء المنسوب لعلي عليه السلام، وغيره من حشوية الشيعة الذين لا يفرّقون بين الجوهر والحصى. مع العلم بأن التاريخ قد أحصى أصغر الحوادث، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة. وقد اختار الوضّاعون والقصّاصون ميثماً لأن يكون بطل هذه الأُسطورة؛ لأنه كان صدوقاً فيما يحدّث، وصادق الحبّ والولاء لعلي وآله الكرام. وإذا جاءت الرواية عن طريقه، فستكون في حسابهم أقرب إلى التصديق ممّا لو كانت عن طريق غيره من المشبوهين والمجهولين. وهكذا كان يضع الوعّاظ والقصّاصون، فيخترعون أحياناً سنداً لأساطيرهم من أشخاصٍ لا وجود لهم في هذه الدنيا، ويربطونه بأحد المعاصرين للإمام أو النبي أو غيرهما ممّن عرفوا بالوثاقة والإستقامة.

ومن المرفوعات التي أوردها التستري في القضاء المنسوب لعلي عليه السلام أن غلاماً طلب مال أبيه من عمر بن الخطاب، وذكر له أن والده توفّي والولد طفل في المدينة، فصاح عليه عمر وطرده من مجلسه، فخرج الغلام يتظلّم منه، فلقيه علي وقال لمن معه: «**ائتوني به إلى الجامع حتى أكشف أمره**». فجيء به، وسأله عن حاله، فأخبره بخبره، فقال: «**لأحكمنّ فيكم بحكمة حكم بها الله من فوق سبع سماوات، لا يحكم بها إلا من ارتضاه**

لعلمه». ثم استدعى بعض أصحابه وقال: «**هات مجرفة**». وسار معهم إلى قبر والد الصبي، وأمرهم بنبشه وإخراجه، واستخراج ضلع من أضلاعه، فأخذ الضلع ودفعه إلى الغلام وقال: «**شمّه**». فلمّا شمّه انبعث الدم من منخريه، فقال له: «**أنت ولده**».

فقال له عمر: بانبعاث الدم، أتسلّم إليه المال؟ فقال علي‏‏: «**إنه أحقّ بالمال منك ومن سائر الناس أجمعين**». ثم أمر الحاضرين بشمّ الضلع، فشمّوه فلم ينبعث الدم منهم، فأمر أن يُعاد إليه ثانياً، فلمّا أُعيد إليه وشمّه انبعث الدم ثانياً أكثر من المرّة الأُولى، فقال‏ لعمر: «**إنه أبوه؛ سلّم له المال، والله ما كَذبتُ ولا كُذبتُ**»(١).

وهذه الرواية كغيرها من مرويات القضاء الذي نسبه التستري لعلي‏، وأكثرها لم يستوفِ شروط العمل بالرواية؛ لا من حيث السند، ولا من حيث المتن. هذا بالإضافة إلى أن علياً‏ كان له من علمه الغزير الواسع بالقضاء وغيره من غوامض الكون وأسرار الكائنات مايغنيه عن الالتجاء إلى هذه التمثيلية الغريبة التي لا تقبلها العقول، ولا تحيط بها الأفهام. وفي الوقت ذاته فإنها تفسح للمشعوذين والمضلّلين أن ينفثوا سمومهم وأباطيلهم التي تلوّث التشيّع، وتلقي عليه ضباباً كثيفاً يحوّل الأنظار عن واقعه الذي يعكس القرآن وسيرة الرسول الكريم وسنّته.

وروي عنه في الفصل السادس الذي أجاب به عن بعض المسائل الحسابية والرياضية على حدّ تعبير التستري روي أن ثلاثة رجال جاؤوه يختصمون في سبعة عشر بعيراً، يدّعي أحدهم نصفها، والثاني ثلثها، والثالث تسعها، وطلبوا منه أن يقسمها بينهم بدون كسر، فقال لهم: «**أترضون أن أضع بينها بعيراً من مالي وأُقسمّها بينكم بدون كسر؟**». فقالوا: نعم. فوضع بعيراً معها، فصارت ثمانية عشر، فأعطى لمدّعي النصف تسعة، ولمدّعي الثلث ستة، ولمدّعي التسع اثنين، وبقي له بعيره(٢).

وبلا شكّ أن هذا التقسيم مخالف للواقع؛ لأن كلاً منهم قد أخذ أكثر من حقّه، ولا

---

(١) قضاء علي بن أبي طالب ص ٢٦٧.

(٢) قضاء علي بن أبي طالب ص ١٢٠.

يصحّ على عليعليه السلام أن ينحرف عن الحقّ، أو يضلّل أحداً من الناس.

كما روي عنه أن رجلاً سأله وهو يخطب على منبر الكوفة عن تقسيم ميراث من مات وترك زوجة وأبوين وبنتين، فأعطى المرأة التسع، أي ثلاثة من سبعة وعشرين، وللبنتين ستة عشر سهماً، وللأبوين ثمانية أسهم[١]. وهو العدل الذي أعلن رأيه فيه بصراحة في مقابل من ذهب إليه من المسلمين، ومضى عليه الأئمّةعليهم السلام وشيعتهم، ولم يخالف في ذلك أحد من فقهاء الشيعة.

وروي عنه أيضاً في توزيع الميراث أنه ورّث الأُخت والإخوة مع البنين[٢]، وهو عين التعصيب الذي أعلن رأيه فيه وفي مقابل من ذهب إليه من الصحابة. والمعروف من مذهب الإمامية بطلانه منذ أقدم العصور، والخلاف بين السنة والشيعة في العول والتعصيب[٣] من أبرز الخلافات بينهم في توزيع الميراث.

وقد روى التستري في كتابه الذي يحمل اسم القضاء ألواناً من القصص والنوادر، بعضها بعنوان الألغاز، وبعضها بعنوان النجوم والفلك، وبعضها بعنوان الكيمياء والنحو والصرف، إلى غير ذلك من المواضيع التي طرقها في الكتاب المذكور. وأكثر مروياته من نوع المراسيل التي لا يصحّ الإعتماد عليها ولا الأخذ بها. هذا بالإضافة إلى بعض القصص والحكايات التي لا يصحّ نسبتها إلى الإمامعليه السلام ولا إلى أحد من العلماء.

والشيء الغريب أن مؤلّف القضاء الذي نتحدّث عنه قد ألّف كتاباً بعنوان (الأخبار الدخيلة)، وما أبعد ما بين هذين الكتابين، فكتابه الثاني يدلّ على علم بالرواة والروايات، وعلى عمق في التفكير وذوق سليم. وعلى أساس المنهج الذي سلكه في نقد

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٦.

(٣) العول: هو قصور التركة عن سهام ذوي الفروض، ولن تقصر إلا بدخول الزوج والزوجة. والتعصيب: هو توريث العصبة ما فضل عن ذوي السهام. مجمع البحرين للطريحي ج ٣ ص ٢٧٩ مادة «عول».

الروايات فلا يسلم من مروياته في الكتاب الأول إلا القليل النادر.

وإني إذ أقف عند هذا الحدّ أعتقد بأني قد قمت بواجبي من التشهير بهذا النوع من الكتب؛ حتى لا تكون سلاحاً بيد الدسّاسين والمرجفين، والله من وراء القصد.

[من مرويات (مختصر بصائر الدرجات)]

وجاء في (مختصر بصائر الدرجات) عن جماعة منهم أحمد بن محمد بن خالد البرقي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر: «**إن علياًعليه السلام كان يقول: أنا صاحب الرجعات والكرّات، وصاحب الصولات والنقمات والدولات العجيبات. وأنا قرن من حديد... وأنا أسماء الله الحسنى وأمثاله العليا... وصاحب الجنّة والنار... وإليّ إياب الخلق جميعاً... وأنا بارز الشمس ودابّة الأرض... وأنا الذي علمت علم المنايا والبلايا والقضايا، وفصل الخطاب والأنساب... وأنا صاحب العصا والميسم، وأنا الذي سخّرت لي السحاب والرعد والبرق، والظلم والأنوار، والرياح، والجبال والبحار، والنجوم والشمس والقمر. وأنا الذي أهلكت عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً... وأنا صاحب مدين، ومهلك فرعون، ومنجي موسى...**»[(١)].

إلى غير ذلك من الصفات التي وصف بها نفسه على حدّ زعم الرواة لهذه الرواية، تلك الصفات التي لا تليق بغير الله سبحانه، ولا تجوز على غيره كائناً من كان. وتأويل بعضها وإن كان ممكناً، إلا إن البعض الآخر يأبى عن التأويل مثل قوله: «**أنا بارز الشمس**». و«**أنا الذي أهلكت فرعون**». وأنجيت موسى بن عمران، و«**إليّ إياب الخلق وحسابهم**». و«**أنا صاحب الكرّات والرجعات والدولات العجيبات**». ونحو ذلك.

ومن الغريب أن الرواة لهذه الرواية كلّهم من الموثوقين والممدوحين إذا استثنينا أحمد بن محمد بن خالد البرقي[(٢)]، ومن الجائز أن تكون الرواية من جملة الموضوعات التي

---

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص ٣٣.

(٢) فلقد جاء عنه انه كان يعتمد الضعفاء والمراسيل، ويروي الغرائب الغرائب، ولا

دسّها الوضّاعون في كتب الموثوقين من أصحاب الصادق وأبيه الباقر عليهما السلام كما تشير إلى ذلك رواية الإمام الرضا عليه السلام التي جاء فيها: «**إن أصحاب أبي الخطّاب يدّسون إلى يومنا هذا في كتب أصحاب الصادق؛ فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن فإنا إذا حدّثنا لا نحدّث إلا بموافقة القرآن والسنة. إن كلام آخرنا مصدّق لكلام أوّلنا، وكلام أوّلنا مصدِّق لكلام آخرنا. وإذا أتاكم من يحدّثكم بخلاف ذلك، فردّوه عليه؛ فإن مع كل قول منّا حقيقة، وعليه نور. فما لا حقيقة له ولا نور عليه، فذلك من قول الشيطان**»[(١)].

وجاء في (مختصر البصائر) عن سهل بن زياد عن الحسن بن محبوب عن سعد الجلاب عن جعفر الجعفي أن الإمام الباقر قال: «**إن الحسين بن علي عليه السلام قال لأصحابه قبل أن يُقتل: إن رسول الله قال لي: يا بني، إنك ستساق إلى أرض العراق، وهي أرض قد التقى فيها النبيّون وأوصياء النبيّين، وإنك تستشهد ويستشهد معك جماعة من أصحابك لا يجدون ألم مسّ الحديد، ثم تلا: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[(٢)]، فوالله لئن قتلونا فإنّا نرد على نبيّنا، ثم أمكث ما شاء الله، فأكون أوّل من تنشقّ عنه الأرض، فأخرج خرجة توافق خروج أمير المؤمنين، وقيام قائمنا، وحياة رسول الله. ثم لينزلنّ عليّ وفد من السماء من عند الله سبحانه لم ينزل إلى الأرض قط، ولينزلنّ إليّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وجنود من الملائكة، ولينزلنّ محمد وعلي وأنا وأخي وجميع مَن مَنَّ الله عليه في حمولات من حمولات الرب على خيل بلق من نور لم يركبها مخلوق، ثم ليهزّنّ محمد لواءه، وليدفعنه إلى قائمنا عليه السلام مع سيفه. ثم إنّا نمكث بعد ذلك ماشاء الله، ويُخرج الله من مسجد الكوفة عيناً من دهن وعيناً من لبن وعيناً من ماء، ثم يدفع لي أمير المؤمنين سيف رسول الله، ويبعثني إلى المشرق والمغرب، فلا آتي على عدو من أعداء الله إلا أهرقت دمه، ولا أدع صنماً إلا أحرقته حتى أقع إلى الهند**

يبالي عمّن أخذ كما جاء في (منهج المقال) وغيره.

(١) تقدم فيما سبق.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٦٩.

فأفتحها. وإن دانيال ويوشع يخرجان مع أمير المؤمنينعليه السلام، ويبعث الله معهما سبعين رجلاً فيقتلون مقاتليهم، ويبعث بعثاً إلى الروم فيفتح الله لهم، ثم لأقتلنّ كل دابّة حرّم الله لحمها حتى لا يكون على وجه الأرض إلا الطيّب. وأعرض على اليهود والنصارى وسائر الملل الإسلام، فمن أسلم مننت عليه، ومن كره الإسلام أهرق الله دمه. ولا يبقى على وجه الأرض رجل من شيعتنا إلا أنزل الله عليه مَلَكاً يمسح عن وجهه التراب، ويعرّفه أزواجه ومنازله في الجنة، ولا يبقى على وجه الأرض أعمى ولا مقعد ولا معتلّ إلا كشف الله عنه بلاءه»(١).

وهذه الرواية يبدو عليها الاضطراب والتشويش والتهافت في متنها، وقد نصّت على أُمور لم يلتزم بها أحد حتى من القائلين بالرجعة؛ لأن الذين قالوا برجعة الأئمةعليهم السلام يدّعون أن النبيصلى الله عليه وآله يرجع أولاً ومعه من كان في عصره من المشركين والمنافقين لينتقم منهم، ثم يرجع عليعليه السلام، وهكذا غيره من الأئمة واحداً بعد واحد. والرواية تنصّ على أن الحسين يرجع مع المهدي في وقت واحد يوافق خروج أمير المؤمنين، وأن محمّداً في ذلك الوقت وعليّاً ينزلان من السماء مع الملائكة في حمولات الرب، وأن الحسين يخرج مع والده عليعليه السلام في وقت واحد. هذا بالإضافة إلى بقية الغرائب التي اشتمل عليها الحديث.

ويكفي هذه الراوية عيباً أنها من مرويات أبي سعيد سهل بن زياد، وهو من المشهورين بالكذب ووضع الأحاديث، والمعروفين بالغلوّ، وجاء عنه أنه كان فاسد الرواية والمذهب. وقد رواها عن سعد الجلاب، وهو من المجهولين، ولم أجد له ذكراً في كتب الرجال. والراوي الأخير لها هو جابر الجعفي، وجاء عنه أنه كان مخلّطاً يعتمد الضعفاء والمراسيل، ويروي عمّن لا يجوز الاعتماد على مروياته(٢).

وروي أيضاً عن الفضل بن شاذان عن الحسن بن محبوب عن عمر بن أبي المقداد عن

---

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص ٣٦.

(٢) انظر ص ٢٩٨ من منهج المقال، ترجمة سهل بن زياد، وص ٢٦٦، ترجمة جابر الجعفي.

جابر الجعفي أنه قال: سمعت أبا جعفر يقول: «**والله ليملكن منا أهل البيت رجل بعد موته ثلاثمئة سنة يزداد تسعاً**». قلت: متى يكون ذلك؟ قال: «**بعد القائم**». قلت: وكم يقوم القائم في عالمه؟ قال: «**تسع عشرة سنة، ثم يخرج المنتظر فيطلب بدم الحسين ودم أصحابه، فيقتل ويسبي حتى يخرج السفّاح**»[1].

ووردت هذه بطريق آخر وجاء فيها: «إن المنتظر يقتل ويسبي حتى يخرج السفّاح، وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»[2].

ويبدو من هذه الرواية أن القائمَ غيرُ المنتظر، وأن القائم يخرج أوّلاً، ثم يخرج رجل من أهل البيت يملك ثلاثمئة وتسع سنوات، ثم بعد ذلك يخرج المنتظر فيطلب بدم الحسينعليه السلام. وكلمة المنتظر تشير إلى الإمام الثاني عشر.

وجاء في بعض المرويّات حول هذا الموضوع أن الحسين نفسه يخرج ليثأر لنفسه من قاتليه وأنصارهم.

هذا النحو من الاضطراب والتهافت يدعو إلى الوقوف موقف الحذر من هذه المرويّات، ويدعو إلى التساؤل لا سيما بعد التعبير عن علي بالسفّاح، كما جاء في الرواية الثانية.

أما الرواة لهذه المجموعة من الأحاديث فلا تكاد تجد رواية منها يمكن الاطمئنان لسندها؛ فقد جاء في عمر بن أبي المقداد عن الإمام الصادق ما يُشعر بذمّه، وقد ضعّفه الغضائري. وأما جابر الجعفي الذي تنتهي اليه أكثر أسانيد هذه المرويّات، فقد تحدّثنا عنه أكثر من مرّة في هذا الكتاب. ولو افترضنا أن رجال السند كلّهم من الموثوقين، فيكفينا ما جاء في متنها من الاضطراب والتشويش كما ذكرنا.

---

(١) مختصر بصائر الدرجات، ص ٣٨.

(٢) نقل المجلسي في كتابه بحار الأنوار ج ٥٣ ص ١٠١، شبيه هذه الرواية، وجاء فيها أن الإمام قال لجابر: «وهل تدري من المنتصر، والسفّاح يا جابر؟ المنتصر الحسين بن علي، والسفّاح علي بن أبي طالب»، وهي كما ترى عبّرت عن الإمام علي بالسفّاح.

وروي في (البصائر) عن الحسين بن علي بن سفيان البزوفري[١] عن علي بن سنان الموصلي عن علي بن الحسين عن أحمد بن محمد بن الخليل عن جعفر بن محمد المصري عن عمه الحسن بن علي عن الإمام الصادق: «**إن رسول الله ﷺ قال لعلي في الليلة التي كانت فيها وفاته: يا أبا الحسن، أحضر صحيفة ودواة. فأملى رسول الله وصيته، وجاء فيها: يا علي سيكون بعدي اثنا عشر إماماً ومن بعدهم اثنا عشر مهدياً، فأنت يا علي أوّل الاثني عشر من الأئمة، سمّاك الله في سمائه علياً المرتضى، وأمير المؤمنين، والصدّيق الأكبر، والفاروق الأعظم، والمأمون والمهدي، فلا تصلح هذه الأسماء لأحد غيرك**».

ومضى الراوي يعدّد الأئمة بأسمائهم حتى انتهى إلى الثاني عشر محمد بن الحسن، واستطرد يقول: «**ثم يأتي من بعدهم اثنا عشر مهدياً، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه أوّل المهديّين له ثلاثة أسماء، اسم كاسمي واسم كاسم أبي «عبد الله» و«أحمد»، والأسم الثالث «المهدي»، وهو أول المؤمنين**»[٢].

والرواة لهذه الرواية كلّهم من المجهولين ما عدا البزوفري؛ فلقد عدّه القمّي في (الكنى والألقاب)[٣] من أجلاء الطائفة وثقاتها. وكذا غيره من المؤلّفين[٤] في أحوال الرواة. والبزوفري المتّهم بالكذب والموصوف بالضعف هو ابن زكريا العدوي[٥] كما تنصّ على ذلك كتب الرجال[٦].

---

(١) في الأصل: البزفوري، وكذا في الموضعين التاليين لهذا. والبَزَوْفَر ـ على مثال «غضنفر» ـ: قرية كبيرة من أعمال قوسان قرب واسط غربي دجلة. معجم البلدان للحموي ج١ ص٤١٢.

(٢) مختصر بصائر الدرجات ص ٣٩.

(٣) الكنى والألقاب ج٢ ص٨١.

(٤) رجال النجاشي ص٦٨، خلاصة الأقوال للعلامة ص١٠٢.

(٥) انظر: رجال ابن الغضائري ص ٥٤ ـ ٥٥برقم ٤٢، خلاصة الأقوال للعلامة ص ٣٣٧ برقم ١٦، رجال ابن داود ص ٢٣٩ برقم ١٢٧، نقد الرجال للتفرشي ج ٢ ص ٤٣ برقم ١٣٢٣، جامع الرواة لمحمد علي الأردبيلي ج ١ ص ٢١٠

(٦) فقد جاء عن أحمد بن محمد بن الخليل أنه أنه مجهول الحال، وجاء ذلك أيضاً عن علي بن سنان

ولو افترضنا أن الرواة لها من الثقات الممدوحين، فلا يمكن الالتزام بمضمونها؛ لأنها تنصّ على اثني عشر إماماً، واثني عشر مهدياً من بعدهم. والمذهب الشيعي لا يعترف بغير الأئمة الاثني عشر، والمهدي المنتظر عند الشيعة هو محمد بن الحسن العسكري، وهو الإمام الثاني عشر، لا «عبد الله»، ولا «أحمد» كما جاء في هذه الرواية. وبلا شكّ فإن الذين وضعوا أُسطورة الاثني عشر مهدياً وضعوها للتشويش على الائمة الاثني عشر.

وروي في (البصائر) عن محمد بن عيسى بن عبيد عن الحسن بن علي عن جعفر بن بشير عن عمر بن أبان عن معتّب غلام الصادقعليه السلام أنه قال: كنت مع أبي عبد الله الصادق بالعريض، فجاء يتمشّى حتى دخل مسجداً كان يتعبّد فيه والده، وهو يصلّي في موضع من المسجد، فلما انصرف قال: «**يا معتّب، أترى هذا الموضع؟**». قال: نعم. قال: «**بينا أبي قائم يصلّي في هذا المكان إذ دخل شيخ يمشي حسن السمت، فجلس، فبينا هو جالس إذ جاء رجل آدم حسن الوجه والسمة، فقال للشيخ: ما يجلسك؟ ليس بهذا أمرت. فقاما وانصرفا وتواريا عني، فلم أرَ شيئاً، فقال لي أبي: يا بُني، هل رأيت الشيخ وصاحبه؟ قلت: نعم، فمن هما؟ قال: الشيخ مَلَك الموت، والذي جاء وأخرجه جبرائيل**»[(١)].

والرواة لهذه الرواية بين مجهول الحال كجعفر بن بشير ومعتّب غلام الصادق، وبين من اتّهمه المؤلّفون في أحوال الرواة بالكذب والغلوّ كمحمد بن عيسى بن عبيد. وأما الحسن بن علي؛ فسواء أُريد به الحسن بن علي الهمداني، أو الحسن بن علي بن زكريا البزوفري، أو الحسن بن علي الملّقب «سجادة»، أو الحسن بن علي بن أبي حمزة البطائني، فهؤلاء كلّهم من المتّهمين بالكذب والانحراف عن التشيّع الصحيح لأهل البيت.

الموصلي، كما جاء عن جعفر بن محمد المصري أنه أنه كان مجهولاً، وهو من محدّثي القرن الرابع الرابع، وروى عنه التلعكبري سنة (٣٤٠).

(١) بصائر الدرجات ص ٢٥٣.

[من مرويات (إكمال الدين وإتمام النعمة) عن المهدي]

وروى الصدوق في (إكمال الدين وإتمام النعمة) عن محمد بن أحمد الطوّال عن الحسن بن علي الطبري عن محمد بن علي بن إبراهيم بن مهزيار عن جده علي بن إبراهيم بن مهزيار أنه قال: كنت نائماً في مرقدي، إذ رأيت فيما يرى النائم قائلاً يقول لي: «حج؛ فإنك تلقى صاحب زمانك». فانتبهت وأنا فرح مسرور، فما زلت في الصلاة حتى الفجر والصبح، فلمّا فرغت من صلاتي خرجت أسأل عن الحاجّ، فوجدت فرقة تريد الخروج، فبادرت مع أوّل من خرج، فما زلت كذلك حتى خرجوا وخرجت معهم أُريد الكوفة. فلما وافيتها نزلت عن راحلتي وسلّمت متاعي إلى ثقات إخواني، وخرجت أسأل عن آل أبي محمد، فلم أجد أثراً، ولا سمعت خبراً.

ثم خرجت مع أول من خرج أُريد المدينة، فلمّا دخلتها لم أتمالك أن نزلت عن راحلتي، وسلّمت رحلي إلى ثقات إخواني، وخرجت أسأل عن الخبر وأقفو الأثر، فلا خبراً سمعت ولا أثراً وجدت. فلم أزل كذلك إلى أن نفر الناس إلى مكّة، وخرجت مع من خرج حتى وافيت مكّة، ونزلت واستوثقت من رحلي، وخرجت أسأل عن آل محمد، فما زلت بين اليأس والرجاء، متفكّراً في أمري، وعاتباً على نفسي، وقد جنّ الليل، فقلت: أرقب إلى أن يخلو لي وجه الكعبة. فلمّا قمت إلى الطواف إذا أنا بفتى مليح الوجه طيب الرائحة فرعته، فالتفت إليّ وقال: ممّن الرجل؟ فقلت: من الأهواز. فقال: أتعرف بها ابن الخطيب؟ فقلت: رحمه الله، دُعي فأجاب. فقال: رحمه الله، لقد كان بالنهار صائماً، وبالليل قائماً، وللقرآن تالياً، ولنا موالياً. فقال: أتعرف علي بن إبراهيم بن مهزيار؟ قلت: أنا علي بن مهزيار. فقال: مرحباً وأهلاً بك وسهلاً، فقال: أتعرف الصريحين؟ قلت: نعم. قال: من هما؟ قلت: محمد وموسى. ثم قال: [ما فعلت][1] العلامة التي بينك وبين أبي محمد؟ فقلت: معي. فأخرجتها إليه، فإذا هي خاتم على

---

(١) من المصدر، وهو الأوفق بالسياق، وفي الأصل: علمت.

فصّه: «محمد وعلي». فلمّا رأى ذلك بكى بكاء طويلاً، ثم قال: سر إلى رحلك، وكن على أُهبة السفر».

ومضى الراوي في حديث طويل يصف المراحل التي مرّ بها، والصعوبات التي اعترضته، حتى انتهى إلى كثيب من رمل فوقه بيت من شعر يتوقّد نوراً، فاستأذن له، فدخل على الإمام عليه السلام، وأخبره بما سيكون، ووقّت له خروجه[1].

وفي رواية ثانية أنه وجده مع أخيه موسى بن الحسن العسكري شريكه في الأمر، فأقام معهما أياماً يستفيد من علمهما، ثم ودّعهما وانصرف، في رواية طويلة يبدو عليها التكلّف والإفراط في الوصف.

وأغرب ما فيها أنها تنصّ على أن للإمام الحجة محمد بن الحسن عليه السلام أخاً اسمه موسى كانا معاً غائبين عن الناس، وهو مخالف لإجماع الإمامية والمؤرّخين أيضاً، ونصّ المؤرخون على أن جعفر ابن الإمام الهادي قد ادّعى الإمامة بعد أخيه بحجّة أنه مات عقيماً، وحاول الحكّام بكل ما لديهم من قوة أن يحصروا إرث الإمام العسكري بأخيه جعفر المذكور، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، وأظهر الله الحقّ لجماعة من الشيعة، فرجعوا إلى إمامة ولده الوحيد محمد بن الحسن، ولم يدّعِ أحد من الفريقين أن له أخاً يدعى موسى كما يزعم الراوي. هذا بالإضافة إلى الاضطراب والتشويش في متني هاتين الروايتين، فلقد جاء فيهما أنه جدّ واجتهد على أن يجد خبراً وذكراً لآل محمد فلم ينتهِ إلى نتيجة، مع أن حديث السفراء الأربعة كان مشهوراً ومعلوماً في ذلك العصر، وكان الشيعة على اتّصال دائم به بواسطة سفرائه.

وجاء في الروايتين أيضاً أنه اجتمع إليه وطالت إقامته عنده، في حين أن أكثر النصوص تؤكّد على أنه لا يظهر لأحد ظهوراً كاملاً بحيث يعرفه بشخصه ويأنس إليه.

كما جاء في الروايتين أنه رآه أولاً بمكّة، وذكر صفاته وخصائصه، ثم قال بعد ذلك

---

(١) إكمال الدين وإتمام النعمة، ص ٤٦٥ وما بعدها.

أنه طلب منه أن يدلّه عليه، فأخذه وعرّفه عليه، إلى غير ذلك من التخليط والتشويش في متن هاتين الروايتين.

وجاء في ترجمة الراوي للحديث إبراهيم بن مهزيار أنه كان من سفراء الإمام الحجّة[١]، ومن أبواب العسكري، وكان دليله. ويروون عنه ان أباه دفع إليه مالاً عظيماً ليسلّمه إلى الحجّة إن طالب بالمال من تلقاء نفسه، وبيّن مقدار الأموال، فخرج من الأهواز لبغداد فأخبره العمري عن المال فدفعه إليه بأمر الإمام[٢].

والرواية تنصّ على أنه فحص واجتهد أولاً فلم يجد لذكره أثراً، وأن الذي دفعه إلى الفحص والتفتيش عنه طيف كان قد رآه، وبهذا الدافع خرج من الأهواز، وكان في حيرة وشكّ من أمره.

ومهما كان الحال فلقد ذكرنا أكثر من مرة أن صحّة السند وسلامته من العيوب لا تمنع من ردّ الرواية إذا لم يكن متنها سليماً من العيوب، ويكفيهما عيباً اشتمالهما على ولدين للإمام العسكري عليه السلام.

وجاء في (الأخبار الدخيلة) للتستري أن الذين استقصوا أخبار الحجّة لم يذكروا إبراهيم بن مهزيار فيمن شاهده واجتمع إليه[٣]. وقد رجّح جماعة من المحدّثين أن وفاة ابن مهزيار كانت بعد وفاة العسكري بزمن يسير.

وعلى أيّ الأحوال فإني أترك الحديث عن المرويات حول محمد بن الحسن الحجة المنتظر عليه السلام والرجعة وغيرهما من المواضيع إلى كتاب آخر يستوعب هذه المواضيع بحول الله وقوته.

---

(١) انظر وسائل الشيعة ج٣٠ ص٣٠١، قال: «إبراهيم بن مهزيار، من سفراء المهدي عليه السلام، ذكره ابن طاووس في (ربيع الشيعة).

(٢) انظر رجال المرزا محمد حرف الهمزة.

(٣) الأخبار الدخيلة ص ١١٧.

[مع الشيخ رجب البرسي وكتابه (المشارق)]

وأعود إلى مرويات الشيخ رجب البرسي[1] في كتابه (مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين)، هذا الكتاب الذي طبع مراراً في العراق وإيران، وأخيراً في بيروت (دار الأندلس)، والذي حشد فيه مؤلّفه مئات الأحاديث المكذوبة على أهل البيت عليهم السلام. والكتاب يقدّسه الشيخية والكشفية والغلاة؛ لأنه يمثّل الغلوّ، ويؤيّد عقائدهم الفاسدة المزيّفة التي تتنافى مع أُصول الإسلام فضلاً عن أُصول التشيّع. والشيء المؤسف أن يُعاد طبع الكتاب في إيران والعراق بدون تعليق عليه، [مع أنه أولى]؛ حتّى لا تنخدع العامّة، ولا يتّخذه أعداء الشيعة وصمة على التشيّع، وسلاحاً يطعنون به التشيّع في الصميم، وفي الوقت ذاته يمكن أن يكون للتعليق عليه والتنويه بأخطاره أثره في ردع بعض المحترفين لتجارة الكتب والمتاجرين بالدين كبعض المؤسّسات المشبوهة الموجودة حالياً في بيروت وغيرها التي تتاجر بمثل هذه الكتب التي تسيء إلى أهل البيت، وتخدم أخصامهم لأغراض تدعوني الحاجة فعلاً إلى تقييمها وتحديد أخطارها.

غير أني لا أستطيع أن أمرّ بهذه الكتب وأنا أرى كتاب البرسي، و(القضاء المنسوب لعلي عليه السلام) تأليف التستري، وغيرهما من كتب الحديث التي تُباع في أسواق بيروت، وتعرض في مواقع الزحام كالفجل والبصل، وتتناقلها أيدي الطوائف المختلفة، وكلها تقدّس علياً وتجلّه لأنه قدّم من سيرته وسياسته يوم كان حاكماً ومحكوماً أقصى ما يمكن أن يقدّمه إنسان في هذه الدنيا من المثل في جميع المجالات لجميع بني الإنسان، لا لأنه

---

(١) هو الشيخ رجب ابن الشيخ محمد بن رجب البرسي. من علماء الإمامية وفقهائهم في القرن التاسع الهجري. وجاء في (الكنى والألقاب) في ترجمته أن العلامة المجلسي قال: «إن له كتاب (مشارق الأنوار) و(كتاب الألفين)، ولا أعتمد على ما ينفرد بنقله؛ لاشتمال كتابيه على الخبط والخلط والارتفاع». وقال الحرّ العاملي: «إن في كتابه إفراطاً، وربما نسب إلى الغلوّ». والبرسي ينسب إلى قرية بين الكوفة والحلّة يقال لها «برس». من مؤلّفاته كما جاء في غدير الأميني: (الدر الثمين في خمسمئة آية نزلت في مولانا أمير المؤمنين باتّفاق أكثر المفسرين) على حدّ تعبيره.

يستمدّ عظمته من الأساطير والغيبيّات التي تقدّمها هذه المؤلّفات التي تضرّ ولا تنفع، وتفسد ولا تصلح، وتسيء إلى الأئمّة الهداة ولا ترشد أحداً إلى واقعهم الذي يهب العطاء والبذل بسخاء لكل من يريد ان يتلمّس مواقع الخير، ومصادر الرشد والفوز والهداية في جميع المجالات.

ولم أجد من وضع البرسي وكتابه من المعاصرين في قفص الاتّهام، وحذّر من اقتنائه وقراءته سوى البحّاثة حجّة الإسلام المغفور له السيد الأمين في كتابه (أعيان الشيعة)[١]، ولكنه ـ ومع الأسف الشديد ـ تعرّض لهجمات عنيفة قاسية من الشيخ الأميني في المجلد السابع من غديره[٢] من غير أن يقدّم ولو دليلاً واحداً على براءة البرسي ممّا نسب إليه سوى بعض المرويات التي يعتمدها البرسي نفسه، بالإضافة إلى بعض التشويهات والألفاظ الفارغة. مع ان أكثر المترجمين للبرسي اتّهموه بالغلوّ والخبط والخلط، ومع ذلك فلقد اتّجه الأميني للسيد الأمين وحده. ولابدّ أن يكون لذلك سرّ[٣]

(١) هذا هو نص كلام السيد الأمين: «ويعلم مما سننقله من بعض كلماته (البرسي)، وأسماء مؤلّفاته، ومضامين كتبه، وما نسب إليها أنه كان مولعاً بالتسجيع، وفي طبعه شذوذ، وفي مؤلّفاته خبط وخلط وشيء من المغالاة لا موجب له ولا داعي إليه، وفيه شيء من الضرر وإن أمكن أن يكون له محمل صحيح. وعلم الأعداد وأسرار الحروف لم يعرف له أثر ممّن يدعيه، ولا يخرج عن الأوهام والظنون، بل المخرقة والتمويه. وأي حاجة إلى استخراج أسمائهم عليهم السلام من الآيات، الذي يتطرق إليه الشكّ ممّن يريد التشكيك، وفيما جاء في فضلهم ممّا لا يمكن إنكاره غنى عن ذلك؟ واختراع صلاة عليهم، وزيارة لهم لا حاجة إليه بعدما ورد ما يغني عنه. ولو سلّم أنه في غاية الفصاحة كما يقوله صاحب (الرياض). وإن مؤلّفاته ليس فيها كثير نفع، وفي بعضها ضرر، ولله في خلقه شؤون، (سامحه الله وإيانا)...». أعيان الشيعة ج ٦ ص ٤٦٦.

(٢) الغدير ج ٧ ص ٣٦، وقد أورد الأميني عبارة السيد الأمين الأخيرة: «وإن مؤلّفاته ليس فيها كثير نفع، وفي بعضها ضرر، ولله في خلقه شؤون، (سامحه الله وإيانا)...». وعلّق عليها واصفا إياها: «شطفة القلم صدر عن المشطف (سامحه الله وإيانا)...». ومعنى العبارة «صدرت عن المشطف» هو أن صاحبها يقوّل الآخرين ما لم يقولوا، ويحرّف كلامهم. وهذا كما ترى كلام خطير يوصف به رجل عالم كالسيد الأمين.

(٣) في الدوائر الشيعية طالما يتعرّض العلماء ورجال الدين العرب إلى مثل هذه الحملات والهجمات

لا يعنينا تحديده في هذا الكتاب.

ولا أُريد أن أُدافع عن السيد الأمين، فالسيد الأمين أرفع شأناً من أن يرسل كلامه بدون قصد وتدبّر، كما يدّعي الشيخ الأميني في غديره؛ ففي كتاب (المشارق) عشرات الشواهد على تبنّي البرسي لآراء الغلاة التي لا تتّفق مع التشيّع السليم. ويبدو من تحيّزه للبرسي أنه لم يتدبّر (مشارق الأنوار)، ولم يمعن النظر في أساطيره ومروياته، ولو أنه أمعن النظر فيها لوقف منها نفس الموقف الذي وقفه السيد الأمين وغيره من الباحثين الذين لا يهمّهم إلا إحقاق الحقّ ومحاربة البدع.

وسأُقدّم في كتابي هذا بعض الأمثلة من مشارق البرسي لإثبات هذه الحقيقة، فقد جاء في ص ٢٣ أن سورة الفاتحة هي سورة الحمد، وقد شرّفها الله في الذكر، وأضاف إليها القرآن فقال عزّ اسمه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي﴾[(١)]، فأفردها في الذكر، وذكرها إجمالاً وإفراداً لشرفها. وهذا مثل قوله: ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾[(٢)] أدخلها إجمالاً وأفردها إجلالاً. والصلاة الوسطى هي صلاة المغرب ظاهراً، وفي وقت أدائها تفتح أبواب السماء ويجب التعجيل بها لقوله: «عجّلوا في المغرب». وأما الباطن والرمز فهي فاطمة الزهراء؛ لأن الصلوات الخمس في الحقيقة هم السادة الخمسة الذين إذا لم يعرفوا ولم يذكروا فلا صلاة، فالظهر هي رسول الله، ومن ثم بدا النور، أول ما خلقه الله نوره، وأول ما خلق الله اللوح، وأول ما خلق الله القلم. فالعقل نور محمد، واللوح والقلم علي وفاطمة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[(٣)]، وفريضة العصر: أمير المؤمنين، والمغرب: الزهراء، أمر الله بالمحافظة

المركّزة والمنظّمة دون غيرهم من القوميات الأُخرى. وهذه ظاهرة تستحقّ الدراسة والتتبّع لمعرفة الأسباب الكامنة وراءها.

(١) سورة الحجر الآية ٨٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٨.

(٣) سورة القلم الآية ١.

على حبّها وتعظيمها وحبّ عترتها، فصغّروا قدرها وحقّروا عظيم أمرها لمّا غربت عنها شمس النبوّة، وحبّها الفرض وتمام الفرض وقبول الفرض؛ لأن النبي حصر رضاه في رضاها فقال: «**يا فاطمة، لا يرضى الله حتى ترضي**». ومعنى هذا الرمز أن فاطمة ينبوع الأسرار، وشمس العصمة. لأنها بضعة النبي صلى الله عليه وآله».

إلى غير ذلك من السخف الذي اشتمل عليه هذا الفصل وغيره من الفصول التي عقدها لبيان أسرار الحروف وحساباتها التي لا تخطئ الواقع على حدّ زعمه.

وقد نسب لعلي عليه السلام أنه قال: «**بالباء ظهر الوجود، وبالنقطة تبيّن العابد من المعبود، وما من شيء إلا والباء مكتوبة عليه، فإذا قلت: (الله) فقد نطقت بسائر الأسماء، وإذا كتبت الألف فقد نطقت بسائر الحروف، وإذا نطقت بالواحد فقد ضمّنت سائر الأعداد، وإذا قلت: النقطة فقد حصرت سائر العوالم**». وأضاف إلى ذلك قوله:

يـــارب بـــالألف التـــي لم تعطــف ... وبنقطـــة هـــي سرّ كـــلّ الأحـــرفِ
وبقافها الجبل المحيط وصـادها الـــ ... ـــبحر الــذي بظهـوره لا يختفـير[1]

ويمضي البرسي في علم الرموز، فيصف الأعداد وبعض النقط والكلمات وأسرارها الخفية وحقائقها التي لم يطّلع عليها إلا أمثال البرسي، ويقول بعد ذلك: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾[2]. ويضيف إلى ذلك وإلى هذا الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله: «**أول ما خلق الله نورين، ثم فتق منه نور علي عليه السلام، فلم نزل نتردّد في النور حتى وصلنا إلى حجاب العظمة في ثمانين ألف سنة، ثم خلق الخلائق من نورنا، فنحن صنائع الله، والخلق من بعدُ صنائع لنا**». أي مصنوعين لأجلنا، ويؤيد ذلك على حدّ زعمه ما رواه جابر في تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3] أن

---

(١) مشارق أنوار اليقين ص ٥٢.

(٢) سورة فصلت الآية ٩.

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٠.

رسول الله قال في تفسيرها: «**أول ما خلق الله نوري، ابتدعه من نوره، واشتقّه من جلال عظمته، فأقبل يطوف بالقدرة حتى وصل إلى جلال العظمة في ثمانين ألف سنة. ثم سجد لله تعظيماً فتفتّق منه نور علي**عليه السلام**، فكان نوري محيطاً بالعظمة، ونور علي محيطاً بالقدرة. ثم خلق العرش واللوح والشمس والقمر والنجوم وضوء النهار وضوء الأبصار والعقل والمعرفة وأبصار العباد وأسماعهم وقلوبهم من نوري، ونوري مشتقّ من نوره؛ فنحن الأوّلون ونحن الآخرون، ونحن السابقون ونحن الشافعون**». وهكذا يمضي الراوي فيقول: إن النبي مازال يقول: «**فنحن**». إلى أن ملّ السامعون(١).

إلى غير ذلك من غرائب (المشارق) للبرسي المطبوع أخيراً في بيروت بواسطة بعض محترفي تجارة الكتب بوحي من بعض الجهات المشبوهة حسبما أظن.

وبعد أن ينتهي البرسي من أسرار الحروف والنقط والكلمات ينتقل إلى فضائل علي عليه السلام، فيروي عن عبيد السكسكي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أن علياً لما رجع من صفّين وقف على شاطئ الفرات، وأخرج قضيباً أخضر ضرب به الفرات، والناس ينظرون إليه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، كلّ فرق كالطود العظيم، ثم تكلّم بكلام لم يفهموه، فأقبلت الحيتان رافعة أصواتها بالتكبير والتهليل وقالت: السلام عليك يا حجّة الله في أرضه وسمائه، وعين الله الناظرة لعباده، خذلك قومك كما خذل هارونَ بن عمران قومُه(٢).

والراوي لهذا الحديث من المجهولين كما نصّ على ذلك المؤلّفون في أحوال الرواة.

ومن غرائبه أن رجلاً من الخوارج مرّ بأمير المؤمنين ومعه حوتان من الجرّي على حدّ تعبير البرسي، قد غطّاهما بثوبه، فقال له أمير المؤمنين: «**بكم اشتريت أبويك من بني إسرائيل؟**». فقال له الرجل: ما أكثر ادّعاءك للغيب! فقال له أمير المؤمنين: «**أخرجهما**». فأخرجهما، فقال لهما: «**مَن أنتما؟**». فقالت إحداهما: أنا أبوه. وقالت

---

(١) مشارق أنوار اليقين ص ٥٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١١٨.

الأخرى: أنا أُمّه[(١)].

ومنها أن رجلاً قدم إلى أمير المؤمنين، فاستضافه، فاستدعى قرصاً يابساً من شعير وقعباً فيه ماء، ثم كسر قطعة من القرص فألقاها في الماء، ثم قال للرجل: «**تناولها**». فأخرجها الرجل فإذا هي فخذ طائر مشوي، ثم رمى أُخرى وقال له: «**تناولها**» فتناولها. فإذا هي قطعة من الحلوى، فقال الرجل: يا مولاي، تضع لي كسراً يابسة فأجدها من أنواع الطعام! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**نعم هذا هو الظاهر وذاك الباطن، وإن أمرنا هكذا**»[(٢)].

ومنها أن فرعون لما لحق هارون بأخيه موسى، دخلا عليه يوماً فأوجسا خيفة منه، فإذا فارس يقدمهما ولباسه من ذهب، وفي يده سيف من ذهب، وكان فرعون يحبّ الذهب، فقال لفرعون: «أجب هذين الرجلين وإلا قتلتك». فانزعج فرعون لذلك وقال: عودا إليّ غداً. فلما خرجا دعا البوّابين وعاقبهم وقال: كيف دخل عليّ هذا الفارس بغير إذن؟ فحلفا بعزّة فرعون: ما دخل عليه إلا هذان الرجلان. وكان الفارس مثال علي الذي أيّد الله به النبيّين سرّاً وأيّد به محمداً جهراً؛ لأنه كلمة الله الكبرى التي أظهرها لأوليائه فيما شاء من الصور، فنصرهم بها، وبتلك الكلمة يدعون الله [فيجيبهم][(٣)] وينجيهم. وأضاف إلى ذلك: وإليه الإشارة بقوله: ﴿**وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا**﴾[(٤)]...[(٥)].

ومنها ما رواه عن علي بن عاصم أنه قال: دخلت على أبي محمد العسكري عليه السلام فقال لي: «**يا علي بن عاصم، انظر إلى ما تحت قدميك، فإنك على بساط قد جلس عليه كثير**

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٩.

(٢) انظر البرسي ص ٨.

(٣) في الأصل: فيحييهم.

(٤) سورة القصص الآية ٣٥.

(٥) انظر البرسي ص ٨١.

من **النبيّين والمرسلين والأئمّة الراشدين**». فقلت: يا سيدي، ألا أنتعل ما دمت في الدنيا إكراماً لهذا البساط؟ فقال: «**يا علي، إن هذا النعل الذي في رجلك نجس ملعون**». وقلت في نفسي: ليتني أرى هذا البساط. فعلم ما في ضميري فقال: «**ادنُ مني**». فدنوت منه، فمسح يده الشريفة على وجهي، فصرت بصيراً، فرأيت في البساط أقداماً وصوراً، فقال: «**هذه قدم آدم وموضع جلوسه، وهذا أثر هابيل، وهذا أثر شيث، وهذا أثر نوح، وهذا أثر فيدار، وهذا أثر مهلائيل، وهذا أثر أخنوخ، وهذا أثر إدريس، وهذا أثر توشلح**[1] **وسام وأفرخشد، وهود وصالح**».

وهكذا يمضي البرسي فيعدّد جميع الأنبياء والملائكة، وأجداد النبي والأوصياء، إلى الإمام الثاني عشر، وذلك قبل وجوده. ولا تزال آثار جلوسهم على البساط بارزة إلى زمان الراوي. كما لم يذكر نوع المادّة التي صنع منها هذا البساط الذي عاصر جميع النبيّين والملائكة والأوصياء[2].

وقد رواها البرسي عن علي بن عاصم المعروف بالخديجي الأصغر الذي ينتهي نسبه من قبل الأُمّ إلى خديجة بنت خويلد. ونصّ المؤلفون في أحوال الرواة أنه كان ضعيفاً، فاسد المذهب، لا يُلتفت إليه[3].

وجاء في مشارق البرسي أن علياً لما شطر مرحباً شطرين، وألقاه مجدّلاً جاءه جبرائيل باسماً متعجّباً، فقال له النبي: «**ممّ تعجبت؟**». فقال: «**إن الملائكة تنادي في صوامع وجوامع السماوات: لا فتى إلا علي، ولا سيف إلا ذو الفقار. وأما إعجابي فإني لما أُمرت أن أُدمّر قوم لوط، حملت مدائنهم ـ وهي سبع مدائن في الأرض السابعة السفلى ـ إلى الأرض السابعة العليا على ريشة من جناحي، ورفعتها حتى سمع حملة العرش صياح**

---

(١) في الأصل: توشح، وما أثبتناه من المصدر وإن كان المشهور أنه متوشلح، كما في إحدى نسخ المصدر، وفي المصادر الأُخرى التي ذكرت النصّ.

(٢) مشارق أنوار اليقين ص ١٥٥.

(٣) انظر الإتقان ص ٣٢٨.

ديكتهم وبكاء أطفالهم، ووقفت بها إلى الصبح أنتظر الأمر، ولم أتثقّل بها، واليوم لما ضرب علي ضربته الهاشمية، وكنت أُمرت أن أقبض فاضل سيفه حتى لا يشقّ الأرض فتصل ضربته إلى الثور الحامل لها، فيشطره شطرين، فتقلب الأرض بأهلها، فكان فاضل سيفه أثقل عليّ من مدائن لوط. هذا وإسرافيل وميكائيل قد قبضا عضده في الهواء»[1].

ولم يكتفِ البرسي بنقل الأساطير وأحاديث الغلاة، بل استرسل في التعليق على هذه الأُسطورة وشرحها بما يزيدها غرابة واستهجاناً وبُعداً عن واقع الأئمة عليهم السلام، فقال لمن يشكّك في مثل هذه الأُسطورة: «يا بعيد الفكرة وجامد الفطرة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل خلق الله، خُلقوا من شعاع نور محمد وعلي، وعلي ومحمد خُلقا من جلال ذي الجلال، فهم صفة الله وأمر الله وكلمة الله؛ ولهذا قال رسول الله: **«لو كانت البحار مداداً، و[الغياض]**[2] **أقلاماً، والسماوات صحفاً، والجن والإنس كُتّاباً، لنفد المداد، وكلّ الثقلان أن يكتبوا معشار فضائل إمام يوم الغدير»**[3].

لقد سطّر البرسي هذه الكلمات التي يكرّرها في أكثر المواضع، وهو يحسب أنه قد أقنع المشكّكين، وأزاح الشبهة من أذهان الجاحدين، وإن دلّت تعليقاته على شيء فإنها تدلّ على إسرافه في الغلوّ، وإفراطه في الأخذ بكلّ ما سمع وما رأى بدون تحقيق في الأسانيد، ولا تدبّر في المضامين، ولا تفكير في أخطار هذه الأساطير.

وجاء في الكتاب المذكور أنه في اليوم الذي ضرب عليٌ مرحباً بالسيف جاءت صفية إلى الرسول، وكانت أحسن الناس وجهاً، فرأى في وجهها شجّة، فقال لها: **«ما هذه وأنت ابنة الملوك؟»**. فقالت: إن علياً لما قدم الحصن هزّ الباب فاهتزّ الحصن بكامله، وسقط من كان عليه من النظّارة، وارتجف بي السرير، فسقطت لوجهي، فشجّني

---

(١) مشارق أنوار اليقين ص ١٧٠.

(٢) من المصدر، وفي الأصل: الفيافي، ولا معنى له.

(٣) مشارق أنوار اليقين ص ١٧٠.

جانب السرير، فقال لها رسول الله: «**يا صفية، إن علياً عظيم عند الله، وإنه لما هزّ الباب اهتزّ الحصن واهتزّت السماوات السبع والأرضون السبع، واهتزّ عرش الرحمن غضباً لعلي**».

وفي ذلك اليوم لمّا سأله عمر فقال: يا أبا الحسن، لقد اقتلعت منيعاً، ولك ثلاثة أيام خميصاً، فهل قلعتها بقوة بشريّة؟ فقال: «**ما قلعتها بقوّة بشريّة، ولكن بقوة إلهيّة ونفس بلقاء ربها مطمئنة مرضيّة**»(١).

وهذه كغيرها من الأساطير التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأينما اتجهت في كتاب (المشارق) للبرسي لا تقع العين إلا على أمثال هذه الغرائب التي تنفّر ولا تقرّب، وتفرّق ولا تؤلّف، وتمدّ أعداء الشيعة بأشدّ الأسلحة فتكاً في التشيّع لأهل البيت عليهم السلام.

وروى البرسي عن عمار بن ياسر أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام قال: «**باسمي تكوّنت الكائنات والأشياء، و[باسمي](٢) دعا سائر الأنبياء، وأنا اللوح والقلم، وأنا العرش والكرسي، وأنا السماوات السبع، والسماوات الحسنى، والكلمات العليا، وأين كان اسم محمد كان اسم علي، ولا عكس**». ومضى يقول: وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى في صدد القرآن: ﴿**الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾(٣)، فالكتاب علي لا ريب فيه، والتقوى والتقوى هي حبّ علي عليه السلام، والذين يؤمنون بالغيب، أي يؤمنون بالرجعة(٤).

ومضى يفسّر الآيات بعلي والقائم من ولده معتمداً على المرويات التي رواها علي بن حسّان، وعبد الرحمن بن كثير وغيرهما من الغلاة في تفسيرهم المعروف بتفسير الباطن.

[الخطب التي نسبها البرسي إلى أمير المؤمنين عليه السلام]

وقد نسب الشيخ البرسي (رحمه الله وغفر له) إلى علي أمير المؤمنين الكثير من

---

(١) من المصدر، وفي الأصل: ما سمى و.

(٢) مشارق أنوار اليقين ص ١٧٠.

(٣) سورة البقرة الآية ٢.

(٤) مشارق أنوار اليقين ص ٢٥٣.

الأوصاف والنعوت التي لا تجوز على غير علام الغيوب، زاعماً أن علياً وصف نفسه بها في خطبته التي أسماها «**التطنجية**» وهي خطبة طويلة جاء فيها أن علياً قال: «**أنا الواقف على التطنجين**[١]، **أنا الناظر إلى المغربين والمشرقين، رأيت رحمة الله والفردوس رأي العين، وهو في البحر السابع يجري في الفلك، في زخاخيره النجوم والحبك، ورأيت الأرض ملتفّة كالتفاف الثوب القصور، وهي في زخرف من التطنج الأيمن مما يلي المشرق، والتطنجيان خليجان من ماء كأنهما أيسار تطنجين**».

ومضى يقول: «**ولقد علمت فيها ما كان وما يكون، ولقد علمت في الفرد الأول مع من تقدّم من آدم الأول، ولقد علمت ما في الفردوس الأعلى وما تحت السابعة السفلى وما في السماوات العلا، وما بينهما وما تحت الثرى، كل ذلك علم إحاطة لا علم أخبار. أُقسم بربّ العرش العظيم، لو شئت أخبرتكم بآبائكم وأسلافكم أين كانوا وممّن كانوا وأين هم الآن وما صاروا إليه، فكم من آكل منكم لحم أخيه، وشارب برأس أبيه، وهو يشتاقه ويرتجيه؟**». إلى أن يقول: «**أنا صاحب الخلق الأول قبل نوح الأول، ولو علمتم ما كان بين آدم ونوح من عجائب اصطنعتها، وأُمم أهلكتها، فحقّ عليهم القول، فبئس ما كانوا يفعلون. أنا صاحب الطوفان الأول، أن صاحب الطوفان الثاني، أنا صاحب سيل العرم، أنا صاحب الأسرار المكنونات، أنا صاحب عاد والجنّات، أنا صاحب ثمود والآيات، أنا مدمّرها، أنا مزلزلها، أنا مرجعها، أنا مهلكها، أنا مدبّرها، أنا بانيها وأنا داحيها، أنا مميتها وأنا محييها، أنا الأول أنا الآخر، أنا الظاهر أنا الباطن، أنا مع الكور قبل الكور، أنا مع الدور قبل الدور، أنا مع القلم قبل القلم ومع اللوح قبل اللوح، أنا صاحب الأزلية الأولية، أنا مدبّر العالم الأول حيث لا سماؤكم هذه ولا غبراؤكم هذه**». إلى غير ذلك من الصفات التي لا تليق بغير علام الغيوب[٢].

وجاء في خطبة غيرها نسبها البرسي إليه أنه قال: «**أنا عندي مفاتيح الغيب لا يعلمها**

(١) التطنجين ـ كما يزعم البرسي ـ: خليجان من ماء.

(٢) مشارق أنوار اليقين ص ٢٦٣.

بعد رسول الله إلا أنا، أنا ذو القرنين المذكور في الصحف الأُولى، أنا صاحب خاتم سليمان، أنا ولي الحساب، أنا صاحب الصراط والموقف، أنا آدم الأول، أنا نوح الأول، أنا آية الجبّار، أنا مورق الأشجار، أنا مفجّر العيون، أنا مجري الأنهار، أنا خازن العلم، أنا الراجفة، أنا الصاعقة، أنا أقمت السماوات بأمر ربي، أنا الذي لا يبدّل القول لديّ وحساب الخلق إليّ، أنا المفوّض إليه أمر الخلائق، أنا مقدّر الأقوات، أنا ناشر الأموات، أنا منزل القطر، انا منوّر الشمس والقمروالنجوم». إلى غير ذلك في حديث طويل لا يدع صفة من صفات الله، ولا ميزة لله إلا ويُلصقها بنفسه كما تنصّ على ذلك الخطبة المزعومة .

وكما ذكرنا، فأينما اتّجهت في مشارق البرسي لا تجد فيه إلا الغرائب والعجائب والافتراء على الأئمّة الهداة، لذلك فإني أكتفي بتقديم هذه الأمثلة من مروياته وأساطيره، وعلى هذه فقس ما سواها.

[رأي الشيعة في تلك المرويات المنتشرة بين أحاديثهم]

وإني إذ أقف عند هذا الحدّ من مرويات (المشارق)، وأُحاول أن أختم هذه الحلقة من كتابي هذا ببعض المرويّات في الفضائل من طريق السنّة تاركاً من أحاديث الفضائل وغيرها أكثر مما دوّنت وجمعت، ممّا لم يستوفِ شروط الأخذ والعمل بالرواية، أترك ذلك؛ رغبة في الاختصار، وعدم التطويل المملّ. وفي الوقت ذاته فإني حسبما أعتقد قد وضعت في ذهن القارئ الكريم أن ليس كلّ ما هو موجود في كتب الحديث مهما كان نوعها يستعصي على النقد والتجريح، ولا يقبل المراجعة؛ لأن كتب الحديث ليست من صنع الوحي الذي لا يأتيه الباطل ولا تحوم حوله الشبهات، بل هي من صنع الإنسان الذي قد تطغيه الأهواء والشهوات، وتستبدّ به المصالح والأغراض، ويعتمد على الاجتهاد الذي قد يخطئ أحياناً، ويصيب أحياناً أُخرى.

مع العلم بأن التشكيك في هذه المرويات لا يعني أن الله قد حجب العلم عن الأئمّة من أهل البيت، وأقام بينه وبينهم السدود والحصون المنيعة التي تحجب عنه دعواتهم، وتمنع عنه طلباتهم، فممّا لا شكّ فيه بأنهم قد أحاطوا بشيء من علمه، واستطاعوا بجهادهم وإخلاصهم أن يكونوا على صلة بالله في جميع الأوقات والحالات، ولكنهم كانوا مع ذلك يحرصون على أن يظهروا بمظهر من لا يستطيع أن يجلب لنفسه خيراً، ويدفع عنها سوءاً؛ حتى لا يفسحوا المجال لأعداء التشيّع والزنادقة، فيستغلوها لصالحهم، ولضعفاء الإيمان فيَضلّوا بها.

[من مرويات السنة في فضائل الخلفاء والأولياء]

على أن حشويّة أهل السنة قد نسبوا للخلفاء الثلاثة وحتى لعشرات الأولياء من الكرامات والمعجزات أكثر ممّا نسبه حشويّة الشيعة لأئمّتهم، وسنقدّم للقرّاء أمثلة من تلك المرويات في كل حلقة من حلقات هذا الكتاب. فمن ذلك ما ذكره إبراهيم العبيدي المالكي في كتابه (عمدة التحقيق في بشائر آل الصدّيق) والصفوري[1] في (نزهة المُجالس) عن (عيون المِجالس) أن النبي قال يوماً لعائشة: «**إن الله تعالى لمّا خلق الشمس خلقها من لؤلؤة بيضاء بقدر الدنيا مئة وأربعين مرّة، وجعلها على عجلة، وخلق للعجلة ثمانيَمئة وستّين عروة، وجعل في كلّ عروة سلسلة من الياقوت الأحمر، وأمر ستّين ألفاً من الملائكة المقرّبين أن يجرّوها بتلك السلاسل مع قوّتهم التي اختصّهم الله بها، والشمس مثل الفلك على تلك العجلة، وهي تدور في القبّة الخضراء، وتجلو جمالها على أهل الغبراء، وفي كل يوم تقف على خط الاستواء فوق الكعبة؛ لأنها مركز الأرض، وتقول: يا ملائكة ربّي، إني لأستحي من الله عزّ وجلّ إذا وصلت إلى محاذاة الكعبة التي هي قبلة المؤمنين أن أجوز عليها، والملائكة تجرّ الشمس لتعبر على الكعبة بكل قوّتها، فلا تقبل، وتعجز الملائكة عنها. والله سبحانه وتعالى يوحي إلى الملائكة**

---

(١) في الأصل: العصفوري.

وحي إلهام فينادون: أيّتها الشمس بحرمة الرجل الذي اسمه منقوش على وجهك المنير إلا رجعت إلى ماكنت فيه من السير. فإذا سمعت ذلك تحرّكت بقدرة المالك».

فقالت عائشة: يا رسول الله، من هو الرجل الذي اسمه منقوش عليها؟ فقال: «**هو أبو بكر الصدّيق. يا عائشة، قبل أن يخلق الله العالم عَلِم بعلمه القديم أنه يخلق الهواء، ويخلق على الهواء هذه السماء، ويخلق بحراً من الماء، ويخلق عليه عجلة مركباً للشمس المشرقة على الدنيا، وأن الشمس تتمرّد على الملائكة إذا وصلت إلى الاستواء، وأن الله سبحانه قدّر أن يخلق في آخر الزمان نبيّاً مُفضّلاً على الأنبياء، وهو بعلك يا عائشة على رغم الأعداء، ونقش على وجه الشمس اسم وزيره أبي بكر صدّيق المصطفى، فإذا أقسمت الملائكة به زالت الشمس وعادت إلى سيرها بقدرة المولى. وكذلك إذا مرّ** العاصي من أُمّتي على نار جهنم، وأرادت النار أن تهجم على المؤمنين، فلحرمة محبّة الله في قلبه ونقش اسمه على لسانه ترجع النار هاربة ولغيره طالبة»[(١)].

وجاء في (روض الرياحين) لليافعي[(٢)] عن أبي بكر الصدّيق أنه قال: بينا نحن جلوس بالمسجد وإذا نحن برجل أعمى قد دخل علينا وسلّم فرددنا عليه السلام، وأجلسناه بين يدي النبيﷺ، فقال: من يقضيني حاجة في حبّ النبي؟ فقال أبو بكر: ما حاجتك يا شيخ؟ فقال: إن لي أهلاً، وليس عندي ما نقتات به، وأُريد من يدفع لنا شيئاً في حبّ رسول الله. فنهض أبو بكر الصدّيق وقال: أنا أُعطيك ما يقوم بك في حبّ رسول الله. ثم قال: هل من حاجة أُخرى؟ قال: نعم، إن لي ابنة أُريد من يتزوّج بها في حياتي حبّاً برسول الله. فقال أبو بكر: أنا أتزوّج بها في حياتك حبّاً برسول الله، هل من حاجة أُخرى؟ قال: نعم، أُريد أن أضع يدي في شيبة أبي بكر حبّاً برسول الله. فنهض

---

(١) عمدة التحقيق ص ١٨٤.

(٢) روض الرياحين لليافعي (طبع على هامش العرائس للثعلبي) ص ٤٤٣. وقال عنه الزرقاني في (شرح المواهب): إنه مؤلّف حسن. ولليافعي مؤلّف آخر يحمل هذا الاسم ولكنه غير المطبوع على هامش (العرائس).

أبو بكر، ووضع شيبته في يد الأعمى، وقال: امسك لحيتي في حبّ محمد. فقبض الأعمى بلحية أبي بكر وقال: يا رب، أسألك بحرمة شيبة أبي بكر إلا رددت عليّ بصري. قال: فردّ الله عليه بصره لوقته، ونزل جبرائيل على النبي وقال: السلام يُقرئك السلام، ويخصّك بالتحية والإكرام، ويقول لك: لو أقسم عليّ كل أعمى بحرمة شيبة أبي بكر لرددت عليه بصره، وما تركت أعمى على وجه الأرض، وهذا كله ببركتك وعلوّ شأنك وقدرك عند ربك.

وجاء في مروياتهم أن النبي كان إذا اشتاق إلى الجنة قبّل شيبة أبي بكر.

ونصّ العجلوني في (كشف الخفاء) ج/ ١٠ ص ٢٣٣ أن لإبراهيم الخليل، وأبي بكر شيبة في الجنة[١].

وجاء في (تاريخ بغداد) جلد ١٤ ص ٧٨ بسند ينتهي إلى القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أُمامة أنه قال: قال رسول الله: دخلت الجنة فسمعت فيها خشفة بين يدي، فقلت: ما هذا؟ قال: بلال[٢]. فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراري المسلمين، ولم أرَ فيها أحداً أقلّ من الأغنياء والنساء. ومضى الراوي يحدّث حتى انتهى إلى أحد أبواب الجنة الثانية، فلما كان عند الباب قال النبي: فأتيت بكفة فوُضعت فيها ووُضعت أُمتي في كفّة فرجحت بها، ثم أُتي بأبي بكر فوُضع في كفّة ووضعت جميع أُمّتي في كفّة فرجح أبو بكر، ثم أُتي بعمر فوضع في كفّة، وجيء بجميع أُمّتي فوضعوا في مقابله فرجح عليهم، ثم رفع الميزان إلى السماء[٣].

---

(١) انظر ص ٢٣٧ و ٢٤٠ ج ٧ من غدير الأميني.

(٢) في بعض المصادر بعدها: يمشي أمامك. انظر: مجمع الزوائد للهيثمي ج ٩ ص ٢٩٩، المعجم الأوسط للطبراني ج ٦ ص ١٨٨، المعجم الصغير للطبراني ج ٢ ص ٥٩، الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي ج ١ ص ٦٤٣، كنز العمّال للمتقي الهندي ج ١١ ص ٦٥٣، الكامل في الضعفاء لعبد الله بن عدي ج ٧ ص ٢١٣.

(٣) الغدير جلد ٧ ص ٢٨٦.

وجاء في (نزهة المجالس) ج٢ أن النبيﷺ قال: عرض عليّ كلّ شيء ليلة المعراج حتى الشمس فإني سلّمت عليها وسألتها عن كسوفها، فأنطقها الله وقالت: لقد جعلني الله على عجلة تجري حيث أُريد، فأنظر إلى نفسي بعين العجب فتزلّ بي العجلة فأُوقع في البحر، فأرى شخصين يقول أحدهما لصاحبه: أحد أحد، ويقول الآخر: صدق صدق. فأتوسّل بهما إلى الله تعالى، فينقذني من الخسوف، فأقول: يا ربي من هما؟ فيقول: الذي يقول: أحد أحد، هو حبيبي محمد، والذي يقول: صدق صدق، هو أبو بكر الصدّيق[(١)].

وجاء في (عمدة التحقيق) للعبيدي المالكي ٦ ١٠٣ عن أنس بن مالك أنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله إذ أقبل عليه رجل من أصحابه وساقاه تشخبان دماً، فقال النبي: ما هذا؟ قال: يا رسول الله مررت بكلبة فلان المنافق فنهشتني، فقالﷺ: اجلس. فجلس بين يدي النبي، فلما كان بعد ذلك بساعة، إذ أقبل إليه رجل آخر من أصحابه وساقاه تشخبان دماً، فقال مثل قول الأوّل، قال أنس: فنهض النبي وقال لأصحابه: هلمّوا بنا إلى هذه الكلبة نقتلْها. فقاموا كلّهم، وحمل كل رجل منهم سيفاً. فلمّا أرادوا قتلها، وقفت الكلبة بين يدي رسول الله وقالت: لا تقتلني يا رسول الله؛ فإني مؤمنة بالله وبرسوله. فقال لها: مالكِ نهشت هذين الرجلين؟ فقالت: يارسول الله، إني كلبة من الجن مأمورة أن أنهش كلّ من سبّ أبا بكر. فقال النبيﷺ لهما: أما سمعتما ما تقوله الكلبة؟ قالا: نعم يا رسول الله، إنا تائبان إلى الله عزّ وجلّ[(٢)].

وجاء في الكتاب المذكور عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: قال عليعليه السلام: كنت جالساً مع رسول الله، وليس معنا ثالث إلا الله، فقال: يا علي أتريد أن أُعرّفك بسيّد كهول أهل الجنة، وأعظمهم قدراً عند الله ومنزلة يوم القيامة؟ فقلت: أي وعيشك يا رسول الله. فقال: هذان المقبلان. قال علي: فالتفتّ وإذا أبو بكر وعمر. ثم رأيت رسول الله تبسّم وقطّب وجهه حتى ولجا المسجد، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لمّا قربنا

---

(١) نزهة المجالس ج٢ ص ١٨٤.

(٢) عمدة التحقيق ص ١٠٥.

من دار أبي حنيفة تبسّمت لنا، ثم قطّب وجهك، فَلِمَ ذلك؟ فقال رسول الله: لمّا صرتما بجانب دار أبي حنيفة عارضتما إبليس، ونظر في وجوهكما[١]، ثم رفع يده إلى السماء، أسمعه وأراه، وأنتما لا تسمعانه ولا تريانه، وهو يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بحقّ هذين الرجلين ألا تعذّبني بعذاب باغض أبي بكر وعمر. فقال أبو بكر: ومَن الذي يبغضنا يا رسول الله، وقد آمنا بك وآزرناك، وأقررنا بما جئت به من عند رب العالمين؟ قال: نعم يا أبا بكر، قوم يظهرون في آخر الزمان يقال لهم الرافضة، يرفضون الحقّ ويتأوّلون القرآن على غير صحّته، وقد ذكرهم الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[٢].

فقال: يا رسول الله، فما جزاء من يبغضنا عند الله؟ فقال: يا أبا بكر، حسبك أن إبليس يستجير بالله تعالى ألا يعذّبه بعذاب من يبغضكما. فقال: يا رسول الله، هذا جزاء من أبغض، فما جزاء من أحبّ؟ فقال رسول الله: أن تهديا له هدية من أعمالكما. فقال أبو بكر: أُشهد الله وملائكته أني قد وهبت لهم ربع أجري منذ آمنت بالله. وقال عمر: وأنا مثل ذلك. فقال رسول الله: فضعا صكّاً بذلك.

قال علي عليه السلام: فأخذ أبو بكر زجاجة، وكتب صكّاً بذلك، وفعل عمر مثله. فلما فرغ القلم من الكتابة هبط جبرائيل وقال: يا رسول الله، الربّ يُقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام، ويقول لك: هات ما كتبه صاحبك. فأخذه جبرائيل وعرج به إلى السماء، ثم عاد إلى رسول الله فقال له: أين ما أخذت يا جبرائيل؟ فقال: هو عند الله، وقد شهد الله عليه، وأشهد حملة العرش، وأنا وميكائيل وإسرافيل وقال الله: هو عندي حتّى يفي أبو بكر وعمر بما قالا يوم القيامة[٣].

وجاء في الكتاب المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه لمّا كان قاب قوسين أو أدنى، أخذته

---

(١) الصحيح: وجهيكما.

(٢) سورة النساء الآية ٤٦.

(٣) انظر عمدة التحقيق ص ١٠٥ و ١٠٧.

وحشة، فسمع في حضرة الله تعالى بصوت أبي بكر، فاطمأنّ قلبه، واستأنس بصوت صاحبه[(١)].

[مرويات (الرياض النضرة) و(مرقاة الاصول) في فضائل الشيخين]

وجاء في (الرياض النضرة) ج/١ ص ٧١ و(مرقاة الأُصول) ص ١١٤ أن عبد الله بن العباس قال: لمّا كان أبو بكر مع النبي في الغار، عطش عطشاً شديداً، فشكا إلى النبيﷺ، فقال له: اذهب إلى صدر الغار فاشرب. قال أبو بكر: فانطلقت إلى صدر الغار، فشربت ماء أحلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأذكى رائحة من المسك، ثم عدت إلى النبيﷺ، فقال: شربت؟ قلت نعم. فقال: ألا أُبشرّك يا أبا بكر؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: إن الله تبارك وتعالى أمر المَلَك الموكّل بأنهار الجنّة أن ينزل نهراً من جنة الفردوس إلى صدر الغار ليشرب أبو بكر. فقلت: يا رسول الله، ولي عند الله هذه المنزلة؟ فقال النبي: نعم، وأفضل منها. والذي بعثني بالحقّ نبياً لا يدخل الجنّة مبغضك ولو كان له عمل سبعين نبيّاً.

وجاء في (الرياض النضرة) لمحبّ الدين الطبري ج ١ ص ٣٠ وفي (الصواعق) ص ٥٠ عن أنس بن مالك أنه قال: سمعت رسول الله يقول: أخبرني جبرائيل أن الله تعالى لما خلق آدم وأدخل الروح في جسده، أمرني أن آخذ تفاحة من الجنّة وأعصرها في حلقه، فعصرتها في فمه، فخلقك الله من النطفة الأُولى، وخلق أبا بكر من الثانية، وخلق من الثالثة عمر بن الخطّاب، ومن الرابعة عثمان بن عفّان، ومن الخامسة علي. فقال آدم: مَن هؤلاء الذين كرّمهم؟ فقال الله تعالى: هؤلاء خمسة أشباح من ذرّيّتك أكرم عندي من جميع خلقي. ولما عصى آدم استغاث بهم فتاب ربّه عليه.

ومن ذلك ما رواه ميمون بن مهران عن المسيب بن عبد الرحمن عن حذيفة اليمان أنه قال: صلّى بنا رسول الله صلاة الفجر، فلما انفتل من صلاته قال: أين أبو بكر الصدّيق؟

---

(١) انظر عمدة التحقيق ص ٢٨٦ ج٧، وص ٢٨٨، وما بعدها.

فأجابه أبو بكر من آخر الصفوف: لبّيك يا رسول الله. قال: أفرجوا لأبي بكر. فدنا منه وقال: لحقت معي التكبيرة الأُولى؟ قال: يا رسول الله، إني كنت معك في الصفّ الأوّل، فكبّرتَ وكبّرتُ، فاستفتحت بالحمد فقرأتها، فوسوس لي شيء من الطهور، فخرجت إلى باب المسجد، وإذا بهاتف يهتف ويقول: وراءك. وإذا أنا بقدح من ذهب، مملوء ماء أبيض من الثلج، وأعذب من الشهد، وألين من الزبد، عليه منديل أخضر مكتوب عليه: لا اله إلا الله، محمد رسول الله، الصدّيق أبو بكر. فأخذت المنديل ووضعته على منكبي وتوضّأت للصلاة وأسبغت الوضوء، ورددت المنديل على القدح ولحقتك وأنت راكع الركعة الأُولى وأتممت صلاتي معك. فقال النبيﷺ: أبشر يا أبا بكر، الذي وضّأك للصلاة جبرائيل، والذي مندلك ميكائيل، والذي مسك ركبتيّ حتى لحقت الصلاة إسرافيل[1].

[من مرويات الزهري]

وروى الزهري عن عائشة أنها قالت: كانت ليلتي من رسول الله، فلمّا ضمّني وإياه الفراش قلت: يا رسول الله، ألست أكرم أزواجك عليك؟ قال: بلى. قلت: حدّثني عن أبي بفضيلة. قال: حدّثني جبرائيل أن الله تعالى لمّا خلق الأرواح اختار روح أبي بكر من بين الأرواح، فجعل ترابها من الجنّة، وماءها من الحيوان، وجعل له قصراً في الجنة من درّة بيضاء مقاصيرها من الذهب والفضّة. وإن الله تعالى آلى على نفسه ألا يسلبه حسنة ولا يسأله عن سيئة، وإني ضمنت على الله كما ضمن الله على نفسه ألا يكون ضجيعاً لي

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٤ ص ٣٥، قال الخطيب البغدادي: لا يثبت هذا الحديث، ورجال إسناده كلهم ثقات، ولعله شبّه لهذا الشيخ القطان، أو أدخل عليه، مع أني قد رأيته من حديث محمد بن بابشاذ البصري عن سلمة بن شبيب عن عبد الرزاق، وابن باشاذ راوي مناكير عن الثقات، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٣٠ ص ١٦٤، الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٣١٠، ميزان الاعتدال للذهبي ج ٤ ص ٢٨٢، لسان الميزان لابن حجر ج ٦ ص ١٧٧، قال: قال الخطيب: رواته ثقات الا القطان، وله إسناد آخر باطل.

في حفرتي، ولا أنيساً في وحدتي، ولا خليفة على أُمّتي من بعدي إلا أبوك. بايع على ذلك جبرائيل وميكائيل، وعقدت خلافته براية بيضاء، وعقد لواؤها تحت العرش، وقال الله للملائكة: رضيتم ما رضيت لعبدي؟ فكفى بأبيك فخراً أن يبايع له جبرائيل وميكائيل وملائكة السماء، وطائفة من الشياطين يسكنون البحر، فمن لم يقبل هذا فليس مني ولست منه. قالت عائشة: فقبّلت أنفه وما بين عينيه، فقال: حسبك فمن لستِ بأمه ما أنا بنبيّه، فمن أراد أن يتبرّأ من الله ومنّي فليتبرّأ منك(١).

ومن ذلك ما رواه أنس عن النبيﷺ أنه قال: لما أُسري بي رأيت في السماء خيلاً موقوفة مسرجة ملجمة، لا تروث ولا تبول ولا تعرق، رأسها من الياقوت الأحمر، وحوافرها من الزمرد الأخضر، وأبدانها من العقيان الأصفر، ذوات أجنحة، فقلت: لمن هذه؟ فقال جبرائيل: هذه لمحبّي أبي بكر وعمر، يزورون الله عليها يوم القيامة(٢).

[من مرويات (نزهة المجالس) عن فضائل الثلاثة ومعاوية]

وجاء في (نزهة المجالس) للصفوري في تفسير قوله تعالى: ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل**﴾(٣) أن عبد الله بن عبّاس قال: إذا كان يوم القيامة تنصب كراسيّ من ياقوت أحمر، فيجلس أبو بكر على كرسي، وعمر على كرسي، وعثمان على كرسي، ثم يأمر الله الكراسي فتطير إلى تحت العرش، فتسبل عليهم خيمة من ياقوتة بيضاء، ثم يؤتى بأربع كاسات، فأبو بكر يسقي عمر، وعمر يسقي عثمان، وعثمان يسقي علياً، وعلي يسقي أبا بكر، ثم يأمر الله جهنم أن تتمخّض بأمواجها، فتقذف الروافض على ساحلها، فيكشف الله عن أبصارهم، فينظرون إلى منازل أصحاب رسول اللهﷺ فيقولون:

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٠ وقد عدّه السيوطي من الموضوعات ونسب وضعه إلى أحمد العلاف المعروف بالقطان.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٣ ص ١٣١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٤٣.

هؤلاء الذين أسعدهم الله، وسعد الناس بمتابعتهم، وشقينا نحن بمخالفتهم، ثم يردّون إلى جهنم بحسرة وندامة[١].

ومن ذلك أن جبرائيل قال لمحمد ﷺ: يا محمد، لو مكثت معك ألف سنة إلا خمسين عاماً لم أنتهِ من ذكر فضيلة من فضائل أبي بكر وعمر[٢].

وأنه قال لعائشة: إن لعمر بن الخطاب من الحسنات عدد نجوم السماء، وهو مع ذلك حسنة من حسنات أبي بكر.

وأنه قال: لو لم أُبعث نبياً لبعث عمر بن الخطاب[٣].

و: لو كان بعدي نبي لكان عمر. كما جاء في رواية الترمذي[٤].

وأنه قال: إن لكلّ نبيّ خليلاً، وخليلي عثمان، وهو وليه في الدنيا والآخرة[٥].

و: إن عثمان إذا تحوّل من منزل إلى منزل في الليل تبرق له الجنة ليبصر طريقه.

[معاوية يزاحم النبي ﷺ على باب الجنة]

وأنه قال لمعاوية: أنت منّي يا معاوية وأنا منك، ولتزاحمنّي على باب الجنة كهاتين (السبابة والوسطى).

و: أنه أحد الأُمناء السبعة: اللوح، والقلم، وإسرافيل، وميكائيل، وجبرائيل، ومحمد، ومعاوية بن أبي سفيان[٦].

---

(١) الغدير ج ١٠ عن ج ٢ ص ٢١٧ من نزهة المجالس.

(٢) قريب منه في تاريخ مدينة دمشق ج ٤٤ ص ١٣٨.

(٣) تذكرة الموضوعات للفتني ص ٩٤، قال: وفيه ـ سنده ـ زياد بن يحيى، كذّاب.

(٤) سنن الترمذي ج ٥ ص٢٨١ برقم ٣٧٦٩.

(٥) تذكرة الموضوعات للفتني ص ٩٤، قال: من أباطيل الملطي، تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣١٩، تاريخ مدينة دمشق ج ٣٩ ص ١٢٥، ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٠١، قال: وهذا باطل.

وليس في النصّ: وهو وليه في الدنيا والآخرة.

(٦) انظر الموضوعات إلى محمد طاهر الهندي الفتني ص ٩٤ و ١٠٠.

إلى كثير من أمثال هذه المرويّات التي لا تقلّ من حيث الكمّ والكيف عن مرويات الشيعة في الفضائل والكرامات إن لم تكن هذه أشدّ غرابة وغلوّاً من تلك المرويات.

[من كرامات الأولياء والصلحاء من السنة]

ولو تركنا مرويّاتهم في فضائل الخلفاء والصحابة، ورجعنا إلى كتبهم التي تتحدّث عن العلماء والصلحاء والزهّاد نجد فيها سيلاً من الكرامات والمعجزات التي نستبعد صدورها حتى من الأنبياء في أدقّ المراحل وأحرجها، كردّ الشمس، وقطع المسافات البعيدة في لحظات معدودات، وإحياء الموتى والسير على وجه الماء، وغير ذلك ممّا أثبتوه لعلمائهم، وأنكروه على عليّ وأبنائه الكرام، واتّهموا الشيعة بالغلوّ والتخريف؛ لأن بعض المحدّثين نسب للأئمة بعض الكرامات والغيبيّات. ونسوق على سبيل المثال بعض الكرامات التي أثبتوها لبعض الزهّاد والعلماء، فمن ذلك ما رواه السبكي في (طبقات الشافعية)، واليافعي في (مرآة الجنان)، وابن العماد في المجلد الخامس من (الشذرات)، وقد جاء في هذه الكتب أن الشيخ إسماعيل الحضرمي قصد بلدة زبيد، فكادت الشمس[1] تغرب قبل وصوله إليها، فأشار إليها بيده أن تتوقّف عن المسير، فوقفت حتى دخل المدينة[2].

وجاء في (الفتاوى الحديثية) لابن حجر أن من كرامات الحضرمي أنه كان في طريقه إلى زبيد، وقد دنت الشمس من الغروب، فقال لها: لا تغربي حتى ندخلها. فوقفت ساعة كاملة، فلما دخلها أشار إليها بيده أن تتابع مسيرتها، فإذا الدنيا مظلمة والنجوم ظاهرة[3].

---

(١) في الأصل بعدها: أن.

(٢) انظر المجلد الخامس من الشذرات، وجاء فيه بعد أن نقل هذه الأُسطورة أن الحضرمي توفّي سنة (٦٨٨) هجرية. وقد أشار اليافعي إلى هذه الحادثة بقوله:

ومن جاهه أومأ إلى الشمس أن قفي　　فلم تمشِ حتى أنزلوه بمقعدِ

(٣) الفتاوى الحديثية ص ٢٣٢.

وفي رواية السبكي في (الطبقات) أن خادم الحضرمي قال لها: يقول لك الفقيه الحضرمي: لا تغربي. فوقفت مكانها ولم تتحرّك إلى ان أمرها بالمسير[١].

وجاء في تاريخ الخطيب[٢] وغيره عن إبراهيم بن إسماعيل بن خلف أن أحمد بن نصر الخزاعي لمّا قُتل في المحنة التي وقعت بين المعتزلة والمحدّثين، وصلب رأسه، كان رأسه يقرأ وهو على الخشبة: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[٣].

وجاء عن أحمد بن كامل القاضي عن أبيه أنه قال: وُكِلَ برأس أحمد من يحفظه بعد أن نصب برأس الجسر، فقال الموكل به: إنه كان يراه بالليل يستدير إلى القبلة بوجهه، فيقرأ سورة (يس) بلسان طلق فصيح[٤].

وبلا شكّ إن هذه الأُسطورة قد وضعها الحنابلة في مقابل الرواية التي رواها الشيعة[٥] وغيرهم[٦] عن رأس شهيد[٧] الشهداء الحسين بن علي عليه السلام، وجاء فيها أنه كان يقرأ وهو على رأس الرمح: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾[٨].

وجاء في (تهذيب التهذيب) لابن حجر في ترجمة يعقوب بن أبي سلمة، وفي المجلد الأوّل من (شذرات الذهب) و(تاريخ ابن عساكر) و(ابن خلّكان) وغيرهم أن يعقوب الملقّب بالماجشون بعد أن مات، وحضر الناس لنقله إلى مقرّه الأخير، تحرّك وبقي ثلاثة

---

(١) طبقات الشافعية ج٥ ص ٥١.

(٢) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٨٧.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٢.

(٤) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٨٦.

(٥) بحار الأنوار ج ٤٥ ص ١٢١.

(٦) تاريخ مدينة دمشق ج٦٠ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠، فيض القدير شرح الجامع الصغير ج١ ص٢٦٥.

(٧) كذا في الأصل، والظاهر أنها سيّد.

(٨) سورة الكهف الآية ٩.

أيام يتحرّك والناس ينتظرون مصيره، ثم استوى جالساً وطلب سويقاً فشربه وحدّثهم بأنه صعد به ملك إلى السماء، ومضى به إلى أن بلغ السماء السابعة، وهناك قيل لملك الموت: من معك؟ ولما أخبرهم، أمروه بإرجاعه إلى الدنيا وقالوا له: لقد بقي من عمره عدد من السنين والأشهر والساعات. فأرجعه ملك الموت إلى الدنيا، وفي طريقه رأى محمداً، وأبا بكر عن يمينه، وعمر بن الخطّاب عن شماله، وعمر بن عبد العزيز بين يديه، وعاش بعد ذلك مدّة من الزمن إلى أن كانت وفاته سنة (١٦٤) في الساعة التي حدّد بها نهاية حياته[١].

وجاء في تاريخي ابن الجوزي وابن كثير أن أحمد الأسواري كان قد تولّى تغسيل إسماعيل بن محمد الحافظ، جاء عنه أنه قال: أردت أن أُنحّي الخرقة[٢] عن سوءته؛ لأغسل عورته، فجذبها من يدي وغطّى فرجه بها، فراعني ذلك وقلت: هذه هي الحياة بعد الموت[٣].

وجاء في (روضة الناظرين) أن الشيخ عقيل بن شهاب الدين أحمد المنيجي العمري حفيد عمر بن الخطّاب كان يلقّب بالغوّاص، ويقول: لقد أعطاني الله الكلمة النافذة في كلّ شيء، ثم داخله وجد، فقال: يا هوامّ ويا حجارة، ويا أشجار صدّقوني فيما أقول. فوفدت عليه الوحوش من كلّ مكان، وقد ملأ زئيرها وصراخها البقاع، ودارت حوله، ورقصت الحجارة صاعدة ونازلة، واشتبكت أغصان الأشجار بعضها ببعض، ثم عاد كلّ شيء على ما كان عليه. وقد سُمي بالغوّاص؛ لأنه كان يفرش سجادة على وجه الماء ويجلس عليها، ثم يغوص في الماء مدّة من الزمن، ويخرج بعدها وليس على ثيابه أثر من الماء، وكأنه كان في نزهة بين البساتين والرياحين[٤].

---

(١) انظر شذرات الذهب ج١ ص ٢٥٩، وتهذيب التهذيب ج١١ ص ٣٧٩.

(٢) في الأصل: الحذقة.

(٣) انظر تاريخ ابن كثير ج١٢ ص ٢١٧.

(٤) روضة الناظرين ص ٣٥.

[فيما رواه ابن العماد الحنبلي في شذراته]

وجاء في (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي عن اليونيني انه قال: قال لي عدي بن مسافر يوماً: اذهب إلى الجزيرة السادسة في البحر المحيط، تجد فيها مسجداً فيه شيخ، فقل له: يقول لك الشيخ عدي بن مسافر: لا تختر لنفسك أمراً ليس لك فيه إرادة. فقلت: يا سيّدي، وأنّى لي بالبحر المحيط؟ فدفعني بين كتفي، وإذا بتلك الجزيرة والبحر محيط بها، فدخلت المسجد، فرأيت فيه شيخاً مهيباً يفكّر، فسلّمت عليه وبلّغته الرسالة فبكى، وقال: جزاه الله خيراً. فقلت: يا سيّدي، ما الخبر؟ فقال: اعلم أنه قد خطر لي أن أكون أحد السبعة الخواصّ في النزع، ولم يكمل هذا الخاطر حتى أتيتني، ثم دفعني في كتفي وإذا أنا بزاوية الشيخ عدي بن مسافر وبين تلك الزاوية والجزيرة مئات البحور وآلاف الأميال[1].

وجاء عن عبد القادر الكيلاني أنه قال: لمّا عرج بجدّي رسول الله ليلة المرصاد إلى السماء، وبلغ سدرة المنتهى، بقي جبرائيل الأمين متخلّفاً، وقال: يا محمد، لو دنوت أنملة لاحترقت. فأرسل الله روحي إليه في ذلك المقام، وكانت هي البراق الذي ركبه رسول الله، وعناني بيده، حتى وصل وكان قاب قوسين أو أدنى، وقال لي: يا ولدي، هذه قدمي على رقبتك، وقدماك على رقاب كلّ أولياء الله[2].

وجاء في ترجمة عبد القادر من كتاب (تفريح الخاطر) طبع مصر، أن أحد خدّامه قد توفّي، فجاءته زوجته وتضرّعت إليه تطلب إحياءه، فتوجّه الشيخ إلى المراقبة، فرأى في عالم الباطن أن ملك الموت يصعد إلى السماء ومعه الأرواح المقبوضة في ذلك اليوم، فقال: يا ملك الموت، قف واعطِني روح خادمي فلان. فقال ملك الموت: إني أقبض

---

(١) هذه الأسطورة نقلها الأميني في غديره ج ١١ ص ١٧٠ وعلّق عليها ما نصه: «الجنون فنون، وأرقاها جنون الحب والمغالاة في الفضائل». وليت شعري لماذا نسي الشيخ هذا الكلام عندما تعلّق الأمر بمشارق البرسي حتى هجم على السيد الأمين تلك الهجمة الشرسة؟

(٢) نقلها في الغدير ج ١١ ص ١٧٢ من دون ذكر المصدر.

الأرواح بأمر ربّي، وأُؤدّيها إليه، ولا يمكن أن أُعطيك إياها. فكرّر عليه عبد القادر الطلب، وامتنع ملك الموت عن إجابته. وكان بيد ملك الموت زنبيل فيه الأرواح المقبوضة في ذلك اليوم، فجرّ الزنبيل وأخذه من يده، فتفرّقت الأرواح ورجعت إلى أبدانها، فناجى ملك الموت ربّه وقال: أنت أعلم بما جرى بيني وبين محبوبك ووليّك، فلقد أخذ منّي ما قبضته في هذا اليوم. فخاطبه الله جلّ جلاله: إنه محبوبي، ولو أنك أعطيته روح خادمه لما ذهبت تلك الأرواح من قبضتك[١].

وجاء في الكتاب المذكور ان الله سبحانه قد أرسل كتاباً مع عزرائيل إلى الشيخ عبد القادر قبل وفاته بسبعة أيام يُعْلِمه فيه بموته، فحمل الكتاب ملك الموت وسلّمه إلى ولده الشيخ عبد الوهاب، وعلى ظهر الغلاف: يصل هذ الكتاب من المحبّ إلى المحبوب. ودخل على والده مع عزرائيل وسلّمه الكتاب، وكان ذلك معلوماً لديه، فدعا للناس بالمغفرة، ووعدهم بالشفاعة، وضجّ عالم الناسوت بالبكاء، وابتهج عالم الملكوت بلقاء الشيخ عبد القادر[٢].

[فيما رواه في (روضة الناظر) و(العقود الجوهرية) من فضائل الرفاعي وغيره]

وجاء في (روضة الناظر)، و(العقود الجوهريّة) وغيرهما أن السيد أحمد الرفاعي لمّا زار مدينة الرسولﷺ واتّجه إلى قبر النبي، ظهرت له يد النبيﷺ من قبره، فأخذها وقبّلها بمحضر جمع من الناس، واشتهر أمرها بين الخاصّة والعامّة، ونظمها الشعراء وتحدّث بها الخطباء على حدّ تعبير المؤلّفين في ترجمة الرفاعي. وممّن نظم هذه الأُسطورة الشيخ تقي الدين الفقيه النهروندي المتوفى سنة (٥٩٤) في أبيات جاء فيها:

مــدّ طــه يمينــه للرفــاعي ... فانجلــت عنــدها لــه الأشــياءُ

---

(١) تفريح الخاطر في ترجمة عبد القادر ص ٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨.

لا تقـل كيـف تـمّ هـذا وأيقـن يفعـل الله ربّنـا مـا يشـاءُ[(١)]

وقد ترجمه ابن العماد الحنبلي في (الشذرات) وأشاد بكراماته ومقامه الرفيع[(٢)].

وجاء في الجزء ١٣ من التاريخ الكبير للحافظ ابن كثير أن الشيخ عبد الله اليونيني المتوفّى سنة (٦١٧) كان يحجّ في بعض السنين في الصحراء، فيقطع المسافة من الشام إلى مكّة في دقائق معدودات[(٣)].

وأضاف إلى ذلك ابن كثير في تاريخه أن ذلك قد وقع لطائفة كبيرة من الزهّاد وصالحي العبّاد[(٤)].

وجاء في (شذرات الذهب) أنه بقي تسعين يوماً صائماً، يفطر في كلّ ليلة على حبّة حِمّص لا يدخل جوفه غيرها. وأضاف إلى ذلك أنه في سائر أيامه كان لا يأكل إلا مرّة في كلّ عشرة أيام، وهو من أصحاب الكرامات والعجائب[(٥)].

وجاء في الطبقات للمناوي أن أحمد بن يحيى الشادي المتوفّى سنة (٨٤١) قصده جماعة من الزيدية الذين لا يؤمنون بكراماته، وقصدوا امتحانه، وكان عنده بئر في داره، فجعل يغرف منها تارة لبناً، وتارة سمناً، وأُخرى عسلاً، حسبما يقترحون عليه. ودخل على القاضي عثمان بن محمد الناشري وهو يعالج الموت، فطلب من ربّه أن يمهله ثلاث سنوات، فقام من ساعته، وعاش ثلاث سنوات لا تنقص يوماً ولا تزيد يوماً[(٦)].

وجاء في (روضة الناظرين) في ترجمة السيد محمد سراج الدين الرفاعي أنه

---

(١) روضة الناظر ص ٥٤، العقود الجوهرية ص٥.

(٢) انظر ج ٤ من الشذرات ص ٢٦٠.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ١١٠.

(٤) المصدر نفسه ص ١١٠ ـ ١١١.

(٥) انظر الشذرات ج٥ ص ٧٤، وجاء فيها أنه من قرية يونين من بلاد بعلبك، وله قبر تتوافد إليه الناس للزيارة.

(٦) انظر مجلد ٧ من الشذرات ص ٢٤٠.

مسّ بيده ظهر رجل أحدب فقوّم الله ظهره وصار على أحسن حال وكأن لم يكن به شيء. ومرّ في الشام على قصّاب قد ذبح شاة وقطع أوداجها، ووضع السكين في فمه والشاة تصارع الموت، فأمره أن يعيد السكّين إلى رقبتها، فانتفضت الشاة سليمة لا جراحة فيها وكأنها لم تصب بشيء[(١)].

وجاء في (طبقات المناوي) و(شذرات الذهب) أن حسيناً الصوفيّ كان يتطوّر حسبما يشاء، يدخل عليه إنسان فيجده سَبُعاً، ثم يدخل عليه آخر فيجده جَدياً، وآخرون يجدونه فيلاً، وهكذا. ودخل عليه أعداؤه ليقتلوه، فتمكّنوا منه، وقطّعوه بأسيافهم، وحملوه إلى مكان بعيد، وألقوه فيه، فلمّا أصبحوا وجدوه قائماً يصلّي في زاويته، ومكث أربعين سنة لا يذوق فيها الطعام والشراب[(٢)].

وجاء في (شذرات الذهب) عن الشيخ عبد القادر الشاذلي أن السيوطي رأى النبيﷺ في اليقظة وقال له: يا شيخ المحدّثين. وأخبره بأنه من أهل الجنّة[(٣)].

وجاء عن خادم السيوطي أنه كان معه في مصر، فقال له: أتريد أن نصلّي العصر بمكّة؟ فقال له: نعم. فأخذ بيده، وإذا هما بمكّة، فوصلا الحرم وطافا وشربا من ماء زمزم، وصلّيا العصر، ورجعا إلى مكانهما في لحظات معدودات[(٤)].

وجاء في ترجمة أبي بكر بن عبد الله المتوفّى سنة (٩١٤) أنه لما رجع من الحجّ، دخل زيلع، وكان الحاكم فيها محمد بن عتيق، فماتت له أُمّ ولد كان مشغوفاً بها، فدخل عليه ليعزّيه، فلم تنفع معه التعزية، وانكبّ على رجليه، وطلب منه إحياءها، فكشف عن وجهها وناداها باسمها فأجابته، ولم يخرج من البيت حتى رجعت إليها روحها، وعاشت بعد ذلك زمناً طويلاً[(٥)].

---

(١) روضة الناظرين ص ١١٢.

(٢) انظر الشذرات ج٧ ص ٢٥٠.

(٣) شذرات الذهب ج٨ ص ٥٤. وفيه أن النبي قال له: يا شيخ الحديث.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٠.

(٥) انظر شذرات الذهب ج٨ ص٦٣.

إلى كثير من أمثال هذه الأساطير التي لو أردنا إحصاءها لبلغت مجلّداً من أضخم المجلّدات.

[خاتمة الكتاب]

ومهما بلغت مرويّات الشيعة في علي وبنيه الهداة الطيّبين فلم تبلغ هذا النوع من الغلوّ، ولم يدّعِ أحد من الشيعة أن جبرائيل لو بقي ألف سنة إلا خمسين عاماً يحدّث في فضائله لم ينتهِ من فضيلة واحدة منها كما جاء في هذه المرويات عن أبي بكر وعمر، ولم يدّعوا بأن علياً يزاحم النبي على باب الجنة كما يزاحمه معاوية بن هند على حدّ زعم الراوي لهذه الرواية، إلى غير ذلك من المرويّات التي هي أفحش من مرويّات الغلاة والزنادقة. ومع وجود هذه المرويات بين أحاديثهم التي لا تقلّ عن مرويّات الغلاة إن لم تكن أفحش منها، فلم ينسب لهم أحد الغلو في الخلفاء بمن فيهم معاوية، كما نسبوه إلى كلّ متشيّع لأهل البيتعليهم السلام. في حين أنه إذا جاز على من لحظهم التاريخ بكلّ أنواع الخزي والعار أن يزاحموا النبي على باب الجنّة، وأن يكونوا من أُمناء الله على وحيه مع جبرائيل وميكائيل، فيجوز على علي وأبنائه الهداة الميامين الذين لم يستطع أعداؤهم أن يلصقوا بهم حتى أبسط العيوب. كما يجوز عليهم بطريق أولى لا لبس فيه ولا غموض إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك ممّا يستعصي على سائر الناس بإذن الله ومشيئته.

وعلى أيّ الأحوال فإني إذ أقف من بعض المرويات في علي والأئمة من ولده هذا الموقف، وأُرجّح أن تكون من صنع الغلاة والحاكمين والزنادقة الذين اندسّوا في صفوف الشيعة، لا أتردّد ولو لحظة في أن علياً وأبناءه الأئمّة بإمكانهم أن يصنعوا المعجزات التي تتعسّر على غيرهم من الناس. وقد صنعوا بإذن الله شيئاً من ذلك، لا لأن الله سبحانه قد فوّض إليهم أُمور العباد وأمدّهم بالقدرة على كلّ شيء، ولا لأنهم يعلمون ما كان وما سيكون إلى قيام يوم الدين، بل لأنهم عرفوا الله كما يجب ان يُعرف،

وعبدوه مخلصين كما يجب أن يُعبد، وبذلوا في سبيله فوق ما يمكن أن يتصوّره إنسان من أبناء هذه الدنيا، فاستجاب لهم كما استجابوا له، وأمدّهم بعلم من عنده لم يتوفّر لأحد سواهم من الناس.

لقد أقسم عليعليه السلام بالله صادقاً بأنه لو أُعطي الأقاليم السبعة على أن يعصي الله في نملة يسلبها جلب شعيرة لم يفعل[1]. وحينما تولّى الخلافة كانت في حسابه أحقر من نعل بالية إذا لم تكن وسيلة إحقاق الحقّ وإماتة البدع. وحكم غيره فصنع ما تقتضيه مصلحته كحاكم يريد أن يكون حاكماً قبل كل شيء، وأقسم معاوية صادقاً ـ مع أنه لا يعرف غير الغدر والكذب والخيانة ـ حينما دخل الكوفة ونشوة الظفر تجري في دمه وعروقه أنه لم يُقاتل علياً وأهل العراق إلا ليتأمّر عليهم ويتسلّط على عباد الله الأحرار، ومع ذلك فهو عند محدّثي السنة أحد الأُمناء السبعة، ويزاحم النبي على باب الجنّة[2].

وأعود لأُكرّر بأن هذه المرويّات التي نقلتها عن بعض محدّثي السنّة كما وأنها لا تُعبّر إلا عن رأي المغالين في خلفائهم وأوليائهم، فكذلك بعض المرويات الشيعيّة في علي وبنيه الأئمّة الأطهار فإنها لا تعبّر عن رأي الشيعة، وبعضها يتنافى مع أُصول الإسلام والتشيّع. أقول ذلك وأنا واثق من أن عدداً كبيراً من الشيعة، بل ومن المعمّمين في النجف الأشرف وغيرها ممّن لا يفهمون الأئمّة على واقعهم، ولا يدركون سرّ عظمتهم وخلودهم إلا عن طريق الغيبيّات والأوهام لا يرضيهم ذلك، وسوف يغضبون. ولكني لن أستوحش من ذلك مادمت واثقاً بأن ما أقوله وأكتبه يرضي الله سبحانه،

---

(١) نهج البلاغة، الكلام: ٢٢٤.

(٢) قال: «أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلّون وتزكّون وتحجّون؟ ولكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا إن كلّ مال أو دم أُصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدميّ هاتين». انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ١٥، ص ٤٦، تاريخ مدينة دمشق ج ٥٢ ص ٣٨٠، ج ٥٩ ص ١٥٠، ص ١٥١، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٤٧، البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٠.

وينزّه الأئمّة (عليهم أفضل الصلاة والسلام) ممّا أُلصق بم زوراً وبهتاناً.

والله سبحانه من وراء القصد، والهادى الى سبيل الرشاد.

[مصادر الكتاب]

أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا الكتاب:

أُصول الكافي ـ لمحمد بن يعقوب الكليني.

الوافي ـ للملا محسن الفيض.

إكمال الدين وإتمام النعمة ـ للشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي.

معالم الزلفى ـ للسيد موسى البحراني.

مختصر بصائر الدرجات ـ للشيخ حسن بن سليمان الحلي.

مشارق أنوار اليقين ـ للشيخ رجب البرسي.

مرآة العقول ـ للمجلسي.

مدينة المعاجز.

غاية المرام ـ للبحراني.

الإرشاد ـ للشيخ المفيد.

الغيبة ـ للشيخ الطوسي.

الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة ـ للمؤلّف.

الرسائل في أُصول الفقه ـ للشيخ مرتضى الأنصاري.

التقريرات في أُصول الفقه ـ للشيخ محمد علي الكاظمي.

الوجيزة في علم الحديث ـ للشيخ عبد الصمد الحارثي.

مقباس الهداية في علم الدراية ـ للشيخ عبد الله المقمقاني.

دراسات في الكافي والصحيح للبخاري ـ للمؤلّف.

الدراية في علم الحديث ـ للشهيد الثاني.

إتقان المقال في علم الرجال ـ للشيخ محمد طه نجف.

نهج المقال في أحوال الرجال ـ للمرزا محمد.

الرجال ـ للنجاشي.

الرجال ـ للكشي.

العدة في الأُصول ـ للشيخ الطوسي.

خاتمة الوسائل في أحوال الرواة ـ للحرّ العاملي.

الخلاصة في علم الرجال ـ للعلامة الحلّي.

الأخبار الدخيلة ـ للشيخ محمد تقي التستري.

قضاء الإمام علي ـ للشيخ محمد تقي التستري.

معجم رجال الحديث ـ للمرجع الأعلى للطائفة الشيعية السيد الخوئي.

الغدير ـ للشيخ عبد الحسين الأميني.

السنة قبل التدوين ـ لمحمد عجاج الخطيب.

السنة ومكانتها من التشريع ـ للشيخ مصطفى السباعي.

علوم الحديث ـ لصبحي الصالح.

شرح النهج ـ لابن أبي الحديد.

المذاهب الإسلامية ـ للشيخ محمد أبو زهرة.

الباعث الحثيث ـ للحافظ ابن كثير.

البداية والنهاية ـ للحافظ ابن كثير.

شذرات الذهب ـ لابن العماد الحنبلي.

الموضوعات ـ لمحمد طاهر الفتني.

اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ـ للسيوطي.

تدريب الراوي ـ للسيوطي.

فجر الإسلام ـ لأحمد أمين.

ضحى الإسلام ـ لأحمد أمين.

أحكام القرآن ـ للجصاص.

لسان الميزان ـ لابن حجر.

تهذيب التهذيب ـ لابن حجر العسقلاني.

التاريخ ـ لابن واضح اليعقوبي.

الترغيب والترهيب ـ لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري.

الكفاية في علم الحديث ـ للبغدادي.

طبقات المحدّثين ـ لأبي نعيم الأصفهاني.

سير أعلام النبلاء ـ للذهبي.

الله والإنسان ـ لعبد الكريم الخطيب.

مروج الذهب ـ للمسعودي.

الكنى والألقاب ـ للشيخ عباس القمي.

الطبقات الكبرى ـ لعبد الوهاب الشعراني.

الصحيح ـ للبخاري.

الصحيح ـ لمحمد بن مسلم النيسابوري.

نهاية الأرب في أحوال العرب[1] ـ لشهاب الدين النويري.

(١) الظاهر أنه كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب)؛ إذ إن كتاب (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب) إنما هو للقلقشندي. وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى.

مصادر التحقيق

هذا ثبت بأهم المراجع والكتب التي اعتمدت عليها أثناء التحقيق مع طبعاتها وسنة الطبع تسهيلاً للأخوة الباحثين في الرجوع إليها عند الحاجة، مرتّبة حسب الترتيب الأبجدي:

ـ أ ـ

١ـ أبو هريرة راوية الإسلام، محمد عجاج الخطيب، أُم القرى، مصر.

٢ـ اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، أبو جعفر الطوسي، مؤسّسة آل البيت، إيران ـ قم.

٣ـ أسماء مصنّفي الشيعة (رجال النجاشي)، أحمد بن علي النجاشي، مؤسّسة النشر الإسلامي، إيران ـ قم، ١٤١٦ هـ.

٤ـ أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

٥ـ الاستيعاب، ابن عبد البرّ، دار الجيل، بيروت ـ لبنان،١٤١٢هـ.

٦ـ إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٥ م.

٧ـ الأُصول العامّة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم، مؤسّسة آل البيت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

٨ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤١٥ هـ.

٩ـ أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، نشر البطحاء، إيران.

١٠ـ أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق وإخراج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، لبنان ـ بيروت.

١١ـ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

١٢ـ إكمال الدين وإتمام النعمة، محمد بن بابويه القمي، مؤسّسة النشر الإسلامي ـ إيران،

١٤٠٥ هـ.

١٣ـ الأمالي، محمد بن بابويه القمي، مؤسّسة البعثة، إيران ـ قم، ١٤١٧ هـ.

١٤ـ أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، مؤسّسة الأعلمي، لبنان ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٤ م.

ـ ب ـ

١٥ـ بحوث في علم الأُصول، محمد باقر الصدر، مركز الغدير، ١٩٩٧ م.

١٦ـ البداية والنهاية، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م.

١٧ـ بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد، محمد بن الحسن بن فروخ الصفّار، منشورات الأعلمي، إيران ـ طهران، ١٤٠٤ هـ.

ـ ت ـ

١٨ـ تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، بيروت ـ لبنان.

١٩ـ تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، دار صادر، بيروت ـ لبنان.

٢٠ـ تاريخ الأُمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، مؤسّسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان.

٢١ـ تاريخ المدينة، ابن شبّة النميري، دار الفكر، ١٩٩٠ م.

٢٢ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٥ م.

٢٣ـ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٧ م.

٢٤ـ تصحيح اعتقادات الإمامية، محمد بن محمد العكبري البغدادي، دار المفيد للطباعة والنشر، ١٩٩٣ م.

٢٥ـ تذكرة الحفّاظ، شمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

٢٦ـ تفريح الخاطر في ترجمة عبد القادر، طبع مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٣٣٩.

٢٧ـ تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت، إيران ـ قم، ١٤١٤ هـ.

- ج -

٢٨ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٩٨٥ م.

٢٩ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٥ م.

٣٠ـ الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، منشورات ذوي القربى، ١٤٢٢م.

- ح -

٣١ـ حاشية ردّ المحتار على الدرّ المختار، ابن عابدين، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٩٩٥م.

- خ -

٣٢ـ خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، الحسن بن يوسف الحلي، مؤسّسة نشر الفقاهة، إيران ـ قم، ١٤١٧ هـ.

- د -

٣٣ـ دراسات في الحديث والمحدّثين، هاشم معروف الحسني، دار التعارف، بيروت - لبنان، ١٩٧٨ م.

٣٤ـ الدرّ المنثور، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.

- ر -

٣٥ـ الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٢م.

- س -

٣٦ـ سنن أبي داود، ابن الأشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٩٩٠ م.

٣٧ـ سنن الترمذي، الإمام الترمذي، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٨٣ م.

٣٨ـ السنن الكبرى، احمد بن الحسين البيهقي، دار الفكر، بيروت - لبنان.

٣٩ـ السنّة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب،، ام القرى، مصر.
٤٠ـ السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، دار الوراق، بيروت - لبنان.

-ش-

٤١ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، ١٩٥٩ م.
٤٢ـ شرح أُصول الكافي، محمد صالح المازندراني، دار إحياء التراث العربي، لبنان ـ بيروت، الطبعة الأُولى ٢٠٠٠م.

-ص-

٤٣ـ صحيح البخاري، الإمام البخاري، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، طبعة مصوّرة عن طبعة دار الطباعة العامرة بإسطنبول، ١٩٨١ م.
٤٤ـ صحيح مسلم، الإمام مسلم، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.
٤٥ـ صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت -لبنان،١٩٨٧م.

-ط-

٤٦ـ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر، بيروت -لبنان.

-ع-

٤٧ـ عدّة الأُصول، محمد بن الحسن الطوسي، مؤسّسة آل البيت للطباعة والنشر.
٤٨ـ عمدة القاري، العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان.
٤٩ـ عيون أخبار الرضا، محمد بن علي بن بابويه القمي، مؤسّسة الأعلمي، بيروت - لبنان،١٩٨٤م.
٥٠ـ عيون المعجزات، حسين بن عبد الوهاب، المطبعة الحيدرية، العراق ـ النجف، ١٩٥٠ م.

-غ-

٥١ـ الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، عبد الحسين الأميني، دار الكتاب، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٧ م.

-ف-

٥٢ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٥٣ـ فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان،١٩٦٩ م.

٥٤ـ الفضائل، ابن شاذان القمّي، المطبعة الحيدرية، النجف ـ العراق، ١٩٦٢ م.

٥٥ـ فهرست ابن النديم، ابن النديم البغدادي، طبع مصر.

٥٦ـ في الشعر الجاهلي، طه حسين، دار الكتب المصرية ـ مصر، ١٩٢٦ م.

-ك-

٥٧ـ الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الإسلامية، إيران ـ طهران، ١٩٨٧ م.

٥٨ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٦٥م.

٥٩ـ كنز العمّال، المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٩٨٩م.

-ل-

٦٠ـ لسان العرب، ابن منظور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.

-م-

٦١ـ المبسوط، شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان،١٩٨٦ م.

٦٢ـ مجمع الزوائد، نور الدين الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٨٨ م.

٦٣ـ مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلي، انتشارات الرسول المصطفى ـ قم، الطبعة الأُولى، تصوير على طبعة المطبعة الحيدرية في النجف سنة ١٩٥٠م.

٦٤ـ مدينة المعاجز، هاشم البحراني، مطبعة بهمن قم ـ إيران، الطبعة الأُولى سنة ١٤١٣ هـ.

٦٥ـ معالم الزلفى في معارف النشأة الأُولى والأُخرى، هاشم البحراني، مؤسّسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم - إيران، ٢٠٠٣م.

٦٦ـ معاني الأخبار، محمد بن بابويه القمي، مؤسّسة النشر الإسلامي، إيران ـ قم، ١٩٩٩ م.

٦٧ـ معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، أبو القاسم الخوئي، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢ م.

٦٨ـ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

٦٩ـ معجم مصطلحات الحديث والدراية، محمد رضا النجاد، دار الحديث، ١٤٢٤هـ.

٧٠ـ معرفة علوم الحديث، الحاكم النيسابوري، دار الآفاق، بيروت - لبنان، ١٩٨٠ م.

٧١ـ مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهرآشوب، المطبعة الحيدرية، العراق ـ النجف، ١٩٥٦ م.

٧٢ـ المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

٧٣ـ مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت - لبنان.

٧٤ـ مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين، رجب البرسي، مؤسّسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٩ م.

٧٥ـ المصنف، عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي.

٧٦ـ المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار الساقي، بيروت - لبنان، ط٤، ٢٠٠١ م.

٧٧ـ مقدّمة ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٥ م.

٧٨ـ الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

- ن -

٧٩ـ نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي، حيدر حبّ الله، مؤسّسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٦م.

٨٠ـ نهاية الدراية، حسن الصدر، طبع إيران.

- هـ -

٨١ـ هوية التشيّع، أحمد الوائلي، دار الصفوة، بيروت - لبنان، ١٩٩٤م.

- و -

٨٢ـ وسائل الشيعة، انظر: تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة.

٨٣ـ وصول الأخيار إلى أُصول الأخبار، عبد الصمد الحارثي العاملي، مجمع الذخائر الإسلامية، ١٤٠١ هـ.

٨٤ـ وفيات الأعيان وأنباء آخر الزمان، ابن خلّكان، دار الثقافة، بيروت - لبنان.

المحتويات